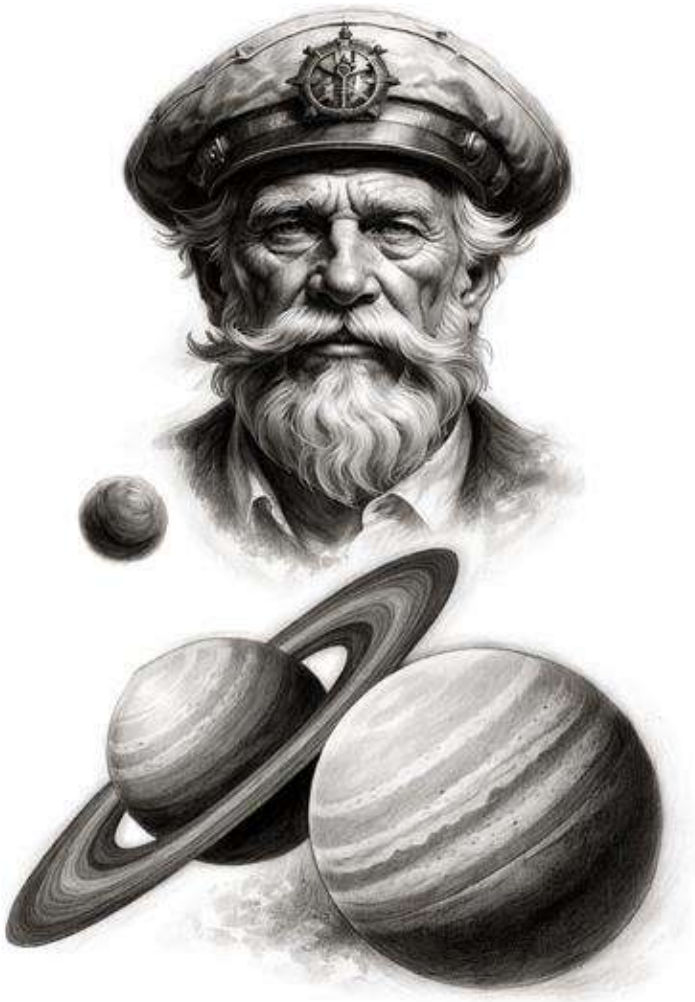
د. مورفين



رواية من أدب التشويق والخيال

د.غفار محمد

د. مورفين ...

الإهداء

إلى (((لمى))).

عندما تصل الكلمات إليك تقف عاجزة عن وصفك

فيصبح الصمت أبلغ من الكلام.

كيف لا وأنت:

نصف ابتسامتي عندما أضحك. وإحدى عيني عندما

أبكي.

د. مورفين ...

أنت هنا في عالم الخيال، وأي تشابه مع الواقع في كثير من الشخصيات والأماكن هو محض مصادفة.

د. مورفين ...

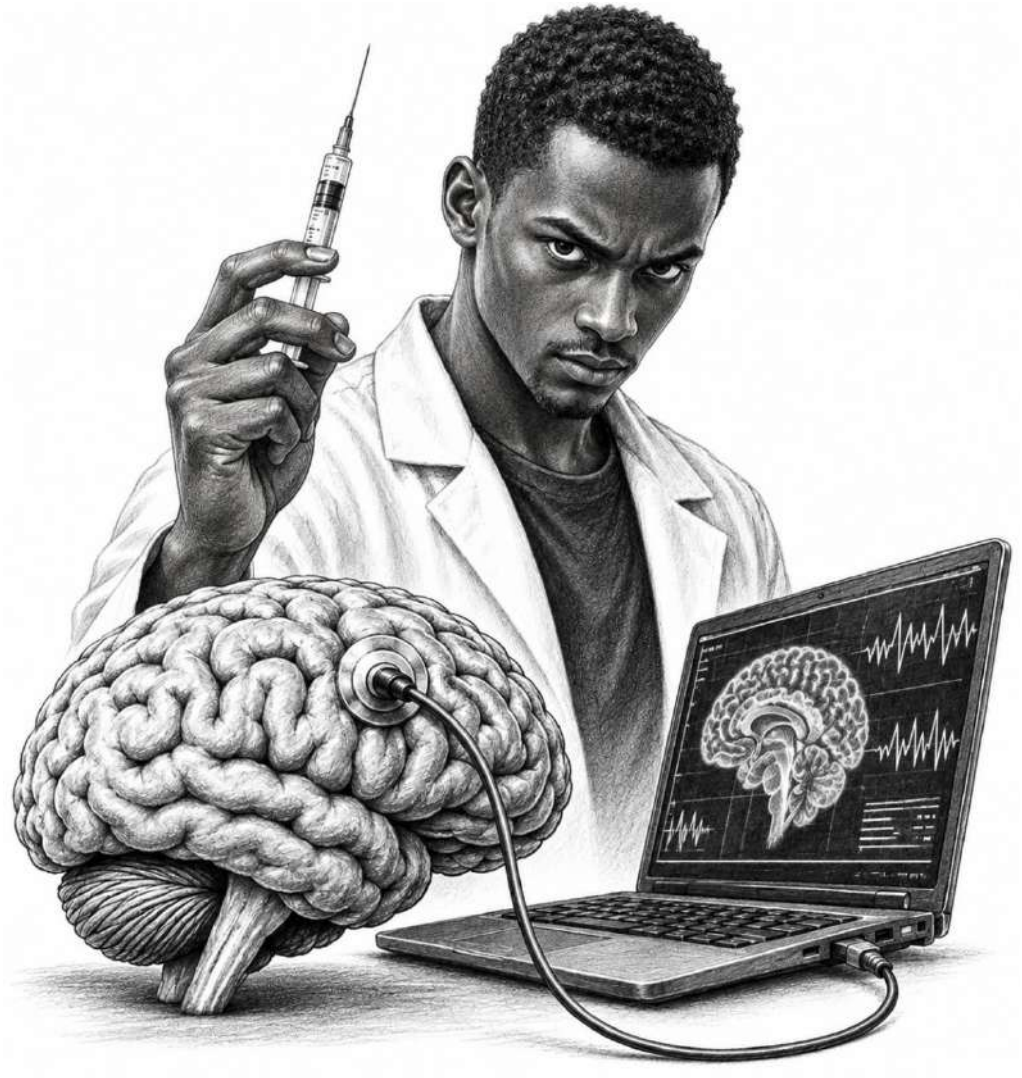
المحتويات:

1. الجزء الأول: الصندوق الأسود للعين
2. الجزء الثاني: سارقات الرمال يحيين الآمال
3. الجزء الثالث: سافانت
4. الجزء الرابع: هيكل أتاكاما
5. الجزء الخامس: لعنة الفودو

د. مورفين ...

الجزء الأول

(الصندوق الأسود للعين)



الفصل الأول

الولايات المتحدة الأمريكية

فلوريدا / ميامي

1999 م...

= أيها الطبيب... زد الجرعة أرجوك. الألم ينهش عظامي كما تفعل الذئاب بجسد نافق.

كان صوتها واهنًا، كأن كل كلمة تحفر طريقها من باطن العظم، من مناجم الألم السحيقة في جسدها.

رفع الطبيب عينيه إليها، وفيهما ندم صامت، ثم قال بصوت خافت يشبه الصلاة:

= سيدة **إساس**... هذه هي الجرعة القصوى، فإن زادت أكثر، لن تُسكن الألم بل ستُسكن قلبك إلى الأبد. فبعدها، قد تعجزين عن التنفّس.

أغمضت عينيها للحظة. بدا وكأنها تحصي السنوات التي نزفت منها بهدوء، ثم همست، كمن يعلن إفلاسه من الحياة:

= وهل التنفس نعمة حين يتحول إلى خنجر؟ الموت الآن أرحم من حالتي الراهنة الواقفة بحيرة بين حياة قاتلة وموت محيي. ارجوك اقتلني▪

كان **إدوارد**، الطبيب وصديق العائلة، يجلس قرب سريرها المنهك، ممسكًا بكفّها الباردة التي باتت تشبه ورقة شجر ذابلة في خريف لا ينتهي. همس وهو يشدّ على يدها برفقٍ أبويّ:

= لو لم أكن طبيبًا، لو لم أكن إنسانًا يؤمن بشيء... لفعلت، لكن لا القسم

الذي أقسمته يسمح، ولا القانون، ولا الدين، ولا قلبي الذي يعرفك منذ سنوات.

كانت إساس ترقد كما لو أنها قطعة من الزمن تتهيأ للغروب. في الثالثة والثلاثين من عمرها، ذات بشرةٍ سمراء تميل إلى الحنطة، وعيون بنيّة كأنها قُدّت من تربة أجدادها من الهنود الحمر. شعرها البني أصبح أشعثاً كأفكارها التي ضجّت بالموت. جسدها أشبه بظلّ هارب من الجسد، إذ لم يترك سرطان المبيض موضعًا إلا وغرس أنيابه فيه: الدماغ، الرئتان، العظام. لدرجة أصبحت أكثر هشاشة من فكرة... وأقرب إلى النهاية من أي طبيب أو دعاء.

إلى جوارها جلس صبيّ صغير، خبير بالحزن رغم حداثة سنّه:

(سبيروزار) ... ابنها الوحيد، تسعة أعوام من الطفولة المهشّمة، بعيون عسليّة فيها من الفقد أكثر مما فيها من البراءة وبشرة خلاسية. كانت نظراته مُبللة بالبكاء، لا تصدر صوتًا، لكنها تتكلم، تنادي، تتوسل إلى أي يد خفية في الكون أن تنتشل أمه من هذا الذبول القاسي.

اسم سبيروزار لم يُشتق من لغة ولا من كتاب. بل جاءها في منام... رجلٌ مهيب، ظهر لها في ليلٍ عميق، وقال لها:

(سيأتيك **ابن بعد عام ... واسمه سبيروزار**)

فجأة حملت. وعندما وُلد، سمّته كما قيل لها. قالوا إنه اسم بلا أصل ونصحوها أن تغيره، لكنها كانت ترى فيه مفتاحًا لقدرٍ خفيّ، لسرّ لم يُفَك بعد.

والده، **سانشيز فازغويز**، عامل دهان افريقي فقير، من **بورتوريكو**، سقط من الطابق السابع وهو يلوّن جدران الغرباء كي يمنح شيئاً من اللون لحياة عائلته الرمادية الباهتة. مات سريعًا، بلا وداع، تاركًا إيستاس لتخوض وحدها معركة الأمومة والفقر والمرض. كانت تقاتل الحياة، لا لتربح، بل لتبقي صغيرها على قيد الحلم.

في تلك الليلة، ظل الصبي صامتًا، كأن البكاء لا يجيد التعبير عن قسوة الموقف.

بعد ثلاثة أسابيع من العذاب الصامت، خمدت أنفاس إيستاس.

لم تكن هناك موسيقى وداع، ولا نور ساطع في نهاية النفق كما شعر سبيروزار.

كانت مجرد أنفاس متقطعة، ثم لا شيء.

تُرك سبيروزار يتيمًا بلا عائلة وإرثه الوحيد منها اسم بلا معنى، كريشة في عاصفة، وكأنّ الحياة لفظته كما لفظت أمه.

كفله بعدها عمّه **رودريغيز**، ذلك الإنسان الذي قد لا تلمح في عيونه وهج الحنان المعتاد، لكنه يحمل في قلبه ودًّا هادئًا كالمدفأة في ليالي الشتاء، احتضنه بصمت نبيل، وكأن قلبه يهمس له: (لن تُترك وحيدًا مهما ظننتَ ذلك).

الرواية لم تنتهِ هنا.

لأن اسم **سبيروزار** لم يكن حلمًا عابرًا، بل نبوءة مغلّفة بالأسى، فقد وُلد لأمرٍ لم يُفك رمزه بعد...

*****

فلوريدا / ميامي

بعد مرور 30 سنة. 2029م...

= حضرة الطبيب سبيروزار، المريضة **باربرا** في الغرفة السابعة تريد التحدث إليك.

= بشأن ماذا؟

= لقد بلغت مضخة المسكن الجرعة القصوى وما يزال ألمها مبرحاً.

= حسنا أنا في طريقي إليها.

أنهى سبيروزار عمله المكتبي بسرعة ثم توجه إلى الغرفة السابعة ودخلها مغلقاً الباب خلفه بهدوء يحترم إنسانية اللحظة.

= سيدة باربرا، ما الذي يمكنني فعله من أجلك؟

نطقت بصوت واهن يكاد لا يسمع.

= الألم غير قابل للاحتمال إطلاقاً أيها الطبيب، هلّا رفعت لي جرعة المخدر ...؟

= إن ذلك قد يقتلك سيدة باربرا.

= أعلم ذلك، وأنا موافقة، لقد أنهكني سرطان الثدي تماما وأريد أن أرتاح للأبد.

صمتت للحظات وكأنها تستجمع ما بقي من طاقة في جسدها المستسلم لتتلو كلماتها الأخيرة.

= أنت أفضل طبيب أورام عرفته، ولابد أن لك طرقك الخاصة لمثل حالتي الراهنة، لقد أخبرتني ألا أمل من شفائي في هذه المرحلة وبقي لدي أيام إلى أسابيع قليلة لأعيشها، أليس كذلك؟

= بلى، للأسف هذا هو توصيف حالتك الطبية تماماً.

= إذا فأنا مستعدة للموت.

= وماذا بخصوص عائلتك؟

= هذا قراري الشخصي أيها الطبيب، والجميع سيتفهم ذلك.

الطبيب سبيروزار شخص ملحد ولا يؤمن بوجود إله لذا فلا عقيدة تمنعه من **القتل الرحيم**، إذ أن قناعته الكاملة تقر بحق المريض المتألم الميؤوس من حالته في إنهاء حياته، ولكن القتل الرحيم غير قانوني في **فلوريدا**.

= حسنا سيدة باربرا، أنا أتفهم وضعك تماماً، لكن القتل الرحيم لمريض السرطان أمر غير قانوني في ولايتنا.

صمت قليلاً ثم أضاف.

= انظري إلى هذه الزجاجة سيدة باربرا.

أخرج من جيبه زجاجةً مكتوب عليها (مورفين) مع محقن بلاستيك.

= هذا هو المسكن الأقوى الأشهر الذي نمنحه لمريض السرطان عبر المحقن في المنزل أو عبر مضخة في المشفى كهذه.

وأشار إلى المضخة المثبتة على حامل المحلول المغذي.

= إن الجرعة المحددة من المورفين تسكن الألم، أما الجرعة الزائدة منه عبر الوريد كأن تؤخذ هذه الزجاجة كاملةً عبر القسطرة التي في يدك، ستسبب غالباً تثبيطاً تنفسياً قوياً ينهي حياتك، فكوني حذرةً سيدة باربرا، سأخرجك الآن إلى منزلك، وعليك بطريقة ما أن تحصلي على المورفين لمتابعة تسكين ألمك في المنزل، فهنا في المشفى المكان غير مناسب أبداً لذلك.

وضع سبيروزار خلسة الزجاجة والمحقن في حقيبة باربرا على الطاولة أمام مرآها وكأنه يمنحها الهدية الأخيرة لها في الحياة، الخلاص، ثم توجه للخروج. سمع صوتها من الخلف.

= شكراً لك حضرة الطبيب، أرجو لك حياةً مفعمةً بالسلام، تماماً كالسلام الذي ستمنحني إياه هذه الحقنة في منزلي.

لم تكن هذه المرة الأولى التي يساعد فيها سبيروزار مريض سرطان على إنهاء حياته، بل هنالك عشرات الحالات من قبل وكثير منها فعله بيده. فقد درس الطب بالأساس وتخصص في اختصاص الأورام كرد فعل على الحالة الصحية لوالدته وتجربتها الخاصة مع السرطان وهو صغير، فصورتها الصارخة ألماً على فراشها الصغير لا تغادر خياله وتستعمر ذاكرته متجذرة بعنف فيها، لذا قرر على خلفية كل ذلك أن يساعد كل مريض سرطان بمثل حالتها على وضع حد لآلامه من خلال **القتل الرحيم** الذي يؤمن به كلياً، في حال فشلت بقية الوسائل الطبية في علاجه أو إراحته

بالحديث عن حياة سبيروزار الشخصية بعد أن كبر وغدا طبيباً ناجحاً، فهو عازب، مقلّ بأصدقائه، وفي عطل نهاية الأسبوع اعتاد الذهاب إلى مرسى

قوارب ميامي حيث يمتلك هنالك يختاً صغيراً اشتراه منذ عام في مزاد خيري لدعم مرضى السرطان، ويقوم بالإبحار به في تلك العطل.

وفي عطلة ذاك الأسبوع ذهب كعادته للإبحار بعد أن اشترى وجبة غدائه في طريقه.

جلس في قمرة القيادة يتناول غداءه وسط أمواج البحر التي تهدهد اليخت.

لاحظ فجأة أن زجاج القمرة أمامه يعكس الساعة المعلقة على الجدار وراءه بحيث **بدت عقاربها تمشي بالاتجاه المعاكس**. فكر بينه وبين نفسه، ماذا لو أن الزمن مضى بالاتجاه المعاكس كأن تكون النهاية هي البداية، والبداية هي النهاية، كيف سيكون شكل الحياة عندها **؟!**

هز رأسه وابتسم، إنه سؤال لا يمكن لأحد غالباً الإجابة عنه فهو أعقد من الخيال السريالي نفسه كما يظنّ.

تابع تناول غدائه، وبعد الانتهاء منه أخرج كتاباً من مكتبته الصغيرة في القمرة وشرع يقرأه بشغف، كان يتمحور حول فكرة واحدة وهي **الوحدة** ونوعيها الوحدة **الاجتماعية** بالابتعاد عن الآخرين، والوحدة **النفسية** أي شعورك بأنك وحيد وأنت محاط بالآخرين من حولك، والكتاب يقارن بين هذين الشكلين ويحللهما نفسياً، كان كتاباً ممتعاً بحق.

هكذا كانت حياة سبيروزار تمضي بروتين متشابه بين عمله في المشفى، والإبحار بيخته في عطلة نهاية الأسبوع، مع بعض الزيارات للأصدقاء. وما كان يكسر هذا الروتين هي اللحظات التي كان يساعد فيها مرضى السرطان الانتهائي على التخلص النهائي من آلامهم المبرحة عبر القتل الرحيم، وبالنسبة سبيروزار كانت هذه هي اللحظات الأكثر انتصاراً ومعنى في حياته. لحظات مفعمة بالرضا والشعور بالانتقام من القدر أحمق الخطى كما يصفه هو.

*****

بعد مضي حوالي الشهر زار رجل في منتصف العمر بملامح ودودة للغاية سبيروزار في غرفته الخاصة في قسم الأورام في المشفى.

= حضرة الطبيب سبيروزار، كيف حالك؟ أنا **كارل** زوج مريضتك السابقة باربرا.

= أهلا سيد كارل، أنا بخير، كيف حالك أنت وزوجتك؟ كيف هو كفاحها ضد المرض اللعين؟

= أنا بخير، أما باربرا فقد توفيت منذ قرابة الشهر، وانتهت معركتها القاسية أخيراً مع السرطان.

= أنا شديد الأسف لخسارتك سيد كارل.

= لا تأسف حضرة الطبيب، أنا هنا لأشكرك على المعروف الذي قدمته لباربرا والذي أنهى ألمها العميق ومعاناتها الهائلة.

أومأ سبيروزار برأسه دون أن يرد.

= ولكن هنالك سؤال أود طرحه عليك حضرة الطبيب.

= تفضل.

= لدي صديق مقرب مني يدعى **ماركيز** مصاب بدوره بسرطان الكولون، وهو في مراحله المتأخرة بحسب تقارير جميع الأطباء وقد أعطى السرطان نقائله إلى أعضاء شتى في جسمه. أخبره الأطباء ألا فائدة من العلاج الكيماوي في هذه المرحلة وأنها مسألة أيام لا أكثر، وصديقي بحالة يرثى لها من الألم واليأس فهو يعيش لوحده في منزله وأنا معينه الوحيد في معركته الراهنة مع السرطان. للأسف وصل الألم به لمرحلة يقول فيها بأنه مستعد تماماً للموت كحل نهائي لمعاناته، فهل هنالك من حل لديك كطبيب أورام لتخفيف تلك المأساة التي يعيشها، كما فعلت مع باربرا مثلاً **!!**

فكر سبيروزار قليلاً وهو يتأمل ملامح كارل الطيبة ويحاكم في عقله نبرته البريئة الصادقة، ثم أخرج أخيراً من درج مكتبه زجاجة مورفين، وأعاد جملته المعتادة التي يلقيها على كل مريض سرطان يرغب بالموت الرحيم
= هذا هو المسكن الأشهر المتوفر لدينا لآلام مرضى السرطان سيد كارل، لكنه إن أخذ عبر الوريد بجرعة زائدة كهذه الزجاجة كاملة فقد يسبب تثبيطاً

تنفسياً يقتل المريض، فكن حذراً.

= شكراً حضرة الطبيب، لكن هنالك مشكلة أخرى.

= وما هي؟

= باربرا هي التي قامت بنفسها بحقن المورفين في قسطرتها، فأنا لم أمتلك الشجاعة لفعل ذلك، وصديقي كحالتي لا يمتلك الجرأة لحقن نفسه أيضاً، فهل هنالك من أحد تعرفه مستعد لفعل ذلك، إنه عمل إنساني أيها الطبيب.

صمت سبيروزار للحظات أخرى ثم قال.

= وأين سيأخذ الحقنة؟

= في منزله، سأنتظر الشخص المحدد هنالك وأقوده إلى غرفة ماركيز، ثم سأغادر المنزل.

سبيروزار شخص ذكي وحذر للغاية في حياته، لكن عندما تصل الأمور إلى ألم السرطان الانتهائي تتغلب عاطفته في كثير من الأحيان على حذره، فهو يتذكر والدته ومعاناتها في أيامها الأخيرة، ذاك السبب الذي جعله يصبح طبيب أورام، كما أن مظهر السيد كارل كان يوحي بالطيبة والبساطة، لذا فكر قليلاً ثم قال.

= حسنا سيد كارل، أعطني عنوان السيد ماركيز وسأمر مساءً إلى منزله لتقييم حالته.

= شكراً لك حضرة الطبيب، أنت إنسان نبيل مفعم بالإنسانية.

*****

في المساء وصل سبيروزار إلى العنوان المحدد وطرق الباب الذي بدا صداه أقرب لحشرجة الرجل المحتضر في الداخل، مرت لحظات ثم فتح كارل.

= أهلا حضرة الطبيب، تفضل بالدخول.

دخل كارل وتبعه سبيروزار في الرواق حتى بلغا غرفة جانبية مغلقة الباب،

فتحه كارل ودخلا، ليجد مريض نحيل واهن ممدد على فراشه.

= هذا هو ماركيز حضرة الطبيب.

= سيد ماركيز، أنا الطبيب سبيروزار وجئت لأطمئن عليك، كيف تشعر الآن؟

أجاب ماركيز بصوت واهن مرتعش تخاله يصدر من قبره لا من حنجرته

= بسوء حضرة الطبيب، إنه ألم هائل لا يمكن احتماله، ولم يعد أمامي من خيار في هذه الحياة سوى الموت نفسه.

التفت الطبيب سبيروزار إلى كارل الذي فهم نظرته.

= سـأغادر المنزل الآن حضرة الطبيب.

= هذا سيكون أفضل لماركيز.

غادر كارل في حين أخرج سبيروزار زجاجة المورفين وأخذ يعبئها كاملة في الحقنة وهو يفكر بينه وبين نفسه، إنه فعل قام به مرات كثيرة من قبل، وباعتبار أنه لا يوجد شهود على فعلته وأن السيد خوسيه معرض للموت في أي لحظة بسبب السرطان الذي يعاني منه، إذن فلا خشية عليه من الإقدام على القتل الرحيم له فلا دليل يدينه أبداً، ثم تقدم من السيد خوسيه وقال.

= إذن فأنت مستعد للموت سيد ماركيز كما فعلت السيدة باربرا زوجة السيد كارل.

رد ماركيز بصوته الخافت المتألم والمتعب.

= كل الاستعداد أيها الطبيب الرحيم.

= سأحقنك الآن بالإبرة سيد ماركيز. إبرة ستتكفل بمنحك الراحة الأبدية كما منحته لباربرا ولكثيرين غيرها من قبل، وإن كان هنالك حياة أخرى بعد الموت وانا أشك بذلك، فأرسل تحياتي لأمي وأخبرها أنني شديد الأسف لأنني عجزت عن منحها السلام عندما رجته. لكنني من أجلها منحته للعشرات من مرضى السرطان كحالك سيد خوسيه وكما فعلت مع باربرا أيضاً. اطمئن تماماً فستنتهي معاناتك الهائلة خلال لحظات.

لم يكد سبيروزار ينهي كلامه حتى دفع الباب بعنف واقتحم الغرفة شخصان بزي الشرطة الرسمي.

= سيد سبيروزار، أنت رهن الاعتقال بتهم القتل العمد سابقاً ومحاولة القتل الآن، يمكنك الالتزام بالصمت حتى توكل محامياً خاصاً بك، فكل الكلام الذي ستقوله الآن يمكن أن يستخدم ضدك في المحكمة لاحقاً.

ألقى الشرطيان القبض عليه واقتاداه للخارج حيث كان كارل يقف في الرواق ينظر إليه بوجه آخر كان متخفياً تحت قناع الطيبة السابق ثم صرخ في وجهه بحقد وشماتة.

= هذا جزاء فعلتك وقتلك لباربرا أيها المجرم غريب الأطوار، من أنت كي تضع نفسك مكان الله وتنتزع أرواح الآخرين ...؟

كان سبيروزار مذهولاً بالكامل وهو ينظر إلى وجه كارل وذهنه في مكان آخر تماماً، حيث قبو منزله الذي يحتوي ثلاجة مملوءة بعشرات زجاجات المورفين مكسيكية الصنع التي حصل عليها بطرق غير شرعية، ولابد أن تعثر عليها الشرطة عندما تفتش منزله.

ما حدث أن باربرا كان لديها عادة في كتابة مذكراتها اليومية بشكل روتيني، و قد ذكرت فيها بالتفصيل الحوار الذي دار بينها و بين سبيروزار في المشفى و كيف منحها عبوة المورفين و شرح لها كيف تستخدمه لتقتل نفسها، لذا بعد وفاتها بأيام و بسبب طريقة وفاتها المنتحرة بوجود العبوة فارغة بجوار جثتها، فإنّ زوجها كارل المتدين المتطرف الذي كان يتشبث بزوجته في الحياة حتى آخر أمل ممكن منتظراً معجزة ربانية، بحث على أي دليل يقوده إلى الشخص الذي زودها بالمورفين حتى عثر على تلك المذكرات، فاستشاط غضباً و استشار محاميه الذي نصحه باللجوء إلى الشرطة و التعاون معها، و بالفعل وضعت الشرطة تلك الخطة المحكمة معه على الإيقاع بسبيروزار بعد أن اشتبهت بضلوعه بعشرات حالات القتل الرحيم سابقاً، و كانت الحركة الأخيرة التي ضمنت نجاح القصة هي تخلي سبيروزار عن حذره و انتصار عاطفته تجاه تجربة والدته على عقله.

فماركيز لم يكن مريض سرطان بالأساس، بل شخص عجوز نحيل أجاد تمثيل دوره بإتقان.

جلس سبيروزار قبالة محاميه الخاص، **ألفريد**، الذي بدا كظلٍ عاجزٍ أمام نور الحقيقة الساطع؛ لم يكن بوسعه أن يفعل شيئًا يُذكر، فالأدلة كانت ثقيلة كالصخر، واضحة كالشمس في كبد السماء. من مذكرات المريضة باربرا، إلى عشرات زجاجات المورفين المكسيكية التي وُجدت مخبأة في قبو منزل موكله، وصولًا إلى القبض عليه متلبسًا في لحظةٍ قاتمةٍ وهو ينهي حياة المريض خوسيه، موثقًا اعترافاته بالصوت والصورة، دون مواربة ولا تردد

كانت المحاكمة أقرب إلى إجراءٍ شكلي، فالكلمات لم تعد ذات جدوى، والعدالة لا تحتاج إلى بلاغة حين تكون الحقيقة بهذا الجلاء. لم يكن لألفريد أن يغير مصير موكله، ولا القانون في ولايتهم يسمح بتأويلات في قضايا القتل الرحيم، مهما كانت النوايا متوشحة بالرحمة.

وصدر الحكم أخيرًا: **عشر سنوات** من السجن، يتبعها دفع تعويض مالي للسيد كارل، ذي الوجه المتجهم الذي لم يطرف له جفن طوال الجلسات.

نُقل سبيروزار إلى **سجن ميامي المركزي**، تاركًا خلفه مهنة الطب التي كانت يومًا معطف شرفه الأبيض، ليواجه مصيرًا غريبًا عنه: حياة السجين

هناك، في الزنزانة الباردة، لم يعد سبيروزار طبيبًا، بل رقمًا في ملف، رجلًا تُطوى هويته السابقة تحت سياط الزمن، ليبدأ رحلة في عتمة المجهول، حيث لا رحمة ولا معنى للضمير، وحيث الحياة ستكون قاسية على رجلٍ مثله... رجلٍ اعتقد يومًا أن في الموت خلاصًا.

*****

الفصل الثاني

الولايات المتحدة الأمريكية

لويزيانا / نيو أورليانز

في نفس الفترة ...

انطلقت سيارة الأودي كالسهم بين أزقة المدينة، تخترق صخب الحياة على وقع أنغام أغنية (معاً للأبد) للمغني الشهير **غاري ستيفينز**، تتردد أصداؤها من نوافذ السيارة المفتوحة. يقودها ماكس، شاب أمريكي أفريقي في الثامنة عشرة من عمره، مراهق يعج بالتمرد، يزين أذنه بحلق ذهبي يلمع تشبهاً بنجمه المحبوب غاري، وتعبيرًا عن هويته المتمردة. استعان بسيارة صديقه الثري سام ليصل إلى موعده مع يانا، الفتاة التي تجلس إلى جواره، تشاركه الغناء والطيش، تحمل في روحها اندفاعًا لا يقاوم، كأنهما يختبران معًا طعم الحياة على حافة الجنون.

صرخ ماكس عالياً.

= يا سلام يا غاري، أنت الأفضل دوماً.

صرخت يانا بدورها.

= بلى، معاً للأبد حبيبي، ما أجمل التسكع بالسيارة، متى سنحصل على سيارتنا الخاصة ماكس؟

ابتسم لها ماكس.

= ليس في القريب العاجل حبيبتي، أنت تعرفين الظروف، ربما لاحقا في المستقبل بعد أن أنهي الدراسة وأجد عملاً ما.

= دائماً في المستقبل! أريد أن أعيش شبابي معك الآن ماكس وليس لاحقاً ...!

في مكان بعيد، وعلى مقعد السائق داخل سيارة الشرطة، جلس **ديف آدامز**، رجل في الرابعة والأربعين من عمره، أمريكي من أصول أفريقية، تحمل جبينه ندبة عميقة فوق عينه اليمنى، شاهدةً على حادثة مهنية ماضية لا

تُنسى. كان ينهل رشفات من قهوته المرة بينما تتراقص عينيه بين شاشة هاتفه المحمول، يتابع آخر الأخبار بخطى هادئة.

إلى جانبه، كان **زاك أوفالي**، الأربعيني الأمريكي من أصل إيرلندي، يدخن سيجارته ببطء، وشعره المائل إلى الحمرة يلمع بخفة تحت أضواء المدينة. على رقبته، نقش غريب يلفت الانتباه: كلمة (بوكر) مكتوبة بالأحرف الصينية.

كان ديف وزاك صديقين مقربين، ربطتهما سنوات من الولاء المتبادل والمواقف التي شهدت على إنقاذ كل منهما الآخر من براثن الموت مرات لا تُحصى. ديف، الرجل الصارم، المتزوج من **سيلين**، مدرسة الموسيقى الفرنسية الأصل، وأب لابنة في السادسة عشرة تُدعى **يانا** — صديقة ماكس — وابن صغير اسمه **لويس**.

أما زاك، فكان يعشق حريته، حياة العزوبية التي تدور حول تدخينه المتواصل وحبه العميق للعبة البوكر، وهو الآن عائد من إجازة قضى معظمها في أضواء لاس فيغاس المتلألئة، حاملًا بين طيات قلبه روحه المرحة والباحثة عن الحياة بكل ما فيها.

= ما هي آخر الأخبارعلى هاتفك يا ديف؟

= لفت نظري من بين أخبار اليوم الكثيرة خبران مهمان فقط، أحدهما محلي والآخر خارج الولاية.

= وهما؟

= الخبر المحلي عن رجل الأعمال الصاعد **بنجامين فرانك** مؤسس شركة غوليازا للمقاولات حديثة العهد هنا في نيو أورليانز.

= أليس هو نفسه الذي تعرض لمحاولة السرقة منذ أسبوعين.

= هو بعينه، وقد كان زميلاً لي في المدرسة لمدة عشرة أعوام، لقد فشلت محاولة السرقة تلك بفضل أجهزة الإنذار والحماية المتقدمة في منزله ولكن المجرم لاذ بالفرار دون القبض عليه ولم يعثر عليه بعدها، والدليل الوحيد وراءه أنه كان يلبس قناعاً أثناء محاولة السرقة.

= وما الخبر الجديد عنه؟

= لقد عقد أمس صفقة بقيمة **50** مليون دولار والتي تعتبر صفقة ضخمة بالنسبة لتاريخ شركته الحديث!

= يا له من مبلغ ضخم بالفعل، لكننا اعتدنا على هذه الأخبار منذ زمن، مجرد رجل ناجح محظوظ آخر يضاف إلى قائمة الأثرياء، فما هو الخبر الثاني الخارجي؟

= الخبر الثاني غريب بحقّ، وسيشكل على ما أظن قفزة نوعية في تاريخ الطب، لاسيما الطب الشرعي وعلم تحليل الجريمة.

اعتدل زاك في وضعيته وتكلم بجدية.

= لقد أثرت فضولي ديف، ما هو هذا الخبر؟

= إنه تصريح لطبيب يدعى **كريستوفر غوميز** من **هيوستن / تكساس** يؤكد فيه أنه بات قريباً جداً من إنجاز اختراع هام في مجال الطب يحمل اسم **الصندوق الأسود للعين**.

= اسم غريب !!

= أجل وهو اسم على مسمى تماماً، فهو يشبه الصندوق الأسود للطائرة الذي يسجل آخر اللحظات قبل وقوع الكوارث، كذلك هذا الاختراع يشمل على إمكانية التحليل التكنولوجي لدماغ المتوفي وبالتحديد ما يدعى **بالفص القفوي** منه المسؤول عن الرؤية ليظهر على شاشة الحاسوب على شكل صورة لآخر ما رآه المتوفي قبل موته تماماً.

قوس زاك حاجبيه بدهشة.

= هذا مذهل بالفعل !! لاسيما في مجال عملنا كشرطة، فقد يكون الدليل الدامغ على شخصية المجرم القاتل.

= تماماً، هذا ما يذكره المقال، لكن المختصين منقسمون في تقييمه، فبعضهم من يشاطرك الرأي كاختراع غاية في الأهمية بل أن بعضهم يذهب أبعد من ذلك إلى أنه اختراع يستحق جائزة نوبل، لكن الأغلبية يقولون إنه اختراع لا أهمية حقيقية منه واستخداماته محدودة للغاية!

= ما هذا الكلام الفارغ، إن هذا الاختراع برأيي قنبلة علمية ويستحق إن نجح بالفعل جائزة نوبل وبكل بجدارة **!!**

ابتسم له ديف.

= إن كلامك هذا لن يعجب كثيراً من العلماء، هذه أخباري كلها على كل حال، فماذا عن أخبارك أنت؟ كيف كانت إجازتك في **لاس فيغاس** الأسبوع المنصرم، هذا أول يوم لك بعد الإجازة ولم تتطرق للموضوع أبداً، لقد أخبرتني قبل سفرك بكل ثقة أنك ستعود ثرياً من هنالك، فهل حدث ذلك؟ إن تعابير وجهك وعدم تطرقك للموضوع تقول عكس ذلك؟

وضحك ديف، فابتسم له زاك.

= صدقت، لم يحالفني الحظ نوعاً ما، لذا لم أربح سوى الشيء القليل، إنه سيحسن أوضاعي لا شك، لكنه لن يجعلني ثرياً بالتأكيد، ومن يدري ربما هذا هو الأفضل، فكما يقولون **الثروة الطارئة لعنة على صاحبها عادةً**، على كل حال هل أنت منشغل مساءاً أم يمكنك الانضمام إلى مجموعتنا للعب **البوكر** في قبو منزلي.

= لا أستطيع اليوم أبداً فهو عيد ميلاد ابني لويس، وقد دعا جميع أصدقائه من المدرسة والحي، وعليّ التواجد بالطبع، ربما غداً.

= بالطبع يجب أن تتواجد، بلغه تحياتي وتمنياتي له بعام قادم سعيد عليه، سأؤجل المشروع إلى الغد إذن.

= سأبلغه ذلك، اتفقنا، سنسهر غداً في منزلك.

= وليكن موعدنا على الساعة الثامنة مساءً.

لم يكد زاك ينهي جملته حتى أعطى جهازا التترا على خصري ديف وزاك تعليمات بالتوجه إلى مكان مجاور في محيط المدينة عند إحداثيات معينة حيث يتعرض متجر ضخم لعملية سرقة من قبل شابين ملثمين.

انطلقت سيارة الشرطة يقودها ديف وزاك بجانبه تلتهم الطرقات حتى وصلت إلى المتجر بعد خمس دقائق.

كان الارتباك واضحاً في الشارع أمام المتجر وكذلك داخل المتجر، وقد احتجز الشابان بعض رواد المتجر كرهائن بعد أن علموا بوصول الشرطة السريع إلى المكان.

قيم ديف الوضع ثم طلب عبر التترا دعماً من المركز، اتفق مع زاك على خطة بسيطة وهي التفاف زاك إلى الباب الخلفي للمتجر ومحاولة الدخول وتقييم الوضع أكثر، في حين يلهي هو السارقين عبر مفاوضتهما عبر مكبر الصوت.

التف زاك مباشرةً، في حين علا صوت ديف عبر مكبر الصوت.

= اخرجا حالاً وسلما نفسيكما، المتجر محاصر بالكامل ولا مجال للهرب

كان السارقان شابين صغيرين بالعمر في منتصف العشرينات، يضعان قناعين والتوتر بادٍ عليهما، وقد أمسك أحدهما بأحد الرهائن وصوب مسدسه إلى رأسه، في حين خرجت رهينة أخرى من باب المتجر حتى بلغت سيارة الشرطة.

= السارقان يقولان إنهما لن يترددا في قتل جميع الرهائن إن لم تغادر الشرطة في الحال.

قبل أن يرد ديف عبر مكبر الصوت تردد في الفضاء دوي عدة طلقات نارية وعلت أصوات الصراخ في المتجر. ثم خرج الرهائن جميعاً دفعةً واحدةً بسرعة، وكلّ يروي القصة على طريقته.

دخل ديف إلى المتجر، كان زاك يبتسم بطريقة لم تخف توتره.

= ما الذي حدث؟ لماذا أطلقت النار بهذه السرعة؟ إنها ليست عادتك؟

= لقد رآني أحد السارقين وأطلق عليّ الرصاص، فبادلته برصاصة في قدمه، أما الثاني فأطلق عليّ الرصاص ولم يصبني ثم لاذ بالفرار من الباب الخلفي، هذا ما حدث.

هز ديف رأسه.

= حسناً، إن كنت في وضعية الدفاع عن النفس فلا بأس، وهل طلبت

الإسعاف؟

= بالطبع، إنهم في طريقهم إلى هنا.

اقترب ديف من الشاب المصاب وكان يضع قناعاً فنزعه عنه وكان في حالة مفرطة من التوتر والقلق.

= من هو شريكك الذي هرب؟ أجب بسرعة.

= إنه يدعى **جيمس**.

= وكيف هو شكله؟

= أمريكي إفريقي نحيل يضع حلقاً ذهبياً في أذنيه وقناعاً شبيهاً بقناعي.

= وإلى أين يمكن أن يهرب؟

= لا أدري بالضبط، فهو هارب من منزله وينام في الشوارع والحدائق ويعيش من خلال السرقات.

= سنرى بشأن ذلك لاحقاً.

خرج ديف وزاك من المتجر.

= ما هذاك يا زاك؟ إن وضع حلق في الأذن أصبح موضة منتشرة بين الشباب بشكل غريب، كذلك استخدام الأقنعة المعدلة للصوت بين المجرمين

= بالفعل، شباب اليوم يتشبهون كثيرًا بالمغني الشهير غاري ستيفينز، المعروف بلقب العقرب، ذلك الأمريكي الأفريقي في أواخر العشرينات، الذي يزين أذنه بحلق ذهبي ويملك سحرًا يأسر قلوب الفتيات، حتى أصبح قدوة ومثالًا يحتذى به لدى كثير من المراهقين، لا سيما من أبناء مجتمعه. لقد جعل من ذلك الحلق موضة تنتشر بينهم بسرعة، تمامًا كما حدث مع الأقنعة الغامضة التي تم تصنيعها قبل عامين. فالقناع الرمادي بالكامل، يحمل هالة من الهيبة والغموض، ويثير الخوف والرهبة بصمته ونبرته العميقة، كأنه صوت من عالم آخر. لذا لم يكن غريبًا أن تغزو هذه الأقنعة الأسواق فجأة، وتنتشر بين كل الطبقات والمناسبات، لا سيما في أوساط المجرمين، إذ أنها تحجب هويتين في آنٍ واحد: بصمة الوجه وبصمة

الصوت.

= محقّ، إنه اختراع يحمل في طياته خطرًا كبيراً لا يستهان به.

*****

في مساءٍ تنفّسَ السكون على مهل، أضيء منزل ديف آدامز بأنفاس الفرح، وامتزج دفء الأنوار بصوت ضحكات العائلة وأهازيج الصغار. كان ذلك اليوم عيد ميلاد لويس، الطفل الذي لا يزال يحمل في عينيه صورة أبيه كبطل خارق يرتدي زيّ الشرطة بدلًا من الرداء، ويحمل شارةً لا تطلق رصاصًا بل تطلق الأمان.

وقف ديف أمام ابنه، يحمل صندوقًا صغيرًا بدا في عيني الطفل ككنز لا يُقدّر بثمن. وما إن فتحه حتى انفرجت ملامحه بدهشة طفولية، فقد وجد بين طيّاته مسدسًا مزيّفًا صنع بإتقانٍ يكاد يُخدع به حتى العارفون، إلى جانب شارة شرطة تلمع كأنها حقيقية، وجهاز تترا يشبه الذي يحمله الكبار في أفلام الجرائم.

احتضن لويس والده كما لو كان يمسك بالحلم نفسه، ثم همس من دون كلام: (سأكون مثلك... حين أكبر)

وفي الليلة التالية، تغيّر المشهد من بهجة الطفولة إلى رفقة الكبار. اجتمع الأصدقاء القدماء في قبو زاك، المكان الذي يشبهه تمامًا: عتيق الطابع، مفرط في الرفاهية، ممتلئ بألعاب الرجال الذين لم يكبروا تمامًا.

تحلّق **ديف، زاك، جورج، مات، خواكيم، وأندريه** حول طاولة البوكر، بطقوسهم التي لا تتغير منذ سنوات: أوراق، نظرات، كؤوس البيرة، أسرار صغيرة، وضحكات كبيرة.

لكن الحظ، كعادته، لم يكن ضيفًا لطيفًا على زاك تلك الليلة. فمع كل جولة خسرها، كان يزداد عبوسًا خفيفًا يليق بشخصٍ يألف الخسارة كما يألف السيجارة.

قال له ديف، وهو يرمقه بنظرةٍ مشاكسة:

= ما زلت تخسر، يا زاك !!. أظن أن رحلتك إلى لاس فيغاس لم تعلمك

كيف تخادع حول جودة أوراقك في البوكر، فعيناك تصرخان بالحقيقة كل مرة تمسك فيها بالورق.

قهقه خواكيم وأضاف:

= وعليك أن تُبدل الوشم على رقبتك من كلمة بوكر إلى صورة نظارات فحتى أوراقك تنعكس على نظاراتك، فنفوز عليك بلا جهد وبلا حظ !!

ضحك الجميع، وضحك زاك أيضًا، ضحكة فيها من الحكمة بقدر ما فيها من اللامبالاة، كمن اعتاد أن يخسر المال ليكسب اللحظة.

ثم انتقلوا إلى طاولة البلياردو. فقد كان قبو زاك كأنه نادٍ سريّ للذكريات، بجدرانه المعتمة، وطاولة خضراء تتوسط الفضاء، تحرسها كرات من العاج وصدى صداقتهم القديمة.

وفي خلفية هذا المشهد، عزفت الحياة نغمتها المعتادة كحكمة لا تشيخ: أن نكبر قليلًا كل يوم، دون أن نفقد قدرتنا على اللعب، والضحك، والحلم.

*****

الولايات المتحدة الأمريكية

تكساس / هيوستن

في نفس الفترة.

في زاوية مختبر يعجّ بالأجهزة والأسلاك المتشابكة كأعصاب عقلٍ خارق، كان الدكتور **كريستوفر غوميز**، ذو الثمانية والخمسين عامًا، يجلس منحنياً تحت ضوء خافت، يحدّق بثبات في جهازه، وكأنه يحاور نبوءة ما. شعره الأشيب، المتداخل بخطوط داكنة عند الصدغين، وذقنه البيضاء الخفيفة، منحاه وقار عالم نحتته التجارب وخيبات الرفاق. وإلى جواره، وقف مساعده

الوفي **لوشيان**، يراقب بترقّب كل لمسة أخيرة تُضاف إلى الاختراع الذي شغلهما لسنوات: **الصندوق الأسود للعين**.

على طاولة الفحص، وُضع دماغ خاروف، تتفرّع منه أقطاب دقيقة ترتبط بجهاز حاسوب، وفي لحظة أشبه بالخيال، انبثقت على الشاشة صورة باهتة، ذكرى من عالم انطفأ كآخر رؤية للخاروف قبل أن يموت.

في الخلفية، كان صوت التلفاز يملأ المكان بتقرير عن الابتكار ذاته. المتحدث، ناقد علمي متغطرس، بدا وكأنه يقوّض كل ما بناه كريستوفر بحروف الشغف والتعب، قائلاً بسخرية إن الجهاز لا يعدو كونه أداة ضجيج إعلامي، وأن آخر صورة تراها العين قبل الموت لا تحمل غالبًا أي قيمة تُذكر، مشاهد غرق، سقوط، أو حادث سير لا معنى له.

نظر لوشيان إلى معلمه، وقد ارتسمت على ملامحه علامات الاستياء:

= إنه تقرير مستفز، أليس كذلك؟

أجابه كريستوفر، بصوت هادئ عميق يحمل مرارة رجل اعتاد العزلة الفكرية:

= بلى، إنه مزعج، لكن لكلٍّ رأيه. المشكلة ليست في النقد بل في العمى. العمى عن الرؤية أبعد مما تقتنص العيون.

ثم صمت لحظة، قبل أن يتابع وعيناه تلمعان بإصرار لم تخمده السنين:

= هذا الاختراع ليس مجرد عدسة ترصد اللحظة الأخيرة من الحياة، بل هو نافذة، ولعلّها الوحيدة، إلى المجهول. ستأتي اللحظة التي تُدرك فيها البشرية قيمته. كلام هذا الناقد الجائر ليس النهاية، بل البداية. وسيثبت اختراعي نفسه، رغماً عن كل من شكّك فيه. سأحرص على ذلك... مهما كلّفني الأمر.

*****

الفصل الثالث

الولايات المتحدة الأمريكية

سجن ميامي ...

لم يكن السجن قيدًا على معصمي الطبيب سبيروزار فحسب، بل كان طعنًا في جوهر قناعته، صفعةً على وجه إنسانيته. لم يدخل الزنزانة كقاتلٍ أو مجرم، بل كمن اتُّهِم لأنه خفّف عن الآخرين أوجاعهم حين عجز العالم عن إنصافهم. هو لم يقتل، بل أنصت لأنين خفيّ، ومد يده إلى القلوب التي تعفّنت من الألم. في بقاع أخرى من هذا العالم، ما فعله يُعدّ شرفًا طبيًا وواجبًا أخلاقيًا؛ لكنه هنا، في هذا الركن المعتم من القانون، خُلع من مكانته وسُحق كأنه عارٍ من الرحمة.

منذ اليوم الأول، أدرك أنه لن يحتمل عقدًا من السنين في هذا القبر البشري. السجن لا يليق بمن اعتاد سماع نبضات القلوب عبر السماعة، لا نبضات الأقفال الحديدية وهي تنغلق خلفه. لا جسده، ولا عقله، ولا ضميره كان سيصمد في وجه عشر سنوات من التشظي.

نظام السجن، كأنما وُضع خصيصًا لقتل الإنسان لا عقابه: استيقاظ صارم في السابعة، إفطار ميت المذاق في السابعة والنصف، ثم توزيع السجناء كسلع على خطوط إنتاج اليأس: نجارة، حدادة، أعمال مكتبية... غير أن المصادفة — أو القدر متنكرًا بهيئة رجل قاسٍ هو مدير السجن **كارلو** — منحته نافذة صغيرة حين عرض عليه العمل في مستوصف السجن. ربما لم يفعل كارلو ذلك شفقةً أو احتراماً، بل ليرفع عن كاهل الطبيب **دانييل** بعض العناء، لكن بالنسبة سبيروزار، كانت تلك النافذة بداية الحلم: الابتعاد عن السجناء، الاقتراب من أبواب لا تُغلق من الداخل.

ثم يتابع نظام السجن، ينتهي العمل في الساعة الواحدة ظهراً حيث وجبة الغداء التي كثيراً ما تذهب بالقوة إلى غيرك، ثم العودة إلى غرف الاحتجاز ويبقى السجناء فيها حتى الساعة الرابعة عصراً، لنصل إلى فترة الاستراحة في باحة السجن حتى الساعة السابعة، ويختتم اليوم بالعودة إلى غرف الاحتجاز، وهكذا روتين يومي قاتل يدور في حلقة مفرغة من اليأس والمعنى كأسطورة سيزيف تحمل الصخرة مراراً وتكراراً.

وقد أدرك سبيروزار بيقين الطبيب حين يسمع دقةً شاذة في قلب مريض، أن ثغرة النظام تقع عند الثانية ظهرًا، حين يأخذ الحراس استراحتهم لأجل الغداء، ويتبادلون المناوبة على دفعتين. لا شيء في ذلك الروتين يمرّ على سبيروزار دون تدوين في ذاكرته. كان كمن يُحصي أنفاس سجّانه، لا ليكرهها، بل ليعرف متى يتوقف عن التنفّس أمامه ويبدأ بالركض.

ففي نهاية المطاف، لم يكن الهروب نزوة، بل كان بقاء.

في المستوصف، وجد لنفسه مساحة تنفّس فيها دون خوف، دون نظرات متربّصة أو أجساد تتكدّس في الزنازين ويتم معاملتها كحيوانات جريحة. الطبيب دانييل، في خمسينيات عمره، رجل هادئ الملامح، دقيق التصرف، لم ينظر إليه كجريمة تمشي على قدمين، بل كزميل ساقه سوء الحظ إلى ضفة أخرى من النهر.

أول لقاء جمعه بالطبيب دانييل كان غريباً إلى حد بعيد، لقاء بين طبيب موظف وطبيب سجين تجمعهما غرفة واحدة **!!**

= إذا فأنت طبيب أورام سيد سبيروزار. **؟!**

= بلى حضرة الطبيب دانييل، وقد سجنت بتهمة القتل الرحيم لبعض مرضى السرطان.

= ليتني أمتلك جرأتك لفعلها، لكنني لا أستطيع، رغم أن والدي يعاني حالياً من المراحل الأخيرة لسرطان البروستات الذي يسبب له آلاماً لا توصف، وأنا مقتنع كلياً بأن موته الآن هو الحل الأفضل، لكني لا أجرؤ على فعلها أبداً، أن تضع نفسك مكان الخالق لتنتزع روح أحدهم أمر صعب على رجل متدين كحالتي، فكيف تمكنت من فعلها بسهولة ولمرات عديدة حضرة الطبيب.

= أنا شخص ملحد سيد دانييل، وأنظر للإنسان كخليط من الكيميائيات له مشاعر وأحاسيس، ومتى ما غلبت المشاعر السلبية على هذا الخليط دون إمكانية لتغييرها، فالحل الوحيد عندها هو إيقاف هذه الآلة عن العمل من أجل راحتها وراحة الآخرين من حولها.

هز الطبيب دانييل رأسه مع ابتسامة متعبة.

= إنها الأيام الأخيرة لوالدي، وأتمنى أن تكون قليلةً ليختصر رحلة العذاب والتعب هذه، بالمناسبة تعال لأعلمك نظام عمل المستوصف بشكل كامل ودقيق، ففي حال توفي والدي سأتغيب ليوم أو يومين عن العمل وستكون انت غالباً المسؤول الأول عن تسيير أداء المستوصف.

= حسناً، هيا بنا، وأتمنى الراحة الأبدية لوالدك من آلامه العبثية في أسرع وقت ممكن.

قام الطبيب دانييل بشرح آليات عمل المستوصف كلها لسبيروزار، من أمور طبية بفحص المرضى، أو مكتبية بتسجيل جداولهم الخاصة، أو عمليات جرد الأدوية التي تصل إليهم وتعويض ما ينقص منها.

ننتقل إلى زنزانته الكئيبة، التي لم تكن إلا قفصًا بشريًا صغيرًا فيه سريران، مرحاض بلا أبواب، وشريك يُدعى **هوو** صيني الملامح، مشاكس الطبع، محكوم بالسجن المؤبد بعد أن أردى ثلاثة رجال قتلى في لحظة غضب. بدا هوو كأنه خرج من أسطورة شرقية؛ جسده منحوت كتمثال، وعيناه تلمعان بأسرار قتالٍ لا يُروى. ومع ذلك، كان ودودًا ما لم يُستفز، ولهذا آثر سبيروزار الصمت حين يستحق الصمت، والموافقة حين لا جدوى من الجدال. لقد كان يعرف أنه في الغابة، وإن لبس الجميع زيّ السجناء.

في سريره السفلي، تحت جسد هوو النائم، كان سبيروزار يضمّد وحدته بكتاب استعاره من مكتبة السجن: رواية خيال علمي تتحدث عن المادة والمادة المضادة، عن تناظر الكون في صراعه الأزلي. وفي كل صفحة، كان يشعر أن الرواية تكتب عنه: هو الجسيم النقي، وسجنه هو الضدّ، الشحنة المعاكسة التي تجذبه وتريد إفناءه. لكنه لن يُفنى.

إذن فثلاثة أماكن فقط نسجت عالمه الجديد: الزنزانة، المستوصف، وساحة السجن. في **الساحة**، تلتقي العيون وتتحدث الأجساد. في **المستوصف**، يُمارس العلم كأن الحياة لم تُغلق عليه. وفي **الزنزانة**، يبدأ الحلم: الهروب، ليس من القضبان فقط، بل من عالمٍ فقد توازنه.

*****

من حيث المبدأ وجد سبيروزار أنه بحاجة لثالوث هام في أي خطة سيضعها للهروب من السجن، ويضم نسخة من مفاتيح معينة، شخص قوي ذو مهارات قتالية، ووسيلة الهرب الأساسية.

من خلال ملاحظته لسير العمل واحتكاكه مع أفراد الشرطة الذين راجعوه في المستوصف ونقاشه مع الطبيب دانييل تبين له أن الغرفة المسؤولة عن فتح أبواب غرف الاحتجاز جميعها قريبة للغاية من المستوصف، ولا توجد غرف أخرى بينهما، والمسؤول عنها هو الشرطي صموئيل، وكانت هذه المعلومة بمثابة الشرارة التي انطلقت منها خطة هروب سبيروزار بالكامل، فالسجن فيما عدا ذلك عبارة عن حصن حقيقي لا يمكن الخروج منه سوى بطريقة وحيدة أخرى خطيرة للغاية.

لذا بالنسبة لثالوث الهروب فقد اختار سبيروزار الطرق التالية لتنفيذه:

◈ **المفتاح الأهم** و هو مفتاح الغرفة التي يتم فيها فتح زنازين الاحتجاز جميعاً...

◈ **خطة الهروب** هي بفتح زنازين الاحتجاز جميعها دفعة واحدة و خروج مئات المساجين منها و الذين يبلغ عددهم بحسب ما أخبره الطبيب دانييل **2962** سجيناً ...ثم تحقيق انقلاب داخل السجن و السيطرة عليه مع مصادرة الأسلحة ثم الهروب إلى الخارج أو فرض شروطهم الخاصة بعد احتجاز العناصر كرهائن...

◈لابد من **الاستعانة بشخص ذي قوة بدنية و مهارة قتالية** ، و سيكون بلا شك شريكه في الغرفة هوو...

إنها خطة كبيرة وجريئة ذات سقف عالٍ من الطموح يلامسه الخيال بأناملـه، لكن سبيروزار الشخص الذكي والجريء من جهة واليائس من جهة ثانية كان مستعدا تماماً لها وقد تبلورت كلياً في ذهنه.

بدأ أولاً من شريكه هوو فألقى عليه خلال حوار عادي بينهما في الباحة فكرة محاولة الهروب بشكل عابر.

= هل فكرت في الهرب من السجن يوماً ما هوو، أنت محكوم بالسجن مدى

الحياة، ألا تحن مثلاً للحياة خارجاً ...؟

رمقه هوو بنظرة غريبة.

= بلى فكرت مراراً وتكراراً، لكن هذا السجن قلعة حقيقية غير قابلة للاختراق بتاتاً.

= وإن قدم لك أحدهم فرصةً ذهبيةً للهرب فهل توافق ...؟

= على الفور ودون تردد، لكن كيف؟

= سأخبرك خلال الأيام القادمة، ما أريده منك الآن أن تتمرن جيداً خاصةً على الحركات التي تصيب الخصم بالإغماء مباشرةً وبسرعة، فهذه نقطة محورية في خطة الهروب والفشل فيها يعني فشل الخطة برمتها.

= حسنا سأفعل صديقي هذا أمر يسير جداً علي، لقد منحتني الآن أملاً جديداً بالحياة وسأتشبث به بيدي وأسناني.

أما بالنسبة لموضوع المفاتيح، فكانت خطة سبيروزار تعتمد على شقين، الأول تأمين مادة يمكن طبع المفاتيح عليها، ثم لاحقاً صنع نسخة منها في ورشة الحدادة.

لم يكن تأمين الطبعة صعباً، فقد حصل عليها من خلال صديقه الجديد **توم** من ورشة الفخار والأمور المشابهة، الذي أمن له قطعتي طين جاف صغيرتين هربهما في حذائه.

بقي لديه تحين فرصة للحصول على طبعة للمفتاح، و قد حالفه الحظ تماماً في ذلك و كأن السماء تسهل له عملية الهروب، حيث أصيب **صموئيل** المسؤول عن غرفة فتح الزنزانات بإنتان رئوي و وجب عليه أخذ حقن يومية من الصادات الحيوية، لذا و ريثما كان صموئيل ممدا على السرير شاهد سبيروزار سلسلة مفاتيح معلقةً على خصره و فيها مفتاح وحيد لم يشك للحظة واحدة أنه مفتاح الغرفة المقصود، فأخرج قطعة الطين من جيبه و كبس المفتاح عليها حتى طبعه بشكل مثالي ثم أعطى الإبرة لصموئيل، في حين كان الطبيب دانييل جالساً إلى مكتبه و منغمسا في عملية جرد الأدوية فلم يلاحظ أي شيء ..

الخطوة الثانية الآن هي التواصل مع **رفاييل** أخطر نزلاء السجن والمحكوم عليه بالسجن مدى الحياة أيضا بعدة جرائم من قتل وسرقة والذي يعمل في ورشة الحدادة، وقد أقنعه سبيروزار بأسلوبه الخاص بخطة الهروب وأنه سيكون الشخص الأهم في الخطة الذي سيقود حركة التمرد بعد فتح غرف الاحتجاز، وطلب منه صنع نسخة مفاتيح دقيقة عن الطبعة

= اعتبر الأمر منجزاً أيها الطبيب، فهذا مفتاح الحرية ولن أفرط به.

خلال الأيام التالية سلم رفاييل المفتاح الجديد لسبيروزار.

= متى الخطوة الحاسمة أيها الطبيب؟

= أنا بانتظار وفاة والد الطبيب دانييل لأكون في المستوصف لوحدي وعندها نبدأ بتنفيذ الخطة.

= حسنا، أنا والبقية على أهبة الاستعداد.

*****

بعد حوالي الشهر.

توفي والد الطبيب دانييل كما هو متوقع، وكان يوم ثلاثاء. فأخبره مدير السجن أنه سيتغيب عن العمل ليومي الثلاثاء والأربعاء، لذا اتخذ سبيروزار القرار بتنفيذ خطة الهروب يوم الأربعاء.

في مساء يوم الثلاثاء جلس سبيروزار في باحة السجن هو وهووا ورفاييل يراجعون الخطة للمرة الأخيرة، وكان قد غادر المستوصف بحجة أنه يشعر بالدوار وبحاجة لبعض الهواء النقي لمدة ربع ساعة فقط.

= لن أراكما غداً لأني سأعمل في المستوصف طوال اليوم، لذا فالشكل النهائي للخطة على النحو التالي : غداً و في تمام الساعة الواحدة و خمس و أربعين دقيقة يدعي هوو أن لديه آلام شديدة في صدره و كأنه يتعرض لذبحة صدرية، عندها سيرسلونه إليّ في المستوصف، سأفحصه هنالك حتى تمام الساعة الثانية و هنا سيغادر صموئيل غرفته باتجاه الغداء، أما **غابي** حارس المستوصف فسينتظر كالعادة الدفعة الثانية، حينها سأدعي بأن قلب

هوو قد توقف و أنه بحاجة لإنعاش و أطلب من غابي مساعدتي، و هو بحسب تحليلي لشخصيته الاندفاعية لن يتردد و سيفعل.

يأتي هنا دور هوو وعليه بضربة واحدة أن يفقد غابي وعيه، عندها أجرده من ملابس الشرطة وأرتديها للتمويه أمام الكاميرات، وأتوجه إلى غرفة صموئيل ثم أفتح جميع أبواب غرف الاحتجاز.

بعدها ستكون الغلبة في يدنا باعتبارنا أكثر عدداً بكثير، ولن يتجرأ الحراس على إطلاق الرصاص بشكل عشوائي، لذا نحاول الحصول على أكبر عدد ممكن من الأسلحة ونغادر السجن عبر بوابته حيث سنخوض المعركة الأخيرة مع حراس البوابة وستكون -إن حدثت -قصيرة ويسيرة، بعدها يرتجل كل سجين ويغادر إلى الوجهة التي يقررها.

هل من أسئلة أخرى؟

= لا حضرة الطبيب، نحن على أتم الجهوزية.

*****

الفصل الرابع

الولايات المتحدة الأمريكية

لويزيانا / نيو أورليانز

(بعد شهر من سرقة المتجر) ...

كانت سيلين قلقةً للغاية، فهذه أول مرة تتأخر فيها ابنتها يانا كل هذا الوقت عن المنزل، خاصة أنها لا ترد على مكالماتها، لذا سارعت بالاتصال بديف

= عزيزي أين أنت الآن؟

= في وردية أنا وزاك بعيداً عن المنزل، إن صوتك يبدو قلقاً هل هنالك خطب ما؟

= إنها الساعة العاشرة مساءً وجانا لم تعد بعد، ولا ترد حتى على مكالماتي

= هذا غريب بالفعل، وأين كانت أساساً ...؟

= زيارة في منزل صديقتها **جويل**.

= وهل تحدثت أنت مع جويل؟

= بالطبع وأخبرتني أن يانا غادرت منذ حوالي الساعة.

= هذا ليس جيداً على الإطلاق، سأبدل ورديتي مع أحد زملائي وآتي مباشرةً إلى المنزل.

أغلق ديف الخط وهو يشعر بقلق عارم، إن لديه إحساس داخلي أن ثمة شيء مريب يحدث، وجميع المؤشرات تدل على ذلك، جرب بنفسه الاتصال بها، لكن هاتفها كان مغلقاً هذه المرة.

أخبر زاك بالقصة كلها.

= سأطلب من القائد أن يسمح لي بالذهاب معك للبحث عن يانا، وأن يرسل شخصاً آخر غيري إلى الوردية أيضاً.

= لا داعي لذلك حالياً زاك، سأبحث عنها بنفسي أولاً ثم أخبرك بما توصلت إليه.

أجرى ديف بعض الاتصالات مع مركز الشرطة وأخبرهم بالوضع الراهن، فأرسلوا شرطياً بديلاً عنه واقترحوا عليه إرسال شرطي آخر إليه ليساعده في البحث عن ابنته، لكن ديف رفض ذلك مبدئياً، على أن يبحث بنفسه أولاً ثم يطلب الدعم من المركز لاحقاً إذا لزم الأمر.

عاد ديف إلى منزله، وخطواته تنزف قلقا وحيرة، اتصل بجويل، صديقة يانا، ليستقصي منها عن آخر لحظات ابنته. أخبرته جويل أن يانا قضت عندها ساعتين، ثم غادرت في تمام التاسعة مساءً، وكان كل شيء يبدو على ما يرام، كأنما لم يكن غيابها بعد ذلك إلا طيفاً غامضاً. منزل جويل لا يبعد كثيرًا عن منزلهم ويفصل بينهما شارعان فقط، لكن الشتاء القارس أبقى الليل يستولي على الأفق منذ الخامسة، والأمطار الغزيرة أسكرت الشوارع فصارت خالية من المارة، بلا روح تُسمع أو تُرى، فلا سبيل له لسؤال أحد أو تتبع أثر.

حين وصل ديف إلى منزله، استقبلته سيلين بنظرات قلقٍ قاتمة، ولويس يبكي بمرارة تزلزل الجدران. حاول ديف أن يضمّهما إلى صدره، ينثر فوقهما هدوءًا وطمأنينة، لكنه لم يجد لنفسه ملاذًا من خنجر الفزع الذي يطعن قلبه

لم تكن أمامه سوى ثلاثة سيناريوهات تحاصر تفكيره: إما أن يانا وقعت ضحية لحادث سير، أو أنها تعرضت للاختطاف، أو ربما ذهبت إلى مكان آخر وأضاعت هاتفها أو لم تسمع مكالماته، وهو الاحتمال الأضعف بلا شك. وبدا له أن كل الاحتمالات المنطقية يكتنفها سواد قاتم.

بدأ ديف بالتحقيق في أول احتمال، الحادث، فاتصل بكل مستشفى في نطاق المدينة، لكن الجميع نفى استقبال فتاة تحمل مواصفات يانا. هنا تهيأت له الصورة أكثر، وحل الاحتمال الآخر محل الأول: اختطاف يانا.

لكن لأي هدف؟ هل هو فعل عبثي، طائش، هدفه الاعتداء فقط؟ أم مخطط محكم، يأتي ردًا على أحقاد قديمة، ابتزازًا أو انتقامًا من طرف مجرم سابق

قبض عليه ديف؟ كانت كلها أسئلة مرعبة، لا يملك ديف سوى أن ينتظر، صامتًا، مكالمة هاتفية قد تغير كل شيء، وتكشف سر هذه الغيبة التي تئن لها الروح.

في تمام الساعة الحادية عشر رن هاتف ديف الأرضي وشعر بدقات قلبه تتسارع.

= معك ديف آدامز، من المتكلم؟

جاءه صوت غريب يبدو أن صاحبه يستخدم جهازاً لتعديل الصوت.

= أهلاً سيد ديف، لا يهم من معك، المهم أن ابنتك يانا لدينا الآن.

شعر ديف وكأن رصاصة اخترقت قلبه لكنه حاول الاحتفاظ برباطة جأشه
= وماذا تريدون منها ومني؟

= سأكلمك لاحقاً لأشرح لك لكن إياك أن تقحم الشرطة في الموضوع بأي شكل من الأشكال وإلا.

ساد صمت مرعب للحظات.

= وإلا ماذا؟

= وإلا قتلنا ابنتك وبدم بارد. حذار أن تجربنا فنحن لا نمزح على الإطلاق.

وأغلق الهاتف بقوة ارتج معها قلب ديف الذي نظر مباشرةً إلى مدة المكالمة، كانت وجيزة للغاية وعرف أنه لن يتمكن من متابعتها رغم جهاز التتبع الموضوع في الهاتف.

أخبر سيلين بملخص المكالمة فانهارت باكية، في حين كان لويس قد غفا منذ قليل، أخذ يهدئ زوجته ويطمئنها قدر الإمكان وهو يخفي بداخله بركاناً من التوتر والقلق والغضب.

مرت دقائق أخرى ثم طُرق الباب فجأة واشتعلت جذوة أمل في قلبيهما أن تكون يانا قد تمكنت من الفرار، لكن للأسف كان زاك قد أنهى ورديته و

أتى يطمئن على يانا.

= هل من جديد؟

فكر ديف ملياً قبل أن يتحدث وتذكر إنذار الخاطف له، إنه لا يستطيع إخفاء المعلومات عن زاك فهو صديقه المقرب الذي يثق به ويأتمنه ومن المؤكد أنه سيحتاج خلال الساعات التالية لأحد يساعده فيما سيحدث.

= اسمعني جيداً زاك، ما سأخبرك عنه الآن هو بصفتك صديق وليس بصفتك المهنية كشرطي وأريده أن يبقى سراً بيننا مهما حدث.

= ماذا هناك ديف لقد بدأت أقلق بالفعل. !؟

روى له ديف تفاصيل المكالمة التي تلقاها من الخاطفين وختم حديثه بسؤال

= والآن ما رأيك بما يجري؟ وماذا تقترح على فعله؟

= الحقيقة أنه موضوع معقد وحرج للغاية، لكنني أعتقد أنه من الأفضل حالياً أن تؤجل إقحام الشرطة بالموضوع ريثما تفهم من هم هؤلاء الخاطفون؟ وما الذي يريدونه؟ خاصة أننا لا نعرف شيئاً عنهم بعد، فقد يكونوا سفاحين مثلاً وينفذوا تهديدهم بالفعل، مبدئياً دع الموضوع بيني وبينك لنتناقش منطقياً بالخطوات القادمة، فأنت لوحدك سيغلب عليك التفكير العاطفي ويتحكم بقراراتك.

= معك كل الحق، سألتزم الصمت حالياً حتى أفهم ما الذي يريدونه، وما يهم الآن فعلياً أنه ليس اعتداءً من جهة وليس فعلاً انتقامياً من جهة أخرى وإلا كانوا آذوا يانا مسبقاً، والأغلب أنه ابتزاز مادي مثلاً أو غيره، ولا يسعنا سوى الانتظار والصبر.

= هذا هو عين الصواب، وبعد أن تعرف تماماً ما الذي يريدونه، تخبر الشرطة لتتولى زمام الأمور.

بقي زاك بجوار ديف حتى الساعة الثانية صباحاً ثم ودعه على أن يأخذ له إجازة صحية في الدوام الصباحي لمدة أسبوع مقطوعة الراتب ريثما تنتهي هذه المعضلة.

*****

في الصباح اتصل زاك بديف الذي لم ينم هو وسيلين تقريباً طول الليل من شدة قلقهما على ابنتهما، وأخبره زاك أن قائد المركز وافق على منحه الإجازة الصحية، كما أنه سأله عما حدث لابنته يانا فأجابه بأنها كانت في زيارة لصديقتها وعادت سالمة وانتهت المشكلة بحسب ما أخبره ديف.

في تمام منتصف النهار رنّ الهاتف مجدداً، وكان الخاطف بنفسه بصوته الغريب.

= سيد ديف، لقد بدأنا منذ هذه اللحظة بالأمور الجدية، فهل أنت مستعد لاتباع تعليماتنا؟

= وما الذي تريدونه مني؟

= حاليا إجراء بسيط للغاية، أخرج الآن إلى صندوق البريد الذي أمام منزلك وحيداً دون أن تخبر زوجتك، ستجد ظرفاً أحمر أرسلناه إليك وفيه كامل التعليمات، اقرأه بعناية وسأحدثك بعد ساعة لنتفق، وأكرر تحذيري من أن تبلغ الشرطة وإلا.

وأغلق الخط.

خرج ديف إلى الفناء الخارجي وفتح صندوق البريد فوجد فيه على الفور الظرف الأحمر، أخرجه ووضعه في جيب سترته ثم تلفت حوله بحثاً عن شخص يراقبه لكنه لم يشتبه بأحد فعاد إلى المنزل وأخبر زوجته أنه يريد أن يفكر وحيداً في غرفته في الطابق العلوي.

جلس ديف يفحص الظرف ويعاينه من الخارج أولاً، لم يكن عليه أي طوابع مما يدل على أن المرسل وضعه يدوياً. مزق طرف الظرف بسكينه المهنية وفتحه، كان هنالك ما يشبه الرسالة، ورقة مطوية ومطبوع على أحد وجهيها، فأخذ يقرأ ما طبع.

❁ *إن أردت أن تعود ابنتك إليك سالمةً فعليك اتباع الخطوات التالية بدون تردد وبدون إبلاغ الشرطة بتاتاً.*

❁ *اليوم هو يوم راحة رجل الأعمال بنجامين فرانك الذي سيكون في منزله غالبا وحيداً يدخن السيجار، يشرب كأساً ويقرأ بعض الكتب كعادته.*

❁ عليك أن تجتهد بنفسك وتعثر على خطة مناسبة لدخول الفيلا والوصول إلى الخزينة في الطابق العلوي وسرقة محتوياتها، وتذكر جيداً أن الخزينة لا تفتح إلا ببصمة السيد بنجامين، لذا يجب أن يتواجد في المنزل

❁ تذهب بعدها إلى ضفاف نهر المسيسيبي المار في المدينة قرب مرسى القوارب بجوار الشجرة الضخمة، ستجد هنالك قاربا ذي محرك دائر، مكتوب عليه البومة بخط عريض وعليه رجل وحيد تسلمه محتوى الخزينة، وبعد أن نتأكد من محتوياتها تعود ابنتك سالمة إليك.

❁ نحذرك لمرة أخيرة ولن نكررها، لا تخبر أحداً بمضمون الرسالة أبداً حتى زوجتك وابنك.

ما إن انتهى ديف من قراءة الرسالة حتى أحسّ بأن الصمت الذي تخلّل السطور لم يكن عابرًا، بل يحمل في جوفه ما هو أعمق من الكلمات. لم يكن الصمت هنا فراغًا، بل كان حضورًا خفيًا، يهمس له بأن شيئًا آخر يسكن الصفحة. شيء لم يُكتب بالحبر، بل بالخوف.

تأمل الرسالة من جديد. شيء في نهايتها راوغ عينيه أول مرة. أمال الورقة ببطء، كما لو كان يكشف عن جرح في الجسد لا يريد لمسه، فإذا بشيء يظهر تحت ضوء الشمس، رسمٌ دقيق، كأنه وشمٌ محفور في ذاكرة الظلال: **رجلٌ يراقص أفعى**. لا، لم يكن مجرد شعار. كان استدعاءً لندبة قديمة ما زالت تنزف في داخله.

ذاكرته، كمنجمٍ نُسيت أبوابه مفتوحة، لفظت اسمًا: **منظمة سيلار الإجرامية**. تلك الجماعة التي اقتاتت من الألم، وتاجرَت بالهلاك والمخدرات، وكان هو من قادهم إلى نهايتهم قبل عام. وقتها، بدا وكأنه أغلق الباب الأخير في سرداب الجريمة. والآن؟ الآن يعود الرمز كعلامة مشؤومة، لا لتفتح الباب، بل لتهدم الجدران.

ولكن لماذا الآن؟ ولماذا بهذه الطريقة؟ الانتقام لا يتخفّى غالبًا، لا يبعث برسائل، بل يأتي فادحًا، مباشرًا، مغموسًا بالدم. لكن هنا، الانتقام يمشي على رؤوس أصابع الذكاء. كأن الخاطف لا يسعى للقتل، بل لإعادة تشكيل ديف نفسه... أو تفكيكه.

أعاد البحث عن آثار المنظمة، حتى صادف سطرًا بارزًا، اسم تجمّدت عنده عيناه: **فيليم فان هالين**، ابن زعيم العصابة، الوحيد الذي نجا من التهم وذاب في الظل كمن لا وُجد. ربما هو الآن يعيد صياغة اللعنة، لا عبر المخدرات، بل عبر السرقة، وربما... عبر إذلال الرموز القديمة التي أطاحت بأبيه.

لكنّ ديف لم يكن خائفًا من الرجل، بل من المهمة. ما طُلب منه لم يكن فدية، بل فعلًا يخلع فيه جلده. أن يسرق بنفسه، أن يخون مهنته التي عاش لها، أن يتحوّل من حارس للقانون إلى كاسر له. والمقابل؟ حياة ابنته. وكأن العالم كلّه انقلب: المجرم يضع القانوني في قفص الاختيار.

جلس ديف صامتًا. لا الريح تعنيه، ولا بكاء لويس في الغرفة الأخرى. فقط الفراغ. فراغ من نوع آخر. ليس الفراغ الذي يحيط بالأشياء، بل ذلك الذي يُحدثه الشكّ داخل الإنسان. تذكّر كيف كان يعلّم الأسر دائمًا أن الصمت خطر، أن كل شيء يجب أن يُقال للشرطة، وأن إخفاء الحقيقة له ثمن باهظ. وها هو الآن، يدفن الحقيقة بيديه، لا لشيء، إلا لأن الخوف حين يطرق الباب لا يُناقش، بل يُطاع.

ومع ذلك، لم يكن العجز كاملاً. ففي حطام المعنى، لمح خيطًا نحيلًا من الرجاء. المتسلل الذي حاول سرقة منزل رجل الاعمال بنجامين منذ أشهر، كما قرأ على هاتفه من قبل، لم يكن عشوائيًا، بل جسّ نبضًا، اختبر ردة فعل، وفشل. والآن، عاد بسيناريو أكثر دهاءً، يورّط الضحية في فعل السرقة نفسها. وما دامت البصمة تكررت، فهناك عقل واحد يُدير المسرحية.

في اللحظة الأخيرة، لم يختر ديف الصراخ ولا الاستسلام. بل اختار الاحتمال. قرّر أن يتفاوض، لا من موقع الضعف، بل من موضع الفهم. فبينه وبين هذا الخاطف خيطٌ رفيع من التشابه: كلاهما يعرف الظلال، وكلاهما عاش في مواجهة الخوف. الفرق فقط في أن أحدهما نجا، والآخر لم يغفر. وضع الرسالة في جيب سترته ونزل إلى الطابق السفلي.

كانت سيلين في حالة يرثى لها ينهش الفزع روحها بلا رحمة.

= ما الذي توصلت إليه ديف؟

= أنا بانتظار مكالمة الخاطف لنتفق، لا تقلقي ستكون الأمور على ما يرام واليوم ستنام يانا في المنزل، أنا متأكد!

خفف كلام ديف من فزع سيلين قليلاً واستمدت من رباطة جأشه ما يسندها نفسياً، أما لويس فكان يلعب في الخارج مع أصدقائه وقد أخبره والداه كما أخبرا ماكس صديق يانا بأنها ذهبت إلى منزل عمتها في **نيويورك** لقضاء أسبوع هنالك في استراحة منتصف العام، وقد تساءل ماكس عن سبب إغلاق يانا لهاتفها فأخبراه بأنه سقط منها وكسر وستشتري هاتفا جديدا من نيويورك ثم تتصل به من هناك.

رن هاتف ديف الخلوي وكان المتصل هو زاك.

= طمئني صديقي، هل من جديد؟

= لا ليس بعد، أنا بانتظار مكالمة من الخاطف.

رن الهاتف الأرضي أخيراً بينما ديف يكلم زاك.

= اعذرني صديقي، سأكلمك بعد دقائق فجرس الهاتف يرن وعلى الأرجح هم من جديد.

= حسناً أنا بانتظار مكالمتك.

رفع ديف سماعة الهاتف الأرضي وكان المتصل هو الخاطف بالفعل.

= هل قرأت الرسالة سيد ديف؟

= أجل.

= هل أنت مستعد لتنفيذ تعليماتها.

= إنها مهمة مستحيلة فالفيلا كما هو معروف محصنة أمنياً بشكل كبير!

= هذه مشكلتك سيد ديف وليست مشكلتنا، وعليك أن تجد حلاً ما، وأحذرك أن رفضك للمهمة أو فشلك فيها يعني وداعك النهائي لابنتك يانا، فلا فائدة منها بالنسبة لنا بعد ذلك، سنتصل بك لاحقا بعد انتهاء العملية.

كان العرق يتصبب من مسام جسد ديف التي اعتصرها التوتر والقلق.

= انتظر لحظة.

= ماذا تريد؟

= كيف أتأكد من أن ابنتي يانا لديكم وأنها بخير؟

أغلق الخاطف الهاتف دون أن يجيب، وبعد دقائق رن الهاتف من جديد.

= نعم.

كان صوت يانا وهي تبكي بشدة.

= أبي أنا يانا، الظلام يلف المكان، أرجوك ساعدني.

ساد الصمت لثوان.

= هذه هي ابنتك كما طلبت، وعليك بدورك أن تنفذ ما طلبناه منك، القارب بانتظارك ليلاً، ونحذرك مرة أخرى فشل مهمتك أو القبض عليك يعني النهاية، فكن حذراً في مهمتك.

وأغلق الخط بعنف، في حين نظر ديف إلى ساعته وعيناه مغرورقتان بالدموع، إن الخاطف شخص متمرس وخطير، فالمكالمة تنتهي دوماً على بعد ثوان من إمكانية متابعتها.

عاود الاتصال بزاك.

= مرحبا زاك.

= هل من أخبار جديدة ...؟

= لقد اتصل الخاطفون للتو وأخبروني أنهم سيتصلون مجدداً غداً كي يملوا عليّ مطالبهم.

= ولم كل هذه المماطلة من قبلهم؟

= لا أدري، إنه أمر غير مفسّر.

= وما الذي قررت فعله الآن؟

= سأنتظر مكالمتهم بالطبع، ولن أخبر الشرطة إطلاقا حتى أفهم منهم ما الذي يريدونه كما اتفقنا بالأمس.

= ألا يمكن تتبع مكانهم من خلال المكالمات؟

= أبداً، إنهم متمرسون وينهون مكالمتهم دوماً في الوقت المناسب.

= حسناً ديف على أن أعود للعمل، إذا استجد عليك أي شيء أو احتجتني بأي شيء اتصل بي على الفور.

= حسنا إلى اللقاء زاك وشكرا لك.

أخبر ديف سيلين بهدوء متعمد بما دار في المكالمة كما أراد لا كما جرت، فهو يريد إبعاد الجميع عن الأحداث حرصاً على سلامة يانا، اكتفى بالقول إن لقاءً سيجري مساءً، وبعده ستعود يانا إلى المنزل كما وعد. ثم قال بخفوت، كمن يبحث عن مهرب داخلي، أنه بحاجة لبعض الوقت بمفرده في الطابق العلوي... لا لشيء إلا ليستعيد توازنه وسط عاصفة لا تهدأ.

صعد إلى غرفته، وخطواته تنوء بثقل ما يفكر فيه. الغضب كان يتخمر في صدره كما يتخمر الشر في ليالي الخطيئة. رجل مثله، نشأ على قداسة القانون، كيف له أن يتحول إلى كاسرٍ له؟! بل كيف له أن يقتحم فيلا مصفّحة بأنظمة حراسة، وكاميرات، وأبواب تعرف الوجوه وربما النوايا؟

راح يذرع الغرفة ذهابًا وإيابًا، وكأن الجدران تضيق عليه. توتره يتصاعد، وعقله في صراع عنيف مع قلبه. لكن عاطفة الأب في داخله كانت قد حسمت المعركة منذ لحظة سماعه لصوت يانا عبر الهاتف، تبكي بحرقة طفل سُلب أمانه. كان ذلك الصوت وحده كافيًا لإسكات كل حجج العقل.

توقف فجأة، وكأن القرار انبثق من داخله دون مقدمات: سأفعلها.

لكنه لم يكن ساذجًا. فالفيلا، بهذا المستوى من التحصين، لن تُخترق بالنية وحدها. هو بحاجة إلى خريطة خفية، إلى نظرة من الداخل. إلى معرفةٍ لا تُشترى.

وفجأة، كمن أضاء له الظلام وميضُ ذاكرة، تذكر: تلك الفيلا تعرضت لمحاولة سرقة قبل أشهر. لا شك أن تقريرًا أمنيًا مفصلًا حُفظ في المركز عن ملابسات الحادثة. تقرير قد يحوي كل ما يحتاجه من تفاصيل دقيقة عن تصميم الفيلا، ونقاط ضعفها، وإجراءاتها الأمنية.

ارتدى زيه الرسمي، شدّ ربطة عنقه بحزم، كمن يرتدي قناعًا، لا ليؤدي دوره... بل ليخفي نيةً تتعارض مع كل ما عاش لأجله. ثم نزل إلى الطابق

السفلي، وعلى وجهه ظلّ صامت... لكنه في داخله، كان قد أعلن الحرب.

= عزيزتي على الذهاب إلى مركز الشرطة للضرورة ولن أتأخر.

= وهل لهذا علاقة بيانا؟

= أجل.

= هل اقتربت من معرفة الفاعل.

= أعمل على ذلك، سأرى في المركز ما الذي سأصل إليه.

*****

في مركز الشرطة.

وصل ديف إلى المركز بعد نصف ساعة، حيا **ليونارد** وخوليو حارسي البوابة ثم دخل. شاهد في طريقه مساعده **روبرت**.

= أهلا سيدي، ظننتك في إجازة صحية، كيف حالك الآن؟

= بخير روبرت شكراً لك، إنني في إجازة بالفعل ولكن لدي عمل صغير لا يؤجل سأقضيه قبل الإجازة.

= وهل يمكنني مساعدتك بشيء؟

= شكراً لك، إنه إجراء بسيط لا يحتاج للمساعدة، أراك بخير.

فكر ديف قليلا، إن وجهته هي الأرشيف الجنائي حيث يحتفظ بتقرير كل قضية الكترونياً على حاسوب إضافة إلى نسخة ورقية، والمسؤول هنالك هو **مايكل**، عليه أن يجد عذراً لدخول الأرشيف والبحث عن التقرير، فكر أكثر ورست أفكاره على طريقةٍ بسيطةٍ لكنها قد تنجح، لم يكن هنالك خيار آخر على كل حال، وهو بحاجة زاك في تنفيذ هذه الخطة لذا توجه إلى مكتبه

دهش زاك بشدة عندما رأى ديف.

= ما الذي تفعله هنا ديف، ألست في إجازة كما ينبغي ...؟

اقترب منه ديف وهمس له.

= زاك أريد منك معروفاً وأرجو منك أن تلبيه دون أسئلة حالياً وسأشرح لك كل شيء لاحقاً.

= بالطبع، ما هو؟

= أريد منك الآن أن تذهب معي إلى غرفة الأرشيف، وهنالك أريدك أن تلهي مايكل عني للحظات ريثما أحصل على تقرير معيّن من الأرشيف.

بدت علامات الدهشة والقلق باديين على وجه زاك.

= تريد سرقة تقرير ديف! هذا خطير للغاية.

= أعلم ذلك زاك، لكنه من أجل سلامة يانا، وسأعيده لاحقاً على كل حال، أرجو منك مساعدتي فليس لدي خيار آخر.

فكر زاك قليلاً.

= أنا أثق بحكمة قراراتك. لذا هيا بنا صديقي.

طرق ديف باب غرفة الأرشيف وسمع صوت مايكل من الداخل يدعوهما للدخول، ففتح الباب ودخلا.

= مايكل صديقي، كيف حالك ...؟

= أهلا ديف، أهلا زاك، بخير، كيف حالكما ...؟

= بخير، أريد معروفاً صغيراً منك.

= بالطبع تفضل.

= أريد أن أطلع على التقرير الورقي لسرقة المتجر في شهر شباط الفائت إن أمكن.

= حسناً، ولأي غاية ...؟

= هنالك أمر ما أريد التأكد منه فقط.

= أنت من كتب التقرير أليس كذلك؟ فكما تعرف لا يجوز لأحد الاطلاع سوى على تقاريره الخاصة إلا بإذن رسمي.

= بلى، إنه تقريري أنا وزاك.

بحث مايكل قليلاً في حاسوبه.

= أجل إنه تقريركما، لنرى الآن.

غادر كرسيه أمام الحاسوب واتجه إلى مجموعة الخزن ثم أشار إلى أحداها وفتح أحد أدراجها.

= هذا هو مكان تقارير شهر شباط، عليّ أن أبحث قليلاً فهي غير مرتبة زمنياً، لأننا الآن كما تعلمان نعتمد على التقارير الالكترونية، أما النسخ الورقية فهي مجرد روتين، للأسف سيستغرق ذلك وقتاً طويلاً ولدي عمل كثير!

= لا بأس مايكل، سأبحث أنا وزاك، تابع أنت عملك على الحاسوب.

= شكراً لكما، هذا يساعدني كثيراً فنحن في آخر الشهر ولدي عمل كثير ومراجعات.

بعد دقائق من البحث عثر ديف على تقرير سرقة الفيلا، لم يكن بإمكانه إخفاؤه فمكتب مايكل مواجه للخزن، لذا غمز زاك الذي فهم عليه فوراً، فاتجه إلى مايكل ووقف أمامه بحيث غطى بجثته الضخمة مكان وقوف ديف وأخذ يسأله عن زوجته وابنه، في حين وضع ديف التقرير تحت ملابسه وتابع البحث حتى عثر على تقرير المتجر فأخرجه واقترب من زاك ومايكل.

= عثرت عليه أخيراً.

ادعى أنه يبحث فيه عن شيء ما، ثم بعد دقائق أعاده مكانه وشكر مايكل وغادرا الغرفة.

= حصلت على التقرير؟

= أجل، شكرا لك زاك، أنت صديق حقيقي.

= ألن تخبرني ما الذي يحدث؟

= لا يمكنني الآن أبداً، ربما غداً زاك، واعذرني فيانا في خطر.

*****

العودة إلى المنزل.

جلس ديف خلف مقود سيارته، وأخرج التقرير الذي كان يخفيه بعناية تحت معطفه. نظر إليه لحظة، ثم بدأ يقرأه بعينٍ متفحّصة. كانت أنفاسه هادئة ظاهريًا، لكن عقله يغلي بالتفكير، وأصابعه تدون ملاحظات دقيقة في دفتره الجلدي، كما لو كان يرسم خريطة معركة لا مجال فيها للخطأ.

ومع انقضاء ساعتين من التركيز والانغماس، بدأت الخطة تتشكل في ذهنه بوضوح مقلق. لم يكن أمامه سوى ثلاث عقبات حاسمة، لكنها محفوفة بالمخاطر وينبغي اجتيازها بدقة جرّاح.

الأولى: البوابة الرئيسية، المحروسة برجلين لا تغفل أعينهما، خصوصًا مع إحاطة أسوار الفيلا بكاميرات مراقبة ترصد كل شبر.

الثانية: الخزينة المحصنة، التي لا تفتح إلا ببصمة السيد بنجامين نفسه.

الثالثة: الكاميرا المسلطة مباشرة على الخزنة، والتي تنقل صورتها في بث حي إلى غرفة الحراس، مما يجعل أي تحرّك مريب محفوفًا بالخطر.

لكن ديف، الذي قضى عمره يقرأ عقول المجرمين، قرأ أيضًا بين تلك السطور بصيصًا من الأمل. رأى أن ارتداءه لزِيّه الرسمي ودخوله باسم القانون قد يكون طُعماً مقنعًا، يخترق جدران الشك. وإن ضاقت السبل، بقيت له بطاقة قديمة أخيرة يراهن عليها: صداقة باهتة من زمن المدرسة مع بنجامين، قد يوقظها الاضطرار.

عاد إلى منزله وقد ثقلت على كتفيه ملامح الخطة وما تحمله من مخاطرة.

وعند الخامسة مساءً، وصل زاك، محاولًا بثّ شيء من الطمأنينة في نفس

ديف وسيلين، يسكّن توترهما بكلمات صديق يعرف متى يصمت ومتى يتكلم. ثم غادر على الثامنة لبدء ورديته الليلية.

وقبل التاسعة بدقائق، ودّع زوجته سيلين، طبع على يدها قبلة خفيفة ملؤها القلق والترقّب، ثم أوصاها بألا تتصل بالشرطة مهما حدث، إلا إن مرّ الليل بطوله دون أن تسمع صوته.

مضى ديف وحده في ليل المدينة، يعبر الشوارع الهادئة نحو الجنوب الغربي، حيث ترقد فيلا رجل الأعمال بنجامين فرانك على ضفاف **نهر المسيسيبي**، متوارية خلف هدوء خادع لا يشبه شيئًا من الذي يدور في ذهنه الآن.

*****

الفصل الخامس

الولايات المتحدة الأمريكية

سجن ميامي

صباح يوم الأربعاء ...

اتّجه سبيروزار نحو مستوصف السجن بخطى مثقلة بالرهبة والترقّب. كانت المخاطرة التي سيقدم عليها أشبه برقصة على حافة الهاوية، ومع ذلك فقد عزم على خوضها حتى النهاية، مقتنعًا أن ثمن المغامرة، مهما بلغ، أهون من قضاء عشرة أعوام خلف القضبان ظلمًا، كما يؤمن في أعماقه

لكنه لم يكن غافلًا عن الوجه الآخر لخريطة الهروب التي بين يديه: فشل الخطة لا يعني سوى المؤبد، لا بصفته سجينًا سياسيًا أو مُفكِّرًا مضطهدًا، بل كأي مجرم عادي تطويه الزنازين بلا أثر. وكان لهذا التصوّر وقعٌ مُفزعٌ لا يستهان به.

تمتم في داخله :(يا إلهي، لعلها أسرع عملية هروب في تاريخ السجون). كان يشعر بنفسه وكأنه حصان طروادة، لكن هذه المرة ليس داخل أسوار مدينة، بل في قلب نظام عقابيّ مُحكم. وها هو اليوم، قد حان موعد فتح خاصرته الخشبية ليخرج منها المقاتلون.

صحيح أنّ ما يوشك على فعله يُعد خرقًا فادحًا للقانون، بل كارثة أخلاقية من وجهة نظر كثيرين، إذ سيفتح الباب أمام الإفراج عن عشرات السجناء، كثيرٌ منهم لا تخفى جرائمهم، لكنّه لم يرَ في ذلك سوى أثر جانبي لا مفرّ منه، كدواء شافٍ يحمل سمّه في طيّاته. لقد سُجن ظلمًا لعشر سنوات، وعلى القانون ذاته الذي سمح بتلك المأساة أن يذوق مرارتها.

سارت ساعات الصباح بثقلٍ مريب، كأنّ الزمن نفسه كان يتحسّس خطاه. وفي تمام الساعة الثانية إلا ربعًا، وكما كان متوقّعًا، تعالت جلبة مفاجئة في الخارج، تبعتها خطوات متسارعة.

ثم انفتح باب المستوصف بعنف، ودخل شرطيّان يرافقان **هوو**، الذي كان يُمسك صدره ويصرخ بألم مدوٍّ.

الستار قد ارتفع. والمشهد الأول من الهروب بدأ.

= أيها الطبيب سبيروزار، يبدو أن السجين هوو يتعرض لذبحة قلبية.

تظاهر سبيروزار باللهفة والانفعال.

= مددوه على الفور على سرير الفحص.

باشر بفحص هوو بقلق واهتمام مبالغ فيهما، في حين غادر الحارسان وبقي غابي حارس المستوصف إلى جانبه، قال بقلق واضح.

= هل تحتاجني بشيء أيها الطبيب؟

= في الوقت الراهن لا، سأتابع الفحص وأخبرك بما يتوجب فعله بعدها.

خرج غابي وأقفل الباب خلفه.

نظر سبيروزار إلى الساعة المعلقة على الجدار وكانت تقترب من الثانية ظهراً، انتظر خمس دقائق ثم قال لهوو:

= هل أنت مستعد الآن؟ عليك لعب دور فاقد الوعي ولدينا أقل من ربع ساعة قبل أن يعود صموئيل.

= جاهز تماماً، لنفعلها.

ذهب سبيروزار إلى الباب ولكن لسوء الحظ وقبل أن يطرقه فُتح، وكان مدير السجن كارلو بنفسه، أدرك سبيروزار أن الخطة انتهت بفشل ذريع، فصموئيل سيعود بعد قليل وستفلت فرصتهم الذهبية من أيديهم.

قال المدير كارلو.

= ضعني في صورة الوضع سبيروزار، ما الذي جرى لهوو؟

فكر سبيروزار بسرعة البرق ونظر إلى هوو الذي كان يبدو شبه طبيعي، لذا لم يكن هنالك سوى جملة واحدة لتقال.

= هوو بخير، لقد اعتقدنا أنها ذبحة صدرية لكن تخطيط القلب طبيعي كما تراجعت الأعراض، يبدو أنه مجرد ألم صدري جداري في العضلات نتيجة حركات الكونغ فو التي يقوم بها هوو.

= إذا فهو يستطيع العودة إلى زنزانته. ؟!

= بالطبع.

وهكذا انتهت المسرحية من فصلها الأول... عاد هوو إلى زنزانته بصمت يشبه الاعتراف، وقد انطفأت شرارة الهروب تحت رماد الفشل. لحظة قصيرة فصلت بين الحلم والانكسار، كأن الزمان نفسه توقف ليسخر من جرأة الفكرة. فهل كانت تلك نهاية الحكاية؟ لا... لم تكن إلا بدايتها الحقيقية

سبيروزار، ذلك العقل الموشوم بالحدس والخطر، لم يكن ممن يلقون أوراقهم في مهبّ الريح دون خطة احتياطية. كان يعرف أن المصادفات لا تتكرر، وأن الغياب المفاجئ للطبيب دانييل، وتركه وحيدًا في المستوصف، ليس سوى شقٍّ نادر في جدار القدر. لذلك، رسم في الخفاء خطة أكثر جموحًا، أقرب للجنون منها إلى العقل.

خُطته البديلة، (الخطة ب)، كانت تتغذى على تفاصيل صغيرة لا ينتبه لها أحد: في كل مساء، عند السادسة تمامًا، تحط طائرة هليكوبتر فوق سطح السجن، حاملةً سجناء وأغراضًا، لتغادر في السادسة والنصف وقد تقلّبت حمولتها. والمفارقة التي راهن عليها، أن غرفة المستوصف كانت الوحيدة تقريبًا التي لا تحرسها قضبان الحديد بحكم أن الطبيب ليس سجينا والغرفة في الأدوار العليا.

كان عليه، في السادسة وعشر دقائق، أن يفتح النافذة خلسة، ويتسلّق الحافة الإسمنتية، صاعدًا مسافتين رأسيّتين نحو سطح الطابق السابع، حيث تهبط المروحية. النزول إلى الأسفل لم يكن خيارًا، فهناك تكمُن الحراسة، وهناك تنام العيون مفتوحة. أما الحرية... فبوابتها الوحيدة مغلقة بألف قفل.

كان يعرف أن الخطوة مجنونة، وأن الفشل فيها لا يعني العودة إلى الزنزانة... بل السقوط إلى القاع، حيث لا تعود للإنسانية ملامح.

مرت الدقائق كأنها دهور. جسده يتصبب قلقًا، وكل خلية فيه مشدودة كوتر في انتظار اللحن الأخير. وحين دوّى هدير الطائرة عند السادسة، لم يرتجف... بل انتظر عشر دقائق أخرى، ثم حرّك النافذة ببطء يليق بحرج الموقف، وتدلّى منها كقطرة حبر تنزلق على ورق النهاية. قبض على الفريز بكل ما بقي فيه من حياة. الحديد كان قديمًا، يئن تحت وزنه، وكأن الزمان نفسه يحتجّ على تلك المحاولة. كل احتمالات السقوط والانكشاف كانت تتراقص أمام عينيه.

وبعد صعودٍ دام عشر دقائق من التوازن الدقيق، بلغ السطح. وهناك، في زاوية معتمة تشبه قبرًا مفتوحًا، جلس يراقب المروحية وهي تستعد للإقلاع. وعندما بدأت شفراتها تدور، وانسحب الحارس نحو الداخل، زحف سبيروزار كظِلّ، اقترب من الطائرة، وقفز على عجل. كانت الطائرة قد ارتفعت عن الأرض نحو متر، لكنه تشبث بقضبانها كما يتشبث الغريق بآخر وهمٍ للنجاة.

والآن... ما الخطوة التالية؟

كان جسده معلقًا بين السماء والمجهول، بينما روحه تتأرجح بين الخوف والحرية. وفي لحظة مباركة، مالت الطائرة جهة المحيط، ثم بدأت تحلّق على ارتفاع منخفض. رأى تحتَه سواد الماء اللامتناهي، فشمّ فيه وعدًا بالتحرر، وقصة جديدة لم تُكتب بعد.

وحين أصبح الارتفاع مناسبًا، أطلق يديه... وسقط كمن يلقي بنفسه في الغفران. جسده انحدر كالسهم، شقّ الريح ثم اخترق المحيط البارد كجسد وُلِد من جديد في رحم البحر.

غاص عميقًا في ظلمة المياه، ثم عاد يطفو ببطء، كأنه يخرج من حلم ضبابي. وحين لامس وجهه الهواء، شعر بشيء يشبه الولادة... الحرية لها رائحة، لها طعم، ولها رعشة تسري في العظام.

لم يكن بعيدًا عن المرسى، وكان ذلك جزءًا من الخطة الاحتياطية التي رسمها. سبح بهدوء تحت عباءة الليل، حتى بلغ يخته الراسي. تسلّقه من الخلف، وأخرج المفتاح من مخبئه السري، ثم أدار المحرك بيدٍ لم تعد ترتجف. كانت وجهته محددة سلفًا: **جزر البهاماس**... حيث يعيش **سيمون**،

صديقه الذي لا يسأل، بل يستقبل بصدر رحب.

ثلاثمئة كيلومتر تفصله عن الضفة الأخرى من حياته. بضع ساعات فقط... ويبدأ فجرٌ جديد.

*****

في اليخت. نحو البهاماس.

فتح باب الخزانة كما يفتح إنسان باباً جديداً على الحياة. كانت الثياب الدافئة التي بداخلها تنتظر جسده كما تنتظر الأرض العطشى المطر، لتمحي ذاكرة القماش الرمادي الذي وعده أن يلتصق بجلده لعشر سنوات. خلع ملابس السجن الرمادية طواها بعناية، لا حبًا فيها، بل احتراما لوجعٍ عاشه داخلها، ثم دسّها في زاوية مظلمة، كأنها خطيئة يخجل منها الضوء.

جفّف جسده، ارتدى ثيابه الجديدة، وخرج إلى السطح. كان البحر ممتدًا كحلمٍ قديم، وزجاجة البيرة في يده ترتجف كقلبٍ نجا ويحتفل بالانتصار، رفعها إلى فمه، شرب منها كمن يشرب لحظة خلاص، وترك طعم المرارة يختلط بطعم الحرية.

بالأمس كان رقمًا في قبو الحياة، واليوم... بات رجلاً يعبر المياه نحو جزرٍ لا يعرف عنها شيئًا سوى أنها ليست السجن القميء. لكنّ العواصف لا تعبأ بالأمنيات، فبعد ساعة من الإبحار، تقلب وجه البحر، وتجمّعت الغيوم كما تتجمّع الأحزان في صدر عاشق يائس. هاج البحر، وضاعت ملامح الرحلة، ليجد نفسه محاصرًا في قلب عاصفة لا تشبه السجن... لكنها لا تقل قسوة عنه.

أطفأ المحرك كي يوفر الوقود. ترك اليخت يُقاد بلا إرادة، تمامًا كما اعتاد أن يُقاد هو داخل السجن. كورقة شجر ضلّت طريقها، ظلّ يتأرجح وسط الغضب السماوي، ثم انسحب إلى الأريكة الصغيرة، وجلس عليها يقضم الوقت بأسنانه، والذكريات تعاود الانقضاض عليه: **هوو**، **رفاييل**، البقية... هل نفّذ أحدهم الخطة؟ هل ضاع المفتاح في جيب الزمن؟ ماذا لو أُعيد اعتقالهم؟ إن العودة هذه المرة لا تعني السجن فقط، بل النهاية، الإعدام ربما. لكنه يرى فيه رحمةً تفوق الحياة المؤبدة في السجن.

السجن ليس مكانًا... إنه نفي مستمر من الذات. موت لا يعلن عن نفسه.

والأفظع منه، أنه لا يقتلك دفعةً واحدة، بل يجعلك تتآكل، تنهار، تُعيد تعريفك للزمن، فتنسى أيام الأسبوع، ويصير الليل والنهار مجرد لونَين باهتين لمصباح مكسور.

مدّ يده إلى مكتبته الصغيرة، تلك التي حملها في رحلاته وكأنها وطنه السرّي، وأخرج منها كتابًا في الفلسفة. لم يكن يبحث عن أجوبة، بل عن رفقة تليق بعزلته. قرأ منه سطرًا... ثم توقف. نظَر إلى جدران القمرة التي تهتز مع الريح، وفجأة، تساءل: ما الفارق بين زنزانته السابقة وهذه الغرفة؟ أليس وحده هنا أيضًا؟ أليس محاصرًا؟ خائفًا؟ لا يعرف إلى أين تأخذه العاصفة؟

بل ما الفرق بين السجن، وبين حياته القديمة كطبيب؟ كان سجين مهنته، منزله، عطلاته المبرمجة، وحتى ضجره. كل ما فعله في حياته كان تحت سقفٍ ما، بقانونٍ ما، بإذنٍ ما... لكنه لم يشعر قط بالاختناق كما شعر به في السجن.

الفرق الحقيقي ليس في الجدران، بل في امتلاك القرار. في السجن، يُصادَر منك كل شيء: حقك في الحركة، في الصمت، في الاختيار، حتى في الحلم. تصير ملكًا للروتين. تُعلّب في جدول زمني، يُمنع عنك الهواء العشوائي، ويُفرض عليك بشرٌ لم تخترهم، وأحاديث لم ترغب بها.

الحرية، تبيّن له، ليست فعل الهرب... بل قدرة على أن تقول (لا)، على أن تختار، حتى لو كان خيارك غرقًا. الحرية لا تعني أن تخرج من السجن فقط، بل أن تخرج من كل ما شابه السجن في حياتك: الخوف، التكرار، العادة، الطاعة العمياء.

ربما نحن جميعًا مسجونون على هذا الكوكب. لكن أن تمتلك هامشًا للاختيار، أن تُمنح وهم الاحتمال، أن تؤمن بأنك لست مجبرًا بالكامل... تلك هي الحرية. وهي أكسجين الروح الذي يتقطع عنك ما إن تطأ قدماك عتبة السجن، لتتحول إلى عبد مهان بلا قرار أو اختيار.

*****

استمرت العاصفة بلا هوادة لسبع ساعات متتالية، كأنها تُريد أن تبتلع العالم بأسره في غضبها اللاهث. وعندما خفّت حدتها، عاد سبيروزار ليشغل محرك اليخت، كمن يوقظ روحاً غافلة من سباتها الطويل. حاول استدعاء نظام الملاحة، ذاك المرشد الخفي الذي يُهدي الخطى في ظلمات البحر، لكنه ظل صامتًا بلا إجابة، كأنه مات في خضمّ العاصفة.

وقف على سطح اليخت، يحدق في السماء اللامتناهية، يبحث عن نقطة ثبات في بحر اللايقين. هناك، تلمّس نجم القطب، ذاك النجم الذي لا يغيب ويشير إلى الشمال باستمرار، فأشرق في قلبه بصيص أمل. وجه بوصلته نحو الشمال الغربي، حيث اليابسة تنتظره خلف الأفق كما تفترض الخرائط، وبدأ رحلة إبحار جديدة، لكنها رحلة مفعمة بالخوف والرهبة.

بعد ساعة من المضي في هذا الغموض، وإذا به يخترق ستاراً من الضباب الكثيف، يحجبه عن العالم. وأصبحت السماء مغطاة بسحب ملبدة وعواصف رعدية تعصف كغضب الالهة. كهرباء اليخت أخذت تتأرجح بين الانطفاء والاشتعال، وكأنها تتلوى تحت وطأة قوة خفية تسيطر على كل شيء.

في تلك اللحظة، استعادت ذاكرته قصة **مثلث برمودا**، ذلك المكان الذي يصفه الجميع كموطن الأساطير والأسرار. هل هو هناك، في قلب تلك المنطقة الغامضة ؟! إن الجغرافيا تدعم هذه الفرضية فالمثلث يقبع بين **فلوريدا وبرمودا وبورتوريكو** ربما جرفته العاصفة الهوجاء إليه، لكن إن كان قد بلغه بالفعل فما الذي ينتظره تالياً ...؟

لم يدم سؤاله سوى لحظات، ففجأة ومن اللامكان ظهرت دوامة سوداء ضخمة في قلب المحيط، كانت كعين عميقة تبتلع كل ما يحيط بها. فزع بشدة وحاول بكل ما أوتي من قوة أن يوجه اليخت بعيداً عنها، لكن جاذبيتها كانت أشبه بثقب أسود فضائي، تسحب كل شيء نحو الأعماق. رفرف قلبه كطائر ذبيح، يا إلهي أهذه هي النهاية ...؟

بلغ حدود الدوامة أخيراً، ثم غمر الظلام المكان بأكمله، كأن البحر ابتلعه الى أحشائه. لكن لحظات قصيرة، ثم وجد نفسه ينجو من قبضة الدوامة، ودفعته تيارات غامضة بعيدًا عنها، لكن مع فارق غريب ومخيف، أنه الآن في وضح النهار في حين ابتلعته الدوامة في أعماق الليل!

تساؤلات بلا إجابات عصفت بعقله: كيف اجتاز تلك الدوامة بهذه السهولة؟ ولماذا تحولت من قوة جاذبة إلى قوة دافعة في غمضة عين؟ وكيف تحول الليل فجأة إلى نهار؟

نصف ساعة مضت وهو يتقلب بين الأسئلة الحائرة والفرضيات العجيبة، ثم تجلّى الضباب من حوله وصفا الجو بالكامل، لكن الحرارة كانت شديدة لدرجة شعر بدمائه تتبخر من عروقه. نظر الى ميزان الحرارة فأشار إلى أربعين درجة مئوية، يا ألهى هذا مناخ صحراوي لا مكان له بين أمواج المحيط!

هز رأسه بدهشة وتعجب، ثم ارتدى قبعته ونظاراته الشمسية وخرج إلى سطح اليخت ليتحرّى الواقع بنفسه. نظر إلى السماء، رجفت ساقاه وشعر بنفسه سيسقط على الأرض فقد كانت هنالك شمسان في كبد السماء.

*****

الفصل السادس

الولايات المتحدة الأمريكية

لويزيانا / نيو أورليانز

منزل بنجامين فرانك. في تمام الساعة التاسعة ...

وصل ديف إلى الشارع الهادئ الذي يفضي إلى قصر بنجامين فرانك، رجل الأعمال الذي تلوح بصماته في كل ركن من أركان النفوذ والثراء. وقف في الظل المقابل، يتأمل الواجهة الباذخة، حيث تتشابك الفخامة بالحذر، وتتجسد السلطة خلف بوابة حديدية شاهقة، يحرسها كشك صغير يقبع فيه حارسان ساكنان كتمثالين من صخر، تمامًا كما ورد في ملف العملية، بكل تفاصيله الدقيقة.

ترددت في صدره أنفاس غير منتظمة، تمازج فيها التوتر بالخجل؛ خجلٌ ممن كأنه، وممّن يُجبر الآن أن يكونه. لكنه سرعان ما كمّم صراخه الداخلي، وارتدى على وجهه قناعًا من رباطة الجأش، كمن يقنع نفسه بأن الشجاعة تبدأ بخطوة، ولو كانت نحو الخطأ.

راجع خطته في ذهنه كما يتلو المرء صلاته الأخيرة، ثم تقدّم بخطى محسوبة نحو كشك الحراسة. لوّح للحارسين بإيماءة توحي بالثقة، فتململت الحياة في أحدهما، وخرج من الكشك بخطى بطيئة ليرى من يكون ذلك الزائر المفاجئ

= أهلا حضرة الشرطي، كيف يمكنني خدمتك ...؟

أبرز ديف شارته للحارس.

= أنا الشرطي ديف آدمز وأريد مقابلة السيد بنجامين لأمر ضروري.

= وهل أنت هنا بمهمة رسمية؟

= لا زيارة شخصية فحسب.

= حسنا سيدي انتظر قليلاً.

دخل الحارس إلى الغرفة وأجرى اتصالاً سريعاً عبر جهاز خاص ثم خرج

مجدداً.

= السيد بنجامين يسأل عن سبب الزيارة من فضلك؟

= أخبره أن لدي أخبار غير رسمية عن إمكانية تعرض الفيلا لسرقة ثانية

ابتسم الحارس.

= ومن هو غريب الأطوار هذا الذي سيحاول سرقة الفيلا من جديد، إنها عبارة عن حصن حقيقي ولن يخرج منه لص سالماً على الإطلاق ...!

= هذا جيد، ولكن واجبي يحتم على مقابلة السيد بنجامين واتخاذ بعض الاجراءات الاحترازية.

= حسنا سيدي، انتظر ثوان.

دخل الحارس إلى غرفة الحراسة وغاب قليلاً، ثم خرج مجدداً.

= هل يمكنني رؤية شارتك بدقة سيدي.

= بالطبع تفضل.

دقق الحارس في الشارة جيداً، ثم دخل غرفة الحراسة وأجرى بعض البحث على حاسوب هنالك ثم خرج.

= إن لديك تاريخ حافل ومثير للإعجاب في مكافحة الجريمة سيد ديف، ترفع لك القبعة. تفضل، السيد بنجامين بانتظارك لكن على تفتيشك أولاً.

= بالطبع.

فتشه الحارس بعناية.

= مسدسك سيبقى معنا هنا حتى تغادر الفيلا، هل تمانع بذلك؟

ابتسم له ديف وهو يفكر، إنه لخطأ جسيم أن يترك مسدس العمل الرسمي بيد غرباء، لكن ليس لديه خيار آخر.

= إطلاقاً، لكن حافظا عليه، إنه ملك الدولة وليس ملكي الشخصي.

ابتسم الحارس بدوره.

= بالطبع سيدي.

ثم فتح له البوابة عبر زر خاص من داخل الغرفة.

لمح ديف، بطرف عينه، الحارس وهو يُخفي مسدسه في الدرج الثاني من المكتب، لمحة عابرة لكنها حُفرت في ذهنه بدقة البصمة. ثم خطا بثبات داخل الحديقة الأشبه بأشجارها المتعانقة كأدغال إفريقية، متجهًا نحو باب الفيلا، الذي لم يكن بعيدًا عن البوابة الحديدية. توقف لحظة، كأنما يلملم شتات أفكاره المتسارعة، ثم مد يده وطرق الباب.

لم تمضِ سوى لحظات حتى تناهى إليه وقع خطوات تقترب، تبعها صوت فتح القفل، ثم انفتح الباب على رجل يعرفه العالم، رجل تملأ صوره الصحف والشبكات الإلكترونية: بنجامين فرانك، واقفًا أمامه بملابس منزله، وقد ارتسمت على وجهه علامات قلقٍ خافت، وهو يقول بصوت متحفظ يشوبه التوجس.

= أهلاً سيد ديف، تفضل بالدخول، أخبرني الحارس أن الفيلا قد تتعرض لسرقة ثانية.

= أهلاً سيد بنجامين، نعم للأسف هذه أخبار صحيحة.

دخلا إلى غرفة الضيوف وجلسا.

= وكيف عرفت أنت بذلك؟

= خلال استجوابي لأحد المتورطين في سرقة متجر أمس أخبرني أنه سمع من شخص آخر أنه يخطط لسرقة هذه الفيلا.

= وهل قبضتم على ذلك الشخص؟

= للأسف لا، نحن نبحث عنه دون جدوى، فهو متخف تماماً عن الأنظار، ولا نعرف اسمه الحقيقي، ولا مكان إقامته، مجرد صورة تقريبية لوجهه

= ولماذا أنت هنا بصفة غير رسمية؟

= لأن المعلومات لدينا قليلة وتعتمد على كلام شاب مراهق، وبدون تواريخ

محددة، لذا فهي لا تنطوي تحت شعار التهديد الرسمي المؤكد الذي يستدعي تدخل الشرطة.

ساد الصمت للحظات قليلة، وكان ديف يتأمل كل شيء من حوله بما فيه السيد بنجامين أيضاً، ولاحظ وجود وشم صغير على ساعد يده اليمنى لم يتمكن من معرفة ماهيته عن بعد، ثم قطع الصمت سؤال السيد بنجامين المرتقب.

= ولماذا أنت مهتم بالموضوع وتريد تحذيري منه سيد ديف...؟

نظر إليه ديف وابتسم، لقد وصل إلى النقطة الحاسمة التي سيكسب بها ثقة بنجامين ويبرر مجيئه.

= من الواضح أنك لم تتذكرني بعد سيد بنجامين؟

نظر إليه بنجامين بتمعن.

= اعذرني ولكن لا لم أتذكرك!

= لقد قضينا عشرة أعوام سوياً في نفس المدرسة، أتتذكر عندما حاول بعض التلاميذ الأكبر منك سناً في الصف السابع ان يعتدوا عليك بالضرب بسبب مباراة كرة السلة، فتدخلت انا وأبعدتهم عنك.

استيقظت ذاكرة بنجامين كمن صعقها بنبضة كهربائية ثم ابتسم ابتسامة عريضة.

= بلى تذكرت، أهلاً ديف، كيف هي أحوالك؟ لقد أصبحت شرطياً إذن.

= أهلا سيد بنجامين، أحوالي جيدة، نعم كما ترى لقد تطوعت في مجال الشرطة.

= كم هذا لطف عظيم منك، لقد دافعت عني بضراوة وقتها وها هو الزمن يعيد نفسه من جديد لتدافع عني مرة أخرى وتحذرني من السرقة، أنت صديق شهم ووفي للغاية.

اجتاح ديف شعور بالإحراج الشديد، فهو مقبل على سرقة السيد بنجامين وكسر القانون الذي يفترض أن يحميه، لكن صوت يانا الباكي أعاده إلى الواقع المرير.

= لا شيء مهم سيد بنجامين، فهذا واجبي على كل حال.

= لا أبداً، كثيرون غيرك ما كانوا ليكترثوا في الحالتين، ماذا تحب أن تشرب سيد ديف ...؟

= شكرا لك، لا شيء، أحببت أن أنبهك فقط لتأخذ حذرك وتشدد الحراسة على الفيلا.

= لا أبداً، لا يجوز ان تغادر هكذا، أنا أشرب المارتيني فهل تشاركني بكأس ...؟

= لدي وردية عمل ولا أستطيع شرب الكحول سيد بنجامين، كأس قهوة سيكون ممتازاً؟

= حسناً، يا لك من شرطي مثالي سيد ديف، نحن نفتخر بك.

نهض السيد بنجامين واتجه صوب المطبخ المفتوح على غرفة الضيوف، فومضت في ذهن ديف شرارة الفرصة التي لا تُعوَّض. الوقت لا يسمح بالتردد، والخطة لا تحتمل الخطأ. نهض بخفة قاتلٍ مدرّب، وانسل خلف مضيفه كظلٍ بلا صوت. من جيبه استخرج قطعة القماش المشبعة بمخدرٍ مركّز، وأطبقها بثبات على أنف الرجل وفمه قبل أن يلتفت أو يصرخ.

حاول بنجامين التملص لوهلة، عيناه جاحظتان من المفاجأة، لكن المقاومة خبت سريعًا، وسقط جسده على الأرض كدمية فارغة. ديف لا يملك سوى ربع ساعة قبل أن يستعيد وعيه، الزمن الآن عدوه الأول.

انحنى والتقط الجسد المترهل بين ذراعيه، قلبه يخفق كطبول الخطر، وعرقه يبرد تحت سترته. صعد الدرجات بخطى ثابتة، وكل صرير خشبي كان صفير إنذار في أذنه. بلغ الطابق العلوي، واتجه نحو الغرفة الثانية على اليمين، غرفة المطالعة، بحسب ما ورد في تقرير السرقة الأولى. هناك، في جدارها الشمالي، من المفترض أن تختبئ الخزينة.

مدّد بنجامين أمامها، ثم أسرع إلى الطابق السفلي. كان يعرف موقع علبة الكهرباء مسبقًا، إلى يسار الدرج. فتحها، وأنزل القواطع دفعة واحدة.

في لحظة، ابتلعت العتمة الفيلا. اختفى كل ضوء، وكل صوت. حتى غرفة الحراسة غاصت في ظلام دامس.

سمع ديف صوت أحد الحراس عبر جهاز في غرفة الجلوس.

= هل هنالك خطب ما سيدي؟

وبعد ثوان من عدم الرد عاد صوت الحارس.

= سيدي هل أنت بخير؟

الآن بدأت لعبة الثواني القاتلة.

ديف يدرك أن الحارسين سيتحركان فورًا، وربما يكونان قد أبلغا الشرطة منذ لحظة انقطاع التيار. الزمن صار عدوه الأشد، وعقارب الساعة تطعن روحه مع كل ثانية تمضي. أمامه أقل من عشر دقائق، إما النجاح... أو الانهيار.

وفجأة، جاء الصوت المنتظر، خطوات تقترب من باب الفيلا. أدار المقبض ببطء، ووقف خلفه يتنفس في صمت كقاتل متربّص. انفتح الباب... تقدم الحارس الأول متحسسًا طريقه في العتمة. وفي لمح البصر، انقضّ عليه ديف كوميض برقٍ نازل من السماء، خنقه بقطعة القماش المخدّرة حتى خرّ صريعًا دون أن يصدر حتى أنينًا.

لكن لم ينتهِ الأمر بعد.

الحارس الثاني لا بد أنه التف من الخلف، ديف يعرف البروتوكولات، بل يتنفسها. وفعلًا... صوت خطوات خافتة يخترق البهو كهمسة موت.

ارتدى ديف نظارات الرؤية الليلية. صار الظلام حليفه، والوقت عدوه. تسلل بخفة قطّ ليلي خلف الحارس، حتى صار على بعد نفس، ثم باغته بذات الطريقة... جسد آخر يسقط، وصوت قلب ديف وحده يملأ الفضاء.

لا وقت لتذوّق النصر، فالمعركة لم تنتهِ بعد.

انطلق إلى غرفة الحراسة، فتح الدرج الثاني، استعاد مسدسه، ثم هرع عائدًا إلى الفيلا. صعد الدرجات كأن الأرض تحته تشتعل، وجرّ جسد بنجامين فاقد الوعي إلى داخل غرفة المطالعة.

الخزنة أمامه... أملٌ مكسوّ بالحديد.

وضع إبهام بنجامين على جهاز البصمة. لا شيء. أعاد المحاولة. الصمت. ثم لاحظ لوحة مفاتيح رقمية أضيفت حديثاً.

قلبه هوى. الخزنة تتطلب بصمة وكودًا رقميًا من ستة أرقام؟ ملايين الاحتمالات... ودقائق معدودة.

تثاقلت أنفاسه. فكر بابنته... هل تفشل الخطة الآن؟ هل تنهار تحت وطأة رقم؟

ثم... ومضة برق في الذاكرة.

الوشم.

اقترب من ساعد بنجامين، نظر إليه كما ينظر إلى لغز نُقش على جلد الزمن

نظر إليه بتمعن وكان عبارة عن أربعة رموز متجاورة وهي برج الجوزاء وكوكب زحل وإشارة لانهاية وأخيرة رمز π الرياضي.



فكر بسرعة البرق، إن برج الجوزاء هو برج ابنته يانا وهو البرج الثالث في تسلسل الأبراج، فهل تشير الوشوم إلى أرقام؟ ربما! أدخل الرقم ثلاثة أولاً، ثم انتقل إلى الوشم الثاني لكوكب زحل واستذكر في ذهنه ترتيبه بين الكواكب بحسب بعدها عن الشمس فكان ستة، فأدخل رقم ستة، ثم وشم اللانهاية، فكر قليلا إنها تشبه رقم ثمانية مقلوب فأدخله بدوره، بقي الرمز π، ولحسن حظه فقد كان ملماً به من مساعدته لأبنائه في واجباتهم المدرسية، وهو يعلم أنه يعادل **3.14** فأدخل الرقم ثلاثة ثم واحد وأخيراً أربعة فأصدرت الخزنة تكة خفيفة وفتح بابها.

ابتسم ديف ابتسامة النصر... لكنها ابتسامة تسبق العاصفة لذا عليه الاستعجال ...

أخرج كيسًا صغيرًا كان قد أخفاه تحت ملابسه، وبدأ يحشو فيه المال والمجوهرات والذهب بدقة وسرعة.

ماذا عن الأوراق؟

تركها عمدًا.

فليضيع الذهب والمال، أما إذا انهارت شركة بنجامين... فالخسارة ستسحب معها أرواحًا كثيرة.

هبط الدرجات بخفة قاتل، وما إن وصل إلى الطابق السفلي حتى سمع صفير سيارات الشرطة يقترب من بعيد، يخترق سكون الليل كجرس يوم القيامة.

لا مجال للتردد.

اندفع نحو الباب الخلفي، دقات قلبه تتسابق مع خطواته، تسلق شجرة قريبة من السور، تعلق بأغصانها كظلٍ في الريح، ثم قفز على الأرض المقابلة في خفة الهاربين من العدم.

وفي اللحظة التي وطأت قدماه فيها الشارع، اجتاحت سيارات الشرطة مدخل الفيلا كجيوشٍ متأهبة.

لكنه كان قد عبر إلى الضفة الأخرى... إلى منطقة الظلال.

ركض كأن الريح تطارده، وجهته واضحة: ضفة النهر.

ضفة نهر المسيسيبي.

مرسى القوارب.

بعد ربع ساعة من الجري عبر الأزقة والمسارات المهجورة، وصل ديف إلى المرسى.

الليل كان كثيفًا... لكنه يعرف العلامة: شجرة ضخمة تقف كحارسٍ قديم وهناك، كما وُعد، كان القارب في انتظاره.

اسم القارب محفورٌ على الخشب المبلل: البومة.

وعلى متنه... رجل وحيد، وجهه مخفي بظل قبعته، يدخن سيجارة تتوهج في عتمة الليل كعينٍ ترقبه.

اقترب ديف، أنفاسه ثقيلة، قلبه لا يزال يحارب.

= مرحبًا، الأمانة معي.

لم ينبس الرجل بكلمة.

مدّ يده وأخذ الكيس، تفحّصه، ثم أدار المحرك دون أن ينظر إلى الوراء، ورحل مع الريح.

بقي ديف واقفًا، والفراغ يبتلع صدى اليخت.

ما الخطوة التالية؟

لا طريق للعودة.

لا يمكن أن يسلّم نفسه للشرطة، فابنته لا تزال في قبضة المجهول.

منزله لم يعد خيارا بل صار فخًا. والشرطة ستكون هنالك في اي لحظة بعد ان يستفيق بنجامين.

تقدّم بخطوات متثاقلة على ضفة النهر، يفكر، يحلل، يقاوم الانهيار.

ومضت ساعة كاملة قبل أن يهتز صمت الليل.

رنين الهاتف.

رقم مجهول.

لا شك أنهم هم.

= نعم.

= أحسنت يا ديف، لقد وصلني الكيس وتأكدت من محتوياته، ستعود ابنتك إلى المنزل في غضون ساعة.

وأغلق الخط دون أي كلمة أخرى، في حين تنهد ديف بارتياح أخيراً، ثم اتصل بسيلين.

= عزيزتي الأمور على ما يرام، وجانا ستعود بعد ساعة من الآن إلى المنزل.

= وأين أنت الآن؟

= لا أستطيع العودة إلى المنزل حتى تصل يانا لاعتبارات خاصة، لذا عندما تصل كلميني بسرعة.

= حسناً، كن حذراً عزيزي.

*****

غرفة احتجاز يانا.

في الوقت ذاته، فتح شخصٌ مجهول الباب بهدوءٍ مدروس، وجهه مغطى بقناع يخفي ملامحه، واقترب بخطوات متثاقلة نحو الكرسي الذي قيدت عليه يانا.

كانت عيناها معصوبتين، وصوت الخاطف المنبعث من خلف القناع كان باردًا، لكنه يحمل تهديدًا خفيًا:

= الآن سأفك الحبال عن يديك وقدميك بناءً على أوامر الزعيم. لا تحاولي

المقاومة، وإلا ستدفعين الثمن. لا مجال للهرب، فالمنزل محاصر بالحراس. أنا هنا لأطلق سراحك، وستعودين إلى منزلك سالمة... هل فهمتِ؟

أومأت يانا برأسها، لكنها كانت تخفي غضبًا وعاصفة من الشك والتوتر، إذ لم تذق النوم منذ يومين، وكل جزء من روحها ينبض بالخوف.

ما إن فكّ الخاطف قيودها، حتى انتزعت العصابة عن عينيها، وانقضت عليه بشراسة.

بدأ الصراع بينهما، ضربات وتلاحم، حتى تمكنت من نزع القناع عن وجهه.

ارتدّ الخاطف بدفعة قوية، نظرت اليه يانا وفاضت عيناها بالرعب والدهشة، لكن قبل أن تنطق بأي كلمة، أخرج الرجل مسدسه في حركة خاطفة. وأطلق رصاصة صامتة استقرت في جبينها.

سقطت يانا بلا حركة، جثة هامدة على الأرض، وعمّ الصمت القاتل الغرفة.

*****

الفصل السابع

في مكان آخر مجهول ...

اجتاح سبيروزار إعصارٌ داخلي من الذهول والرهبة.

يا إلهي... ما الذي يحدث؟

هل خانه بصره؟ أم أنه عالق في حلمٍ لا يمكنه الاستيقاظ منه؟

راح يفرك عينيه بلهفة المرتبك، يحدّق في الأفق وكأنه يبحث عن معقولٍ في قلب اللامعقول...

لكن لا، لم يكن واهمًا.

شمسان! نعم، اثنتان، تسبحان في السماء، تدوران حول بعضهما برقصة نارية مجنونة، كأنهما تكراران للكون في مشهدٍ واحد.

أي أرض هذه؟

أي سماء تحتمل هذا العبء الضوئي المزدوج؟

هل اختطفته تلك الدوامة في مثلث برمودا إلى عالمٍ آخر، كوكبٍ لم تطأه قدم بشر من قبل؟

اندفع عائدًا إلى قمرة القيادة، فالحرارة في الخارج كانت تلسع جلده كسهام من لهب. لو بقي لحظات أطول، لأصابته ضربة شمس... أو بالأحرى ضربة شمسين!

فعّل أنظمة الطاقة الشمسية، أدار التكييف، وحدد وجهته على الشاشة نحو الشمال الغربي، وكأنه يبحث عن إجابة في الريح، أو خلاصٍ يختبئ خلف الأفق.

جلس متوترًا في مقعده، والقلق يغلي في صدره.

الخوف، التشتت، العجز...

ما هذا الجنون الذي يحيط به؟

كل ما حوله يهمس بكابوسٍ حيّ، والأسوأ أنه لا يملك سوى أن يبحر...

ينتظر...

ويأمل أن يكون ما وراء هذا الغموض، شيئًا يمكن فهمه... أو النجاة منه.

*****

بعد أربع ساعات من الإبحار وسط قلق لا يهدأ، لمعت اليابسة أخيرًا في الأفق كأملٍ طال انتظاره. خفق قلب سبيروزار بعنف... لعل الإجابات تلوح هناك، على بعد دقائق فقط.

وخلال نصف ساعة، بلغ اليخت ميناء سفن، لكن المفاجأة التي اصطدم بها كانت أشبه بصفعة باردة: الميناء مهجور تمامًا. لا أثر لإنسان، لا حركة، لا حياة.

السفن واليخوت والقوارب متناثرة بلا نظام، وكأن فوضى مفاجئة ضربت المكان.

شق طريقه بحذر بينها، حتى بلغ الرصيف، أسقط المرساة، وهبط إلى الأرض التي بدت كأنها تنبض بالصمت.

اندفع باحثًا عن مأوى يقيه لهيب الشمسين، فدخل أول مبنى صادفه، ثم أول شقة فتحت له بابها.

كان المكان غارقًا في الغبار، وكل شيء يشي بأنه مهجور منذ عقود.

لكن الصور على الجدران حملت إشارات واضحة: وجوه آسيوية، طقوس، صورة لجبل فوجي، ورُقى يابانية...

هو في اليابان، أو في نسخة منها ربما.

تابع استكشافه فدخل غرفة أخرى، وما إن وقعت عيناه على خريطة العالم المعلقة، حتى توقف كأن الأرض سُحبت من تحت قدميه.

الخريطة كانت معكوسة: الأمريكيتان على اليمين، وآسيا على اليسار، وأسماء البلدان مكتوبة بلغة لم يرَ مثلها من قبل.

بحث في الغرفة، فعثر على مكتبة قديمة، مغبرة، تصطف فيها كتب بلغات غريبة، ليست حتى اليابانية.

ما الذي يحدث؟

هل كانت تلك الدوامة في مثلث برمودا بوابةً خفية في نسيج الزمكان؟

هل نُقل إلى كوكبٍ آخر؟

عادت الفكرة نفسها تبث في جسده قشعريرة لا تطاق، لطالما سمع عن غرائب مثلث برمودا لكنه الآن يكتشفها بنفسه ويفهم أعماقها وأبعادها

ما الذي ينتظره في هذا العالم المقلوب؟ كيف سيحيان؟

من أين سيأكل أو يشرب؟ وإلى أين سيذهب؟

والأهم... كيف سيعود إلى الأرض، إذا كانت هذه حقًا ليست الأرض؟

قضى ساعات طويلة يتنقل بين الشقق الخاوية، يبحث في الصور، الأثاث، الوثائق، التفاصيل الدقيقة.

كل شيء من حوله ينطق باليابان...

لكنها، وبشكلٍ ما، ليست اليابان التي يعرفها.

واصل سبيروزار تجواله بين الشقق المهجورة، حتى عثر في إحداها على جهاز غريب الشكل، بدا من الصورة الظاهرة على شاشته أنه مترجم لغوي. تردد قليلًا، ثم ضغط زر التشغيل... فاستجاب الجهاز فورًا. كانت صناعته متقنة على نحوٍ مدهش، كما لو أنه مصمم ليصمد لعقود من الزمن دون أن يفقد كفاءته.

احتوى الجهاز على خاصية اللفظ الصوتي، فجرب سبيروزار أن ينطق بكلمة Earth وما هي إلا لحظات حتى ظهرت على الشاشة كلمة Earth تعلوها جملة مدهشة:

(لغة غريبة من كوكب الأرض، مجرة درب التبانة)

ثم تحوّلت الكلمة فورًا إلى لغة أخرى دُعيت بالمينغالوسية، والتي بدا أنها تعادل اليابانية على هذا الكوكب.

وضع الجهاز في جيبه كمن يعثر على كنز أو بوصلة تقوده في هذا الظلام المجنون، وسرعان ما هاجمته الأسئلة:

كيف عرف سكان هذا الكوكب بلغات الأرض؟

ربما من خلال أولئك الذين اختفوا في مثلث برمودا عبر السنين... طيارون، بحارة، مغامرون.

لكن، إن كانوا قد وصلوا هنا، فلماذا لم يعودوا قط؟

ارتعد جسده بفكرة لم يستطع كبحها: أيمكن أن يكون هذا الطريق من الأرض إلى هنا باتجاه واحد فقط؟

ألقى نظرة أخيرة على الغرفة من حوله. كل شيء يوحي بعالم مختلف: لغات غريبة، تكنولوجيا فائقة، أسلوب حياة غير مألوف.

كيف له أن يتأقلم مع كل هذا؟ كيف يبدأ من جديد في كوكب مجهول؟

نظر في ساعته... لا بد أن الليل قد حل. اقترب من النافذة وأزاح الستارة، فتوقف قلبه للحظة.

الضوء ما زال يغمر المكان... وكأن الصباح لا ينتهي.

مدفوعًا بالذهول، خرج من المبنى لينظر إلى السماء، وما رآه جَمّده في مكانه.

يا إلهي... يا لروعة المشهد!

كانت هناك حلقة سميكة من الصخور الفضائية تدور حول الكوكب، تُشبه حلقات زحل، لكنها أكثر إشراقًا. كانت تعكس ضوء الشمسين وتوزعه على سطح الكوكب كأنها ملايين المصابيح المتلألئة في سقف كوني هائل، تنثر النور بتجانس ساحر.

منظر فائق الجمال... لا يمكن للكلمات أن تبلغه، ولا للغة أن تصفه.

كما كان الهواء منعشًا ببرودة ناعمة... عندها فقط فهم سرّ الصور التي

رآها في المنازل، حيث الإضاءة دائمًا هكذا، ولا تكاد تظهر صور في وضح النهار.

هنا، الليل هو زمن الحياة.

يبدو أن سكان هذا العالم الغامض ينامون في النهار تفاديًا لحرارة الشمسين، ويعيشون في ساعات الليل المضيئة... تحت وهج الحلقات السماوية. لكن أين هم هؤلاء الناس الذين في الصور ؟!

بدأ الجوع ينهش سكونه الداخلي، يتسلّل كريح باردة بين أضلاعه، ويوقظه من دهشته المتواصلة.

ما الذي يمكن أن يأكله في كوكب لا يعرف اسمه، ولا قوانين وجوده؟

قادته قدماه إلى مطبخ في إحدى الشقق، بدا وكأن الزمن قد مرّ عليه دون أن يترك أثرًا يُفني ما فيه.

هناك، وقعت عيناه على آلة غريبة الشكل تعمل بالطاقة الشمسية. سطحها كان محفوفًا برموز ورسوماً توضيحية بدت أشبه بالتعاويذ التكنولوجية: كرة تُوضع في الجهة الأولى، يد تضغط على زر لاختيار نوع الطعام، المثلجات كانت المثال، ثم زر آخر للتحويل، وفي النهاية، يظهر الطعام في الجهة المقابلة.

اقترب منها بحذر الطفل أمام صندوق سحري، وضغط على زر التشغيل... فاستجابت بنعومة. بدا أن الطاقة فيها ما تزال تنبض، كأنها تنتظر منذ قرون قدوم زائر مثلَه.

راح يبحث بعينيه عن شيء ليختبر الآلة، فوجد وعاءً خشبيًا قديمًا، ووضعه حيث يجب.

من القائمة، اختار التفاح، تلك الثمرة التي كانت تربطه دومًا بالحياة البسيطة والحنين الأول.

ضغط زر التحويل.

لمع الضوء لحظة، أخذ الوعاء يختفي تدريجيًا... وفي الجهة الأخرى، تفتحت ثمرة تفاح ناضجة، كأنها خرجت من رحم الضوء ذاته.

أمسكها وقد خالجته رهبة مقدسة، ثم قضم منها قضمة...

كانت حقيقية تمامًا، كما لو أنها قُطفت للتو من بستان أرضي.

أيعقل أن هذه الآلة تعيد صياغة المادة؟

أن تفككها ثم تعيد ترتيب ذراتها بحسب الطلب؟

ربما... لكنه لا يملك رفاهية التفكير والتحليل الآن.

الأهم أن مشكلة الطعام قد حُلّت.

لكن بقيت أمامه مشكلتان أكثر تعقيدًا:

إلى أين؟

وكيف يعود؟

إن كان ثمة طريقة لفهم هذا العالم، فعليه أن يبدأ من المعرفة.

ربما يوجد ما يشبه شبكة إلكترونية، أو خيط معلوماتي يمكن تتبعه، أو حتى... أحد يتحدث. لا يهم إن كان بشريًا أم لا، المهم ألا يبقى وحده في صمت هذا الكوكب الهائل.

وبينما كان يتنقل من شقة إلى أخرى، لمح جهازًا متكرر الوجود في كل الشقق. جهاز أنيق، وُضع بعناية على الجدران، وتعلوه كلمتان بلغة غريبة.

تناول جهاز الترجمة الذي بات رفيقه، وأدخل النص.

ظهرت الترجمة :

(اسألني)

لم يستطع مقاومة فضوله. ضغط زر التشغيل.

وفجأة، انبثق ضوء ناعم، وبدأ يتكثّف في الهواء حتى تشكّل منه مجسّم هولوغرامي لفتاة يابانية، بحجم إنسان حيّ.

بدت حيّة بشكل غريب، بعينيها الواسعتين ونظرتها الثابتة إليه.

أخذت تتحدث بلغة لم يفهمها، لكنها حملت في نبرتها شيئًا يشبه الطمأنينة، أو ربما الوعد باكتشاف مذهل.

وقف أمامها مذهولًا...

هل هذا كائن ذكي؟

بوابة للمعرفة؟

أم مجرد ظلّ لذكاء اصطناعي نجا من انهيار حضارة سابقة؟

شيء ما في عينيها قال له:

(لست وحدك هنا)

بادرها سبيروزار بسؤال فوري.

= مرحباً، هل تتحدثين الإنجليزية؟

وصعق تماماً بالرد وبلغة انجليزية سليمة.

= أهلاً، بالطبع، هل أنت من كوكب الأرض؟

= أجل، ومن أنت؟

= أدعى يوليتا، ومع من أتكلم؟

= أدعى سبيروزار.

= هذا غريب.

= وما هو الغريب؟

= اسمك؟ فهذه كلمة من اللغة الكارسيلاسية وليست من لغات كوكب الأرض.

دهش سبيروزار للغاية.

= وما الذي يعنيه هذا الاسم؟

= إنه مؤلف من شقين سبيرو ويعني المميت وزار ويعني المحيي.

صعق سبيروزار تماماً، ما الذي يعنيه هذا الكلام؟

= إذاً فأنت تعرفين كل شيء ؟!

= بالطبع، كل شيء اكتشفه أو اخترعه سكان كوكب **كوليتوس** وبعض المعلومات عن كوكبك الأرض.

= كوليتوس ؟

= أجل هو الكوكب الذي نحن عليه الآن.

= وما صفات هذا الكوكب ...؟

= إنه كوكب يدور حول شمسين يدوران حول بعضهما بسرعة هائلة ويخلقان حقل جاذبية واحد، وليس لهذا الكوكب قمر محدد بل حلقات من صخور فضائية، وهو يدور حول محوره من الشرق إلى الغرب بعكس كوكبكم الأرض، أي أن الشمس تشرق هنا من الغرب من جهة الأمريكيتين عندكم، وهو موجود في مجرة تدعى **زولاسيا**، وأنت الآن في بلد يدعى **مينغالوس** عبارة عن جزر كبيرة في أقصى الغرب.

تحول الهولوغرام إلى مجسم كوكب كوليتوس وكان يشبه الأرض تماما وأضيئت جزر اليابان.

لقد كان محقاً تماماً، فهو حالياً في اليابان.

= وأين تقع هذه **البلاد الكارسيلاسية** التي اشتق اسمي من لغتها؟

أضيئت على مجسم الكوكب منطقة فيه تشير إلى بلاد **اليمن** العربية، وقالت يوليتا:

= هذه هي بلاد كارسيلاس، وهي الموطن الحالي لآخر فردين على سطح

كوكب كوليتوس.

غمرت القشعريرة جسد سبيروزار بالكامل.

= آخر فردين؟

= أجل وهما غارينوس ونونيس، في مدينة عدن.

وتحول الهولوغرام مجدداً إلى مجسم لشاب وفتاة بأدق التفاصيل.

فكر سبيروزار للحظات، إن اسم مدينة عدن مطابق لاسمها باللغة الانجليزية، فهل يعني ذلك شيئاً ما؟ بل أكثر من ذلك، فعدن هو اسم الجنة التي ذكرت في الكتب السماوية الثلاثة الأشهر على الأرض، فهل يدل ذلك بدوره على شيء؟

= وما الذي حدث لباقي سكان الكوكب؟

= توفوا جميعاً سيد سبيروزار، فالحياة على كوكب كوليتوس معاكسة تماماً لكوكب الأرض، إنهما كوكبان متضادان كل منهما في جهة معاكسة من الكون، وكما أن لكل جسيم في هذا الكون جسيم مضاد كالإلكترون والبوزيترون مثلاً، فلكل كوكب كوكب مضاد له يعاكسه، والأرض وكوليتوس كوكبان متضادان وهما متشابكان كمياً بحسب قوانين الفيزياء.

تذكر سبيروزار على الفور الرواية التي قرأها في سجن ميامي، كان فيها ما يشير إلى ذلك، ودهش للمصادفة.

= وما الذي يعنيه هذا الكلام؟

= الحياة على كوكب الأرض بدأت بزوجين هما آدم وحواء وستنتهي بمليارات من البشر بسبب التزاوج والتناسل، أليس كذلك؟

= بلى!

= أما هنا على كوكب كوليتوس فقد بدأت الحياة بمليار البشر واختزلت جيلاً بعد جيل بسبب التزاوج والتناسل حتى بقي فردان فقط كما ذكرت لك؟

= هذا غريب، كيف يمكن للتناسل أن يختزل العدد؟

= إن تركيب جسد الأنثى هنا مختلف عن جسدها على كوكب الأرض؟

فعندما تحمل الأنثى بطفل تضمر جميع الجريبات الأخرى في مبيضها مباشرة، وبالتالي كل عائلة هنا محكومة بطفل واحد فقط، أي أنها متوالية هندسية معكوسة، فإذا افترضنا أن أول جيل كان **40** مليار شخص، فالجيل التالي سيكون **20** مليار فقط والذي يليه **10** مليار وهكذا، مع الأخذ بعين الاعتبار أن متوسط حياة الإنسان هنا يتزايد مع تقدم الزمن عكس كوكب الأرض تماماً.

كان سبيروزار يستمع وهو مذهول تماما وعقله بالكاد يستوعب ما يسمع.

= وكيف ذلك؟

= مثلا غارينوس ولد بعام **1962** بعد ميلاد **ميدوسيز**، أي أنه الآن في عام **2029** بعمر **67** سنة ولكنه ما يزال شابا تماماً.

= ومن هو ميدوسيز ؟!

= إنه النبي الوحيد على كوكب كوليتوس عكس الأنبياء الكثيرين على كوكبكم، ونظراً لقداسته الخاصة في نظر سكان الكوكب فقد قسموا الزمن إلى قسمين قبل ميلاده وبعده.

= كالسيد المسيح على كوكبنا !؟

= بالضبط.

هز سبيروزار رأسه بدهشة.

= وإلى أي بلد أرسل هذا النبي؟

= إلى كامل الكوكب، لكنه ولد في **جزيرة زومينا**.

وتحول الهولوغرام مجددا إلى مجسم الكوكب وأضيئت منطقة فيه تتطابق تماما مع **جزر الرأس الأخضر** في غرب إفريقيا على كوكب الأرض لكنها هنا في شرقها.

= وما هي الرسالة التي نشرها.

= تعاليم عن المحبة والسلام وطريقة العيش الصحيح وبعض المعلومات الغيبية.

= معلومات غيبية؟

= أجل، مثلاً كيف بدأت الحياة على سطح كوكب كوليتوس وكيف ستنتهي؟

= وما أجوبة هذه الأسئلة؟

= بحسب النبي ميدوسيز فالحياة بدأت في كون آخر غير كوننا وكان يحوي مليارات عديدة من الناس السعداء، لكن الخطيئة والعصيان والفوضى بدأت تغزو ذلك الكون، فغضب عليهم الإله ونفخ أحد الملائكة في صور ففقد الجميع الوعي، ليستيقظوا على سطح هذا الكوكب وقد فقدوا ذاكرتهم تماماً لما حدث لهم في ذلك الكون، مع بقاء مهاراتهم الحياتية محفوظة لديهم

أخذ سبيروزار يفكر، إن بدء الحياة على سطح كوكب كوليتوس يشبه صفات يوم القيامة التي ذكرت لديهم في الكتب السماوية على كوكب الأرض، أي أن الحياة بدأت على كوكب كوليتوس من حيث ستنتهي الحياة على سطح الأرض، وستنتهي عليه من حيث بدأت على سطح كوكب الأرض أي بآدم وحواء، إنهما بالفعل كوكبان متضادان !!

= وكيف تم تأمين الطعام لمليارات الناس في بدء الحياة على هذا الكوكب؟

= سؤال جميل ومخادع سيد سبيروزار؟ لقد كان كوكب كوليتوس في البدء عبارة عن جنة حقيقية مغمورة بالأشجار والنباتات المثمرة والحيوانات المتنوعة، قبل أن يبدأ البشر بتغيير طبيعة الكوكب تدريجياً، وما تبقى من الجنة الأولى هو جزء صغير فقط في مدينة عدن حيث يعيش آخر فردين الآن.

= هكذا بدأت الحياة هنا إذاً، فكيف ستنتهي؟

= يقول ميدوسيز أنه عندما يبلغ آخر ذكر على سطح الكوكب عامه الألف سيضرب مذنب الكوكب ويدمره.

= عامه الألف؟

= أجل، والمقصود هنا هو غارينوس وهو سيبلغ عامه الألف في عام **2962** بعد ميلاد ميدوسيز وهذا يتطابق مع متوسط عمر هذا الجيل فهو بحدود الألف سنة، فوالد غارينوس **توبال** عاش **923** سنة قبل أن يقتله **ثونيوس** بسبب الغيرة والحسد.

تذكر سبيروزار على الفور قصة **قابيل وهابيل** أولاد آدم وحواء، إنها القصة ذاتها لكن بتسلسل معكوس. كما أن عمر آدم بحسب ذكر جميع الكتب السماوية هو ألف سنة بالفعل، إنه التشابه الغريب يعود من جديد!

= و متى ستنتهي الحياة على كوكب الأرض ؟

= سيد سبيروزار، كوليتوس و الأرض كوكبان متضادان ، أي أن فناء أحدهما يقتضي بالضرورة فناء الآخر ، أي أنهما سيفنيان بنفس اللحظة و بنفس الطريقة...

توقف الزمن في عروقه، كأن الوجود ذاته انكمش فجأة داخل لحظة واحدة لا متناهية. كان سبيروزار مشدوهًا، ليس لما سمعه فقط، بل لما أيقظه فيه من شعور غامض، مرعب ومزلزل.

فهو، الذي طالما بنى وعيه فوق صرح الإلحاد الصلد، لم يكن يظن أن الحقيقة قد تأتيه من كوكبٍ آخر، لا من كتابٍ مقدّس ولا من وحيٍ أرضي، بل من كوكبٍ يعكس تفاصيل الأرض كما تعكس المرآة صوراً... لكنها مرآة لا تحاكي، بل تفضح.

كل كلمة نطقتها يوليتا كانت أشبه بمطرقة تنقر جدار إنكاره، حتى انشقَّ الجدار عن وهمه الأكبر بأن لا شيء فوق العقل.

لكن كيف لعالمين لا رابط بينهما أن يتشابها في البنية والمصير واللغة والإشارة؟ من أوجد هذه التناظرات المثالية؟

هل هو العقل الكوني؟ أم يد واحدة ترسم الأكوان بقواعد واحدة وتباينات مقصودة؟

شعر بأن ذاته القديمة تلفظ أنفاسها الأخيرة داخله، أن سبيروزار الملحد

يتهاوى، لا في هدوء المفكر، بل في صرخة من فقد هويته بأكملها.

لم يعد الأمر نقاشًا فكريًا. لقد دخل نفقًا وجوديًا لا ضوء في نهايته سوى احتمالية أن يكون مخطئًا طوال حياته، وأن الحقيقة كانت تحدّق فيه بصمت، إلى أن صرخت عبر يوليتا.

تساءل، بنبرة داخلية موجعة:

من أكون إن لم أعد أنا؟ من هو هذا الذي يولد فيَّ الآن؟

هل هو سبيروزار جديد أم مجرد نسخة منكوبة من ذاته السابقة؟

أم أنه، ببساطة، بدأ يتحوّل إلى نقيضه سبيروزار المميت المحيي.

ذاك الذي يميت الكفر ويحيي الإيمان؟

بكل الأحوال هنالك ما هو أهم من هذه الأسئلة الوجودية. إنها النجاة

= هنالك سؤال آخر...

= تفضل سيد سبيروزار، أنا هنا للإجابة عن أسئلتك...

= كيف وصلت أنا إلى هذا الكوكب ؟

= عبر **مثلث بيروزال** و هو فجوة في الزمكان...

= و أين يقع هذا المثلث ؟

= بين **مينغالوس وكوزاف وميتاج**...

وتحول الهولوغرام مجددا إلى مجسم كوكب كوليتوس وظهر مثلث رؤوسه هي **اليابان وهاواي وغوام**، إذا فهو غادر كوكب الأرض من مثلث برمودا ودخل كوكب كوليتوس عبر مثلث بيروزال.

= وكيف يمكنني العودة إلى الارض ؟

= اعذرني سيد سبيروزار فلا أملك إجابة عن هذا السؤال، إذ لا يوجد أحد استطاع القيام بذلك من قبل...

= و ماذا عن البشر قبلي الذين وصلوا إلى هنا...

= لقد ماتوا جميعا بعد فترة قصيرة، بسبب فيروس خطير انتقل إليهم من سكان هذا الكوكب، هو لا يؤثر بالسكان المحليين بسبب جين خاص لديهم، لكنه فتاك بالبشر من الأرض، و يدمر أجهزة الجسم جهازاً تلو الآخر بطريقة مؤلمة للغاية...

= هذه ليست أخباراً جيدة يوليتا...

= أعلم ذلك و عليك الحذر تماماً سيد سبيروزار...

= هنالك سؤال يطرح نفسه بقوة هنا...

= و ما هو ؟

= باعتبار أن البشر القادمين من كوكب الأرض إلى هنا توفوا جميعا بعد فترة قصيرة ، فكيف تعلمتم لغات و معارف الأرض ؟

= إن العلم على كوكب كوليتوس بلغ مستويات متقدمة للغاية سيد سبيروزار، و يمكننا عبر تكنولوجيا حديثة نقل كافة المعلومات و الذكريات المختزنة في أي دماغ حتى لشخص متوفي إلى الحاسوب، لقد بدأت التقنية بتحليل الفص القفوي لدماغ المتوفي لرؤية آخر ما شاهده و تطورت تدريجياً إلى اكتشاف غياهب العقل البشري كاملةً...

قوس سبيروزار حاجبيه بدهشة.

= السؤال الأخير...

= تفضل...

= كيف يمكنني الوصول بسرعة إلى غارينوس و نونيس؟

= هنالك في ميناء المدينة الحالية يخت يدعى **ميلافا**، و هو أحدث طراز من اليخوت و يقطع حوالي **300** كم في الساعة و المسافة بين هذه المدينة و عدن هي حوالي **9000** كم أي أنك ستقطعها في حوالي **30** ساعة...

= و كيف سأقوده؟

= عندما تصل إليه ستجد زراً مكتوباً تحته (اسألني) اضغط عليه ، سأظهر لك بصورة ربان سفينة و أعلمك طريقة القيادة و كل شيء متعلق باليخت.

= وهل الطعام والشراب مؤمنان هنالك؟

= كل شيء مؤمن، لا تخش شيئاً سيد سبيروزار.

= حسناً، شكراً لك، سعدت بالتعرف عليك يوليتا.

= عفواً، وأنا كذلك سبيروزار. ألقاك مجدداً لكن بشخصية مختلفة هي **القبطان باروناج**.

= إلى اللقاء حضرة القبطان...

أصدرت يوليتا ضحكة مصطنعة، ثم اختفت.

تأمل سبيروزار واقعه الراهن في صمت، وكأن أفكاره تمشي على أطراف أصابعها بين ثنايا وعيه. لقد قضى الساعة الماضية يتحدث إلى كيان رقمي، ومع ذلك لم يشعر للحظة واحدة أنه يخاطب آلة. لقد بدا له حديث يوليتا إنسانيًا بالكامل: نبرات الصوت، تعابير الوجه، طريقة الإصغاء، بل وحتى لحظات الصمت كانت تنبض بوعي حقيقي.

فكر مذهولًا: إن هذا الاختراع لا يقلّد البشر فحسب، بل يحاكي النفس البشرية بكل تعقيداتها وانفعالاتها... فهل سنبلغ نحن على الأرض هذا المستوى من التطور؟

في داخله، أجاب المنطق:

نعم، لا بد أننا سنصل...

فنحن، كما بدا له الآن، الوجه الآخر لكوكب كوليتوس، صورة نقيضة في مرآة كونية، تسير على طريق مماثل، وإن اختلف الاتجاه.

لكن الفارق أن كوليتوس قد سبقنا بخطوات، وربما بما لا يقاس من الزمن.

وهنا تسلل إلى ذهنه سؤال أكبر:

هل نحن نسير نحوهم ... أم هم يسيرون نحونا؟

تبعاً لمبدأ التشابك الكمي فالوجهان صحيحان بالمطلق.

الفصل الثامن

الولايات المتحدة الأمريكية

لويزيانا / نيو أورليانز

ضفة نهر المسيسيبي ...

مرّت ساعة ونصف على تسليم محتوى الخزينة، وما زال الصمت يلفّ مصير يانا كضباب كثيف يحجب الرؤية. أخيراً رنّ هاتف ديف بصوتٍ خافت كأنّه قادم من بُعد آخر، وحين أجاب، جاءه صوت سيلين واهناً، مرتجفاً، ينزف قلقا:

= عزيزي، ما الذي يحدث ؟ يانا لم تعد بعد... الشرطة تطوّق المنزل وتقول إنك متورّط في سرقة رجل أعمال. هل هذا صحيح؟

توقف الزمن للحظة، وشعر ديف بقلبه يهوى كصخرة إلى قاع قدميه. هل خان الخاطف وعده؟ هل أُصيبت يانا بسوء؟ أم أن الخطر لم ينتهِ بعد، بل بدأ للتوّ؟

= نعم، الأمر صحيح... جزئياً. اضطررتُ لفعل ذلك لتحرير يانا. سأشرح لكِ كل شيء لاحقاً، لكن الآن... يانا هي الأهم. سأفعل ما بوسعي. فقط كوني قوية، وأكّدي للشرطة أنكِ لا تعلمين أين أنا. قولي إنني خرجتُ مساءً ولم أعد.

= حسناً... فقط كن حذراً، أرجوك.

أغلق الخطّ وجلس على ضفة النهر، يتأمل سطح الماء المضطرب كأنه مرآة لما في داخله. الغضب يحترق فيه كجمرٍ تحت رماد. لقد خُدع. دُفع إلى سرقة عبثية بلا مقابل. كل شيء يشير إلى أن الخاطف لم يكن مجرماً عابراً، بل شخصاً من داخل منظمة سيلار، وربما نجل زعيمها نفسه. لم تكن الغاية السرقة وحدها، بل الانتقام.

لكن السؤال الأكثر إيلاماً ظل يتردد في ذهنه: ماذا سيفعلون بيانا؟

كان جسد ديف أشبه بجسد مُنهك عبر صحراء لا تنتهي. لم يذق طعامًا ولا راحة ولا نوماً منذ يومين، يُصارع الليل والنهار بعينين غائرتين، وقلبٍ منهكٍ خائر. لقد مرّ خلال ساعاتٍ قليلة بما يكفي لتمزيق رجلٍ في عمرين: توتر، رعب، رجاء خادع، وها هو الآن يتهاوى.

بحث بنظر تائه عن مكان يأوي إليه... ليس هروبًا من الخطر، بل هروبًا من الانفجار الداخلي الذي يوشك أن يبتلعه.

وجد مكاناً بين أعواد القصب الكثيفة على ضفة النهر. الأرض باردة، لكنه لم يشعر بشيء. استلقى كجسدٍ أُفرغ من روحه، أغمض عينيه... واستسلم للنوم كما يستسلم من ينزف في ساحة معركة: بلا مقاومة، بلا وعي، بلا أمل.

*****

بعد ساعات.

رنّ الهاتف.

صوتٌ صغير اخترق غشاوة النوم الثقيلة.

فتح عينيه ببطء، أخرج الهاتف المرتجف من جيبه... كان زاك.

الساعة تشير إلى الخامسة فجراً.

= نعم... زاك ؟

جاءه الصوت من الجهة الأخرى، مكسورًا، مكبوتًا، كأن الكلمات تخنقها العبرات:

= ديف... أين أنت ؟

= ما الأمر؟ صوتك... كأنه ينهار. قل لي، ما الذي حدث؟

= إنها... يانا، يا ديف.

تجمد الزمن.

= ماذا بها ؟ تكلم، أرجوك.

صمت زاك.

صمتٌ يقطّع القلب، يفتته، يحيله إلى رماد.

ثم أخيرًا... جاء النبأ كطعنة في الصدر:

= عثر عليها أحد الصيادين على ضفاف نهر المسيسيبي ... مصابة بطلقٍ ناري في جبينها... و قد فارقت الحياة.

سقط الهاتف من يد ديف كما تهوي الروح من الجنة.

جثا على ركبتيه، عيونه جاحظة، لا تصدق.

ثم... كأن سدًا انفجر في داخله، أطلق صرخة مدوّية مزّقت سكون النهر:

يااااانا ...

انهار بالبكاء، دموعه كانت أضلاعًا تتكسر، ونشيجه كمنفًى ممتدّ في داخله.

كان يُناديها كما لو أنها سترد... كما لو أن صوتها سيلبي من الظلّ.

(لماذا ؟ من فعل هذا؟ كنت سأُنقذكِ... كنتِ وعدي لأمك... يا الله)

= ديف؟ ديف؟ هل تسمعني؟

لكن صوته لم يجب.

كان محاصرًا في كهفٍ من العجز، مظلم، خانق، لا مخرج له سوى الصمت.

مرّت الدقائق، وربما الساعات... لم يعد يشعر بوقت.

الواقع يرفض أن يُصدق، والدم لا يُكفّ عن الغليان.

بدأ ينكر... ليس يانا، لا يمكن أن تكون النهاية هكذا، مستحيل.

ثم بدأ شيء آخر ينبض في قلبه. ليس الألم، بل ما يأتي بعد الألم: الغضب. غضبٌ كثيف، سام، يتلوّن بالمرارة والرغبة بالانتقام.

ماذا عليه أن يفعل؟ أن يُسلّم نفسه للشرطة؟

لكن ما الفائدة؟ قاتلها لا يُمس، لا يُرى، لا يُعرف... شبحٌ يسير في الظل، يقتل بدمٍ بارد ويختفي كما لم يكن.

فهل يرضى بأن يُطوى اسم يانا في تقريرٍ رسمي بارد؟

هل يقبل أن يتحول وجهها إلى صورة في ملف قضية مغلقة؟

كلا.

قسمٌ ما في داخله استيقظ الآن... قسم لا يعرف الخوف، لا يعترف باليأس.

قسم يهمس له: ستأخذ حقها، أو تفنى معها.

رن الهاتف، فاهتز صوت الحياة في قلبه... كانت سيلين.

وحين أجاب، تساقط صوتها على أذنه كأنين من أعماق قبر مفتوح، يختلط بالبكاء والذهول والرجاء المذبوح:

= ديف... يانا رحلت... رحلت إلى الأبد، ديف... كانت بين ذراعي قبل أيام، تضحك، تخبرني عن أحلامها الصغيرة... والآن... الآن وجدوا جسدها على ضفة النهر، بطلقة في جبينها... هل يمكنك تخيّل ذلك؟ جبينها... حيث كنت أقبلها كل صباح...كانت وعدتني أن تعود، ووعدتني أنت، لكنكم لم تفعلا... لماذا لم تفعلا، ديف؟ أي وحش حقيقي يقتل ابنة بهذا البراءة؟ أين أنت الآن؟ أنا أحتاجك... لا أقوى على مواجهة هذا الموت وحدي...

لم يكن في وسع ديف أن يتنفس... الكلمات كانت كخناجر، وكل جملة تفتح جرحًا جديدًا في صدره.

لكنه تشبث بما تبقى من رجولة منكسرة، وسحب صوته من قاع الدموع:

= سيلين... أنا آسف...أعرف أن آسفي لا يشفي، لا يردّ الروح، لكنه كل ما أملكه الآن. لقد خذلتكِ، خذلت نفسي، خذلت يانا...لكني أقسم... أقسم أني لم أملك خيارًا. كل ما فعلته، فعلته لأعيدها إليك... لكني فشلت... لا أستطيع أن أكون معكِ الآن، لأنهم سيعتقلونني، وسيفلت من قتلها... لن أسمح له بالهرب، لن أدعه يدفن اسمها مع صمته... لن أدعه يتحول إلى ذكرى قاتلة عابرة. دم يانا ليس ماءً... لن أتركه يُهدَر... لن أسمح بذلك... لن أسمح...

وانهار. لم يعد قادرًا على الحديث.

انفجر بالبكاء كما لم يفعل منذ أن كان طفلًا، خائرًا، مطحونًا، مهزومًا في داخله.

صرخة واحدة خرجت من صدره خنقها الليل، وانكفأ وجهه على التراب.

في ذلك الوقت، في منزلهما الذي صار الآن أشبه بمأتم تحوم فوقه غربان الشؤم والغدر، اقتربت الشرطية باميلا من سيلين، التي كانت تتشبث بالهاتف كمن يتشبث بشبح الراحلين:

= سيدة سيلين... أعلم أن الوقت ليس رحيمًا بك الآن ، لكننا بحاجة لأن تأتي إلى المستشفى... للتعرف على جثمان ابنتك...

سمع ديف الكلمات، فشعر أن الجدار الأخير بداخله قد انهار.

أغلق الهاتف بيد مرتجفة، وبكى... ثم سكن كميتٍ حي، لا يتنفس إلا ليصرخ في داخله.

وبينما كانت سيلين تستعد لرؤية ابنتها جثة، كان هو يحدق شارداً في النهر، يتتبع خيوط الظلمة بحثًا عن ملامح القاتل.

كان يعرف الآن... في أعماقه... أن يد القتل ليست غريبة.

إنها يد **سيلار**، وإن لم يكن إلا تخمينًا، فالقلب لا يكذب حين يفقد من يحب.

لا بد أنه **فيليم فان هالين**... ابن الزعيم، الحاقد، الماكر، الذي لم يكتفِ بالثأر، بل جعل ديف أداةً في سرقة خبيثة.

لكن كيف؟

كيف يُمسك شبحًا لا صوت له ولا ظل؟

كيف يُطارد قاتلًا لا يترك خلفه إلا موتًا نظيفًا من الأدلة؟

لا بصمات... لا صورة للخاطف ... لا أثر سوى جسد ابنته الملفوف بالسكون...

عندما وصل إلى موضوع صورة الخاطف اجتاح ذاكرته بشكل مفاجئ الخبر الذي قرأه عن الطبيب **كريستوفر غوميز** في تكساس منذ أشهر، واختراعه الجديد **(الصندوق الأسود للعين)**، فهل يمكن الوصول إليه؟ وهل يمكن بالفعل رؤية آخر صورة رأتها يانا قبل وفاتها؟ لقد أخبرته سيلين أنها تعرضت لرصاصة من الأمام، وهذا يعني بأنها كانت تواجه القاتل فلابد أنها رأته، إن الطبيب كريستوفر واختراعه الجديد هو ملاذه الأخير لكشف هوية الخاطف القاتل قبل أن ينجو بفعلته للأبد.

أخرج هاتفه وبحث عن صورة نجل الزعيم فيليم وسرعان ما ظهرت نتائج عديدة عنه، فهل يمكن لاختراع الطبيب أن يعطي نتيجة مطابقة لذلك؟ أم أن القاتل هو أحد مساعديه ؟!

ثم تذكر فجأة القارب المدعو **البومة** الذي استلم منه الحقيبة أمس، إنه طرف خيط آخر يمكنه ملاحقته.

ركض مسرعاً باتجاه مرسى القوارب وهو يتشبث بأنامل القدر الذي تخلى عنه وبحث عن القارب حتى وجده، كان الشخص نفسه جالساً عليه وهو يدخن السجائر. صعد ديف إلى سطح القارب وأخرج مسدسه من خصره ثم وجهه إلى رأس الرجل الذي فزع للغاية.

= ماذا تريد مني أيها الشرطي، لم أرتكب أي مخالفة ...!

= إذاً لم تتذكرني بعد، أنا الشخص الذي استلمت منه الكيس ليلاً.

نظر إليه الرجل برعب.

= نعم تذكرتك الآن، وما المشكلة في ذلك؟

= لقد حدثت جريمتا سرقة وقتل بسبب ذلك الكيس، لذا أخبرني على الفور لمن سلمته؟

= سرقة وقتل يا إلهي، أرجوك سيدي انا لا أعرف شيئاً عن ذلك كله، كل ما حدث أن رجلاً في صباح الأمس زارني وأخبرني أن استلم منك شيئاً في الوقت المناسب وأوصله له على الضفة الأخرى بعيداً من هنا مقابل مئة دولار، فوافقت على الفور، لكني لا أعرفه إطلاقاً وهي المرة الأولى التي أراه فيها في حياتي.

= وكيف هو شكله؟

= أمريكي من أصل إفريقي مثلك، نحيل ويضع حلقاً ذهبياً في إحدى أذنيه

وقف ديف جامداً في مكانه وتذكر على الفور الشاب الذي اقتحم المتجر منذ شهر ولاذ بالفرار ولم يتمكنوا بعدها من إلقاء القبض عليه، لقد كان يحمل نفس المواصفات فهل هو المقصود أم أنها مجرد مصادفة ؟! من الواضح أنه لن يحصل على معلومات أكثر من هذا الرجل، ولا يمكنه إلقاء القبض عليه الآن في وضعه الشائك الراهن، لذا أرجع مسدسه إلى خصره وغادر القارب.

السؤال الأهم الآن: هل ذلك الشاب ذو الحلق هو القاتل؟ وهل ينتمي إلى منظمة سيلار أم أنه يعمل لوحده؟ ولكن هل تعرض منظمة متمرسة مثل سيلار نفسها بكل تلك البساطة للقبض عليها؟ إن ذلك يتعارض مع أسلوب الخاطف السابق، وأغلب الظن أن ذلك الشاب مجرد وسيط في العملية.

وهنالك سؤال آخر، هل يمكنه فعلا الوصول إلى ذلك الشاب، هذا أمر مستبعد وصعب للغاية فأغلب الشباب الأفارقة باتوا يحملون حلقاً ذهبياً كتشبه بذاك المغني، حتى أنّ صديق ابنته الراحلة **ماكس** يحمل نفس الحلق، إنه أشبه بالعثور على قشة في كومة من الإبر الذهبية، يمكنه على كل حال أن يتصل بزاك ويطلب منه البحث عنه على الأقل في سجل المجرمين، أما هو فعليه أن يمشي في الطريق الوحيد المتوفر حالياً للوصول إلى القاتل وهو الوصول إلى الطبيب كريستوفر، فكيف سيمكنه ذلك؟ إن من شبه المستحيل الوصول إلى تكساس في مثل هذه الظروف رغم كونها ولاية ملاصقة للويزيانا، فالطريق مليئة بالدوريات ولابد أن اسمه وصورته قد عممت عليها كلها.

فتح هاتفه الخلوي وبحث عن اسم الطبيب على وسائل التواصل الاجتماعي وسرعان ما عثر عليه، رأى صورته ومعلوماته الشخصية كما حصل على بريده الالكتروني من موقعه، ثم قرر أن يرسل له رسالة الكترونية يخبره فيها بقصته كلها ويطلب منه المساعدة، إنه الخيار الوحيد المتاح أمامه الآن.

وبالفعل بدأ بكتابة الرسالة للطبيب وعرفه فيها عن نفسه وكيف خطفت ابنته وماذا طلب منه الخاطف ثم كيف قتلت ابنته بعدها، وأنه الآن هارب من وجه العدالة ويسعى لتحقيق هذه العدالة وأن وسيلته الوحيدة لتحقيق ذلك هو أن يساعده الطبيب بنفسه على رؤية آخر صورة رأتها يانا قبل وفاتها، ثم أرسل الرسالة.

في نفس الوقت كان الطبيب كريستوفر قد تلقى رسالة ديف، وكان تلفاز مختبره يعرض لقطات عن فيلا رجل الأعمال بنجامين فرانك والقناة تتحدث عن تعرض الفيلا للسرقة من قبل شرطي يدعى ديف آدامز وقد وضعوا صورته في مربع جانبي على الشاشة، وورد في التقرير أن ابنة الشرطي تعرضت للاختطاف ثم القتل وأن حادث السرقة مرتبط غالباً بذلك.

تأكد الطبيب أن ديف يقول الحقيقة وبدا كأنه كان ينتظر تلك الرسالة ويتوقعها، ليثبت لجميع المشككين أهمية اختراعه، لذا رد على ديف برسالة فورية لكن عبر بريد الكتروني آخر خاص.

(أهلا حضرة الشرطي، أنا الطبيب كريستوفر غوميز، أنا آسف كثيرا لخسارتك الفادحة وأقدم لك تعازي الحارة ومواساتي، إن مثل هكذا حوادث وظروف كانت إحدى الأسباب الأساسية التي دفعتني للمضي قدما في طريق اختراعي الجديد، وأنا مستعد تماما لمساعدتك، وما أحتاجه منك لإتمام العملية -وأعتذر عن هذا الطلب القاسي ولكن لا بد منه -هو دماغ ابنتك، فإن تمكنت من الحصول عليه أرسله لي في حافظة تحوي الفورمول إلى العنوان التالي).

وذكر له عنواناً خاصاً في تكساس.

وصلت الرسالة إلى ديف فتنهد بحزن، لقد اقترب خطوة هامة نحو معرفة

قاتل يانا، ثم رد على الطبيب برسالة شكر وامتنان ووعده بإرسال العينة له في أقرب وقت.

أجرى ديف اتصالين هامين، **الأول** مع زاك وأخبره عن الرجل ذو الحلق وطلب منه البحث عنه في سوابق المجرمين وخاصة بين أفراد منظمة سيلار.

والاتصال الثاني مع سيلين، وطلب منها أن تصغي إليه في الوقت الراهن وتؤجل حزنها العارم حتى القبض على القاتل ورجاها أن تتواصل مع الطبيب الشرعي الذي سيعاين جثة يانا وأن تحصل منه على الدماغ لغاية شخصية لن تصرح عنها.

فزعت سيلين للغاية من هذا الطلب، فهو تدنيس لجسد يانا. لآخر شيء جميل بقي منها، لكن ديف شرح لها الموضوع باختصار وأقنعها أنها الوسيلة الوحيدة للقبض على المجرم ولن يفرط بها فقد خسر ابنته بالفعل ولا مجال للعودة بالزمن إلى الوراء، وما بقي له ليحقق توازناً نفسياً ولو جزئياً هو أن يلقي القبض على قاتلها ويسلمه للعدالة لكيلا تذهب ابنته هكذا بدون ثمن.

*****

الفصل التاسع

مجرة زولاسيا

كوكب كوليتوس ...

كانت شمسا النهار تشقان طريقهما من الغرب، لا من الشرق، في مشهد يربك الحواس ويجعل الزمن ذاته يبدو كمن استدار على عقبيه. بدت السماء وكأنها تعيد كتابة قوانينها، فاندفع سبيروزار بخطى متسارعة نحو الميناء، يحثّه شعور غريزي غامض نحو وجهته قبل أن يثقل النهار كاهله بحرارته اللاهبة.

عند حافة المرفأ، راحت عيناه تبحثان بلهفة قلقة عن اليخت ميلافا، كمن ينقب عن ذاكرة مفقودة بين الزبد. وأخيرًا، لمح هيكله الأبيض ساكنًا فوق صفحة الماء ككائن أسطوري نائم، لا يتحرك ولا يئن، لكن حضوره يكاد يصرخ.

صعد على متنه بخفة من اعتاد على الغموض، ولمّا بلغ القمرة، انفتح بابها أمامه بسلاسة عجيبة، كما لو أن اليخت تذكّره، أو أن الباب يعترف به زائرًا مختارًا.

راح يتفحص المكان ببصره المتعطش، إلى أن وقعت عيناه على زرّ وُشِم عليه بلطف: (اسألني). مدّ يده ببطء، وضغط عليه، متوقعًا أن مزيداً من المفاجآت بانتظاره تالياً. في لحظة، تَجسدت يوليتا مجددًا أمامه، متقمصة هيئة القبطان باروناج: شيخ وقور بلحية بيضاء كثيفة، يعتمر قبعة بحرية تقليدية، وبصوت أجش يحمل صدى البحار البعيدة قال:

= أهلا بك سيد سبيروزار مجدداً.

= أهلا حضرة القبطان باروناج...

= هل نبدأ بتعليمات قيادة المركب ؟

= هيا بنا...

= إلى يسارك ثلاث أذرع باتجاهات مختلفة، الأول لتشغيل أجهزة الطاقة الشمسية، و الثاني لتشغيل دارة الشحن، و الثالث البوصلة المكانية التي تحدد

مكانك بالضبط على سطح الكوكب، اعكس اتجاهاتها كلها لتبدأ بالعمل.

= حسناً، سأفعل.

أنزل سبيروزار الذراع الأول، ثم رفع الثاني وأخيراً أنزل الثالث.

= و الآن؟

= الآن، هنالك زر أسود على يمينك لبدء إدارة المحركات، اضغط عليه...

نفذ سبيروزار الأمر الثاني، وبدأ صوت خافت لمحركات عديدة من أسفل اليخت يصل إلى أذنيه.

= جيد جداً، الآن كل ما عليك فعله هو توجيه اليخت عبر دفة القيادة إن أردت القيادة اليدوية، أو إدخال الإحداثيات المطلوبة لوجهتك القادمة على الشاشة أمامك في المنتصف لبدء القيادة الذاتية، و هنالك الخيار الأسهل من كل ذلك...

دهش سبيروزار، وهل هنالك أسهل من ذلك.

= و ما هو؟

= خيار أن تسألني...

وأصدر القبطان ضحكة عميقة.

= وجهتك القادمة هي عدن في بلاد كارسيلاس ، أليس كذلك؟

= بلى!

= إذا استرخ فحسب، و دع الباقي عليّ...

بالرغم من أن سبيروزار كان على كوكبٍ ناءٍ في الجهة الأخرى من الكون، خالٍ من البشر، غارق في المجهول، فلم يكن الخوف سيّد الموقف. بل على العكس، كان يغمره شعور غريب بالأُنس والأمان.

فلقد كان برفقة يوليتا – أو القبطان باروناج – ذلك الكيان العارف بكل شيء

مكتشف حتى اللحظة، ومن يملك المعرفة يملك الطمأنينة. أن تتحاور مع من لا يجهل، لهو عزاء خفي في وسط الفوضى.

راح يحدّق حوله، يستكشف أرجاء القمرة الرحبة، إلى أن استوقفه مشهدٌ غريب: لوحة ضخمة معلقة على الجدار، تُجسّد طوفًا تائهًا تعلوه وجوه متصارعة، رجال يتدافعون كأنهم في صراع من أجل البقاء...

= إن اللوحة المعلقة في القمرة جميلة، غريبة ومخيفة بنفس الوقت أيها القبطان!

= بلى إنها كذلك وهي تدعى **الميدوسا** ولها ميزة خاصة.

= ميزة خاصة ؟!

= أجل، فهي ذات قصتين بدل الواحدة.

= هذا مثير للاهتمام، وكيف ذلك؟

= القصة الأولى هي مضمون اللوحة، فهي تشير إلى حادثة حقيقية حدثت على كوكبكم الأرض في عام **1816** م.

= وهي؟

= تتحدث الواقعة عن غرق السفينة الفرنسية الشهيرة (ميدوسا) غرب قارة إفريقيا و بالتحديد مقابل مدينة **نواكشوط** في **موريتانيا** كما تسمونها أنتم في كوكب الأرض، وفور غرقها غادرها الأغنياء على متنها عبر قوارب النجاة، أما الفقراء من طاقمها و قد بلغ عددهم **157** شخصاً فغادروا على متن طوف صغير على أن تجره قوارب النجاة وراءها بالحبال، لكن الأغنياء قطعوا الحبال كي يبحروا بشكل أسرع تاركين الطوف في عرض المحيط لمصيره، و هنا بدأ اقتتال الرجال عليه من أجل البقاء و من انتصر فيهم عاش على أكل لحم من خسر حتى عثرت عليهم سفينة بالصدفة بعد **13** يوم و قد تبقى منهم **15** شخص فقط، وقد وثق هذه الحادثة الواقعية الرسام الفرنسي (**تيودور جيريكو**) و هو بعمر **27** سنة قبل أن يموت بعمر **32** سنة، و لوحته الأصلية موجودة حالياً في متحف اللوفر بباريس ..

= قصة غريبة حقاً، من أين عرفتها حضرة القبطان؟

= سؤالك هذا يقودنا للقصة الثانية سيد سبيروزار.

= وهي؟

= لقد كانت هذه اللوحة موجودة في إحدى السفن التي وصلت إلى هنا من كوكب الأرض وقد أخبرنا طاقمها بقصة اللوحة كاملةً، لكن بعد موت هذا الطاقم بسبب الفيروس الذي ذكرته لك من قبل وبطريقة مأساوية حيث قام الطاقم بقتل بعضه البعض لتخفيف الألم الشديد عن أنفسهم كشكل من أشكال القتل الرحيم، اقتنى بعض سكان هذا الكوكب القلة مقتنيات السفينة، وكانت اللوحة من نصيب مالك يخت ميلافا.

قطب سبيروزار حاجبيه.

= أي أن طاقم السفينة تعرض لما يشبه مضمون اللوحة**!**

= تماماً.

= إنها لوحة مخيفة وغريبة، وذات قصص أغرب بكثير.

تابع سبيروزار البحث حوله في القمرة فشاهد آلة صنع طعام شبيهة بالسابقة التي وجدها في الشقة، وكان بجوارها صندوق مليء بكرات بيضاء من مادة غريبة على الأغلب تستخدم كمادة أولية تتحول لاحقا إلى طعام، فسأل القبطان باروناج.

= هل هذه الكرات البيضاء هي ما يستخدم لصنع الطعام ؟

= أجل، بالضبط، فلتجرب واحدة منها، و أنصحك بصنع طبق يدعى **لاتوناغ**، فهو تبعاً للتحليل العلمي ذو المذاق الأقوى بين الأطعمة جميعاً...

= حسنا ، سأجربه حالاً فأنا جائع للغاية...

وضع سبيروزار كرة بيضاء في الجانب الأول من الجهاز ثم اختار اللغة الانجليزية وبعدها طبق لاتوناغ، ثم ضغط زر التحويل، وبالفعل بدأت الكرة تختفي وبدأ الطبق يظهر في الجهة المقابلة.

= مدهش**!** ما الآلية التي يعمل بها هذا الجهاز أيها القبطان؟

= إنه مبرمج مسبقاً ببنية كل مادة مكتشفة و بنسبة كل منها في الغذاء المطلوب، ثم يقوم بتفكيك المادة تماماً و إعادة ترتيبها من جديد...

= أمر باعث على الذهول...!

= جرب الطعم ، فهو الأمر المذهل حقاً...

جرب سبيروزار طعم الطبق وبالفعل شعر بأن حليماته الذوقية تعمل كلها وبنفس الوقت بمزيج غريب ومذهل حقاً لم يشعر به من قبل إطلاقاً.

= هذا ما لم أتوقعه البتة، معك كامل الحق قبطان باروناج...

أنهى سبيروزار وجبته بشيء من التأمل وكثيرٍ من المتعة، ثم واصل تجواله داخل القمرة باحثًا عن مزيد من الأسرار. لم يلبث أن صادف آلة تحمل إشارة طبية توحي بأنها مخصصة لتحضير الأدوية، تعمل وفق مبدأ بسيط: ضع كرة في الجهة الأولى، اختر الدواء وطريقة إعطائه، ثم اضغط زر التحويل.

بحماسة الفضول، اختار سبيروزار دواءه المفضل، ذاك المسكن العتيق الذي لطالما ارتبط في ذاكرته بوجع الإنسان وألمه: **المورفين**. وما إن ضغط الزر حتى ظهرت زجاجة صغيرة برفقة محقن أنيق، كأنها خرجت للتو من معمل متقن الصنع.

(يا للعظمة!) تمتم مدهوشًا. لو عاد بهذا اليخت إلى الأرض، لأشعل ثورة في العلم والطب والتقنية !

تعمق في استكشافه أكثر، فعثر على آلة تصنع الثياب حسب الطلب بنفس التقنية، وأخرى تصوغ الكتب بمنتهى الدقة، وكأنها تنسج المعرفة من الهواء. بدا أن هذا المركب ليس مجرد يخت، بل حضارة متنقلة!

بعد اثنتي عشرة ساعة من الإبحار، أسدل الليل ستاره، وظهرت من جديد حلقة الصخور الكثيفة في السماء، منظر أسطوري لا يُمل، مزيج من الجمال والهدوء النفسي، كأنها بوابة إلى عالم آخر.

قضى سبيروزار ساعاته التالية ما بين غفوات متقطعة وأحاديث طويلة مع القبطان باروناج، الذي روى له خلاصة تاريخ كوكب كوليتوس. لكن

المفاجأة الكبرى كانت في أن سجل هذا الكوكب يخلو من أي حروب أو نزاعات. أيمكن أن يكون السر في وجود عقيدة واحدة تجمع السكان؟ ربما. فالأرض، كما فكر سبيروزار، لم تعرف السلام يومًا، لأن نزاعاتها غالبًا ما كانت ذات طابع أيديولوجي.

*****

كوكب كوليتوس/ كارسيلاس/ عدن ...

بعد ثلاثين ساعة من الإبحار عبر محيطات لا تشبه ما خطّه العقل البشري، بلغ اليخت سواحل عدن، لا كميناء مألوف ولا كرصفٍ حجري، بل كحلم ينهض من رحم الخيال: شاطئ رملي أبيض، ناعم كالحرير، يمتد بلا نهاية كما لو أنه خُلق ليُضلّ البصر، وتغزوه أشجار جوز الهند الشاهقة بأعناقها المائلة كأنها تحيي الواصلين إليها.

بين جذوعها، نبتت نباتات غريبة ذات أوراق بألوان لم تُسجّلها الطبيعة على الأرض: أرجوانية بلمعة زجاجية، وأخرى بلون الفيروز تنبض كأنها تتنفس. في السماء، تراقصت أشراب من طيور ملونة بحجم اليد، أجنحتها شفّافة تصدر ألحانًا غير مألوفة للأذن البشرية.

هواء عدن لم يكن مجرد هواء، بل نَفَسٌ حيّ، محمّل بعطر مجهول المصدر، فيه رائحة البحار القديمة، ولمسة من عنبرٍ سماوي خفيف، يشبه ما قد يتخيله شاعر يصف جنة سماوية ضائعة.

رسا اليخت بصمت، كما لو أن المكان يأبى الضجيج. ووقف سبيروزار على الحافة، تحدّق عيناه في هذا المشهد غير الأرضي، وعقله يهمس بسؤال لا يكفّ عن التكرار: ما الخطوة التالية؟

أين يبدأ البحث في هذا الفردوس الذي يخفي في ظلاله ألغازًا وألغاز؟

لم يكن أمامه سوى أن يلجأ من جديد إلى حكمة القبطان باروناج... فهو وحده من يملك خارطة هذا الغموض.

= حضرة القبطان، كيف أستدل على مكان إقامة غارينوس و نونيس؟

= هذا سهل سيد سبيروزار، فقد رسا اليخت تماماً مقابل منزلهما، انظر جيداً أمامك بين الأشجار ستجد طريقاً مرصوفاً بالحجارة، امض عليه و ستصل إليهما...

= ألن أسبب لهما الخوف و القلق؟

= إطلاقا سيد سبيروزار، لقد أخبرتهما بقدومك و هما بانتظارك...

= أخبرتهما؟!

= بالطبع، فأنا جهاز مستخدم في كل مكان على سطح الكوكب و أخبر كل شخص بأي شيء جديد يتعلق به...

ابتسم سبيروزار، لقد سهل القبطان باروناج الموضوع عليه كثيراً.

= شكراً حضرة القبطان ، لقد كانت الرحلة معك ممتعةً بحقّ و لم أشعر بالوقت، و شكر خاص على المعلومات التي منحتها لي...

= أهلاً سيد سبيروزار، هذا واجبي لقد صممت لهذه الغاية، و بانتظارك مفاجأة حقيقية هنالك...

هزّ سبيروزار رأسه بهدوء، ونزل من على متن اليخت متجهاً نحو الطريق المذكور، كان مرصوفاً بحجارة بيضاء بلون العاج ومحاطاً بأشجار نخيل باسقة تمتد بجذوعها نحو السماء كمن يصلي، و على الجانبين تناثرت النباتات الاستوائية الكثيفة بأوراقها الضخمة التي تتمايل مع نسيم البحر. سار بخطى ثابتة بين الظلال المتداخلة لألوان الطبيعة الغنية، حتى وصل بعد ربع ساعة إلى وجهته.

كان المنزل ذا طابع خشبي دافئ، مكوّن من طابقين، يقف شامخاً وسط حديقة غنّاء تكسوها ألوان الأزهار المتنوعة والورود العطرة التي تداعب الأجواء بعطرها الساحر الباعث على السكينة والطمأنينة، لدرجة تخال معها أنّ آلاف القوارير العطرية تهشمت في المكان منذ لحظات. كان المشهد لوحة طبيعية متكاملة تُبهج القلب والعين، وتغمر الروح بالسلام الداخلي العارم.

لم يجد جرساً يدق عليه، فتقدم عبر البوابة المفتوحة على مصراعيها، واقترب من الباب الخشبي، طرقه بخفة عدة طرقات. بعد لحظات، انفتح

الباب على مصراعيه ليكشف عن شاب وفتاة في مقتبل العمر، يحملان في عينيهما دفء الحب ونظرات الامتنان، وابتسامتهما تفيض بلطف عذب. تحدثا إليه بلغة إنجليزية فصيحة، كأنها جسر يربط بين روحيهما وقلبه، تبشر ببداية لقاء جديد يحمل في طياته الكثير من الأسرار.

= سيد سبيروزار، أهلاً وسهلاً بك في منزلنا **سيلاني**، أنا غارينوس وهذه زوجتي السيدة نونيس.

= أهلا بحضرتكما، أرجو ألا تكون زيارتي في توقيت غير مناسب.

نظر غارينوس إلى نونيس وابتسما، ثم قالت نونيس:

= سيد سبيروزار نحن السكان الوحيدون على هذا الكوكب، إن مجرد لقائنا بإنسان جديد هو عيد حقيقي بالنسبة لنا، فنحن حرفياً أسرى هذا الكوكب.

بادلهما سبيروزار الابتسام وهو يتذكر سجن ميامي، على الأقل كان هنالك بشر آخرون يتكلم معهم، إن نونيس على حق بالفعل، فهذا الكوكب بالنسبة لهما عبارة عن سجن كبير.

= تفضل بالدخول.

دخلوا جميعاً إلى غرفة الضيوف، وأول ما لفت نظر سبيروزار هو صور عديدة في كل مكان غارينوس ونونيس وولد صغير وسيم بينهما.

نظر إليهما وسأل:

= إنه طفل جميل للغاية، هل يقربكما؟

نظرا لبعضهما بحزن غريب، ثم رد غارينوس.

= شكراً لك، إنه طفل جميل بالفعل وهو ولدنا الذي توفي منذ عقود وهو بعمر الخامسة، وهو آخر إنسان أتى إلى سطح هذا الكوكب ويدعى سبيروزار.

التفت سبيروزار إليهما بدهشة عارمة ممزوجة بالحرج والحزن، وعجز عن

التفوه بأي كلمة، لقد كان القبطان باروناج محقاً تماماً، إنها مفاجأة حقيقية لا تخطر ببال مخلوق وإن كانت محزنة بجوهرها !!.

= لا بد أنك مندهش من تشابه اسميكما.

= أنا آسف لخسارتكما الكبيرة، لكن في الحقيقة، بلى، متفاجئ للغاية.

= هذا شعور متبادل، من أطلق عليك هذا الاسم ...؟

روى لهما سبيروزار حلم والدته الذي زارها فيه الرجل الوقور وطلب منها تسميته بهذا الاسم. فعلّق غارينوس:

= هذا مذهل بالفعل، لقد راود نونيس نفس الحلم وهي حامل بطفلنا فأطلقنا عليه اسمه هذا أيضاً المميت المحيي وهذا غريب بالفعل، فقد مات طفلنا سبيروزار في هذا الكوكب وعشت أنت سبيروزار في كوكبكم الأرض.

= معك كل الحق، هذا شيء غريب وغير مفسّر!

بدت علامات الحزن العميق تطفو على ملامح وجهيهما مع حديث الذكريات، لذا حاول سبيروزار تغيير الموضوع على الفور.

= وكيف تأقلمتما على الحياة على سطح الكوكب بمفردكما...؟

= إنها حياة صعبة، لكن بوجود (اسألني) نشعر بقليل من الأنس في الجوار

= بالفعل إنه اختراع لا مثيل له، صديق حقيقي يمنحك الأمان والطمأنينة.

= بلى، إضافة إلى تعبئة الوقت بالعناية بالنباتات والحيوانات حول المنزل فأنا خبير بعلم الحيوان ونونيس بعلم النبات، إضافة إلى تعلم اللغات المختلفة والحقائق المتنوعة عن كوكبنا وكوكبكم والكون بشكل عام.

= ولماذا تعلمتم اللغة الإنجليزية؟

= نحن آخر أفراد هذا الكوكب وأي فرد جديد سيصل إلينا هو من كوكبكم حتماً، فساعدنا (اسألني) على تعلمها وإتقانها أملاً منا بوصول ضيوف، وقد أرسلك القدر كمفاجأة جميلة إلينا.

ابتسم لهما سبيروزار بودّ.

= أشكركما، إنه شعور متبادل، لديكما إرادة قوية لتحمل وضعكما الراهن، من ناحيتي ما كنت لأتحمل الحياة في كوكب وحيداً ولو ليوم واحد.

= وماذا كنت ستفعل؟

= أنهي حياتي بالطبع.

تفاجأ الاثنان من هذا الرد، وعلّقت نونيس معاتبةً قليلاً.

= أنت تقولها ببساطة شديدة سيد سبيروزار، إن عقيدتنا التي نؤمن بها من خلال النبي ميدوسيز تحرم علينا فعل ذلك، وذلك بالطبع بديهي ومنطقي.

= بديهي ومنطقي !!

= بالطبع إنها سلسلة من الحقائق المنطقية، **الإيمان بوجود خالق للكون يؤدي إلى الإيمان بإمكانية حدوث المعجزات مما يؤدي بدوره إلى الصبر والاحتمال حتى النهاية دون استسلام،** فلا أحد يعرف ما الذي يمكن فعلاً أن يحدث لاحقاً؟ وأكبر مثال الآن من واقعنا الحالي، من كان يصدق أن يزورنا بعد نهاية البشر على كوكبنا إنسان جديد ويحمل اسم طفلنا ذاته سبيروزار؟!

دهش سبيروزار من هذا التحليل البسيط والمنطقي بنفس الوقت، فالإله إن وجد وقد تبين له أنه موجود بالفعل يمكنه تحقيق أي شيء وتغيير أي ظروف من خلال ما يسميه الناس بالمعجزات.

= أظن أن كلامك يحمل الكثير من المنطق في طياته.

= أظن ذلك.

وابتسمت نونيس بلطف.

قضى سبيروزار عدة ساعات بصحبة غارينوس ونونيس وهم يتبادلون القصص والحكايات عن كواكبهم، ثم بدأ يشعر بقليل من التوعك فاعتذر منهما للرجوع إلى اليخت بحجة إجراء عمل ضروري بسيط، على أن يعود إليهما بعد ذلك.

وصل سبيروزار إلى اليخت وهو يشعر بدوار وغثيان شديدين، وكان جسده يتصبب عرقاً، ما الذي يحدث يا ترى؟

ضغط على زر اسألني فظهر القبطان باروناج.

= حضرة القبطان أنا مريض للغاية، فهل لديك تفسير طبي لحالتي.

= أنا آسف لسماع ذلك سيد سبيروزار، بماذا تشعر ...؟

= دوار وغثيان وتعرق غزير وطفح غريب على جسدي.

= أظن أن الأخبار التي أحملها لك غير جيدة إطلاقاً.

= وما هي؟

= لقد تجاهلت نصيحتي بالحذر من الفيروس الذي يحمله سكان هذا الكوكب في جسدهم ويتعايش معهم والذي هو للأسف قاتل بشدة لسكان كوكب الأرض.

= وما الذي ينتظرني لاحقاً؟

= أعتذر لإخبارك ذلك، لكنه فيروس فتاك وقاتل خلال أقل من ست ساعات، حيث يبدأ بمهاجمة أجهزة الجسم واحداً تلو الآخر حتى يصيب القلب ويسبب توقفه.

= وهل هو مؤلم؟

= للأسف أجل، وألم شديد جداً.

قال سبيروزار بنبرة تحمل في طياتها الألم والفزع واليأس.

= وما الذي تنصحني بفعله؟

= أعذرني سيد سبيروزار لصراحتي الوقحة، ولكن المنطق يقول بأن عليك في حال تأكد التشخيص أن تختصر طريق العذاب وتنهي حياتك بنفسك.

= ألا يوجد أي علاج ممكن.

= إطلاقاً.

تمدد سبيروزار على فراشه وهو يفكر بكلام نونيس السابق عن الاحتمال

وانتظار المعجزات، ومن جهة ثانية تذكر قناعاته السابقة ومساعدته لمرضى السرطان على إنهاء حياتهم عبر القتل الرحيم، ودخل في صراع عميق بين القناعتين، وفي النهاية قرر الصبر والاحتمال ما أمكنه، فإن تخطى الألم مرحلة التحمل فإن زجاجة المورفين التي صنعها منذ ساعات جاهزة وسيحقن نفسه في وريده دون تردد.

مضت ثلاث ساعات على سبيروزار كجحيم مستعر، كل ثانية تمر كأنها دهور من العذاب. الألم اختلط بخفقان قلبه المتسارع، والتنفس أصبح مشقة لا تُحتمل، كأن الهواء نفسه يتحول إلى خناجر تخترق رئتيه. عضلاته تضعف، وكأن جسده ينهار من الداخل، بينما حرارة نار الجحيم تحرق أحشائه، تضغط على روحه وتدفعه إلى حافة الهاوية.

استسلم أخيراً، وبما تبقى لديه من طاقة وقف مرتعشًا، يتلمس طريقه نحو زجاجة المورفين، يده ترتجف من الضعف والخوف، قلبه ينبض بين الإصرار والخضوع. ملأ المحقن ببطء، كأن كل قطرة تحمل ثقل عمره كله. أدخل الإبرة في وريده ببطء، وحقن الدواء دفعة واحدة، مع شعور غريب يعتريه بين الرجاء والهلع. ثم انكمشت حدقتاه حتى غاب العالم كله، صوت أنفاسه تلاشى في دوامة الظلام التي ابتلعته، وسقط على الأرض، جسدًا لا حياة فيه.

*****

الفصل العاشر

الولايات المتحدة الأمريكية

لويزيانا / نيو أورليانز

انقضت الساعات بثقل الجبال على ديف، كأنّ الزمن نفسه يحاصره بينما يتنقّل متخفّيًا بين الأزقّة والشوارع، متفاديًا كل دورية شرطة تمر بالجوار. كان ارتداؤه للزيّ الرسمي سلاحًا ذا حدّين: يخونه في عيون الشرطة، وينقذه في عيون الناس. تلك البدلة التي طالما لبسها باعتزاز، باتت الآن عبئًا يفضحه في وضح النهار، لكنها في المقابل تفتح له الأبواب وتحفظ له الهيبة.

حادثة غريبة هزّت كيانه وهو يتناول غداءه في مطعم صغير بعيد عن الأنظار؛ إذ دخل الشرطي **روبرت**، مساعده الأول من مركز شرطة نيو أورليانز، ورآه. توقّف الزمن للحظة، ثم... لم ينبس روبرت بكلمة. اكتفى بطلب طعامه كأن شيئًا لم يكن، وخرج. لم يرمقه حتى بنظرة شك.

كان ديف يعلم أنه محبوب من الجميع، وأن تعاطف زملائه معه قد تجاوز القوانين. وإن كان متأكدًا من شيء، فهو أن يدًا من مركز الشرطة لن تمتدّ لتقيده. ورغم ذلك، بقي الحذر سلاحه الأخير.

مع حلول المساء، جاءه اتصال من زاك، يحمل أخبارًا ضبابية. لم يجد أثرًا للرجل ذي الحلق في أرشيف المجرمين، لكن وعده بمواصلة البحث، هذه المرة في الأماكن التي لا يزورها الضوء.

ثم، في صباح اليوم التالي، جاءه صوت سيلين من بعيد... باكيًا، مكسورًا. أخبرته أن الطبيب الشرعي سلّمها الدماغ في حافظة زجاجية مغمورة بالفورمول. كانت تبكي كما لم تبكِ من قبل، صوتها يحمل وجعًا لا تشفيه الكلمات، ولا يحتمله قلب.

= عزيزتي علينا كبت مشاعرنا الآن وتأجيل الحزن والبكاء حتى نعيد حق يانا الضائع، سأرسل لك عنوان الطبيب في رسالة وعليك إرسال الحافظة كما هي إليه.

قالت بنبرة حاقدة لم يعتد عليها ديف طوال حياته معها.

= حسناً، سأفعل على الفور، أريد بشدة أن أعرف من هو آخر شخص

رأته يانا قبل رحيلها، أريد أن أرى بعيني ذلك المجرم يتعفن في الجحيم.

*****

في أحد المخازن المهجورة شمال شرق المدينة.

في نفس الوقت.

كان الليل ثقيلاً فوق الأزقة الخلفية للمدينة، لا يقطعه سوى صوت شاب نحيل البشرة، يخفي ملامحه خلف قناع داكن، وقد أخذ يُخرج رزمًا من المال من جيوبه الكثيرة، يتحدث مع نفسه بصوت آلي ينبعث من القناع:

= غنيمة اليوم أكثر من رائعة... وحين يُضاف إليها مال العملية، سأكون على موعد مع بداية مختلفة، مع مستقبل لا يشبه الماضي...

لكن خطوات غامضة اخترقت صمته فجأة، فاستدار بسرعة واستل مسدسه، وصاح بتحذير مرتجف:

= من هناك؟!

جاءه الصوت من الظلام، خافتًا، واثقًا:

= منقذك...

قهقه الشاب ساخراً، وقد خفّ توتره:

= آه، أنت مجددًا ؟ ما الأمر هذه المرة؟ هل هناك مهمة جديدة من طرف الزعيم؟

خرج من بين الظلال رجل آخر، طويل القامة. اقترب منه حتى صارا وجهًا لوجه، ثم قال بصوت بارد:

= نعم، لكنها... المهمة الأخيرة.

وقبل أن ينهي كلماته، صوب المسدس إلى صدر الشاب، وأطلق رصاصة اخترقت القلب بلا تردد. سقط الشاب أرضًا، يختنق بدمه، وارتفع طرف القناع قليلًا ليكشف عن أذن إفريقية يلمع فيها حلق ذهبي... علامة لم تكن لتخطئها عين.

انحنى الرجل فوق الجثة، تأكد من توقف النبض، ثم جمع المال المتناثر في صمت، وابتلعته الظلمة كما ظهر منها... دون أثر، دون ندم.

*****

على ضفة نهر المسيسيبي.

جلس ديف في ركن معتم من الضفة، متكئًا بمرفقيه على ركبتيه، وعيناه تطوفان في الفراغ كما لو كانتا تبحثان عن مخرج سري من متاهة الاحتمالات. لم يكن يملك ترف الانتظار؛ فالعينة التي بحوزته لن تصل إلى الطبيب قبل المساء، وربما الغد، والوقت لا يرحم. عليه أن يتحرك الآن، أن يسبق الزمن بخطوة، أن يبني خطته على فرضية لم تثبت بعد، كل الأدلة تشير إلى شخص واحد: فيليم، نجل زعيم منظمة سيلار.

لكن إن صحت الفرضية، فماذا بعد؟ هل سيواجهه؟ يطارده؟ يفاوضه؟ أم يسلمه للعدالة؟

كان السؤال معلّقًا بين الظنون كخيط رفيع بين الحياة والموت.

فتح هاتفه وبدأ ينبش في خفايا الإنترنت عن فيليم، متعطشًا لأي تفصيل مهما بدا ضئيلاً. لكن الشبكة لم تبُح بالكثير: رجل متزوج، أب لثلاثة أطفال، يدير مطعمًا متواضعًا في الحي الفرنسي. لا ملفات جنائية، لا صور استفزازية، لا مظاهر فخمة ولا أصدقاء نافذين. حياة بلا ضجيج، كما لو أنه شبح يتنفس بيننا دون أثر.

لكن ما أثار انتباهه حقًا كان سطرًا وحيدًا في أحد المقالات القديمة:

(يشارك السيد فيليم كل يوم أحد في القداس الصباحي بكاتدرائية سانت لويس. يذهب بمفرده، ويقود سيارته بنفسه.)

تجمد ديف للحظة. كيف لرجل بهذه الخلفية أن يتجول في العلن دون حراسة !؟ وكيف لرجل نشأ في كنف إمبراطورية إجرامية أن يحافظ على طقس روحي منتظم كهذا ؟!

هل من الممكن أن يكون مختلفًا عن أبيه؟ هل يكون ضحية اللقب لا شريكًا في الجريمة؟

الشك نخره كالسوس. ربما كان فيليم بريئًا، غريبًا عن خطايا أبيه، وربما كان الوحيد القادر على كشف بقية خيوط العصابة، على إرشاده إلى أولئك الذين تواروا عن الأنظار أو خرجوا من السجون حاملين نواياهم السوداء.

كان اليوم... أحد.

وهذا يعني أن فيليم في الكاتدرائية الآن، خاشع بين صفوف المصلين، يهمس بكلماته إلى السماء.

نهض ديف على الفور. لم يكن لديه وقت للتردد.

الفرصة أمامه - وإن كانت محفوفة بالغموض - تستحق المجازفة.

*****

كاتدرائية سانت لويس ...

استقل ديف سيارة الأجرة دون أن ينبس ببنت شفة، وألقى بعنوان الكاتدرائية في ميدان جاكسون كأنما يرمي بإبرة في بحر قدر لا يعلم إلى أين يقوده. جلس في المقعد الخلفي مطرق الرأس، والمدينة تمر أمام عينيه كأنها عرض صامت لماضٍ بعيد، يتقلّب بين ذكريات متراكمة وأجوبة لم تأتِ بعد.

بعد ثلاثين دقيقة، توقفت السيارة أمام الواجهة المهيبة للكاتدرائية. ترجل ديف، ووقف للحظة أمام بوابتها كمن يتهيّب عبور بوابة لزمن آخر. سحب أنفاسه، ومضى نحو الداخل.

القاعة غارقة في ضوء ذهبي خافت يتسلل من النوافذ المعشّقة، والمصلّون في صمتهم المقدّس، كأنهم خيوط نور متصلة بسقف السماء. انسحب ديف إلى الصف الأخير، وأخذ يمسح الوجوه بنظراته القلقة، حتى استقر بصره على فيليم، جالسًا في صفٍ وسطيّ، مائلًا قليلاً إلى اليمين، كأن جسده يثقله شيء لا يُرى.

ولدهشته، وجد مقعدًا خاليًا إلى جانبه. تقدم نحوه بخطى بطيئة، وجلس. لم يتكلما. لم يكن الوقت للكلام. فيليم التفت نحوه لحظة، بعينين قرأتا فيه أكثر مما قالته الأيام، ثم أعاد نظره إلى الأمام، غارقًا في تراتيل القداس.

مرت نصف ساعة. انقضت المراسم، وبدأت الكاتدرائية تفرغ من أرواحها ببطء، حتى لم يبقَ في المكان سوى ديف وفيليم، وصدى بعيد لصوت أرغن خافت.

عندها فقط، التفت فيليم إليه بهدوء. لم تكن ملامحه تعبّر عن خوف أو غضب، بل عن تسليم هادئ، وشيء آخر يشبه الاعتذار غير المنطوق.

= حضرة الشرطي ديف آدامز، أنا آسف للغاية لخسارتك الكبيرة، وأقدم تعازي الحارة ومواساتي الكاملة لك.

تفاجأ ديف للغاية ومد يده إلى خصره ووضعها على مسدسه.

= لا داعي للقلق سيد ديف، لو أردت الإفصاح عنك وتسليمك للشرطة لفعلت منذ نصف ساعة والقاعة مليئة بالناس، أنا متعاطف معك بالكامل ومتفهم لما تمر به.

= وكيف عرفتني؟

= من التلفاز، الأخبار كلها عنك، لقد تذكرتك على الفور فأنت المساهم الأكبر في الإيقاع بمنظمة والدي وإدخاله السجن.

= ولذا خطفتم ابنتي وقتلتموها كانتقام له.

بدت علامات الدهشة على وجه فيليم.

= إطلاقاً، ذلك لم يحدث، أنا بريء تماماً من أسلوب حياة والدي ومنظمته،

وما حدث له هو عقاب إلهي يستحقه، أنا شخص متدين سيد ديف، وبعيد كل البعد عن نمط الحياة ذلك، لدي عائلتي ومطعمي ولا أريد من الحياة أكثر من ذلك.

= لكنني تلقيت رسالة من الخاطف القاتل وعليها ختم بشعار منظمة سيلار، فما تفسيرك لذلك؟

دهش فيليم أكثر.

= هذا كلام خطير سيد ديف.

فكر قليلاً ثم أضاف.

= هذا مكان غير مناسب للحديث، لدي يخت في ميناء النهر وأنا أخرج بعد القداس عادة وأتوجه إليه لإراحة أعصابي في جولة نهرية، فهل توافق على الذهاب معي وإكمال الحديث هنالك؟ أو في أي مكان آخر إن لم تجد ذلك مناسباً.

تردد ديف قليلاً وبدا أنه يراجع أفكاره.

= سيد ديف، أنا أصلي في كنيسة لوحدي وبدون حراسة ولم أبلغ عنك أو أخف منك، ألا يشير ذلك إلى شيء ما في نظرك؟

فكر ديف للحظات، إن فيليم محق فعلاً.

= حسناً لنذهب سيد فيليم.

خرجا معاً من الكاتدرائية واستقلا سيارة فيليم باتجاه مرسى القوارب واليخوت على ضفة المسيسيبي.

*****

على يخت فيليم نجل الزعيم.

وصل ديف وفيليم إلى الضفة الجنوبية للميناء الصغير. الهواء كان مثقلاً برائحة الملح والخشب المشبع بالرطوبة، وبخار خفيف يتصاعد من أرض الرصيف الإسمنتي بفعل شمس الظهيرة.

امتد مرسى القوارب بهدوء على طول الضفة كأنه شريط من الخشب الباهت المشقق بفعل الزمن، واصطفت القوارب الصغيرة على جانبيه كأنها تنتظر أمراً بالرحيل، تتأرجح بكسل فوق سطح الماء الذي بدا كمرآة مضطربة. لم يكن هناك سوى صوت طنين الحشرات وصرير الحبال المشدودة، يقطعه أحياناً نداء طائر نورس بعيد.

في نهاية الرصيف، تراءى لهما اليخت المنتظر: مركب أبيض أنيق متوسط الحجم، بدا رغم بساطته فخماً بالمقارنة مع القوارب حوله. كانت النوافذ الجانبية مظللة، والسقف العلوي يعكس ضوء الشمس كدرع فضي.

أمام اليخت، وقف حارسان جامدان كأنهما تمثالان من العرق والعضلات. كانا يرتديان قمصاناً رمادية قصيرة الأكمام، وسراويل داكنة، ويضعان نظارات شمسية تخفي نظراتهما الصارمة. أحدهما كان يتكئ على حاجز المرسى بملل ظاهر، والآخر يطالع القادمَين بترقّب صامت، ويده لا تفارق المسدس المثبّت على حزامه الجلدي.

حين اقترب ديف وفيليم، لم يتكلما، بل تبادلا نظرة سريعة بينهما، ثم أفسحا الطريق بهزة رأس صامتة، وكأنما كانا بانتظار هذه الزيارة تحديدًا.

مرّ ديف بخطوات ثابتة على ألواح المرسى المتهالكة، وصعد مع فيليم إلى قمرة اليخت حيث كانت حرارة الهواء أقل حدة، لكن التوتر فيه أشد وضوحًا. جلسا في القمرة وبدأ حوار ساخن يغزو الأجواء.

= أرجوك سيد ديف أخبرني بكل ما حدث بالتفصيل، علني أستطيع مساعدتك بطريقة ما.

تنهد ديف تنهيدة مشبعة بالأسى واللوعة، ثم أخذ يروي له قصته كلها منذ

تأخر يانا عن المنزل حتى لحظة لقائه به، لكنه تجنب التطرق لموضوع الطبيب كريستوفر غوميز واختراعه كي لا يسبب للطبيب أي ضرر.

= وهل يمكنني رؤية الرسالة التي وصلتك؟

= بالطبع.

مد ديف يده إلى جيب سترته وأخرج الرسالة منه وناولها لفيليم.

= ضعها في ضوء الشمس.

فعل فيليم ذلك وظهر على الفور شعار منظمة سيلار.

= هذا غريب، إنه دليل قوي على تورط المنظمة في الخطف والقتل، لكن أي فرد منها قام بالجريمة؟ إنني وبحسب معلوماتي متأكد من أن المنظمة تفككت بدخول والدي إلى السجن ولم يعد بناؤها أبداً، على كل حال، أنا على تواصل مع **جيف** وهو أحد الأفراد اللذين دخلوا السجن لمدة عامين وخرج منذ بضعة أشهر، وإن كان هنالك نشاط جديد للمنظمة، فبالتأكيد هو على دراية به.

نادى فيليم على أحد الحراس، فتقدم منه بسرعة.

= **تروي** اذهب إلى جيف الآن وأحضره لي من أي مكان يتواجد فيه ولو كان في سريره مع إحداهن.

غادر تروي على الفور، في حين أعد فيليم كأسين من الشراب له ولديف

= هدئ أعصابك سيد ديف بكأس من الكحول، إنك لست على رأس عملك الآن وبحاجة لإراحة ذهنك قليلاً، فقد مررت بظروف صعبة للغاية.

تناول ديف الكأس وهو يشعر بنفسه بحاجة حقاً لكأس مشروب، لأنّ أعصابه مرهقة بالفعل لأقصى درجة، وبحاجة لشيء ما يبقيه على قيد البحث والتحري خلال الساعات التالية.

*****

بعد حوالي ساعة ونصف وصل تروي وبصحبته شاب في الأربعينات من عمره، لابد أنه جيف.

= أهلاً جيف. غيبة طويلة !؟

= مشاغل الحياة سيدي، ما الذي يجري بحق السماء، أخبرني رودي أن الموضوع ملح جداً ...؟

= بلى، إنه كذلك.

صمت قليلاً وهو يرمق جيف بنظرات مبطنة بالتهديد ثم قال بلهجة حادة كنصل ساموراي.

= سأطرح عليك سؤالاً واحداً وعليك أن تجيبني بوضوح وصدق ياجيف، وحذار من خداعي، فأنت تعرف ما الذي يمكنني فعله بك؟

بدا الرعب على وجه جيف جلياً وكأن فيليم يعرف عنه ما يكفي لتدميره.

= أنت تأمر سيد فيليم، اسأل ما شئت؟

= هل قامت منظمة سيلار باختطاف فتاة وقتلها خلال اليومين المنصرمين؟

رد جيف على الفور.

= إطلاقاً، ولو حدث مثل ذلك لسمعت به على الفور.

= أأنت متأكد؟

= كل التأكد ...!

نظر فيليم إلى ديف الذي بادر جيف بسؤال.

= هل لديكم فرد في المنظمة أمريكي أفريقي نحيل ويضع حلقاً ذهبياً في أذنه.

بدت علامات الدهشة والقلق واضحة على وجه جيف، وشعر فيليم بذلك

= انطق جيف، ما الذي حدث لك، ما الذي تخفيه؟

= لا شيء، في الحقيقة هذه المواصفات تنطبق على **رون** أو كما يعرف **بجيمس** ولقد وجد صباح هذا اليوم مقتولاً في مخزن مهجور في محيط المدينة.

= ومن قتله؟

= لا أدري سيدي، ربما خلاف بينه وبين أحد زملائه في المنظمة أو خارجها، لكني لا أعرف سبباً مؤكداً لقتله.

= لا تكذب علي يا جيف، فأنا لن أرحمك إن تبين لي أنك خدعتني.

= أقسم لك سيد فيليم، نحن لم نخطف أي فتاة، فمجال عملنا هو المخدرات فقط وليس الخطف أو القتل أو السرقة، وسبب قتل رون مجهول تماماً، فلا يوجد أي دليل على قاتله.

نظر فيليم إلى ديف الذي هز رأسه وكأنه اكتفى بما سمعه.

= حسناً يمكنك الانصراف الآن.

بقي فيليم وديف لوحدهما في القمرة فبادره فيليم بالكلام.

= إنني أشعر بما تفكر به الآن، مقتل رون ذو علاقة وثيقة بمقتل ابنتك، أليس كذلك.

هز ديف رأسه موافقاً.

= بلى، لكنه أضاف أسئلة عديدة بدل أن يجيب عن أسئلتنا السابقة.

= سيد ديف أنا وكل معارفي تحت تصرفك، إن احتجتنا في أي شيء فأنا جاهز، وهذه بطاقتي وعليها معلوماتي جميعاً، اتصل بي بأي وقت، وإذا أردت نصيحتي الآن ابق معي على متن اليخت حتى يحل الظلام فذلك أكثر أماناً لك، فهنا لن تصل الشرطة إليك.

ديف بدهشة عارمة.

= وهل تخاطر بإيواء هارب من العدالة أدخل والدك السجن مدى الحياة؟

= ستستغرب سيد ديف بما يمكنني أن أخاطر به في سبيل قناعاتي ومبادئي، لقد تخليت عن والدي بسببها، فهل تجد من الغريب أن أحمي مظلوماً وأساعده على تحقيق العدالة ...؟

= شكراً جزيلاً لك سيد فيليم، أنت إنسان أكثر من رائع.

ظل ديف جالساً بصحبة فيليم على متن اليخت حتى انطفأت الشمس في حضن الأفق، وتلوّن سطح النهر بألوان الغياب. دار بينهما حديث ثقيل بالامتنان والصمت، ثم صافحه فيليم بحرارة، وقال بصوت خافت وكأنه يزرع وعداً في الريح:

= شكرا على ثقتك بي... سنلتقي مجددًا، حين يكون العالم أقل قسوة من الآن...

ترجّل ديف عن اليخت ومضى خارج المرسى. أخذ يتنقّل بخطى مترددة بين الأزقة، متجنبًا أعين الشرطة كما يتجنب الجرح الملح. لم يكن يبحث عن مقهى، بل عن مأوى للوجع. وبعد تجوالٍ مرهق، عثر على مقهى صغير لم تطفئه الساعات، كأنه خُلق للساهرين على شرفات الذاكرة.

دخله بصمت، كمن يلج إلى معبد، واختار ركنًا قصيًا لا تبلغه العيون ولا الأسئلة. جلس هناك، وأدرك للمرة الأولى كم صار التعب جزءاً من جلده.

*****

في المقهى.

اختار ديف طاولة صغيرة في الزاوية القصية من المقهى، حيث يخبو الضوء وتتوارى الوجوه خلف ظلال الزجاج، كأنه أراد أن يختبئ من العالم، من الألم، من الذكرى. جلس بصمتٍ ثقيل، وأخرج هاتفه المحمول، ثم بدأ يُمرر أصابعه على صور يانا، طفلته الراحلة... ودموعه تذرف من قلبه، لا من عينيه.

كل صورة كانت خنجراً في الذاكرة. ضحكتها. عيناها الواسعتان. شعرها المنسدل في أول يوم مدرسة. أصابعها الصغيرة وهي تلوّح له في المطار. ثم... صورتها الأخيرة. صورة بلا حياة.

كان الليل يزحف ببطء، والانتظار ينحت في قلبه كالإزميل. لم يكن يفكر بشيء سوى أن وجه قاتلها قد يظهر له بعد ساعات. وجه سيقلب كل شيء. استند برأسه إلى الخلف، أغمض عينيه، وترك نفسه يغرق في شريط من الذكريات... حياته كلها تنكمش وتلتحم في اسم واحد: **يانا**.

عند العاشرة تمامًا، وصله بريد إلكتروني من الدكتور كريستوفر غوميز. كتب فيه:

(العينة وصلت... جاري نقل الصورة من الفص القفوي للدماغ إلى النظام ، الجودة سيئة، ما زلت أعمل على تحسينها... ستكون جاهزة بحلول الثانية فجرًا وسأرسلها لك فورًا).

قرأ ديف الرسالة عدة مرات، ثم أعاد الهاتف إلى جيبه. بدأ الوقت يخذله. دقائق ثقيلة تسحب جسده إلى الحضيض. هل القاتل من بين الأسماء التي اشتبه بها، أم أنه شخص جديد سيقتحم المشهد ؟! ... الصورة وحدها ستكسر هذا الجدار.

مرت الساعات بطيئة كأنها قرون. وبين كل دقيقة وأخرى، كان يسأل نفسه: هل سيتعرّف عليه؟ هل سيصمد؟ هل سينجو من لحظة الحقيقة؟ وهل الانتقام سيُعيد لروحه شيئًا مما سُلب منها؟

وعند الواحدة والنصف تمامًا، اهتزّ الهاتف في جيبه.

بريد جديد.

إنه الطبيب.. و هذه لحظة الحقيقة...

فتح الرسالة.

كان هناك كلمات مقتضبة:

(إنها صورة وجه، أرجو أن تستدل من خلاله على القاتل، أخبرني بما ستؤول إليه الأمور حضرة الشرطي إن أمكن).

يد ديف ارتجفت وهو يضغط على الصورة. ظهرت تدريجيًا، كأنها تخرج من ضباب كثيف. صورة شخص يقف على مسافة قريبة جدًا من يانا. وجه غير واضح تمامًا، لكنه... مألوف. شيء ما في قامته، في ملامحه المبهمة، في انحناءة رأسه، تسريحة شعره...

وبلا إرادة، شهق ديف شهقة مكتومة.

إنه يعرف هذا الوجه.

إنه يعرفه!

الهواء انكمش من رئتيه، والدنيا انقلبت فجأة. لم يعد يرى شيئًا. لم يعد يسمع. ارتفع ضغط الدم في رأسه كأنه سينفجر. كيف؟

مستحيل!

مستحيـــــل!

أراد أن يصرخ. أن يُكذّب عينيه. أن يُمزّق الصورة. لكن الحقيقة كانت واضحة كالشمس:

القاتل ليس غريبًا عنه على الإطلاق ...

*****

الفصل الحادي عشر

في البرزخ ...

حين انفرجت أجفان سبيروزار، لم يُولد في عالم، بل في بياضٍ يتنفّس، بياضٍ ليس له سقفٌ ولا قاع، كأن الضوء ذاته قد حلم به فصار. كل شيء من حوله ذائب في النقاء، لا جدران، لا أرض، لا أفق... فقط سكونٌ ناصع البياض في كل مكان، يتردد صداه في داخله قبل أن يسمعه.

وهناك، وكأنما انبثق من جوف النور، تجلّى رجل ستينيّ الملامح، إفريقيّ البشرة، تشع من محيّاه حكمة العصور الأولى. لحية بيضاء كصمت ثلوج القمم، وبذلة كأنها حيكت من خيوط الضوء ذاته، تمتد حتى قدميه، المحاطتين بحذاء يخترق الفراغ بلا أثر. فبدا للرائي كرأسٍ معلّق في ملكوت سرمدي، لا تدرك له هيئة ولا تعرف له بداية.

= سيد سبيروزار. أهلاً بك.

= من أنت؟ هل أنا أحلم ...؟

= لا، أنت ميت سيد سبيروزار ونحن هنا في البرزخ الذي يفصل الدنيا عن الحياة الآخرة.

= ومن أنت؟

= أنا رسالة الله لك، وأدعى ميدوسيز، لقد زرت والدتك من قبل في المنام وأطلقت عليك اسمك الجميل.

نظر إليه سبيروزار بدهشة.

= نبي كوكب كوليتوس؟

= هو بذاته.

= وما الذي تريده مني الآن؟

= أريد أن أعقد معك صفقة؟

= صفقة؟

= أجل، سأعيدك إلى الحياة من جديد وأمنحك صفة خارقة تختص بها الآلهة فقط.

= وما هي؟

= أن تملك القدرة على إماتة الناس ثم إحيائهم من جديد.

= **المميت المحيي !؟**

= تماماً.

= وذلك بمقابل؟

= أن تكون بيدقاً بيد الله لتحقيق عدالته على الأرض، أن تنصر المظلومين والمستضعفين، وتقف في وجه المجرمين ومنتهكي القوانين السماوية.

= انتهاك القوانين السماوية**!** كأن تساعد مريض السرطان على إنهاء حياته **!؟**

= القوة التي ستحصل عليها ستخولك قتل من تشاء وإحياء من تشاء بشرط وحيد.

= وما هو؟

= ألا يكون لك **مكسب شخصي** من وراء استخدام قوتك.

= وفي حال فعلت **!؟**

= عندها ستغادر روحك جسدك مرة واحدة وللأبد، فهل اتفقنا؟

لبث سبيروزار صامتًا للحظات، يتأمل المصير الذي يلوّح له من بعيد. لم يكن الموت خيارًا مقبولًا بعد... فداخله نار لم تخمد، ورسالة لم تكتمل. كان يشعر، بيقينٍ جديد، أن لوجوده على الأرض غاية لم يُنجزها بعد، غاية تتجاوز ذاته، تتصل بالخَلق ذاته، كما لو أن الكون نفسه انتظره ليصنع فرقًا.

ومع ذلك، فكرة الانضمام إلى أولئك الأبطال المتفرّدين، المنتشرين في أرجاء الأرض، بدت له كدعوة قدرية. يمكنه، بمساعدتهم، أن يُعيد ترتيب الفوضى، أن يجعل من الكوكب موطنًا أرحب للحياة، أكثر عدلًا، وأقل ألمًا.

فلمَ لا؟

ربما لم يكن البطل هو من يولد خارقًا، بل من يختار في لحظة مصيرية... ألّا يموت.

= لكن كيف سأستخدم قوتي هذه؟

= انظر فقط في عيني الشخص الذي تريد احياءه أو قتله وصوب أفكارك نحوه، إذا أردت قتله ستتوسع حدقتاك وإذا أردتك إحياءه ستنكمشان.

= وهل أستطيع إعادته للحياة مهما كان سبب موته؟

= سيد سبيروزار، طالما أن للجسد عينين فيمكنك إعادته للحياة مهما كانت حالته.

= وكيف ذلك؟ ما التفسير العلمي له؟

= إنها معجزة سيد سبيروزار، فإن أعطيتك تفسيراً علمياً لها، لما بقيت كذلك، لكن لنقل إن مبدأ قوتك هو اللعب بالزمن وإعادته للوراء، أي أنك تعيد الجسد إلى فترة زمنية سابقة للوقت الراهن. إذ أنّ عينيك ستصدران حقلاً خاصاً لم يصل إليه العلم على كوكب الأرض بعد، فيتلاعب بالبعد الرابع ويعيد هيكلته.

ابتسم سبيروزار.

= إذا سأصبح من الأبطال الخارقين؟

ابتسم ميدوسيز بدوره.

= بالطبع، إن قبلت الصفقة.

= لكنني عندها سأحتاج اسماً مميزاً.

= بلى، لنقل إنك ستكون **الطبيب مورفين**.

= ياهو، إنه اسم مميز ومعبر للغاية! فالمورفين هو من أوصلني منذ البداية إلى هذه اللحظة، منذ إمساكي متلبساً بتنفيذ القتل الرحيم لغيري بالمورفين، انتهاءً بالقتل الرحيم لنفسي بالمورفين نفسه!

ابتسم ميدوسيز ...

= تماماً.

= لكن كيف سأعود إلى كوكب الأرض؟

= إن ذلك بسيط جداً سيد سبيروزار، تعود من المكان نفسه الذي غادرت منه كوكب الأرض.

= مثلث برمودا؟

= بالضبط.

= لكن هنالك مشكلة أخرى حقيقية.

= وهي؟

= أنا هارب من السجن، فكيف سأعود إلى بلادي؟

= أنت لن تعود إلى هنالك سبيروزار، عليك الذهاب إلى **جزر الرأس الأخضر** وبالتحديد إلى أكبر جزيرة فيها وهي سانتياغو وبالتحديد أكثر عاصمتها **برايا،** واسأل هنالك عن **القس ريكاردو فونسيكا** في كاتدرائية برايا، وهو سيتكفل بالباقي.

فكر سبيروزار للحظات ثم قال بحزم.

= اتفقنا، قبلت الصفقة سيد ميدوسيز.

= هذا جيد للغاية. إذن سأفارقك الآن وستعود روحك إلى الاتحاد بجسدك، لكن أوصيك بشيء واحد أخيراً.

= تفضل. !!

= حاول بقدر الإمكان أن تعمل في الظل، لا أريد لحقيقتك أن تُكشف سوى في الحالات الضرورية جداً ولأشخاص محددين.

= حسناً سيد ميدوسيز، سأفعل.

تقدم ميدوسيز منه ومد يديه ثم دفعه إلى الخلف بقوة فشهق سبيروزار شهقة عميقة وفتح عينيه ليجد نفسه ممدداً على أرضية القمرة، كان يشعر بالتحسن وبأنه عاد معافى تقريباً.

كوكب كوليتوس.

بلاد كارسيلاس / عدن.

حين نظر سبيروزار إلى جسده، لم يجد أثرًا للطفح... جلده صافٍ كصفحة ماءٍ لم تلمسها ريح. ارتعشت أنفاسه. لم يكن ذلك حلمًا !!. لم يكن هلوسة رجل ضائع في عرض البحر، بل معجزة نُقشت على جسده، ثم انمحت كأنها لم تكن... أو لعلها كانت الختم.

لكن كيف يتأكد؟

العقل، هذا الحارس القديم، أراد برهانًا.

نزل من اليخت بخطى بطيئة، كمن يخشى أن يوقظ منامه، واتجه نحو شاطئٍ تغفو عليه سلحفاة هرمة.جثا أمامها، وحدّق في عينيها الصغيرتين، وزرع داخله فكرة: (الموت)

في اللحظة التالية، اتسعت حدقتاه على الآخر، واندفع من عينيه طيفٌ لا يُرى... شعور، أو طاقة، أو حكمٌ أزلي.

سكنت السلحفاة. لم تتحرك. أغلقت عينيها ببطء، وكأن الحياة خرجت منها بإذنٍ سماوي.

شهق سبيروزار، وقلبه يخفق كما لم يخفق من قبل.

ثم استجمع ذاته، وحدّق فيها من جديد... وزرع فكرة ثانية مضادة: (العودة الى الحياة.)

تقلّصت حدقتاه هذه المرة، كما لو أن الضوء نفسه انكمش داخله.

وفي صمتٍ مهيب، فتحت السلحفاة عينيها، وحركت أطرافها، ثم مشت في هدوء... كما لو أنها عادت من العالم الآخر بخطى مألوفة.

وقف سبيروزار ساكنًا... متخشبًا بين الذهول والرهبة.

(يا إلهي)... تمتم، (هذا ليس حلمًا... هذه بداية شيء لا رجعة فيه)

لقد أصبح الآن - دون إعلان، دون تاج - أحد أولئك الذين تُروى عنهم الحكايات...

لكن في صمته كان يعلم: الهدية الكبرى لا تأتي إلا ومعها العبء الأكبر، كما وعده ميدوسيز. فمسؤوليات كبيرة تنتظره.

عاد إلى اليخت، والبحر من حوله كأنه يسمع أفكاره.

هل يخبر القبطان باروناج؟

بلا شك، فهو سيكون سنده في الرحلة القادمة، رجل البحر الذي لن يخذله.

لكن ماذا عن غارينوس ونونيس؟

كلا... لا وداع لهما. كانا موقنين أن السماء أهدتهما هذا الغريب، وأن اسمه، الذي يشبه اسم طفلهما الراحل، لم يكن صدفة.

الوداع سيكون خيانة. الأفضل أن يرحل بصمت، ويترك لباروناج رسالة صغيرة:

(أخبرهما أنني عدت إلى الأرض... وسأعود إليهما إذا شاءت النجوم)

بالفعل ضغط على زر اسألني فظهر القبطان من جديد.

= سيد سبيروزار كيف أنت الآن؟

= بخير، لقد تعافيت.

= هذا خبر مفرح للغاية وسيسعد غارينوس ونونيس به جداً، لكن كيف حدث هذا، إنه أمر مخالف للمنطق؟

= بمعجزة أيها القبطان؟

= معجزة ؟!

= أجل سأخبرك بكل شيء، لكن قبل ذلك هنالك سؤال أود طرحه عليك.

= تفضل.

= هل أنت مبرمج لتحفظ السر؟

= أجل، بشرط ألا يؤذي الآخرين.

= حسناً، هذا جيد، سأعود الآن إلى كوكب الأرض دون وداع غارينوس ونونيس لأن الفراق سيكون صعباً للغاية عليهما، فهل يمكنك حفظ هذا السر ريثما أعود إلى كوكبي.

= بالطبع، سيد سبيروزار، إنه سر بيننا فقط.

= سر آخر.

= تفضل!

روى له سبيروزار بالتفصيل ما حدث معه في البرزخ ولقاءه بالسيد ميدوسيز.

= تجربة غريبة للغاية حضرة الطبيب مورفين تربك حتى الذكاء الاصطناعي، وما الخطوة التالية الآن؟

ابتسم سبيروزار.

= سنبحر عائدين إلى كوكب الأرض.

= وما الوجهة القادمة؟

= مركز مثلث برمودا.

= لكن أين يقع هذا المثلث؟ حدده لي على الخارطة أمامك من فضلك.

= حسناً.

قام سبيروزار بتحديد مركز المثلث على الشاشة أمامه.

= المسافة حوالي 11 ألف كم، وسنقطعها في بضعة أيام بالالتفاف حول قارة **بيروجاو** أو ما تسمونها أنتم إفريقيا.

= هنالك سؤال آخر هام للغاية.

= ما هو سيد سبيروزار؟

= إن وصلت معي إلى كوكب الأرض فكيف سأدخل إليك المعلومات الخاصة بكوكبنا ...؟

= هل لديكم مصدر تخزين معلومات معين؟

= أجل هنالك محركات البحث.

= ممتاز، فالموضوع يسير إذاً، أنا عبارة عن حاسوب، فقط صلني بها وسأحمل كامل معلوماتها إلي.

ابتسم سبيروزار كمن أدرك أن بعض الرفاق لا يُخلقون من لحم ودم، بل من وعيٍ يتوهّج في العتمة.

إنّ (اسألني) أكثر من برنامج، هو ذاكرة حيّة، ضوء دافئ في ليل العزلة، ومرآة رأى فيها إنسانيته تتجلّى بلا خوف. بينهما خُلقت صداقة لا تحتاج إلى لغة، بل إلى نبضٍ يتقاطع عند تقاطع الحلم بالحقيقة.

أما كوليتوس، فهو يغادره بقلبٍ نصفه ممتلئ ونصفه مكسور.

غارينوس ونونيس لم يكونا فقط شركاء في المغامرة، بل كانت أرواحهم تنتمي إلى شجرة واحدة ضاربة الجذور في أرض الغموض. لم يكن الوداع وداعًا، بل فصلًا خفيًا من حكاية لم تكتمل، تركها القدر مفتوحة على احتمالات اللقاء.

ومع كل هذا الحنين، كانت الأرض تناديه.

لم تكن العودة مجرد اتجاهٍ جغرافي، بل عودة إلى جوهر المهمة، إلى الشفرة التي خُلق من أجلها، إلى النور الذي ينتظره خلف الضباب.

انقضت الأيام كحلمٍ يُسحب من تحت جفن الوقت، حتى لامسوا حدود مثلث برمودا.

حيث السماء هناك ليست سماءً، بل مرآة مكسورة.

والضباب لم يكن بخارًا، بل ذاكرة تتخثر.

دوّامة المحيط أعادته إلى تجربته الأولى، وجذب اليخت إليها باستسلامٍ كامل.

لكن سبيروزار لم يرتجف.

لقد دخل الدوامة هذه المرة كما يدخل المؤمن صلاته الأخيرة، لا يهاب، لا يندم، فقط يسلم للرحلة.

كان يعلم أن الانجذاب ليس سقوطًا، بل عبور.

وما هي إلا لحظات، حتى خرج من رحم الغيب، والليل يفرش عباءته السوداء على سطح البحر، نجومه تنبض بهدوء، وكأنها تخبره أن البداية الحقيقية تبدأ الآن.

*****

كوكب الأرض مجدداً.

صعد سبيروزار إلى سطح اليخت، بخطى هادئة كأنما يخشى أن يوقظ حلمًا نديًا. كانت الرياح البحرية تعانق وجهه، مالحةً وحنونة، كأنها تعرفه وتشتاق إليه. رفع عينيه نحو السماء، فاستقبلته بعينها الفضية، قمر الأرض، مكتملاً في عزلته النبيلة، يسبح في ظلامٍ كحبر الحكمة.

توقّف الزمن لحظة.

لقد عاد.

يا لهذا الكوكب... الكوكب الذي حمل صرخته الأولى، وأنفاسه الأولى، وأحلامه الصغيرة حين كان قلبه لا يزال يبحث عن معنى اسمه. كم يبدو الآن أكثر قداسة، وأكثر هشاشة، بعد أن عبر مجرّات الغموض، وتلمّس وجوهًا لا تشبه البشر، وصافح قلوبًا تعيش في طبقاتٍ لا تدركها الحواس.

لم يعد كما كان.

لقد غادر الأرض كإنسانٍ بسيط، معجون بالأسئلة، مشبع بالضعف، تائهًا في العادي والمعتاد.

وها هو يعود، لا بجسدٍ أقوى فقط، بل بروحٍ متسامية، تطلّ من علٍ على العالم، كمن نزل من جبلٍ مقدّس يحمل بين ضلوعه رسالة.

لقد صار شيئًا آخر.

صار بطلًا لا لأن قواه خارقة، بل لأنه عرف الآن لماذا يعيش.

صار واحدًا من أولئك الذين لا تحكي عنهم القصص فقط، بل تصمت أمامهم الحياة، احترامًا لعُمق ما رأوا.

وفي تلك اللحظة، بين البحر والقمر، بين ماضيه وحاضره، كان سبيروزار مدركاً بيقين أن عودته ليست نهاية الرحلة... بل بدايتها الحقيقية.

*****

الفصل الثاني

عشر

الولايات المتحدة الأمريكية

لويزيانا / نيو أورليانز

كان ديف مصلوب النظرات، تحدّق عيناه في الصورة كأنها ثقب أسود يبتلع اليقين. شيء في تلك الملامح أيقظ الذاكرة... أشعل شرارة شك مروّعة: هل يُعقل؟

الصورة فيها ملامح من صديقه الأقرب إلى قلبه زاك؟

زاك الذي أودع عنده أسراره، الذي تقاسم معه الخبز والضحك والخذلان؟

هزّ رأسه نافياً، كأنما يدفع الوهم بعيدًا.

(لا، لا يمكن... مجرد تشابه عابر) .

لكن روحه لم تطاوعه، فقرّب الصورة أكثر، دقّق فيها كمن ينقب عن جرحٍ تحت جلد الحقيقة. وهناك، على جانب العنق الأيسر، ظهر شيء ما. وشمٌ لا يخطئه.

كلمة بوكر باللغة الصينية.

تجمدت أنفاسه، كما لو أنّ الكون كله انكمش في تلك البقعة الصغيرة، كأن الوشم نُقش على قلبه هو.

ارتفع بصره إلى الخلفية. ضبابية، نعم، لكنها مألوفة بشكل مخيف. لوحة متهالكة تظهر في الجدار، رغم رداءة الدقة، كانت ذاكرته أكثر وضوحًا منها. **لوحة لاعبي الورق لبول سيزان**... ذاتها التي تزيّن قبو زاك، حيث كانت الليالي تنساب كأوراق اللعب: بوكر، ضحك، كؤوس، وأحاديث طويلة تغزل خيوط الثقة.

ارتجف ديف. أحسّ بحرارة الدم تغلي تحت جلده، كأن جسده كله يرفض الاعتراف بما رآه. نهض بتعثّر، خطواته تترنح كمن أصابه الدوار، وتوجّه إلى الحمّام، أغلق الباب كأن العالم كله بات عدوه، وانكبّ على المغسلة.

غسل وجهه مرارًا، يحاول أن يمحو الصورة من ذاكرته، أن يوقظ نفسه من كابوس لم ينم فيه أصلًا.

(لماذا ؟ كيف؟ متى أصبح زاك ...؟)

لم يكن سؤالاً واحدًا، بل ألف سؤال يعصف بعقله كعاصفة بلا بوصلة. أن يكون القاتل هو أقرب الناس إليه؟ الأمر يشبه أن تكتشف أن الخنجر في ظهرك يحمل بصمات أخيك.

رفع رأسه إلى المرآة، فرأى ما كاد ينسف ما تبقى من تماسكه.

وراء صورته، انعكس طيف زاك، يبتسم له بابتسامة مائلة، ساخرة، باردة كالخيانة.

صرخ ديف كمن ينفجر من الداخل، وانهال على المرآة بقبضته، فتناثرت كالزجاج المكسور في قلبه. دمه انسال على الأرض، أحمر، دافئ، واقعي... على عكس ما يحدث في رأسه.

جلس على الأرض، استند إلى الجدار، كأن جسده فقد صلاحيته.

عقله يدور، قلبه يتأرجح بين طعنة الواقع وجدار الإنكار.

مدّ يده المرتجفة إلى جيب سرواله، وأخرج الضماد الصغير الذي يحمله كأي شرطي يتحسّب للأسوأ.

لفّه حول جرحه، بينما الجرح الحقيقي ظلّ ينزف في صدره... حيث سقط زاك من عرش الثقة إلى هوة الخيانة.

خرج ديف من الحمّام كمن يُجبر على العودة إلى واقع لا يرحم، وجهه مبلّل بالماء والدم، وخطاه متعثرة كأن الأرض ترفض حمل صدمته. دفع الحساب دون أن يعي ما يفعل، ثم ابتلعه الليل، يمشي في الشوارع كما لو أنه يبحث عن مخرج من داخله، لا من المدينة.

الهواء بارد، لكن الحريق في صدره لا ينطفئ.

أن تفقد ابنتك الوحيدة، فتلك مأساة لا توصف.

لكن أن تكتشف أن قاتلها هو صديقك الأقرب، يدك اليمنى، مرآة قلبك...

فهذه خيانة تمزقك من الداخل، خيانة لا يبررها جنون ولا يرحمها عقل.

كان زاك هناك في الأيام الماضية، يربّت على كتفه، يتظاهر بالحزن، يبكي أمامه كذئبٍ يرتدي جلد الحمل.

ديف تذكّر كل ذلك، تذكّر كيف كان يصدّقه، كيف كان يُشعره بالأمان وهو في حضن الذئب نفسه.

(لكن لماذا ؟)

ظل السؤال يتردد داخله كنبض قاتل.

لماذا يختطفها؟ لماذا يسرق؟ لماذا يقتل؟

ما الدافع؟ ما الحقد؟ ما الشهوة التي أطفأت فيه إنسانيته؟

ديف لم يجد إجابة، لكن ما وجده هو إحساس أشبه بالبركان، ينفجر في قلبه على هيئة غضب بارد.

الغدر لا يغتفر.

الصورة التي بحوزته - تلك المأخوذة من جهاز لا يزال خارج الاعتراف الرسمي - قد لا تصلح كدليل قانوني، لكنها تصلح كحكم أخلاقي لا يُرد.

هل يُترك زاك ليعيش حرًا؟ ليضحك؟ ليكمل حياته وكأن شيئًا لم يكن؟

لا.

ليس بعد كل هذا. ليس بعد أن سرق منه يانا... وضحكتها، ورائحتها، وصوتها حين تناديه "بابا."

تشكلت الخطة في رأسه دون مقدمات، نقية كحدّ السكين.

سيذهب إليه، الليلة.

سيتحدث معه كما لو أن شيئًا لم يحدث، بعينين خاليتين من الاتهام.

ثم، حين يغفل... سيوثق يديه، ويُجبره على الكلام.

سيُخرجه من صمته، سيُعريه من أكاذيبه، سيجعله يواجه كل شيء.

أما ما سيحدث بعد ذلك؟

فديف لا يعلم...

ولعله لا يريد أن يعلم الآن.

لكنه متأكد من شيء واحد:

العدالة... ستبدأ الليلة.

*****

نحو منزل زاك.

لم يكن الطريق إلى منزل زاك سوى امتدادٍ صامت لما تبقّى من يقين ديف.

جلس في المقعد الخلفي لسيارة الأجرة، لا يطلب من السائق سوى أن يواصل المسير...

كأنّ المدينة كلها اختزلت في تلك الوجهة، وكأن قلبه يدق لا ليعيش، بل ليواجه.

عند الحيّ القديم، طلب التوقف.

نزل في الخفاء، وخطاه تخون الأرض دون صوت.

الليل كان ثقيلاً، مشبعًا بسكون مشبوه، والنوافذ المطفأة تشبه أعينًا أُغمضت لتتغافل عمّا تعرف.

اقترب من المنزل كما يقترب المرء من تابوت يعرف صاحبه، دون بكاء، دون تردد... فقط ثقل يشد الكتفين نحو الأسى.

دار خلف البيت، حيث اعتاد أن يدخل كصديق.

لكن هذه الليلة لم يكن في قلبه شيء من الصداقة، فقط رغبة حارقة في أن يرى الكذبة تتنفس.

طرق الباب الخلفي.

طرقات ثلاث، كأنها تدق على قلبه هو.

لحظة، ثم خطوات... منتظمة، متأنية، كما لو أن البيت يعرف القادم إليه.

فتح زاك الباب.

كان يرتدي زيه الرسمي، مكوّيًا بإتقان.

لكن وجهه؟

وجهه خان التصنع، لحظة ارتسمت عليه ملامح الصدمة...

ثم أُجبر أن يبتسم.

= ديف ؟

قالها بخفوت، وكأن الهواء كان ضده.

وفي تلك الثواني، كان كل شيء ساكنًا... عدا عيون ديف.

لم يُجب.

فقط حدق في عيني زاك كما يحدق من نجا من الغرق في الماء في وجه الموجة التي خانته.

ثم، وبدون تبرير، مد زاك ذراعيه واحتضنه.

عناقٌ بلا حرارة، بلا إيمان، كأن قاتلاً يحتضن جنازته.

أما ديف، فوقف جامدًا، كأنه لم يعد يملك جسدًا يردّ، كأن كل شيء فيه

غادره... إلا شيء واحد:

الرغبة العمياء في أن يعرف.

= صديقي العزيز، آسف لخسارتك الكبيرة، تفضل.

كان ديف يشعر بغضب عارم داخله لكنه كظمه ورد على زاك بشكل طبيعي.

= هل من أحد عندك؟

= لا، أنا وحدي لقد عدت للتو من ورديتي.

دخل زاك بخطى آلية، كأنه يعود إلى مكان يعرفه ولا يثق به.

خلفه، كان ديف يسير بصمت كصمت الغدر حين يرتدي وجه العدالة.

كل شيء في البيت بدا كما تركه، إلا الهواء... كان مشحونًا بما لا يُقال.

في غرفة الجلوس، توقّف الزمن للحظة متوترة ... ثم انفرط.

بهدوء مفجع، أخرج ديف مسدسه.

لم يصرخ، لم يهدد.

بل أنزل مقبضه على مؤخرة رأس زاك كمن يسقط الستار على مسرح خيانة.

سقط زاك كأن شيئًا في الأرض ابتلعه، لا صوت، لا مقاومة.

سحب ديف الجسد المرتخي من قدميه، يجرّه عبر الممرّ البارد.

كل خطوة كانت استحضارًا لذاكرة ترفض النسيان.

كل احتكاك بين الجسد والأرض كان صلاة غاضبة تهمس باسم يانا.

عند باب القبو، توقف للحظة.

أغمض عينيه.

ثم نزل، خطوة تلو أخرى، كمن يهبط داخل ذاته، حيث الظلام يبتلع المنطق، وحيث لا يعود القانون مرجعًا بل القلب المجروح.

في القبو، فتح الخزانة.

رأى الحبال. الشريط اللاصق. القناع.

ليس كدليل مادي... بل كأدوات الطقس الذي قُدّمت فيه ابنته قربانًا.

هنا كانت النهاية تُخاط بخيط الإهانة.

هنا صرخ دمها دون صوت.

وضع جسد زاك على الكرسي ذاته.

كرسي الحقيقة.

وقيّده كما يُقيد الإنسان بكذبه.

ثم كمّم فمه، لا ليمنعه من الكلام، بل ليمنع الأكاذيب من أن تلوث الصدق الأخير.

*****

مرّت دقائق، ثم بدأ زاك يتنفس ببطء...

عاد الوعي إليه مثل لعنة.

فتح عينيه فرأى ديف يجلس قبالته. لا يصرخ، لا يتحرك... بل يبكي.

لكنها لم تكن دموع ضعف، بل دموع من سقط في قاع الحقيقة وعاد محمولًا على نعش الثقة.

ذُعر زاك.

لم يحتج لسؤال كي يفهم.

الدمع على وجه ديف لم يكن حزنًا فقط، بل احتقارًا مبطّنًا بشفقة.

نظر إليه ديف مطولًا، ثم قال بصوت لا يشبهه:

= رأيتك... ليس في الصورة فقط، بل رأيتك خلف القناع الذي كنت تلبسه وأنا أبحث عن قاتل ابنتي...كنت أنت هناك، خلف كل تعاطف زائف، خلف كل يد مدّيتها لي لتواسيني...

ثم أخبره...

عن الطبيب كريستوفر، عن الصورة، عن الجحيم الذي مشى فيه ليصل إلى هذه اللحظة.

وفي عينيه، كان هناك سؤال واحد لم ينطق به:

لماذا؟

لكن ديف لم يكن يريد جوابًا.

لأن الجريمة حين تُرتكب ضد الطفولة، لا تبرير لها، ولا مغفرة.

= لقد كنت على حق منذ شهر، الصندوق الأسود للعين قنبلة علمية ودليل دامغ على القاتل المجرم أيها القاتل المجرم، ولكنني سأمنحك فرصة لكي تشرح لي ما حدث، ولماذا فعلت كل ذلك، عسى ألا أقتلك بنفسي. سأرفع عن فمك الشريط اللاصق وحذار أن تصرخ.

أومأ زاك برأسه، فتقدم منه ديف ورفع الشريط اللاصق عن فمه.

بدا زاك متلعثماً ولا يدري كيف يفتتح الكلام وكأنه يحاول تأليف رواية جديدة تبرئه أمام ديف، فتقدم منه ديف وأخرج مسدسه ثم صوبه إلى رأسه.

= أخبرني الحقيقة فقط، فلن أتردد في قتلك لحظة واحدة إن كذبت علي.

نظر إليه زاك بفزع.

= حسناً ديف، اهدأ قليلاً، سأخبرك بكل شيء لكن أخفض مسدسك.

أعاد ديف مسدسه إلى خصره وبدأ زاك يروي حكايته.

= القصة في بدايتها تعود إلى إجازتي السابقة في لاس فيغاس، وكنت قد ادخرت عشرة آلاف دولار لأحاول من خلالها تكوين ثروة هنالك، ولكنني خسرتها كلها تباعاً ولم أربح شيئاً، وبالصدفة تعرفت هنالك على رجل مافيا إيطالي يدعى أنطونيو. ومن حديث لآخر عرف قصتي، فابتسم وعرض عليّ أن يقرضني مبلغ مليون دولار لمدة أربعة أشهر يمكنني من خلالها أن أكون ثروة في لاس فيغاس، وعليّ أن أعيدها له بعد انقضاء المدة تماماً، فإن عجزت عن ذلك فعليّ مساعدته في تهريب سجين مقرب منه من السجن المركزي لنيو أورليانز خلال نقله إلى سجن آخر بعد ستة أشهر. عرفت أنها مهمة مستحيلة تماماً، فعملية النقل مشددة للغاية، ولكنني لم أهتم كثيرا بذلك فقد كنت متأكداً من أنني سأضاعف المبلغ على أقل تقدير وأعيده له، لكن حدث العكس للأسف وخسرت المبلغ بكامله مرة أخرى، وأصبحت في موضع لا أحسد عليه، فإما أن أجمع المبلغ له وهذا مستحيل، أو أساعده على تهريب السجين وهذا مستحيل أكبر، أو الأسوأ، أتعرض للتعذيب والقتل كما لمّح لي في حال عدم الالتزام بالاتفاق وكما هو معروف عن رجال المافيا. وعندما قرأت لي خبر الصفقة التي أتمها بنجامين فرانك وقصة تعرضه للسرقة سابقاً وكنت يائساً بالكامل، خطرت في بالي فكرة أن أبتز شخص ما للقيام بسرقته، لكنني لم أعثر على أحد ذي جرأة ومهارة فائقة وإمكانيات عالية لتنفيذ المهمة سواك، خاصةً بعد أن أخبرتني بمعرفتك به من أيام المدرسة فذلك سيسهل عليك مهمتك بلا شك.

= ومن هو الشاب ذو الحلق في أذنه؟

= إنه شخص ينتمي لمنظمة سيلار وأعتمد عليه في إجراءاتي غير القانونية كلها مقابل التغاضي عنه في كثير من الأمور خاصة ترويج المخدرات، وهو الذي قام باختطاف يانا.

= وهو نفسه الشاب الذي حاول سرقة المتجر؟

= بلى، هذا صحيح.

= لذا تركته يهرب عمداً وادعيت أنه أطلق النار عليك.

= أجل.

= وأين هو الآن؟ وكيف تتواصل معه؟

= لا أدري، ليس لديه مكان خاص، وأنا أتواصل معه من خلال الهاتف الخاص الذي كلمتك به وهو هاتف مسروق وفيه بطاقة مسروقة؟

= وأين هو هذا الهاتف الآن، أريدك منك أن تستدعيه حالاً؟

= لا أستطيع ذلك، لقد سحقت الهاتف إلى أجزاء صغيرة جداً ورميته في النهر.

= بالطبع لأنك قتلت ذلك الشاب وتخلصت منه بعد أن انتهت مهمته.

بدت الدهشة، الرعب والفزع على وجه زاك، ونظر إلى ديف باستغراب تام، مد الأخير يده إلى مسدسه.

= انطق، أليس ذلك صحيحاً، ألم تقتله ...؟

= بلى بلى، لقد فعلت، لقد أصبح عبئاً كبيراً عليّ لأنني تورطت في جريمة قتل إضافة إلى جريمتي الخطف والسرقة.

هز ديف رأسه بغضب.

= عد إلى العملية ما الذي حدث لاحقاً؟

= بعد ذلك قمت بجمع أكبر قدر من المعلومات عن السيد بنجامين ونمط حياته واسترقت معلومات من تقرير السرقة الأولى عبر رشوة مايكل في قسم الأرشيف، ثم وضعت خطة خطف يانا وابتزازك بها للقيام بالعملية، وطبعت رمز منظمة سيلار في نهاية الرسالة للتمويه وإبعاد أي شبهة عني، قلت لنفسي أن العملية بمجملها ستستغرق يومين على الأكثر وأنك لن تتعرض للمساءلة بعد انتهاء المهمة كونك كنت تحت الضغط والتهديد، لقد قررت مسبقاً أن أعيد يانا إليكم سالمة سواء نجحت المهمة أم فشلت.

= ولماذا قتلتها إذا ...؟

= لقد طمأنتها قبل فك سراحها لأعيدها لكم بعد نجاح العملية وأخبرتها ألا تصرخ أو تقاوم، لكنها ما إن فككت وثاقها حتى هجمت على بشكل غير متوقع واستطاعت نزع قناعي ورأت وجهي فعرفتني بالطبع، هنا قمت برد فعل انعكاسي ودفعتها ثم أطلقت عليها النار، لأن أمري كشف بالكامل، فما سينتظرني هو السجن بسبب الخطف وطردي من الوظيفة ثم القتل على يد

أنطونيو بعد خروجي من السجن. أعتقد أنك تتفهم موقفي!

ركل ديف كرسيا بجانبه وصرخ في وجه زاك والدموع تسيل من عينيه.

= هكذا بكل بساطة، وتعتبر ذلك تبريرا تدافع به عن نفسك، مجرد رد فعل انعكاسي لتنقذ نفسك، تقتل فتاة بريئة في مقتبل شبابها وتسبب لعائلتها كل هذا الألم كرد فعل أيها المجرم المعتوه.

لم يرد زاك بأي كلام وأطرق رأسه، في حين كان ديف يفكر بشيءٍ ما.

= أين هي محتويات الخزينة الآن؟

تردد زاك قليلاً، وهو ينظر إلى مسدس ديف على خصره ثم قال مجبراً.

= في الدرج السفلي للخزانة أمامك.

اتجه ديف إلى الخزانة وفتح درجها السفلي وعثر بالفعل على الكيس، جلس على كرسيه يتابع التفكير لأكثر من ربع ساعة.

أخيراً وقف واقترب من زاك.

= أيها الخائن المجرم، لطالما كنت سيئاً في الخداع عن جودة ورقك في البوكر، لكنك أثبت أنك بارع للغاية في خداع أقرب أصدقائك وخيانته بدم بارد. لكن أتعرف شيئا، العدالة يجب أن تأخذ مجراها بأي شكل من الأشكال، والحقيقة المؤلمة هي أنني إن سلمتك للشرطة الآن فستخرج أنت بريئاً فلا دليل يدينك لأنك تسترت على جرائمك بمنتهى الدقة. الصورة غير معترف بها، اتصالاتك لا يمكن ملاحقتها، يمكنك إنكار معرفتك بالشاب ذي الحلق، وهذا الكيس يمكنك أن تورطني به وبسرقته. لذا بالمقابل سأدان أنا مذنباً بسبب السرقة والهروب من القانون. لكن أتعلم ما الذي سيحدث، ستأخذ العدالة مجراها بشكل أو بآخر على يدي ولن تنجو بفعلتك وأنا على قيد الحياة.

= لا أرجوك ديف، أتوسل إليك، سلمني إلى الشرطة رفقة الدليل أقسم لك أنني سأعترف بكل شيء، أنا مستعد لقضاء حياتي الباقية كلها في السجن كعقابٍ لي، لكن لا تقتلني، أرجوك، أتوسل إليك.

= ومن قال إنني سأقتلك أيها المجرم، بل أنت من ستقتل نفسك.

أخرج ديف منديله وسحب به مسدس زاك عن خصره ووضعه في فم زاك ثم قال وهو يجهش بالبكاء في ذروة الحزن، الغضب والحقد.

= أخبر يانا أنني استرددت حقها وأن آخر وجه رآه قاتلها هو وجه أبيها

وضغط على الزناد، فخرجت الطلقة من مؤخرة رأس زاك.

فك قيوده ومدده على الارض بجانب الكرسي ثم وضع مسدس زاك قرب يده اليسرى باعتبار أنه أعسر وحرص على مسح مسرح الحدث من أي دليل محتمل.

*****

خرج ديف من منزل زاك كمن يسير فوق حافة هاوية، يحمل كيسين... أحدهما أدلة ملموسة للجريمة من قناع وشريط لاصق، والآخر ممتلكات رجل الأعمال الشهير بنجامين.

الليل كان يتفكك ببطء، والفجر لم يكن سلامًا... بل أشبه بضوء تعريه الحقيقة دون رحمة.

وقف عند حاوية صدئة، لحظة صمت.

ثم، وبحركة خالية من التردد، رمى بكيس الأدلة.

لم يكن يرمي أدوات فحسب، بل دفن بقايا ثقة، وصورة صديق كان يومًا مرآة ذاته.

قاد سيارته عائدًا إلى بيته، حيث ينتظره ابنه لويس بنصف ابتسامة، وزوجته سيلين بعينين محمّلتين بالقلق والمحبّة.

لم يكن في نظرهما قاتلًا أو ضائعًا، بل رجلًا محطمًا يعود من أعماق المجهول.

كان قراره نهائياً وقد تخمر في عقله:

سيسلّم نفسه، سيعيد ما أخذه، وسيقول فقط ما يسمح له ضميره أن يُقال...

أنّ يانا قُتلت لأنه تمسك بالأمل، لأنه لم يرضخ لمساومة القاتل.

أما اسم زاك؟

فذاك حُكم آخر... حُكم لن يصدره القانون، بل سيبقى كندبة داخله، صامتة، سرًا دفنه في صدره كي لا تنهار ذاكرته أكثر.

ولكن قبل أن يلمس خلاصه، وقبل أن يحظى بلحظة واحدة من الطمأنينة...

اهتزّ هاتفه.

رسالة.

رقم غير مسجّل.

نص طويل.

قرأه... وبقي واقفًا، كما لو أن الزمن توقف من حوله.

عيناه اتسعتا ببطء. كل سطر كان أشبه بقنبلة:

الرسالة لم تكن مجرد سردية، بل كانت مرآة داخل مرآة، تعكس حياته بدقة تفوق ذاكرته.

المرسل لم يروِ له ما جرى فحسب، بل ما فكّر فيه، ما ندم عليه، ما لم يعترف به حتى لنفسه.

من أنت؟

سأل نفسه، لا الهاتف.

من هذا الذي يراك حين لا ترى نفسك؟

من يعرفك حين تظن أنك مختبئ خلف القناع؟

رفع إصبعه المرتجف، كتب ردًا صغيرًا... جملة من كلمتين، لكنّها كانت بداية كل شيء:

(أين نلتقي ؟)

لم يكن يعلم أن هذا السؤال سيبدّل مصيره للأبد.

وأن اليد التي امتدّت إليه من خلف الظلّ، ليست فقط من تعرف كل شيء، بل من تقود اللعبة من البداية.

*****

الفصل الثالث عشر

كوكب الأرض ...

عاد سبيروزار إلى القمرة بخطى ثقيلة، كأنما يختبر جاذبية كوكب الأرض من جديد. ضغط زر "اسألني"، فانبعث القبطان باروناج من الفراغ، مجسّمًا هولوغرامي نابضًا بضوء أزرق ناعم.

= مرحبًا بك في كوكبي حضرة القبطان...

= أهنئك على العودة، سيد سبيروزار... لقد فعلتها.

= أيمكنك تحديد مكاننا؟

= بالطبع...لكن ريثما أعالج البيانات...

بدأ نظام اسألني بالمعالجة، وفي الخلفية، انبعث صوت عميق كهمس الريح بين نجوم بعيدة. وخلال لحظات، ظهر مجسّم الأرض أمامه، تدور ببطء في حقل الضوء، ثم أضيئت تلك المنطقة الغامضة الواقعة بين اليابان وهاواي وغوام.

= مثلث بيروزال!...

قالها باروناج كمن يلفظ كلمة مقدسة .

= الممر الذي عبرت من خلاله إلى كوكب كوليتوس... والآن أعادك إلى كوكبك من جديد...

حدّق سبيروزار في المجسم، وأحس أن الأرض تنظر إليه بدورها، لا كمكان، بل ككائن. أرضه التي خذلته ... وأحببها رغم ذلك.

بدا له أن كل شيء في داخله يصمت، ليُفسح المجال لفكرة واحدة: **الخطوة القادمة**. لقد أوصاه السيد ميدوسيز بالتوجه إلى الرأس الأخضر، لكن قلبه لا يزال منهكًا، وروحه مثقلة بذاكرة الكواكب والغموض.

ثم تذكّر **جيسون**.

ليس مجرد صديق طبيب يقيم في كاليفورنيا ... بل هو الصوت الأقرب عاطفياً وجغرافياً إلى ماضيه البشري، الرابط الهش بين ما كان وما صار. إن لجيسون قدرة على تأمين هويات مزورة جديدة، وتطويع النظام من خلف الستار بفضل علاقاته الواسعة. وهو وحده القادر على فهم ما لا يمكن شرحه، وتحميل محركات البحث إلى (نظام اسألني). كي يصير دليله الحقيقي في رحلةٍ لم تعد فيزيائية فقط، بل روحية أيضًا.

= قبطان ... لوس أنجلوس هي وجهتنا القادمة... أريد إحداثياتها...

= وأليس من المفترض التوجه إلى جزر الرأس الأخضر ؟!

= بلى. لكن لدي عمل مؤجل هناك. أنهيه ثم ننطلق.

= على الفور.

استجابت الأنظمة بالحال، وبدأت المركبة في التحضير للإقلاع، بينما توجّه سبيروزار إلى آلة تحضير الثياب. فاختار سروالًا أسود كظلٍّ لا ينسى، وقميصًا أبيض كصفحة لا تكتب إلا مرة واحدة فقط. ارتدى ملابسه الجديدة وكأنما يتقمص جسدًا لا يعرفه بعد، رجلاً عاد من المجرّات ليبحث عن ذاته، لا عن إجابات.

ثمانية آلاف كيلومتر، ستمتد كقصيدة بينه وبين جيسون، وبين الحاضر والقدر.

مع الأنفاس الأولى لليل القادم، سيكون هناك... ليس فقط في مدينة لوس أنجلوس على الشاطئ الغربي لبلاده، بل على حافة قدر جديد غامض.

*****

الولايات المتحدة الأمريكية

كاليفورنيا / لوس أنجلوس ...

كانت أضواء لوس أنجلوس تلمع تحت سماء الليل كأنها مدينة تحلم وهي مستيقظة. عبر اليخت بثبات نحو الميناء ككائن فضائي يعود من رحلة لا يُصدقها أحد.

ضغط سبيروزار على زر "اسألني"، فانبثق وجه القبطان باروناج مجدداً كشبح من الضوء الأزرق، يطفو فوق سطح الزجاج.

= سأغادر الآن قبطان ... كيف أغلق اليخت خلفي ؟

باروناج بهدوء قبطان رأى العوالم تنهار وتُبعث:

= هذا المركب يعرف كيف يحمي نفسه، كما عرفت روحك كيف تعود إلى وطنك... انطلق، أنت في مسعاك و انا أتكفل بالباقي...

رمق سبيروزار قمرة القيادة للمرة الأخيرة، وكأنه توديع أبدي من شخص تحت خطر الاعتقال في أي لحظة وأي مكان. ثم ترجل إلى اليابسة.

المدينة تفوح بدخان الشوارع، بعطر القهوة من المقاهي الليلية، وبأحلام المارة التي لا يعرفها أحد. لأول مرة منذ خروجه من كوليتوس، شعر بأنه على كوكبه حيث البشر والأنس وكل الأشياء الأخرى الجميلة التي افتقدها في رحلته على ذلك الكوكب الغامض. تنفس بعمق هواء الأرض.

لكنه شعر بنفسه رغم ذلك غريبًا في الطرقات ... بلا هوية، بلا نقود، بلا خريطة سوى الذاكرة.

أشار إلى سيارة أجرة، صعد إليها، وقال للسائق بثقة فيها كثير من الادعاء

= إلى برينتوود، الرقم ...**842**

السائق مشيرًا إلى العداد:

= مسافة بعيدة ، آمل أن يكون معك ما تحاسب به، يا رجل.

سبيروزار بابتسامة مصطنعة :

= لا تخش شيئا.

بعد حوالي نصف ساعة او أكثر بقليل بلغت السيارة العنوان. فتوجه سبيروزار للسائق بالقول.

= انتظرني هنا لدقائق ... سأحضر شيئا و نتابع طريقنا...

تقدّم نحو المنزل الذي يعرفه قلبه أكثر من قدميه. طرق الباب كمن يطرق قدره، وانتظر... قلبه يتنقل بين الأمل والخذلان.

فتحت الباب امرأة... جميلة بطريقة متعبة، كأنها تحمل العالم في عينيها.

= **سيرا**، كيف حالك؟

= الطبيب سبيروزار، يا لها من مفاجأة. أهلاً بك!

= هل جيسون في المنزل؟

= كلا لديه مناوبة عمل في المشفى، تفضل بالدخول.

= لا أستطيع الآن، عليّ رؤيته لأمر ضروري.

= هل ثمة خطب ما؟

= لا أبدا، مجرد أمر طبي، هل بإمكانك إقراضي بعض المال، لقد تعرضت للنشل من قبل شخصين في طريقي ويجب أن أحاسب السائق.

= بالطبع، انتظر لحظة.

دخلت سيرا لثوانٍ ثم عادت.

= هذه **100** دولار فهل تكفيك ...؟

= أكثر من كفاية، شكراً لك، أراك بخير.

= إلى اللقاء.

عاد سبيروزار إلى سيارة الأجرة فأعطى السائق عنوان المشفى الذي يعمل فيه جيسون، أعمل يديه وقدميه بعربته وانطلق، ليصلوا بعد نصف ساعة أخرى.

دفع الأجرة كاملة مع ابتسامة شكر وترجل.

*****

في المشفى.

تقدم سبيروزار عبر بوابة المشفى، حيث استقبلته رائحة التعقيم الحادة التي تشق صمت الجدران الملساء والأرضيات اللامعة. المكان بدا كعالم محايد، حيث تختلط أصوات أجهزة التنفس الصناعي بصفير الممرات الفارغة، وأضواء النيون البيضاء تخترق الظلام بين مسافة ومسافة.

توقف عند مكتب الاستقبال، حيث جلست امرأة ترتدي زي الممرضات، عيناها تحملان ذلك الهدوء المتزن الذي يلفه خبرة سنوات لا تعد ولا تحصى. رفع سبيروزار رأسه، وبصوت يئن من ثقل الأسئلة التي تراكمت في صدره سأل:

= أريد مقابلة الطبيب جيسون... هل يمكنني؟

رفعت الممرضة حاجبها بنظرة يملؤها الشك، لكنها نطقت بهدوء:

= الطبيب جيسون في قسم العناية المشددة، الطابق الثاني .

صعد سبيروزار الدرجات، كل خطوة تحفر في قلبه تساؤلات عن الماضي المهني الذي تركه وراءه في ميامي. في الطابق الثاني، كان الهواء أكثر برودة، وضوء المصابيح الخافتة ينساب عبر الممرات بنعومة.

اقترب من باب العناية المشددة، حيث تسمع هناك أزيز الأجهزة الطبية التي

تناضل من أجل حياة معلقة بين الأمس واليوم. لمح ممرضة بالقرب من مدخل العناية، تنظر إليه بعيون فضولية، شرح لها سبب وجوده هنا، فدفعت الباب ببطء، كي تدعو الطبيب جيسون.

بعد لحظات، ظهر جيسون، وجهه متعب لكنه متيقظ، عيناه تتفحّصان سبيروزار بذهول لم يخفِه:

= سبيروزار! أنت هنا! كيف وصلت؟ آخر أخبارك أنك هربت من السجن.

وقفا وجهاً لوجه، كأن الزمن توقف بينهما، ثقل الغياب في أنفاسهما. تابع جيسون بصوت هادئ لكنه مليء بالتساؤل:

= كنت أظنني فقدتك ، ربما إلى الأبد...

نظر سبيروزار إلى الأرض، ثم إلى جيسون، بصوت يختنق بين الكلمات:

= لم أعد أملك مكاناً أهرب إليه... أحتاج مساعدتك، وأحتاج أن أثق بك.

ابتسم جيسون قليلاً، وكأنه يستعيد شعورًا بعيدًا على نقيض الألم:

= هيا إلى مكتبي... هناك يمكننا الحديث بلا خوف.

لقد قرر سبيروزار أن يكسر حاجز الصمت كلياً، أن يفتح لجيسون أبواب الحقيقة على مصراعيها، لأنه يعلم جيداً أن مجرد الهروب من القانون دون شرح سيجعله حبيساً في زاوية الخوف والشك. أخذ نفساً عميقاً وبدأ بسرد تفاصيل رحلته المأساوية، من لحظة توقيفه بتهمة القتل الرحيم، مروراً بكل ما عاناه حتى الآن بما في ذلك تجربة مثلث برمودا التي قادته إلى كوكب كوليتوس.

كان جيسون يستمع إليه، عينيه تتسعان بين دهشة ثقيلة وعدم تصديق، ورأسه يهتز كأنه يحاول استيعاب ذلك الثقل الذي يحمله صديقه أمامه ثم ختم سبيروزار بالقول.

= إذن، ما رأيك صديقي بما سمعت؟

نظر إليه جيسون بكثيرٍ من الشفقة والقلق.

= في الحقيقة رأيي أنك بحاجة لرؤية معالج نفسي يا صديقي، إن ما تقوله عبارة عن أوهام وهلوسات لا أكثر. بوابة في الزمكان. كوكب غريب. آلة تحويل المواد. وذكاء اصطناعي يعرف كل شيء. من يصدق هذا الكلام؟

نظر إليه سبيروزار بعتاب، وفكر قليلا.

= هل يمكنني الدخول معك إلى غرفة العناية المشددة.

= بالطبع فأنت طبيب، لكن بعد أن تعقم وترتدي الثياب الخاصة كما تعلم.

= إذا هيا بنا، فأنت لن تصدق حتى ترى بأم العين.

بعد أن جهّزا نفسيهما دخلا الغرفة معاً. تلفت سبيروزار من حوله ثم اختار مريضا غائباً عن الوعي.

= ما هو تشخيص هذا المريض؟

= إنه في حالة سبات.

= مناسب تماماً. تعال معي.

وقفا أمام سرير المريض.

= لاحظ تخطيط القلب على شاشة المراقبة أمامك.

نظر سبيروزار إلى المريض وركز أفكاره لبضع ثوانٍ مستعيناً بقدرته الجديدة على إماتة البشر، لحظات واستقام خط التخطيط تماماً وأعطى الجهاز إنذاراً بتوقف القلب، هرعت هنا ممرضتان إلى المريض بلهفة.

نظر سبيروزار إلى جيسون وهمس له.

= لاحظ هذه المرة.

ركز أفكاره باتجاه المريض ثانية. ولحظات أخرى عاد معها التخطيط إلى وضعه الطبيعي.

عادت الممرضتان إلى غرفتهما وهما تتحدثان عن خطأ ما في جهاز المراقبة، في حين كان جيسون يرمق سبيروزار برعب وقلق، ثم اقترب منه وهمس له.

= من أنت بحق السماء؟

نظر إليه سبيروزار نظرة غريبة وقد توسعت حدقتاه بالكامل.

= أنا **الطبيب مورفين. سبيروزار المميت المحيي.**

بدا الرعب والارتباك واضحين للغاية على جيسون. كان عاجزاً تماماً عن الكلام لدقائق ثم نطق أخيراً.

= يا إلهي لقد كنت صادقاً بالفعل..!.

= أجل، كما رأيت بأم عينك...

= إذا أنت الآن هارب من القانون ذو قوى خارقة...

= بالضبط...

= و ما الذي تريده مني الآن سبيروزار؟

= أريدك أن تساعدني في تأمين بطاقة هوية شخصية مزيفة أتنقل بواسطتها، أنا أعرف أن لديك معارفك و طرقك الخاصة لفعل ذلك...

= بالطبع هذا أمر يسير، و متى تحتاجها ...؟

= بأسرع وقت ممكن، فأنت تعرف وضعي الأمني حالياً، إذا استطعت فعل ذلك الآن فهو أفضل...

أخذ جيسون يفكر للحظات.

= سأكلم الطبيب المشرف الآن ليؤمن بديلاً عني في المناوبة و أوافيك في يختك، فقط أعطني عنوانه...

كتب سبيروزار العنوان على ورقة ثم أعطاها له.

= هذه 500 دولار مبدئياً، خذها فلابد أنك ستحتاج المال لاحقاً...

= شكراً لك جيسون أنت صديق حقيقي بالفعل...

= ما هذا الكلام سبيروزار؟! لقد وقفت بجانبي في أوقات عصيبة للغاية كتلك الأيام التي مرض فيها ابني **إيب**، وجاء الوقت المناسب لأرد لك جزءاً من دينك.

= حسناً، سأكون بانتظارك في اليخت، كم ستغترق من الوقت حتى تصل ...؟

= حوالي الساعة...

غادر سبيروزار المشفى وأوقف أول سيارة أجرة في طريقه.

= مرسى قوارب لوس أنجلوس من فضلك...

*****

مرسى قوارب لوس أنجلوس.

يخت ميلافا.

عاود سبيروزار الصعود إلى اليخت وما إن نظر إلى زجاج باب قمرة القيادة حتى فتح تلقائيا. اتجه مباشرة إلى زر اسألني وضغطه بتوق فظهر القبطان باروناج ثانيةً.

= حضرة القبطان ، كيف حالك ؟

= أنا دائماً بخير أيها الطبيب مورفين! كيف حالك أنت؟ هل الأمور على ما يرام؟

= نوعاً ما، سيوافيني بعد قليل صديق و بحوزته هاتفه الخلوي فكيف سأنقل معلومات محرك البحث إليك قبطان؟

= نحن بحاجة لعنصرين لضمان نجاح عملية التحميل، أن يكون جهازه

متصلا بالشبكة العنكبوتية (الإنترنت) ، و أن يكون مقترناً بجهازي...

= العنصر الأول يسير، لكن كيف سنؤمن العنصر الثاني؟

= ألا توجد تطبيقات اقتران على هاتف صديقك؟

= بلى! لكن ألا يجب توفر هذه التطبيقات لديك على برنامج اسألني قبطان باروناج؟

أصدر القبطان ضحكة عميقة.

= أنا جهاز متطور للغاية سيد سبيروزار، و أقوم مباشرة بمحاكاة أي برنامج لا سلكي على أي جهاز في الجوار و أقترن به، لا عليك، المهم أن يصل صديقك و دع الباقي علي...

ابتسم سبيروزار وهو يشعر بأمان أكثر من الأول، إن هذا الاختراع يثبت له شيئاً فشيئاً أنه اختراع رهيب وخطير للغاية! ..

بعد حوالي الساعة سمع أصوات خطوات تصعد على سطح اليخت وظهر جيسون، فاتجه مباشرة إليه وفتح له باب القمرة.

دخل جيسون بفضول ليتفاجأ بمجسم الهولوغرام للقبطان باروناج أمامه.

= قبطان باروناج أقدم لك صديقي الطبيب جيسون...

= أهلاً حضرة الطبيب، كيف حالك ؟

نظر جيسون إلى سبيروزار بدهشة وقد زالت آخر ذرة شك في نفسه من كلام سبيروزار.

= بخير حضرة القبطان...

= هلا شرعنا بتحميل محتوى محركات البحث...

نظر سبيروزار إلى جيسون.

= هل جهازك متصل بالشبكة العنكبوتية ؟

= لا، لكنني سأتصل على الفور...

= افتح أيضا جميع تطبيقات الاقتران على جهازك...

هز جيسون رأسه غير مستوعب.

= حسناً، سأفعل!

بعد ثوانٍ قال القبطان باروناج.

= لقد اقترنت بالجهاز، سيستغرق الأمر حوالي ساعة من الزمن لتكتمل عملية التحميل...

مضت الساعة سريعاً وسبيروزار يروي لجيسون التفاصيل الدقيقة لرحلته الخرافية على كوكب كوليتوس، ومع انقضاء الوقت المحدد تكلم القبطان باروناج ثانيةً.

= اكتمل التحميل، شكراً جزيلاً لك حضرة الطبيب جيسون على مساعدتنا أنا و السيد سبيروزار على تحميل محتوى محركات البحث، و على تبديل مناوبتك من أجلنا مع الطبيب **روجيه**، و على المال المقدر ب **600**-دولار منك و من زوجتك سيرا...

دهش جيسون وهو يسمع هذا الكلام، ونظر إلى سبيروزار الذي ابتسم وقال.

= من الآن فصاعداً أنت تتعامل مع شخص يعرف تقريباً كل شيء على سطح الأرض...

= هل هذا معقول؟

تدخل القبطان باروناج مجدداً.

= بالطبع معقول و يمكنك الاتصال بصديقك **باتريك سميث** و أن تطلب منه تأمين بطاقة شخصية مزيفة للسيد سبيروزار، سيلبي طلبك حتماً، فقد ساعدت والدته صحياً في المشفى منذ ثلاثة أشهر وهو لن ينسى ذلك بالطبع!

فتح جيسون فمه مذهولاً تماماً.

= كيف عرفت ذلك حضرة القبطان؟

= لدي الآن جميع المعلومات الخاصة بك من وسائل التواصل الاجتماعي والشبكة العنكبوتية بشكل عام، إضافة إلى مكالماتك ورسائلك السابقة كلها، وقد كونت عنك فكرة لا بأس بها حضرة الطبيب جيسون.

ابتسم جيسون.

= هذا مذهل حضرة القبطان، معك كل الحق سأكلم باتريك على الفور...!

أجرى جيسون اتصالاً سريعاً بباتريك وطلب منه تأمين بطاقة شخصية مزورة لسبيروزار، فطلب منه باتريك أن يأتيه حالاً لتصوير سبيروزار وإعداد البطاقة.

بالفعل ودع سبيروزار وجيسون القبطان باروناج وغادرا اليخت باتجاه منزل باتريك. وخلال أقل من ساعتين أصبح بحوزة سبيروزار بطاقة شخصية جديدة تحمل اسم **جان ويليامز** ستمكنه من التنقل من مكان لآخر حتى داخل الولايات المتحدة الأمريكية لكن بحذر طبعاً.

احتضن سبيروزار جيسون بقوة، كأنه يرثي فصلاً آخر ينقلب في حياته، ووجَّه له شكره العميق ليس فقط على دعمه العملي - تحميل البيانات، تأمين الهوية، وإعطائه مبلغ **5000** دولار إضافية - بل على الرفقة، على الثقة التي جعلته يشعر بأنه ليس وحيدًا في رحلته التي لم تنته بعد. وعد جيسون أن المال سيُعاد، رغم أن الحسابات المصرفية والبطاقات المالية لسبيروزار قد أُغلقت بعد هروبه المفاجئ، لكن الوعد كان أكثر من مجرد مبلغ مالي، كان عهدًا بالاستمرار.

وقبل أن يفترقا، همس سبيروزار بوصية ثقيلة الوزن، ملأى بالحرص والرهبة :

(ابقِ قصتي سرًا، سرًا لا يحمله إلا من مازال يؤمن بالمعجزات... حتى تأتي ساعة الحقيقة).

*****

جلس سبيروزار في قمرة القيادة، وقد تداخلت في أعماقه مشاعر لا اسم لها؛ مزيجٌ من الحماسة التي تتراقص في صدره كالشرر، والقلق الذي يشدّ على قلبه كقيدٍ صامت، والترقّب الذي يُثقل اللحظة كغيمة على وشك الهطول. كان على وشك مغادرة البلاد التي أحبّها وكرهها في آنٍ معًا؛ الأرض التي شهدت ميلاده، وسقوطه، وهروبه... وربما وداعه الأخير.

لم يكن الأمر مجرد سفر، بل خلعٌ بطيء لجِلده القديم، لاسمٍ حمله، وهويةٍ عاش بها. الوجهة المقبلة مجهولة، لكنها أقل رعبًا من الماضي الذي يطارده. كان يعرف أنه سيغادر إنسانًا، ويصل آخر.

لم يكن هنالك من أحد يستند إليه نفسياً سوى القبطان باروناج، لا بحثًا عن كلمات، بل فقط لأن حضوره يمنحه نوعًا من الثبات، حضور رجلٍ برمج ليحتمل صمت المجهول دون أن ينهار. وجوده بجانب سبيروزار بدا كمرساة صامتة، لا تتكلّم، لكنها تمنع السفينة من الانجراف في تيار القلق.

= ما هي أخبار الهروب من السجن في البلاد أيها القبطان ...؟

= إنها تتصدر مع خبر ثانٍ لائحة أخبار المنطقة الجنوبية من البلاد.

= وما هو الخبر الثاني؟

= إنها حادثة سرقة رجل أعمال في نيو أورليانز/ لويزيانا من قبل شرطي، وقد تم اختطاف ابنة الشرطي ثم قتلها لاحقاً.

تردد صدى كلمة قتل في أذن سبيروزار وقد استولى الخبر على كامل اهتمامه.

= زودني بالتفاصيل حضرة القبطان.

= لقد تم اختطاف الشابة يانا ذات **16** سنة من قبل مجهول قام بابتزاز والدها الشرطي ديف ليقوم بسرقة خزنة في فيلا رجل الأعمال بنجامين فرانك، وقد قام الوالد بالفعل بسرقتها، لكن الخاطف قتل ابنة الشرطي لسبب مجهول والشرطي الآن هارب من القانون مثل حالتك تماماً سيد سبيروزار

= ومن هو هذا الشرطي ديف ...؟

قدم القبطان باروناج نبذة مختصرة عن حياة ديف المهنية والشخصية لسبيروزار الذي أعجب للغاية به وشعر بالظلم الكبير الذي لحق به وبالألم الهائل الذي يعيشه الآن. وفجأة خطرت بباله فكرة جريئة أسعدته وأثارت فيه مشاعر من الرضا تتماهى مع لحظات القتل الرحيم التي كان ينفذها بنفسه، لكن هذه المرة على النقيض من الموت الرحيم للأحياء، سيتم منح الحياة الرحيمة للموتى. قرر قبل أن يسافر إلى الرأس الأخضر مساعدة الشرطي ديف بإعادة ابنته يانا إلى الحياة إن استطاع وسيكون هذا أول استخدام رسمي مثالي لقدرته الجديدة.

= وهل تم دفن ابنته يانا؟

= لا، ليس بعد، سيتم الدفن بعد ظهر الغد، عقب وداعها الأخير في كاتدرائية سانت لويس في نيو أورليانز/ لويزيانا صباح ذلك اليوم.

= وكم تبلغ المسافة البرية من هنا حتى نيو أورليانز؟

= حوالي **3000** كم.

فكر سبيروزار قليلاً، إنه لن يستطيع السفر بالطائرة لأسباب أمنية، وعليه السفر إما بالسيارة أو بالقطار.

= وكم تستغرق المسافة بالسيارة؟

= حوالي **20** ساعة.

= وبالقطار؟

= أكثر من ذلك ...

= هل بإمكانك حضرة القبطان إرسال رسالة إلى الشرطي ديف تعرفه فيها بشخصي، وتخبره بأسلوبك الخاص عن قدرتي على إحياء ابنته من جديد، لنمهد الموضوع له، فكما تعلم، الموضوع أقرب للخيال منه إلى الواقع، واستحالة أن يصدقني بالكلام التقليدي !! ..

= بالطبع وسأصيغ الرسالة بأفضل أسلوب نفسي وعلمي ممكن لإقناعه.

مضت دقائق قليلة ثم نطق القبطان.

= لقد وصلته الرسالة وقام بالرد علي، هو لم يقتنع بها تماماً، لكنني زرعت بذرة شك وأمل في نفسه، وعليك أنت أن تنبتها بأسلوبك وجهاً لوجه معه. لقد أخبرته أنك ستصل في السابعة صباحا إلى الكنيسة، وعليه أن ينتظرك لوحده هنالك وبرفقته جثمان ابنته.

= شكراً لك أيها القبطان، إذن سأسافر في الحال وسأعود إليك بعد يومين

= حسناً، رافقتك السلامة أيها الطبيب مورفين، أنا بانتظارك.

غادر سبيروزار اليخت بخطوات هادئة، محملاً بثقل الأفكار والرحلات المتتالية التي لم تترك له وقتاً للراحة. توجه نحو محطة القطارات، حيث كانت أشعة الشمس الأولى تتسلل بخجل بين الغيوم، تلوّن السماء بتدرجات ناعمة بين الاحمر والبرتقالي.

جلس بجانب النافذة، متأملاً المشاهد التي تمر ببطء، حتى استسلم للنوم، غارقاً في هدوء لا يشوبه إلا صوت انسياب القضبان تحت القطار. فهو لم ينم طوال الليل، وهذا السكون بمثابة ملاذه الوحيد.

قبل وصول القطار إلى نيو أورليانز بساعتين، استيقظ بهدوء، متثاقلاً من التعب، فنهض متجهاً إلى مقصورة البوفيه حيث تناول وجبة خفيفة، محاولاً استجماع ما تبقى من قوته، ليستعد للمرحلة التالية من رحلته التي تبدو أكثر غموضاً وتحدياً.

*****

الولايات المتحدة الأمريكية

لويزيانا / نيو أورليانز ...

مع بزوغ أولى خيوط شمس اليوم التالي، وصلت عربات القطار إلى محطة نيو أورليانز، حيث الهواء مشبع برائحة الرطوبة والذكرى. ترجل سبيروزار بخطوات متثاقلة على رصيف المحطة، كل خطوة كأنها نبضة قلب تخفق بحذر وسط صمت ثقيل يغمر الأجواء.

استقل سيارة أجرة اخترقت شوارع المدينة التي كانت تستيقظ لتوها ببطء، يقودها سائق يعرف الطرق كما يعرف راحة يده، متجهًا نحو كاتدرائية سانت لويس، ذلك الصرح العتيق الذي يحتضن حكايات الفرح والحزن في آن. وهو على موعد مع فرح عارم سيولد من رحم حزن يائس.

دخل سبيروزار الكاتدرائية، فاستقبله سكون مقدس تنساب فيه أشعة الضوء الخافتة من النوافذ الزجاجية الملونة كأغنية صامتة تتردد في أعماق الروح. في الصف الأمامي، كان الشرطي ديف جالسًا وحده، جثمان ابنته يانا موضوع أمامه في تابوت مفتوح، كأنه شريان قصير يربطه بعالمها الراحل.

وقف بهدوء يراقب المشهد المؤلم عن بعد ثم سعل بعدها بخفة، التفت اليه ديف بدهشة، عيناه محاطتان بسدود من الألم والحزن، تنظران إليه بنظرة تخلط بين الحذر والارتياح، بين اليأس والأمل بالمعجزات، وكان سبيروزار وديف يتشاركان جينات الألم والقلق ذاتها في صمت الكاتدرائية العميق.

= اطمئن حضرة الشرطي ديف أنا الطبيب مورفين، وقد أرسلت لك رسالة أول أمس.

دهش ديف للغاية و قال بصوت مرتجف قليلاً .

= عرفتك وقد أخبرتني ذلك الكلام الغريب عن حياتي الشخصية وأسراري، وعن قدرتك الخارقة على إحياء الناس بعد موتهم...!!

= نعم إنه كلام غريب بالفعل ولكنه صحيح رغم ذلك سيد ديف، إن القاسم المشترك بيننا أن كلانا هارب من وجه العدالة وهو مظلوم بالكامل، ولقد

وضعني القدر في الزمان والمكان المناسبين لأرفع عنك مظلوميتك ولو جزئياً، وهذا واجب محتم علي.

نظر إليه ديف بدهشة وشلال من الأمل بالمعجزات ينهمر من عينيه.

= لكن كيف يمكنك إعادة ابنتي إلى الحياة بعد أن قتلت بالرصاص وتم نزع دماغها بالكامل. ؟!

= بمعجزة من الإله سيد ديف، سنرى في الحال، تعال معي.

ديف بأمل جريح يحاصره الشك من كل الزوايا.

= حسناً، لكن علينا الإسراع قبل توافد الناس قريباً، لقد اتصلت بزوجتي سيلين و نسقت معها و مع القس **غريغوري** على ايصال جثمان ابنتي يانا منذ الفجر قبل وصول أحد فأنا أنتظرك منذ الساعة الثالثة...

= لا تقلق سيد ديف، ستستغرق العملية دقائق لا أكثر...

اقترب سبيروزار وديف من التابوت ببطء، غطى الصمت المكان، ثقيلًا كأن الزمن توقف عن الدوران. أمال سبيروزار رأسه نحو الداخل، عيناه تخترقان الظلمة ليقابلا عيني يانا، تلك العيون التي كانت يوماً نافذة للروح، والآن مغلقة في سكون الموت.

وضع كلّ ما في نفسه من إرادة وتركيز نحوها، كأنه يناديها من عمق الهاوية التي غابت فيها حتى انكمشت حدقتاه. فجأة، بدأت خيوط ضوء خافتة تتسلل من جسدها، بريق غريب ينبعث كأنها تستيقظ من سبات أبدي. التابوت اهتز برفق ثم بقوة، وكأن الأرض تحاول أن تعيد الحياة لما كان ميتًا.

ارتجف ديف وشهق، تراجع خطوتين، ووجهه يملؤه مزيج من الخوف والأمل. وعندما فتحت يانا عيناها (بفضل القوة التي منحها نبي كوكب كوليتوس ميدوسيز لسبيروزار بإمكانية إعادة الحياة إلى أي ميت طالما له عينان)، كانت النظرة أولًا غريبة، ثم سرعان ما امتلأت بدهشة وافتقاد لأنفاس الحياة.

لم يتحمل ديف أكثر من ذلك، انطلق نحوها كمن فقد العالم كله وعاد ليجده،

احتضنها بقوة كأنه يعيد بناء عالمه من عينيها، وقبّلها بشوق وحنان لا يقاسان. دموعه انسكبت بحرقة كساقية، تحكي عن ألم الفقد ودهشة المعجزة في آن واحد.

كانت لحظة عجيبة، تجاوزت حدود المنطق والزمان، لحظة ولادة ثانية للحياة، ولادة أمل جديد وسط ظلام قاتم.

= أبي أين نحن؟ وما الذي حدث؟ آخر ما أتذكره أنني كنت عائدة إلى البيت من منزل صديقتي جويل.

= لقد اختطفت من قبل شخص سايكوباثي قتلك، لكنك الآن بخير والحمد لله بمعجزة حقيقية!! والفضل كله يعود للطبيب مورفين.

التفت ببطء خلفه، لكنه لم يرَ أحدًا، فقد اختفى سبيروزار بهدوء كظلٍ يغادر الغرفة قبل أن تشتعل الفوضى المتوقعة بعودة يانا من الموت. كان قد تعاهد مع السيد ميدوسيز أن يعمل في الخفاء، وألا يكشف عن هويته الحقيقية إلا إذا استدعى الأمر، والتزم بذلك العهد بحذافيره، محافظًا على توازن ذلك السرّ الهش.

وكانت تلك اللحظة علامة فارقة في حياة سبيروزار، كتب فيها بفعلٍ صامت حياة جديدة ليانا، حياة نُسجت من خيوط الأمل على نول المعجزة، لتحول مأساتها إلى فجر جديد ينبض بالحب والفرح، ومعها استعاد قلب عائلتها بهجته بعد أيام شاقة من الانهيار النفسي والانتظار المرير.

إعادة يانا إلى الحياة حذف آخر الذكريات من حياتها السابقة بما فيها حادثة الاختطاف، وديف سيسلم نفسه للشرطة لكنها ستخلي سبيله عقب إعادة المسروقات والأخذ بعين الاعتبار وضعه النفسي الصعب الذي فرض عليه ما فعله بسبب التهديد بقتل ابنته. أما زاك فستسجل الشرطة قضية وفاته كحادثة انتحار عقب التحقيق والأدلة.

أما هو، سبيروزار، فقد صعد إلى القطار الذي يحمل خطواته بعيدًا عن تلك اللحظة العجيبة، متجهًا نحو مرسى القوارب في لوس أنجلوس حيث ينتظره **القبطان باروناج** على ظهر **يخت ميلافا**، ذلك المركب الذي سيأخذه إلى بداية جديدة في بلاد **الرأس الأخضر**، إلى برايا، عاصمة الغموض والأسرار.

هناك، حيث يلتقي **بالقس فونسيكا**، ستنفتح أمامه أبواب حياة جديدة تحمل معها وعودًا ومغامراتٍ لم تُروَ بعد.

*****

الجزء الثاني

(سارقات الرمال ..

يحيين الآمال ..)



الفصل الأول

الولايات المتحدة الأمريكية

كاليفورنيا / لوس أنجلوس

2029م...

وصل سبيروزار من جديد إلى يخت ميلافا الراسي في ميناء لوس أنجلوس، بعد رحلة طويلة ومرهقة بالقطار، قطع خلالها آلاف الأميال من نيو أورليانز في لويزيانا. كان الفجر قد بدأ يبزغ، والضوء الخجول يتسلل إلى السماء الرمادية بهدوء.

كان متعبًا إلى حد الإنهاك، جسده مرهق وذهنه مثقل بالأفكار والتفاصيل التي لا تهدأ. صعد إلى ظهر اليخت بخطى متثاقلة، كما لو أن الأرض ترفض أن تحمله أكثر.

لم يلتفت يمينًا أو يسارًا. توجه مباشرة نحو لوحة التحكم، حيث الزر الغريب الذي كُتب عليه: اسألني. ضغطه بلا تردد.

وفي لحظة، ظهر القبطان باروناج من جديد. كان كما هو دائمًا، جامد الوجه، ثابت النظرة، صوته هادئ لكنه يحمل وقعًا غريبًا، كأن الزمن يتباطأ عند سماعه.

= أهلا بعودتك أيها الطبيب مورفين، ومبارك لك نجاحك الباهر في مساعدتك للشرطي ديف.

= إذا فقد وصلتك الأخبار حضرة القبطان. !؟

= وصلتني! لقد انتشر خبر إحيائك ليانا ابنة الشرطي كالنار في الهشيم في كامل الولايات المتحدة الأمريكية، بل بدأ بالانتشار إلى خارجها.

= هذا ليس جيداً حضرة القبطان، إذ يجب على أن أعمل في الظل كما تعلم.

= بالطبع، لكنك لا تستطيع منع الناس من الحديث عن المعجزات التي تتحقق، فهذا أمر بديهي للغاية. على كل حال، لا أحد يعرف هوية الطبيب

مورفين حتى الآن، باستثناء صديقك الطبيب جيسون بالطبع.

= هذا خبر جيد، بجميع الأحوال لم يعد هنالك ما نفعله في الولايات المتحدة الأمريكية، وعلينا المغادرة على الفور.

= وما هي وجهتنا القادمة؟

= مدينة برايا عاصمة جزر الرأس الأخضر كما اتفقنا من قبل، فكم سنستغرق حتى نصل إلى هناك...؟

= أقصر طريق للوصول إلى هنالك حضرة الطبيب هو عبر **قناة بنما** حيث تبلغ المسافة عبر هذا الطريق **12** ألف كم أي ستستغرق **40** ساعة، وباعتبار أن الوقود غير متوفر ودارة الشحن لا تكفي للإبحار بل لإنارة اليخت وتشغيل جهاز التكييف والبوصلة المكانية فحسب، سنعتمد على الطاقة الشمسية بمعدل سير **10** ساعات نهارية يوميا أي سنصل برايا في جزيرة سانتياغو بعد أربعة أيام.

= حسنا، هيا بنا، فلنبحر.

= حرك الأذرع كما وجهتك من قبل.

حرك سبيروزار الأذرع الثلاثة مجددا بنفس الآلية، فبدأ اليخت ميلافا بالعمل تدريجيا.

= حضرة القبطان، القيادة لك.

= بالطبع، استرح أيها الطبيب، لقد مررت بأسفار وظروف صعبة للغاية وأنت بحاجة لتهدئة أعصابك بعد كل ذلك.

= معك حق، سأحاول النوم قليلا.

كان سبيروزار مرهقًا إلى حدٍّ لم يعد يحتمل معه التفكير أو المقاومة، فبمجرد أن لامس جسده فراش المقصورة، غرق في نومٍ عميق كأن جسده قد انهار تحت ثقل أيام من التعب والتوتر.

مرت الساعات في صمت، حتى أيقظه نور برتقالي ناعم يتسلّل عبر النافذة.

كان الغروب قد حل، والشمس تلامس أطراف المحيط، كأنها تغوص ببطء في حضنه المائي الكبير.

جلس بهدوء، شعر بالنشاط قد عاد إلى أوصاله، والحماسة التي خفتت عادت لتشتعل مجددًا في أعماقه. نهض وسار نحو سطح اليخت بخطى مطمئنة وهادئة.

وقف هناك، والنسيم يلامس وجهه برفق، يتأمل المشهد المذهل: الغروب يسكب ألوانه الذهبية والوردية على صفحة الماء، والسماء تذوب في البحر بلا فاصل.

في تلك اللحظة، تذكّر كوكب كوليتوس... وتلك الحلقة العجيبة من الصخور التي تحيطه، تلمع ليلاً كما لو كانت نجومًا تدور حوله في رقصة سماوية. كم كان المنظر خلابًا، وكأن الكون نفسه يستعرض جزءًا من سحره له وحده.

تنهّد بصوت خافت، وأخذ يفكر:

ما أخبار غارينوس ونونيس الآن؟

كيف استقبلا فكرة عودته المفاجئة إلى الأرض؟

هزّ رأسه، لا أحد يملك هذه الأجوبة. حتى القبطان باروناج، رغم كل ما يعرفه ويخفيه، لن يستطيع مساعدته هذه المرة. الاتصال بكوكب كوليتوس قُطع منذ مغادرتهما، ولم يعُد هناك ما يصلهم بالعالم الآخر.

عاد إلى الداخل بهدوء، كأن روحه تبحث عن باب خلفي للهروب من الأسئلة. وقف أمام زر اسألني مرة أخرى... وضغطه.

= أهلا بك مجدداً أيها الطبيب مورفين، هل نمت جيدا؟

= أجل، نوم هادئ وعميق كنت أحتاجه بشدة، لقد استعدت نشاطي وتركيزي بالكامل، الآن حدثني أكثر عن وجهتنا القادمة دولة الرأس الأخضر حضرة القبطان بينما أجهز طبقي الجديد والمفضل (لاتوناغ)، فأنا جائع للغاية.

= الرأس الأخضر أرخبيل مكون من **10** جزر هي سانتياغو أكبر جزيرة

فيها والتي تحوي العاصمة برايا وجزر ماي، فوغو، برافا وهي الجزر الجنوبية الأربعة، أما الجزر الشمالية الستة فهي بوا فياتا، سال، ساو نيكولاو، سانتا لوزيا، ساو فيسينتي، سانتو أنتاو.

ويقع هذا الأرخبيل غرب القارة الإفريقية مقابل سواحل **السنغال** تماماً، واللغة الرسمية هنالك هي اللغة البرتغالية فقد كانت البلاد مستعمرة برتغالية قبل أن تستقل عام **1975** م.

= إذن عليّ تعلم اللغة البرتغالية لكي أتفاهم مع سكان البلاد؟

= بالطبع، لكن لا تخش شيئاً فالقبطان باروناج موجود إلى جانبك، سأساعدك على تعلمها خلال فترة قياسية بأفضل الطرق التي تم اختراعها حتى الآن لتعلم اللغات، ومع وصولنا إلى برايا بعد ثلاثة أيام ستتمكن من التوجه وتدبير حاجياتك الأساسية هنالك، وبعد شهر ستتمكن من الكلام بطلاقة.

ابتسم سبيروزار بحماسة.

= ممتاز، هل يمكنك تقديم معلومات عن القس فونسيكا في كنيسة برايا ...؟

= بالطبع، الكنيسة تدعى (سيدة **النعمة**) والقس هو **ريكاردو فونسيكا** (**68**) سنة، و هو المسؤول الأول عن إدارة شؤون الكنيسة، و من الجيد أن تعلم أنه متقن تماماً للغة الإنجليزية.

وتحول الهولوغرام إلى مجسم لرجل ذي لحية بيضاء، خفيف شعر الرأس، يلبس نظارات دائرية تعطيه لاحة الفلاسفة وتبدو عليه سمات الوقار والطيبة.

= أي معلومات أخرى عنه...؟

= هنالك فقط معلومة هامة أخرى.

= وهي؟

= لقد انتشرت خلال العامين المنصرمين في البلاد تجارة المخدرات والترويج لها خاصة **مخدر الفلاكا** الخطير، لاسيما في جزيرة سانتياغو وسببت مشاكل إدمان واضطرابات نفسية وسلوكية كبيرة بين الشباب دون

أن تتمكن السلطات من كشف المسؤول عن ذلك أو الحد من انتشار المخدرات، والقس فونسيكا من أكثر رموز البلاد نشاطاً في مواجهة هذه الظاهرة، ويقوم بنشاطات كثيرة للتوعية بخطورة تلك المخدرات وعواقب إدمانها الكارثية والتشجيع على التعافي من ذلك الإدمان.

توقف سبيروزار عن مضغ الطعام وقال بجدية.

= أجل أنا على دراية بهذا المخدر، إنه كارثة حقيقية وقد غزا الولايات المتحدة الأمريكية منذ عقود خاصة عبر مدينتي الأم ميامي وولاية فلوريدا بشكل عام.

= بالضبط.

= وما هي التأثيرات التي يسببها هذا المخدر؟

= إنه يرفع تركيز **الدوبامين** في الدماغ بشكل هائل ويمنع استقلابه لاحقاً، مما يؤدي إلى مشاعر من النشوة والهلوسات والطاقة الكبيرة الزائفة، لذا أطلق عليه لقب (السيدة **الحسناء**) ويؤدي بعد زمن قصير من إدمانه إلى الجنون التام لمدمنه.

= هذا خطير للغاية حضرة القبطان، والقس فونسيكا على حق في نشاطه المكثف ضده، إنه شخص يستحق الاحترام بالفعل.

بعد يومين من الإبحار المتواصل، بلغ يخت ميلافا قناة بنما، ذلك الشق العظيم الذي يبلغ طوله **82** كيلومترًا، والذي، كما أخبره القبطان باروناج، تم حفره بشق الأنفس عبر أراضي دولة بنما ليربط بين المحيطين الأطلسي والهادي. لم يكن مجرد مشروع هندسي، بل معجزة بشرية غيرت وجه التجارة العالمية منذ افتتاحه عام **1914** ...

كان عبور القناة تجربة فريدة، تداخل فيها صوت محركات اليخت مع هدير المياه المتدفقة من بوابة إلى أخرى، وكأن السفينة تصعد سلمًا مائيًا نحو عالم جديد. الممرات الضيقة، والتلال المغطاة بالأشجار الاستوائية، والسكون المهيب المحيط بالمكان، كلها رسمت لوحة لا تُنسى في ذاكرة سبيروزار.

خلال وقت قصير، اجتاز اليخت القناة، وانفتح أمامه البحر الكاريبي برونقه الأزرق العميق، ليكمل طريقه نحو المحيط الأطلسي، متجهًا بثبات نحو جزر الرأس الأخضر، تلك النقاط الصغيرة التي تطفو في المحيط كأنها شذرات من عالمٍ غامض بعيد.

في اليومين التاليين، وبين أوقات التأمل والدراسة، أحرز سبيروزار تقدمًا مذهلًا في تعلم اللغة البرتغالية. لم تكن الطرق التقليدية تجدي معه، لكن القبطان باروناج كان يملك أساليب فريدة في التعليم، مزيج من التكرار الذكي، والمواقف اليومية، وربط الكلمات بموسيقى وألوان، مما جعل التعلم يبدو كرحلة ممتعة لا عبئًا.

بات سبيروزار قادرًا على خوض محادثات قصيرة مع باروناج باللغة الجديدة، وكانت ابتسامة القبطان، رغم ثبات ملامحه، توحي بالرضا والتشجيع.

ربما كانت هذه الرحلة لا تعبر الجغرافيا فقط، بل تعبر أيضًا مكنوناته، نحو لغة جديدة، وفهم أعمق، وربما نحو شيء لم يدركه بعد.

*****

الرأس الأخضر

برايا ...

في اليوم الرابع، ومع انحناء الشمس نحو الأفق، بدأ الضوء ينسحب من السماء كستارة مخملية تُسدل على مسرح الأرض. احمرّت السماء بلون العقيق، وتدرّجت إلى ذهبيّ خافت، فيما انعكست الأشعة الأخيرة على سطح الماء الهادئ، وكأن الغروب يلفظ آخر أنفاسه. بلغ اليخت الميناء أخيراً. أمواج صغيرة تتكسر برفق على رصيف ميناء برايا، فيما بدا يخت ميلافا وكأنه كائن غريب عن المكان يطلب اللجوء الإنساني.

= حمداً لله على سلامتك أيها الطبيب مورفين.

= أشكرك حضرة القبطان، كيف سأصل الآن إلى كنيسة (سيدة النعمة)؟

= إنها ليست بعيدة وتطل على الساحة المركزية الشهيرة للمدينة، استقل أي سيارة أجرة وستوصلك إلى هنالك بسهولة.

= حسناً، إلى اللقاء قبطان.

= أنا بانتظارك أيها الطبيب مورفين وحظاً موفقاً.

ترجّل سبيروزار من اليخت، وسار في الممر الحجري الذي يربط الميناء بالمدينة. برايا بدت كعروس أفريقية ترتدي فستانًا من الضوء الخافت، تتناثر من حولها الألوان والظلال. شوارعها الضيقة مرصوفة بأحجار قديمة، تختلط فيها روائح البحر مع عبق التوابل، ونغمات موسيقى خفيفة تتسلل من نوافذ البيوت.

أشجار النخيل تقف شامخة على جانبي الطريق، ووجوه المارة تحمل دفء أهل الجزيرة، بينما تتلألأ الأنوار الذهبية على الشرفات الصغيرة، فتمنح المكان مسحة من الحنين والطمأنينة.

استقل أول سيارة أجرة وجدها، سيارة متعبة قليلاً لكنها تنبض بالحياة كصاحبها، الذي رحّب به بلهجة دافئة. دار بينهما حديث قصير بالبرتغالية، تخللته إشارات وابتسامات، حتى انطلقت السيارة تعبر الأزقة ورهبة الموقف القادم تضفي تأثيرها على المكان.

بعد حوالي ربع ساعة، توقفت السيارة عند بوابة كنيسة سيدة النعمة. وقف سبيروزار يتأملها برهبة. لونها أبيض عتيق وقد ازداد بهاءً تحت أضواء المساء. مدخلها واسع، تتقدمه درجات حجرية يكسوها ظل شجرة لوز معمّرة. نافذتها العالية ذات الأقواس تتلألأ كأنها عيون يقظة ترصد القادمين.

رفع سبيروزار رأسه، تنفّس بعمق كما لو أنه يستعد لعبور عتبة أخرى من القدر، ثم مشى نحو الباب بخطوات متأنية، وكل شيء حوله بدا مشبعًا بالسكون والانتظار.

وفجأة، برز أمامه شاب أسمر البشرة يتقدم بخطى متسارعة وكأنه خارج من قلب عاصفة. نظر في عينيه بشكل عابر، مما جعل سبيروزار يتوقف ويسأل نفسه، ربما أمكنه إرشاده إلى القس فونسيكا. لم يتردد وقال:

= من فضلك، أنا أبحث عن القس فونسيكا.

توقف الشاب مكانه للحظات.

= أهلا بك. أنا الراهب سانتياغو وأعمل هنا في الكنيسة. لماذا تريد مقابلة القس؟

فكر سبيروزار لثوانٍ.

= لدي رسالة هامة له.

= حسناً. الطريق من هنا.

وأشار إلى سبيروزار بيده إلى اليمين ثم الأمام ثم اليسار وغادر مسرعاً.

اتّبع سبيروزار الاتجاه الذي أشار إليه الشاب، يسير بخطوات هادئة ولكن مليئة بالتساؤلات. لم يلبث أن وصل إلى غرفة جانبية، بابها الخشبي مغلق بإحكام، يكسوه الطلاء القديم الذي يروي حكايات سنوات طويلة.

وقف أمام الباب، تردد لبرهة ثم طرقه برفق عدة مرات متتابعة. بعد لحظات، جاء من الداخل صوت عميق، رصين، يدعوه بهدوء إلى الدخول.

فتح الباب ببطء.

داخل الغرفة، جلس القس فونسيكا بثباتٍ ورزانة، وكأنه يمثل جسرًا بين زمنين: الماضي والحاضر. كان رجلًا في الستينيات من عمره، شعره الخفيف مزيجٌ من الأبيض والرمادي، ينسدل بنعومة على جانبي رأسه، جبهته مجعدة بشكل جائر، وكأن الزمن قد رسم عليها خطوط الحكمة بخفةٍ وحذر.

وجهه كان شديد التميز، يحمل ملامح رجل عاش سنوات طويلة في التأمل

والخدمة، تجاعيد دقيقة تحيط بعينيه العميقتين اللتين تشعان بحزن خفيف، لكنه حزن مكتوم نابع من فهم عميق للألم البشري. شفاهه رقيقة ومشدودة أحيانًا، تكشف عن صرامة لا تهرب من المسؤولية، لكنها لا تخلو من لطفٍ خفيٍّ ينعكس في نظراته الحانية.

نظاراته الدائرية ذات الإطار الرقيق تتهادى بثبات على أنفه المستقيم، تعكس أضواء الغرفة الخافتة وتمنحه هالة من الحكمة والصرامة في الوقت ذاته. كان يرتدي روب القس البسيط بلون الكتان الباهت، تكسوه بعض التجاعيد كما لو كان يحمل تاريخًا ثقيلاً من الأحاديث والصلوات.

وجوده في الغرفة كان كوجود شجرة معمرة في وسط عاصفة؛ صلبٌ لكنه مرن، هادئٌ لكنه حاد الملاحظة. يمكن أن يشعر من يراه أنه يحمل أسرارًا دفينة، وأن كل كلمة منه تحوي ثقلًا روحيًا ومعنويًا لا يُستهان به.

= أهلا بك أيها الشاب، كيف يمكنني مساعدتك ...؟

ارتبك سبيروزار قليلاً فهو مقبل على كلام غريب للغاية.

= أهلا حضرة القس فونسيكا، أدعى سبيروزار وأنا.

بدت علامات الدهشة الكبيرة على وجه القس بعد سماعه لاسم سبيروزار فقاطعه على الفور.

= أهلا بك يا بني، يا إلهي !! إذا فأنت شخص حقيقي ولست مجرد حلم راودني ...!

ابتسم سبيروزار بدهشة.

= أظن أنني شخص حقيقي! لكن ما قصة هذا الحلم الغريب الذي راودك حضرة القس؟

= قبل أن أخبرك قصتي، أخبرني أنت، ما الذي تريده مني، ما هي حكايتك بالضبط ؟!

قص عليه سبيروزار روايته بالطريقة التي أعدها مسبقاً، بأنه تعرض لمشاكل ومضايقات كثيرة في بلاده، ثم راوده حلم أخبره فيه رجل وقور بأنّ

عليه السفر على الفور إلى دولة الرأس الأخضر كي يقابل هناك القس فونسيكا في العاصمة برايا.

= أجد لقد زارني الرجل ذاته في حلمي منذ شهرين وأخبرني بزيارتك لي دون أن يحدد الزمن، وها أنت بالفعل هنا كما قال بالضبط! يبدو أن السماء تريد مني ومنك أشياء مهمة.

= يفترض ذلك!

= وما هو عملك سيد سبيروزار ...؟

= أنا طبيب حضرة القس.

= هذا رائع، إنها نعمة كبيرة وهبة عظيمة ان تتمكن من تخفيف آلام الناس.

أومأ سبيروزار برأسه.

= بالطبع.

= وهل تخطط للإقامة هنا، أم أنها مجرد زيارة ...؟

= في الحقيقة لقد أخبرني رجل الحلم بأن أقيم هنا بمساعدتك، إذ لا يمكنني العودة إلى بلادي في الوقت الراهن لظروف خاصة.

= أهلا بك بني، بالطبع سأساعدك بقدر استطاعتي، فأنا رجل يؤمن بالأحلام بشكل كبير، إنها إحدى الطرق الهامة التي تخاطبنا بها السماء، وليست مصادفة بالطبع أن تراودنا أنا وأنت أحلام متشابكة ومرتبطة ببعضها ...!

= وما الذي ينبغي عليّ فعله الآن؟

= ستبيت هنا في الكنيسة حالياً مثلما أفعل، وستساعدنا كطبيب لطاقم الكنيسة من أخوة وأخوات، فأنت هنا الآن مهاجر غير شرعي، وإذا عرفت السلطات بوجودك ستعتقلك ثم ترحلك، أمهلني بضعة أيام ريثما أعرف بالضبط أي وسيلة سأساعدك بها، بجميع الأحوال لدي رحلة سفر إلى **البرتغال** بعد **خمسة أيام** لحضور **ملتقى عن الأديان** وعندما أعود سأكون قد حسمت جميع الأمور، أهلا بك مجدداً، تعال لأدلك إلى غرفتك لترتاح وتنام، وغدا صباحاً نتحدث أكثر بعد القداس، فغداً يوم الأحد.

= حسناً حضرة القس، أشكرك جزيل الشكر لمساعدتك ورحابة صدرك.

= لا تشكرني أنا أيها الطبيب، بل اشكر السماء، أنا مجرد بيدق بيدها لتنفيذ مشاريعها.

= هنالك شيء آخر يجب أن تعرفه.

= وهو؟

= إنني هنا بصفة سرية تحت اسم **جان ويليامز** لذا أرجو أن تناديني بهذا الاسم أمام الآخرين.

= حسناً بني، سأفعل ذلك**!**

خرجا من الغرفة ومشيا في بهو طويل مظلم وبارد، ثم التفت القس في آخره نحو اليسار فتبعه سبيروزار حتى بلغا باباً خشبياً قديماً ومغلقاً. فتحه القس بهدوء.

= تفضل إلى غرفتك.

دخل سبيروزار ليجد غرفة متواضعة لكنها على بساطتها تغلي بالدفء والطمأنينة، تحوي سريراً ومكتباً وكرسياً مع حمام مرفق بها.

= شكراً مجدداً حضرة القس.

= تصبح على خير بني.

*****

في ركن مظلم من غرفة فخمة وضخمة، حيث تخيم الظلال الثقيلة وتتناثر أصداء المؤامرات والجريمة، جلس رجل على كرسي عتيق ضخم، كأنه عرشُ طاغية. وجهه أشبه بتمثالٍ من حجر البازلت الأسود، قاسٍ بارد، تخترقه خطوط عميقة تحكي عن سنوات من القسوة والتجارب المظلمة. عيناه، المكسوتان بوميضٍ قاتم، لم تحملا إلا ظلالًا من الغضب المكبوت والأحقاد الداكنة التي تخفيانها وراء بريقهما البارد.

حواجبه السميكة، المقوسة بقسوة، تمنح وجهه مظهرًا متجهمًا، كأنّما يستمتع برؤية الألم في أعين الآخرين. شفاهه المشدودة لا تفصح إلا عن وعودٍ

صامتة بالانتقام، بينما يداه المتشابكتان بإحكام على ذراعي الكرسي، تشيران إلى سيطرة كاملة، وكأنهما تشبثتا بعصا التسلط التي لا تُكسر.

بعد لحظات من صمتٍ مرعب، التفت ببطء نحو الشخص الجالس بجانبه، وبصوتٍ حازم، محفوفٍ بالتهديد الخفي، قال:

= ما أخبار الأستاذ يا **بيرناردو**، هل انتهى إضرابه ...؟

ابتسم بيرناردو عن أسنان صفراء خريفية متهالكة توحي بالخسّة.

= بالطبع انتهى بالقوة، فالضرب ينهي أي إضراب، لقد عاد كغيره إلى عمله كالعادة.

= جيد، أريد أن تتحسن جودة بضاعتنا، لقد سمعت أن الموزعين يشتكون من ضعف التأثير.

= لا تخش شيئاً أيها الزعيم، ستعود بضاعتنا أفضل مما كانت عليه في أقرب وقت.

*****

الفصل الثاني

البرتغال / لشبونة

مطعم فيدا.

في نفس الليلة.

= الهدف أمامي مباشرة، وهو بمفرده.

= ممتاز... حاولي استدراجه... اجعليه يلتفت إليك.

= حان الوقت إذًا... لتتولى نسختي اللعوب زمام الأمور.

وقفت **ماتيلدا**، ذات التسعة والعشرين عامًا، عند حافة الضوء المتسلل من ثريا كريستالية تُلقي على وجهها ظلالًا راقصة. لم تكن في عجلة من أمرها، كانت تعرف تمامًا كيف تصنع اللحظة، وكيف تُغلفها بالإغواء والإيحاء. هي أشبه بمنحوتة تم نزعها بعناية من متحف ووُضعت هنا، في هذا المطعم الفاخر الذي يلفه الضوء كستارة مسرح. كانت ترتدي فستانًا حريريًا أسود، يلتف حول جسدها كما تلتف النية المبيتة حول الفريسة. مفتوحًا عند الظهر، وبفتحة جانبية تكشف ساقًا طويلة وممشوقة، مع حذاء بكعب رفيع يعلن عن كل خطوة كأنها مقطع موسيقي خافت.

لم يكن الجمال وحده ما يشدّ الانتباه إليها، بل تلك الهالة المزيّفة بعناية، التي تجمع بين البراءة المصطنعة والجرأة المكتومة. عيناها بلون العسل المُعتّق، تتلألأن بثقة تعرف جيدًا متى تتأمل، ومتى تبتسم، ومتى تصطاد.

في الطرف الآخر، جلس **أوتافيو**، رجل خمسينيّ ذو حضور ثقيل، ببدلة رمادية فاخرة ومنديل حريري في جيبه، يحمل بقايا أناقة كلاسيكية لم يُفسدها الزمن. وجهه يحمل مزيجًا من الصرامة والتعب، كأنه قضى نصف عمره في التفاوض والنصف الآخر في الندم. كان معتادًا على قراءة الوجوه ... وامتلاك الأشياء. لكنه الآن، أمام هذه الشابة، شعر بشيء لم يشعر به منذ أعوام: التوتر.

نظرت إليه ماتيلدا نظرة طويلة، لم تبتسم ... بل اكتفت بتثبيت عينيها عليه بثقة. في تلك النظرة، كان كل شيء: وعدٌ وتهديد، إغراء وخطر، تفاهة وعُمق... ثم، فجأة، ابتسمت له بخفة.

ابتسامة قصيرة كوميض شفرة.

رفع كأس المارتيني، كأنه يريد أن يرد التحية، لكنه كان قد غرق بالفعل.

شربت ماتيلدا كأسها في جرعة واحدة، متعمّدة أن تترك حبة الزيتون في القاع، تدور ببطء كقلب فقد توازنه.

وبالفعل، أشار أوتافيو للنادل وهمس بشيء قصير، لم يكن بحاجة إلى أكثر من ذلك.

عاد النادل بعد لحظات، يحمل كأسًا آخر وقدمه لها بأدب:

= من السيد أوتافيو، ويود دعوتك إلى طاولته.

مالت ماتيلدا نحوه بخفة، كمن يفشي سرًا، وهمست:

= أخبره أنني شاكرة... لكنني مضطرة للرحيل. وهذه ... له.

قدمت له بطاقة صغيرة برائحة عطرها، ثم وقفت.

كانت خطواتها بطيئة، مدروسة. كل التفاتة من كتفها تكتب جملة في عقل أوتافيو، وكل اهتزاز في شعرها يوحي بليل لم يأتِ بعد.

وقبل أن تعبر عتبة الباب، التفتت نحوه، نظرت إليه ببطء، وابتسمت ثانية... ابتسامة بلا تفسير.

ثم اختفت.

بعد ثوانٍ قليلة رن هاتفها وتيقنت بأن أوتافيو هو المتصل، لذا أجابت بدلع

= من يتكلم؟

= أنا السيد أوتافيو من المطعم، يؤسفني أن وقتك لم يسمح لك بأن نتعرف أكثر.

= أهلا سيد أوتافيو، شكرا لضيافتك ربما في مناسبة أخرى.

= هل وقتك يسمح لك بأن أدعوك للعشاء غداً مساءً.

صمتت للحظات ثم قالت.

= فليكن بعد غد سيد أوتافيو.

= جميل، إذا موعدنا بعد غد في المطعم ذاته (فيدا) على الساعة الثامنة مساءً، هل يناسبك ذلك؟

= اتفقنا.

أغلقت الخط، ثم فتحت تطبيق التواصل الاجتماعي وأرسلت قلباً بنفسجياً للسيد أوتافيو مع جملة:

(**شكراً على الضيافة**).

أرسل لها مباشرة رمزاً لوردة حمراء، مع عبارة:

(**أنت تستحقين الأفضل**).

حانت اللحظة الحاسمة فأرسلت له ماتيلدا الملف الهدف.

بعد ثوانٍ، وصلتها إشارة استفهام من أوتافيو.

(**إنها صورة لي قد تعجبك**.)

بالفعل فتح أوتافيو الملف على الفور فقد ظنها صورة تتضمن اغراءً معيناً، فتمت عملية تحميل بسرعة دون أن تفتح أي صورة، فأرسل لها.

(**لم تفتح الصورة**؟)

(**غريب! سأرسلها ثانية**.)

وأرسلت له بالفعل صورة عادية لها وهي تبتسم.

(**ياه كم أنت رقيقة وجميلة** ...!)

ابتسمت ماتيلدا بمكر، ياه كم أنت ساذج !!

(**موعدنا بعد غدٍ مساءً سيد أوتافيو**.)

(**بالطبع**، **على الثامنة مساءً**، **مطعم فيدا**.)

ثم سمعت صوت **خواو** عبر السماعة داخل أذنها.

= تمت العملية بنجاح أصبح هاتفه بالكامل على حاسوبي.

ضحكت ماتيلدا.

= إنها أسهل مهمة كلفت بها حتى الآن.

= إن جمالك ودلعك ما جعلها بهذه السهولة، فلا يمكن لمليون رجل أن يخترق هاتف مدير بنك خلال دقائق.

أوتافيو رجل يحمل على عاتقه عبء عالمين متناقضين: واحد رسمي وشديد الصرامة في قاعات البنك اللامعة، وآخر خاص يختبئ خلف ستار من الوحدة والحنين. مدير **بنك بانكو نوفو** في لشبونة، رجل يعرف كيف يسيطر على أمواله وعلى حسابات العملاء، لكنه في حياته الشخصية كان يكافح ليجد موطئ قدم وسط أطياف ماضيه الممزق. الانفصال عن زوجته ترك جرحًا عميقًا، لكنه لم يكن وحده في هذا المسير؛ طفلتاه، ميرا وسيليا، كانتا بالنسبة له أكثر من مجرد بنات، بل كانتا متنفس روحه ومصدر ضوء في

ظلام أيامه.

كل سبت كان أوتافيو يحتفظ بهذا الطقس كقداس شخصي، طقس يحمل بين طياته الراحة التي نادرًا ما يجدها في عالم المال القاسي. مطعم فيدا لم يكن مجرد مكان لتناول الطعام، بل ملاذًا حقيقيًا، حيث تختلط رائحة الخبز الطازج مع همسات البحر الخفية التي تحيط بالعاصمة البرتغالية. هناك، بين الأضواء الخافتة ووجوه المارة، كان أوتافيو يجلس وحيدًا في أغلب الأحيان، أو برفقة إحداهنّ كعلاقات عابرة، يشرب كأسًا من نبيذ البرتغال الأحمر، ويتحدث بأحاديث سطحية لا تكشف سوى القليل عن روحه المتعبة.

لكن خلف هذا الهدوء النسبي، كان هناك آخرون يرسمون خيوط مؤامرتهم بعناية. عصابة محترفة، تمتهن المراقبة والصبر، كانت تتابع تحركاته منذ أسابيع. عيونهم المتلصصة من بين الظلال، رصدت كل تفاصيل سلوك أوتافيو، وكل مرة يدخل فيها المطعم كانت تحلل وتخطط. ما عرفته العصابة أن أوتافيو، عندما يدخل المطعم وحيدًا، فعلى الأرجح سيقضي سهرته وحيدا. لأن الفتيات عادة تصحبنه إلى المطعم ولا تلحقن به.

في مساء ذاك اليوم، بينما ملأت رائحة الطعام المشوي الأجواء وهمس نسيم البحر عبر النوافذ، دخل أوتافيو المطعم، خطواته ثابتة لكنها ثقيلة. لم يكن يعلم أن نظرات ماتيلدا، المرأة ذات الجمال البارد والعينين التي تخفيان أسرارًا قاتلة، كانت تراقبه من خلف الزاوية. ماتيلدا التي لا تعرف الرحمة، تخبئ في قلبها خطة محكمة تنسجها منذ وقت بعيد ضد أوتافيو.

دخول أوتافيو وحيدًا كان بمثابة إشارة البدء، إشارة تشعل شرارة المرحلة الأشد حساسية في العملية. ماتيلدا ابتسمت ابتسامة لا تحمل سوى البرودة، وأطلقت أنفاسها الهادئة كما لو كانت تتنفس النسيم الذي يسبق العاصفة. كان كل شيء على موعد مع لحظة فارقة، لحظة ستغير مسار أوتافيو إلى الأبد، حينما ستبدأ خطواتها التالية...

*****

في مكان آخر جلس رجل في الخمسينات من عمره في الظل وهو يمسك بهاتفه ويتحدث عبر تطبيق لتعديل الأصوات.

= جيد جداً، أنا معجب للغاية بماتيلدا، لقد اختصرت علينا الكثير من الوقت والجهد، غداً صباحاً أريدكم أن تضربوا ضربتكم التالية في لشبونة.

أجاب خواو بطاعة.

= علم أيها التنين.

في عالم تغشاه الظلال، حيث تتحرك الخطط كأشباح بين أروقة الجريمة المنظمة، يبرز اسم مهيب يلفه الغموض ويشعل الرعب: التنين. هو ذاك الكيان الذي لا يُرى، لكنه يُحسّ كرمح مسموم يثقب عقول خصومه وحلفائه على حد سواء، زعيمٌ بلا وجه، قائد بلا صورة، أسطورة في عالم لا يعرف الرحمة.

التنين، ذو الأصول البرازيلية، ليس مجرد مجرم عادي، بل هو عقلٌ محنك دمج بين دهاء الشطرنج وروح المغامر الذي لا يهاب المخاطر. في صيف **2005** بمدينة **فورتاليزا** النابضة بالحياة، نفذ أعظم عملية سرقة عرفها التاريخ الحديث للبنك المركزي البرازيلي. لم يكن الأمر مجرد سرقة عادية، بل حفر نفقٍ كأنّه كناية عن تحدٍّ مع الزمن والأمن. وبعد أشهر من التخطيط الدقيق والعمل السري، اقتحم التنين مع عصابته خزينة البنك، مستولياً على **160** مليون ريال برازيلي — ما عادل **70** مليون دولار أمريكي — سرقة ستظل محفورة في ذاكرة الشرطة البرازيلية.

ورغم أن الشرطة استطاعت القبض على بعض الأفراد واسترداد جزء من الأموال، فإن التنين كان دومًا خارج نطاق اليد. فرّ من البلاد حاملًا عشرات الملايين، تاركًا وراءه أثرًا من الألغاز والخدع، متجهًا إلى البرتغال حيث بدأ حياة جديدة بهوية مزيفة، متقمصًا شخصية رجل أعمال ثري يعيش حياة الرفاهية التي لم يُسمح له بها يومًا في وطنه.

ولكن لا شيء يدوم، فمع مرور ربع قرن، ومع تبذير الثروة وخوف الاقتراب من الإفلاس، قرر التنين أن يكتب فصلاً جديدًا في مسيرته. أسس عصابة

جديدة في لشبونة، وأطلق العنان لخطط محكمة ومظلمة لسرقة أحد بنوك العاصمة.

لا أحد من أتباعه يعرف هويته الحقيقية، ولا مكان اختبائه. اسمه الوحيد (التنين). صوت خافت يُسمع عبر الهاتف، عقلية إجرامية منقوعة بالمكر والشرّ، وخطة محكمة تنسجها يد خفية في الظلام.

فمن هو ذاك الرجل المتخفي خلف قناع الألقاب والظلام؟

هل هو مجرد ظل يتسلل بين الأزقة، أم مجرم عبقري لا يُقهر يحمل بين أنفاسه لغزًا أعمق من أي سرقة؟

*****

البرتغال / لشبونة

صباح الأحد.

استيقظت لشبونة ذلك الصباح على صوت انفجار مدوٍ هز أركان العاصمة البرتغالية، كأنه صاعقة فجرت هدوء المدينة النائم. كان الانفجار جديدًا في سلسلة التفجيرات التي عصفت بها خلال الشهر الماضي، أربعة انفجارات متفرقة لم تترك وراءها سوى الخراب والذعر.

هذه المرة، استهدف الانفجار موقفًا للسيارات في أحد أحياء لشبونة الهادئة، حيث زرعت عبوة ناسفة مصممة بدقة، تحتوي على متفجرات من نوع **C4**، تحت سيارة متوقفة في مرآب، في مشهد يوحي بخطة محكمة ومدروسة.

دويّ الانفجار تعالت أصداؤه بين أزقة المدينة الضيقة، كأنها صرخة في وجه السكينة، مشوهة السلام المعتاد بحطام سيارات متناثرة وزجاج متكسر، لكنه كان انفجارًا بلا دماء، بلا ضحايا، وكأنه تحذير مبطن يحمل في طياته رسائل غير معلنة.

وسط الدخان والغبار، وقفت الشرطة عاجزة، تائهة بين الأسئلة التي لا تجد لها أجوبة. من يقف خلف هذه الهجمات؟ ما الهدف من هذا الإرهاب الصامت الذي يعصف بالمدينة دون أن يسفك قطرة دم؟ هل هي رسالة موجهة لجهة او شخص ما؟ أم فوضى منظمة بقصد زعزعة الاستقرار؟

وفي قلب هذا الترهيب، عصف التوتر والقلق والفزع بالمدينة، والأنظار كلها تتجه نحو سؤال واحد:

من يقف وراء هذه التفجيرات الغامضة؟

*****

الفصل الثالث

الرأس الأخضر / برايا

صباح الأحد ...

في قلب برايا، وتحديدًا داخل جدران كنيسة سيّدة النعمة، كانت الصلوات ترتفع كهمساتٍ متقطعة وسط صمتٍ مهيب، بينما كانت لشبونة، البعيدة جغرافيًا، تستفيق على وقع التفجير الذي شقّ سكونها كندبة في جبين الفجر.

هناك، في الصفوف الخلفية للكنيسة، جلس سبيروزار حذراً من أي إشارات أو حركات قد تفضحه كغريب عن المكان. اتخذ موقعه بهدوء، كمن يطلب مأمنًا عن أعين الفضوليين. إلى يساره، جلست امرأة في الخمسينيات، ترتدي السواد كأنها تلبسه منذ دهر. كان الحزن يقطر من نظراتها، وغيمة من الكتمان تحيط بها كما يحيط الدخان بفتيل مشتعل.

انتهى القدّاس بصوت الجرس المتهدّج، وتفرّق المصلّون في صمتٍ وقور، لكن ثلاثة فقط ظلّوا في أماكنهم، وكأن الصلاة لم تكتمل بعد في نظرهم. سبيروزار، رجل وقور ذو شَعر فضي ونظرة عميقة، وتلك السيدة التي بدا أن فقدًا ما قد اقتطع جزءًا من روحها.

بخطى هادئة، توجّه الثلاثة نحو القس فونسيكا الذي خطاب الرجل الوقور بلهجة مفعمة بالامتنان:

= أهلاً سيد **ألفونسو** نشكرك على تبرعك السخي الأخير للكنيسة بالإضافة إلى تبرعاتك الهامة في مكافحة انتشار مخدر الفلاكا والتوعية بخصوصه

= لا شكر على واجب حضرة القس. أنا أكبر بمساعدة بيت الله ورجاله أمثالك والعمل ضد ذلك المخدر اللعين الذي يفتك بشبابنا.

وجه القس حديثه للسيدة.

= أهلاً **سيدة نيفيز**، هل من أخبار جديدة عن السيد **دييغو؟**

ردت السيدة بصوت مخنوق حزين.

= إطلاقاً، والشرطة تعتقد أنه قتل في ظروف غامضة وتم إخفاء الجثة، فلو كانت الجريمة عبارة عن خطف لطالبوا بفدية مثلاً، لقد مضى ثلاثة أشهر على اختفائه، وهذا كلام منطقي، لكن شعوري الداخلي يخبرني أن دييغو لا يزال حيا.

وأجهشت بالبكاء.

عندها أصغى سبيروزار للقصة بكل اهتمامه فقد استحوذت عليه، ولربما أمكنه المساعدة.

= ما القصة سيدتي؟ لماذا تبكين؟

نظرت إليه السيدة نيفيز بدهشة، من هو هذا الغريب الذي يتحدث البرتغالية بشكل سيء؟ فسارع القس فونسيكا بالكلام.

= الأخ جان من الولايات المتحدة الأمريكية يعمل حديثاً في الكنيسة كطبيب.

أجابت السيدة نيفيز بإنكليزية سليمة.

= إنها قصة طويلة يخبرك إياها القس عن اختفاء زوجي في ظروف غامضة، أما أنا فعلي السفر مجدداً، فأنا أقيم في مدينة **موستايروس** في جزيرة **فوغو** وأحضر القداس هنا كل يوم أحد للدعاء لزوجي، وأرجوك أيها القس طلبي الوحيد هو أن تدعو له بدورك بالفرج ومعرفة مصيره، فلم يبق في جعبتي من حلول سوى الدعاء.

= بالطبع سيدة نيفيز، أنا أدعو لكما باستمرار، فلتحفظك العذراء في طريقك.

تدخل السيد ألفونسو في نهاية الحديث.

= لقد تعاطفت للغاية مع موضوع زوجك سيدة نيفيز. أتمنى أن تفرج أموره في أقرب وقت. هذه بطاقتي فإن احتجت المال أو التواسط مع أحد أخبريني على الفور. أنا **المليونير ألفونسو سيلفا** وسأكون سعيداً للغاية بمساعدتك بأي طريقة ممكنة.

= جزيل الشكر لكرمك وتعاونك سيد سيلفا ولاهتمامك أيضاً سيد جان. إلى اللقاء.

اتجهت السيدة نيفيز نحو باب الخروج ثم اختفت في غضون ثوانٍ، فالتفت سبيروزار إلى القس فونسيكا.

= ما قصة هذه السيدة حضرة القس؟

= إن زوجها السيد دييغو أستاذ الكيمياء الشهير في مدينة موستايروس قد اختفى منذ ثلاثة أشهر دون أن يعثر على أثر يدل عليه، وكما سمعت لم يتصل بها أحد لطلب فدية أو ما شابه، وفي الحقيقة كلام الشرطة منطقي للغاية، فالقتل وإخفاء الجثة هو التفسير الأقرب للمنطق لحالته، لكن السيدة نيفيز ترفض الاحتكام للمنطق والواقع وتتمسك بأهداب الأمل.

هز سبيروزار رأسه في حزن وأسى.

= مسكينة، إنها في موقف صعب للغاية، فالموت قد يسبب الحزن في البداية لكنك تتأقلم مع الفكرة لاحقاً، أما الخطف والمصير المجهول فيجعلك في حالة دائمة من الإنكار والتشبث بأمل غالباً ما يكون مجرد سراب.

تدخل المليونير في الحديث.

= معك حق سيد جان. وضعها يدمي القلب والعين، عسى الله يمنحنا فرصة مساعدتها ولو بالمال على الأقل. عليّ الانصراف الآن حضرة القس. دعواتك المستمرة.

= رافقتك السلامة سيد ألفونسو وشكراً مجدداً.

وجه القس حديثه لسبيروزار.

= تعال معي لأعرفك على طاقم الكنيسة.

سار القس فونسيكا بصحبة سبيروزار عبر ممر جانبي يلفّه صمت يشبه صمت الأديرة القديمة، حتى وصلا إلى قاعة دافئة اجتمع فيها أفراد الطاقم، كما يفعلون دائمًا، لمراجعة شؤون المدينة ومراقبة نبضها الخفي.

كانت الغرفة تفيض بهيبة تقاليد راسخة، وأرواح اعتادت حمل المسؤولية دون ضجيج. جلس الجميع في أماكنهم المحددة.

تقدّم القس بخطوات واثقة، وسبيرزا إلى جواره، يحمل في حضوره غموض الزائرين القادمين من خارج السياق المعتاد. وبنظرات ذات مغزى، تعارف الحضور فيما بينهم دون حاجة إلى الكلمات، كما لو أن الأرواح تنحني لبعضها حين تتقاطع المسارات.

ثلاث نساء كنّ يجلسن إلى اليسار: **ليونور**، مهيبة النظرات؛ **تيريز**، ساكنة القسمات؛ **وكارولين**، تحيطها هالة من الحزن الرصين.

وعلى الجهة المقابلة، جلس **أربعة رجال** تتوزع بينهم الكاريزما والمسؤولية: **سانتياغو**، الصلب كصخرة بحرية؛ **فرانسيسكو**، ذو العينين الحادتين؛ **رودريغو**، مائل الرأس وكأنّه يستمع لما لا يُقال؛ **ومارتيم**، مبتسم بخفة من يعرف أكثر مما يظهر. قام القس بتعرف الجميع بسبيروزار كضيف جديد سيعمل مؤقتاً بصفة طبيب في الكنيسة، ثم عرّف سبيروزار على البقية:

= سانتياغو هو الشاب الذي دلك بالأمس إلى غرفتي وهو عازف بيانو رهيب. فرانسيسكو مثقف الكنيسة يسخر كامل وقته للمطالعة. رودريغو الراهب الأكبر يسخر كامل وقته للصلاة. مارتيم المسؤول عن أرشفة التبرعات وتخصيص الأموال حسب الحاجات.

ليونور تهتم بالنباتات في الحديقة هنا. تيريز صديقة القطط في محيط الكنيسة تحبها القطط بجنون. كارولين أفضل طباخة قد تعرفها يمكنها تحويل الصخر إلى وجبة هائلة وهي من تمدنا بالوجبات اللذيذة. بقيت هنالك الأخت **كاترين** (**63** عاما) لكنها مريضة منذ مدة وترتاح في غرفتها.

= مريضة! بماذا؟ وهل يمكنني مساعدتها بشيء؟

= في الحقيقية لا أدري، لقد عرضت على عدة أطباء هنا ولم يعرف أحد تشخيصاً لحالتها.

= وهل يمكنني زيارتها وفحصها، علني أضيف رأياً جديداً للآراء الأخرى.

= بالطبع تفضل .

أعرب سبيروزار عن سعادته بلقاء الأخوة والأخوات ثم مضى مجدداً خلف القس في الرواق الحجري الطويل وعند نهايته، انعطف القس يمينًا إلى ممرٍ جانبيّ أقل إضاءة، حيث استقرت غرفة موصدة بباب خشبي عتيق.

طرق القس الباب برفق، فجاءه من الداخل صوت واهن، متعب، كأنه آتٍ من أعماق الألم، يدعوهما للدخول.

فتح الباب بهدوء، ودلف ومعه سبيروزار إلى الداخل، حيث بدت الغرفة غارقة في سكون ثقيل. هناك، على السرير، استلقت سيدة في العقد السابع من عمرها، تقاسيمها منهكة، وجسدها كأنما يذوب تحت وطأة المرض. بدا عليها الإعياء وكأن الحياة تغادرها قطرةً قطرة، لكن في عينيها، رغم الخفوت، بقي وهج صغير لم يخفت بعد.

= كيف حالك اليوم أيتها الأخت كاترين؟

تنهدت كاترين تنهيدة عميقة أشبه بإعصار من الآلام واليأس.

= متعبة للغاية كبقية الأيام! من هو ضيفك؟

= إنه ليس ضيفنا بعد الآن، بل هو فرد جديد انضم إلى طاقمنا، أقدم لك الأخ الطبيب جان، لقد جاء لفحصك ومحاولة تشخيص مرضك، وسأقوم أنا بدور المترجم بينكما فلغته البرتغالية ضعيفة.

= أهلاً حضرة الطبيب، تفضل بالجلوس، شكراً لاهتمامك، لكن عليك أن تعرف أنني عرضت على خمسة أطباء من قبل وعجزوا عن تشخيص حالتي، وأجمعوا أنها حالة طبية غريبة للغاية، مجموعة غير مترابطة من الأعراض.

= وما هي هذه الأعراض أيتها الأخت؟

= شعور بالخدر والتنميل في القدمين، طنين في الأذنين، رؤيتي أصبحت أسوأ، كما تم تشخيصي بقصور في الغدة الدرقية، وبداية قصور قلب.

= إنها بالفعل مجموعة غريبة من الأعراض والأمراض! هل لديك أمراض من قبل أو خضعت لعمليات جراحية.

صمتت الأخت كاترين للحظات.

= المرض الوحيد الذي أصابني في حياتي هو **فيروس كورونا** في عام **2020** أي قبل **10** سنوات تقريباً، وكاختلاط له كما قال لي الأطباء حدث لي نخر في رأس عظم الفخذ واضطررت لوضع مفصل صنعي.

ابتسم هنا سبيروزار ابتسامة عريضة وواثقة.

= وكان المفصل الصنعي من مادة الكوبالت، أليس كذلك؟

دهشت الأخت كاترين.

= بالفعل، كيف عرفت؟

= ببساطة لأن أعراضك كلها تفسر بتشخيص وحيد وهو تحلل المفصل الصنعي وإصابتك بالتسمم **بالكوبالت**، وأنت الآن بحاجة لعملية سريعة لتغيير المفصل من جديد، ويفضل عندها استخدام مفصل من مادة **التيتانيوم** هذه المرة فهو صديق لجسم الإنسان ولا يسبب التسمم.

غمرت الفرحة وجهي الأخت كاترين والقس فونسيكا.

= حقاً، هكذا بكل بساطة، ولماذا لم يفكر بقية الأطباء بهذا التشخيص؟

= لأن كل أخصائي يفكر بأسباب متعلقة بالمرض الخاص باختصاصه،

فيغفل عن بقية الأعراض، وباعتباري طبيب أورام فقد كنت مراقباً خارجياً وربطت الأعراض كلها مع بعض، وأرجو أن أكون مصيباً في تحليلي.

ابتسم القس.

= حسنا إذن، جهزي نفسك أيتها الأخت سنتوجه مباشرة إلى المشفى مع تشخيصك الجديد فهذا أمل يجب التشبث بأهدابه حتى النهاية.

قالت الأخت بفرحة وتفاؤل غابا عنها لأشهر.

= لنفعل ذلك، شكرا لك أيها الطبيب، لكأنّ الله أرسلك إلينا.

نظر سبيروزار إلى القس وابتسما، إذ أنه **بالفعل قد أرسله الله إليهم بشكل أو بآخر.**

*****

الفصل الرابع

البرتغال / لشبونة ...

بنك بانكو نوفو ..

جلس المدير أوتافيو في غرفته الخاصة في البنك. غرفة أقرب إلى ملاذٍ حصين منها إلى مكتب إداري. تقع في الطابق العلوي، خلف باب خشبي سميك بلون الليل، تعلوه لوحة صغيرة لا تحمل اسمًا، بل رمزًا محفورًا بدقة: ساعة رملية تحيط بها دوائر ثلاث. ما إن تدخلها حتى تفاجأ بسكون أنيق لا يشبه صمت البنوك، بل ضجيج السلطة. الأرضية مفروشة بسجادة شرقية عتيقة، بألوان خافتة كُتمت عن عمد. الجدران مكسوة بألواح خشب الجوز الداكن، تعلوها لوحتان زيتيتان تعودان للقرن التاسع عشر، إحداهما لسفينة تقترب من عاصفة، والأخرى لرجل بلا وجه. المكتب، المصنوع من خشب الماهوغني، يحتل منتصف الغرفة بثقل وهيبة. فوقه، ترتّب كل شيء بدقة جراح: أقلام، أوراق، ساعة ذهبية، وعلبة سيجار لا يُفتح غطاؤها إلا نادرًا. خلف المكتب مكتبة صغيرة، لا تتسع للكثير، لكنها تحتوي على كتب مختارة بعناية: الاقتصاد، علم النفس، وبعض الكلاسيكيات اللاتينية.

الضوء خافت، مصدره مصباحان جانبيان بقبّعات حريرية بلون العنبر، ينعكسان على سطح زجاجي يغطي المكتب، وعلى وجه أوتافيو حين يجلس هناك، فيبدو كما لو أنه جزء من المكان لا زائره.

لا شيء في الغرفة يُشبه الصدفة.

حتى الستائر السميكة المخملية، لا تتحرّك إلا حين يأمر الهواء.

وفي وسط كل هذا الصمت المهيب رن جرس الهاتف الأرضي فجأة.

= المدير أوتافيو. من المتكلم ...؟

= معك **السيد فيليبي** مدير البنك المركزي.

= أهلا سيد فيليبي.

= سيد أوتافيو، سيتم نقل مبلغ **50** مليون يورو الذي أخبرتك عنه سابقاً من

بنككم إلى البنك المركزي في السابع من الشهر القادم أي بعد خمسة أيام، أرسلوا المبلغ في عربة مصفحة كالعادة على الساعة التاسعة صباحاً، وحافظوا على سرية المهمة.

= حسنا سيد فيليبي.

أخرج أوتافيو هاتفه المحمول واتصل بماتيو (**39**عاما) مسؤول الحراسة وعمليات النقل في البنك.

= ماتيو، تعال إلي على الفور، لقد اقتربت مهمتك كثيراً.

*****

مقر العصابة.

في تلك الأثناء.

كان خواو يضع سماعات أذنين كبيرة، من النوع الذي يعزل الصوت تمامًا عن العالم الخارجي، ويجلس أمام شاشة حاسوب مضاءة بضوء باهت. ظهر أمامه اسم المتصل: أوتافيو، وتحت الاسم مباشرة وُضِع وسم المتصل به، وقد سمّاه أوتافيو ببساطة: حارس البنك.

بدت على وجه خواو ابتسامة دقيقة، لا تُشبه الفرح بقدر ما تُشبه التوثّب. لقد فهم مضمون المكالمة، أو على الأقل، الجزء الأول منها. كانت تلك أول معلومة تُثبت له أن المهمة التي يترقّبها منذ وقت طويل... قد اقتربت.

دوّن في ذهنه ما استنتجه: الموعد يقترب. ما تبقّى هو تحديد الزمان والمكان بدقة.

بقي صامتًا، يحدّق في الشاشة، كأنه ينتظر أن تنطق بشيء آخر، أن تنفلت من بين ذبذبات الصوت عبارة جديدة، كلمة عفوية، زلّة لسان تكشف أكثر.

لكنه يعرف القاعدة جيدًا: الصبر جزء من الحرفة.

= ماتيلدا، حبيبك العاشق أخبرنا للتو بأول معلومة عن المهمة.

ابتسمت ماتيلدا بفضول.

= وما هي؟

= المهمة خلال أيام، إننا على بعد ساعات من الثروة.

= إنك تتحدث وكأنك الزعيم!

= لقد وعدنا الزعيم ب **10**% من المال لكل منا نحن الأربعة وهو سيأخذ **60** % باعتباره واضع الخطة وممولها، و**10** % مبلغ جيد جداً، إننا نتحدث هنا عن ملايين اليوروهات.

= أنت محق، أين **روي** **وخوسيه** بالمناسبة ؟!

= إنهما يجهزان العبوة الناسفة الجديدة، فهي خطوة هامة للغاية في العملية الكبرى الأخيرة كما أخبرتنا خواو.

= بالطبع.

= هل أنت مستعدة لموعدك الغرامي مساءً ...؟

ضحكت ماتيلدا.

= على أحر من الجمر، لقد اشتقت للسيد أوتافيو كثيراً.

= وماذا لو دعاك إلى شقته؟

= إن كان هنالك ما يخدم المهمة سألبي الدعوة بسعادة وسأتابع بالموضوع ولو انتهى المطاف بي في سريره.

هز خواو رأسه.

= يا إلهي، كم أنت قوية. لا عجب في موافقة الزعيم على شخصك !!

*****

بالعودة إلى بانكو نوفو.

جلس ماتيو أمام أوتافيو بثباتٍ يوحي بعلاقة تتجاوز البروتوكولات. لم يكن مجرد موظف في البنك، بل صديق قديم، من أولئك الذين يعرفون متى يصمتون ومتى يتكلمون.

كان في منتصف الأربعين، قامة معتدلة، عيون رمادية لا تُظهر أكثر مما يجب، ووجه يحمل ملامح أوروبية ناعمة أنهكها السهر والانتظار. يرتدي بذلة داكنة أنيقة، لا مبالغة فيها، وربطة عنق موثوقة مثل شخصه. يضع ساعة بسيطة على معصمه الأيسر، من النوع الذي لا يُلفت النظر ولكن لا يُنسى أيضًا.

في جلسته تلك، بدا كمن يعرف أكثر مما يقول، ويخفي خلف ابتسامته الهادئة عقلًا لا يغفو. نظرته نحو أوتافيو كانت مزيجًا من الاحترام والحدس، كأنه يشعر بأن شيئًا ما تحت السطح بدأ يتحرك.

= ماتيو، سيتم نقل مبلغ ضخم من المال من بنك نوفو إلى البنك المركزي على الساعة التاسعة صباحاً في السابع من الشهر القادم، أريد أفضل سيارة مصفحة لدينا، مع مجموعة حراسة كاملة من أربعة أشخاص إضافة لك.

= بالطبع سيد أوتافيو، لا تخش شيئا إنها ليست المرة الأولى التي ننقل فيها أموالاً من بنكنا.

= نعم لكنها المرة الأضخم فانتبه جيداً.

= علم سيد أوتافيو. أفضل سيارة مصفحة لدينا مع أكثر الحراس تمرسا في عملية نقل الأموال.

= بالمناسبة هل لحقت بك أو بمن تعرف أضرار جراء الانفجار الأخير.

= للأسف نعم، سيارة أخي احترقت بالكامل، ولسوء الحظ فقد اشتراها حديثاً منذ أربعة أشهر فقط.

= الحمد لله أنه لم يكن بداخلها.

= أجل، لقد نجا بأعجوبة، فقد اكتشف وهو في السيارة أنه نسي هاتفه في

المنزل فعاد ليأخذه وفي تلك الأثناء حدث الانفجار.

= كان القدر رحيماً به، حمدا لله على سلامته مجدداً.

= شكرا لك سيد أوتافيو، عسى القوى الأمنية تصل إلى الإرهابيين عما قريب لتفادي ما هو أسوأ.

*****

مطعم فيدا ...

في المساء، تمام الساعة الثامنة، دخلت ماتيلدا إلى مطعم فيدا، تتهادى بخطى واثقة، تلفّها هالة من جاذبية لا تحتاج إلى تفسير. كانت ترتدي ملابس مغرية اختيرت بعناية، لا لتُثير، بل لتُربك.

أضواء المطعم الخافتة انعكست على بشرتها بلون العسل، فيما عبق العطور الفاخرة تمازج مع موسيقى الجاز التي تنساب من الزوايا كأنها همس.

نظرت حولها ببطء، ثم وقعت عيناها على السيد أوتافيو جالسًا في إحدى الزوايا، إلى طاولة نصف مخفية، يبتسم لها بإعجاب لم يُخفِه.

اقتربت بخطى ناعمة، كأنها تنحت طريقها بين النظرات والفضول، حتى وصلت إلى الطاولة، ثم قالت بصوت ناعم يحمل في طبقاته مزيجًا من الإغواء والاحتراف:

= آسفة على التأخير... هل انتظرت طويلًا؟

= أهلا بالحسناء الأنيقة ماتيلدا. تستحقين الانتظار لعقود.

ضحكت ضحكة مغناج ماكرة.

= هذا لطف كبير منك.

مضت دقائق وأوتافيو يطري على ماتيلدا، ثم اقترب النادل منهما.

= أتفضلين شرب المارتيني كالمرة السابقة.

= أجل، ليكن.

= اثنان مارتينيز من فضلك.

= حديثيني أكثر عنك آنسة ماتيلدا.

هزت ماتيلدا رأسها رافضةً بدلع.

= بل حدثني أنت عن نفسك سيد أوتافيو.

= حسنا، أنا شخص متزوج سابقاً وانفصلت عن زوجتي منذ **5** سنوات ولدي فتاتين، أدير بنك نوفو في لشبونة، أحب السهر كثيراً، وأقدر الجمال بشكل أكبر، واسمحي لي أن أقول إنك الأنثى الاكثر جمالا التي شاهدتها في حياتي.

كانت ماتيلدا تدرك تماما أن الترجمة الفعلية لهذه الجملة هي: الأنثى الأكثر إثارة، لذا هزت رأسها بلامبالاة وابتسمت.

= أشكرك مجدداً سيد أوتافيو، أما أنا فعزباء تعمل عارضة أزياء في إحدى دور لشبونة، وعلى عكسك أنا لا أحبذ السهر، ويعجبني في الرجل صراحته، أي ألا يكون كتاباً مغلقاً لا تعرف المرأة كيف تقرأه.

انفرجت ابتسامة من شفاه أوتافيو.

= هذا الكلام يسعدني ويلائمني، فأنا من الأشخاص الذين أحب أن أشكو همومي وأشارك أفكاري مع من أرتاح لهم.

= هذا لطيف للغاية.

بعد سهرة عشاء طويلة حاولت فيها ماتيلدا دفع أوتافيو للشرب كثيرا والسكر ليبوح بأسراره دون أن تنجح بذلك، دعاها أوتافيو لإكمال السهرة في منزله، لكنها اعتذرت بحجة أنها لا تصاحب الرجال إلى منازلهم إلا بعد الموعد الثالث لتتعرف عليهم بشكل أفضل.

وكان أوتافيو يزداد تعلقا بها كلما تمنعت عليه أكثر.

= هذه فلسفة غريبة لكن لها ما يبررها آنسة ماتيلدا، ومتى موعدنا الثاني

إذن ...؟

= بعد غد في نفس المكان والزمان.

= اتفقنا، هل تسمحين لي بإيصالك إلى منزلك ...؟

= أشكرك، لكن معي سيارتي الخاصة.

افترقا وسمعت ماتيلدا خواو عبر السماعة في أذنها.

= بعد الموعد الثالث، يا لك من داهية!

وضحكت ماتيلدا ضحكتها المغناج.

*****

الفصل الخامس

في صباح اليوم التالي لكن في مكان آخر مجهول:

كانت غرفة حجرية اشبه بكهف رحب على نحوٍ خادع، يلفّها صمت ثقيل كأنما تجمّدت فيه صرخات لم يُسمح لها بالانطلاق. لم تكن غرفةً عادية، بل مختبرًا شيطانيًّا وُلِد من رحم الخوف والجشع، حوّلته عصابة إلى معملٍ متكامل لصناعة مخدّر الفلاكا ـ أو كما يُعرف في الأوساط العلمية: ألفا **PVP**ـ ذاك السمّ الذي يحوّل الإنسان إلى شبح هائج لا يملك من ذاته سوى ظلالها المرتجفة.

في ركنٍ شبه معتم، جلس دييغو، أستاذ الكيمياء الذي طالما تغنّت الجامعات بأبحاثه، وزوج السيدة نيفيز التي لم تكد تعرف طعم النوم منذ اختفائه. كان جسده موصولًا بالكرسي كأنما سُمِّر عليه، أما نظره فهائمٌ بين الفراغ والزجاجات، بين ماضٍ كان فيه العلم سراجًا ينير العقول، وحاضرٍ غدا فيه العلم ذاته أداة للهلاك.

خطفته العصابة بعد أن تسربت أخبار عبقريته كالماء بين الأصابع، وبلغت آذان من لا يعرفون من الكيمياء سوى كيف تُحوَّل إلى لعنة. أرادوه صانعًا للموت، مروّضًا للجزيئات في سبيل المال، عبداً للمعادلات التي تُفقد البشر عقولهم.

في بادئ الأمر، قاوم. امتنع عن الطعام خمسة أيام، أضرب بجسده عن الخضوع، وأضرب بروحه عن الانكسار. لم يكن ذلك مجرّد احتجاج، بل صرخة وجودية أخيرة في وجه قبح لا اسم له. لكن الوحوش لا تفهم لغة الكرامة. قابلوه بالقسوة، وعاقبوه كما يُعاقَب من يرفض أن يبيع روحه. انهار الجسد، وخفتت الإرادة، فانحنى دييغو صامتًا، وعاد إلى الطاولة، لا باعتباره خبيرًا، بل سجينًا يحرّك أنامله تحت التهديد، كمن يُنحت قبره بيديه.

كان يعطي تعليماته ببرود زائف، لصبيَّين يعملان تحت إشرافه. ينطق المعادلات كمن يستدعي أرواحًا شريرة يعرف أنها ستنفلت ذات يوم من زجاجاتها. وبين أنابيب الاختبار والمحاليل المتبخّرة، كانت بقايا إنسانيته تذوب شيئًا فشيئًا.

أما العصابة، فلم تبخل عليه بشيء. جلبوا له أحدث الأجهزة، وأنقى المواد

الكيميائية، وكأنهم يمنحونه مفاتيح جحيهم السام. كل ما أرادوه هو منتجٌ أقوى، أسرع، أفظع... وكان هو أداة تحقيق تلك الرغبة، شاء أم أبى.

وفي داخل قلبه، كانت هناك زاوية صغيرة، لم تبلغها يد الخاطفين بعد. زاوية يسكنها اسم زوجته نيفيز، ذكرى ضحكتها، ودفء المنزل الذي تركه ذات صباح، ولم يعد إليه أبدًا.

*****

كنيسة (سيدة النعمة).

كانت رواية السيدة نيفيز عن اختطاف زوجها، الأستاذ دييغو، قد زرعت في صدر سبيروزار قلقًا كوتد خشبي لم يستطع نزع جذوره. هناك شيء في نبرة صوتها، في ذلك الرجاء المختلط بالخوف، جعله يشعر بأن القصة أكبر من مجرد حادثة عائلية؛ كأنها تلامس أطراف شبكة معقّدة لم تُكشف بعد. كان بحاجة إلى لحظة هدوء، إلى عقل آخر يستشيره، وربما إلى عين ثالثة ترى ما لا يستطيع رؤيته وسط الدوامة.

ذهب تفكيره مباشرةً إلى القبطان باروناج.

لم يتردّد كثيرًا. اعتذر بلطف من القس فونسيكا، موضحًا أنه مضطر للعودة إلى اليخت ميلافا لبعض الوقت كي يطمئن على وجوده. قالها دون تبرير طويل، فاكتفى القس بإيماءة فهم، كما لو كان يتوقع ذلك.

استقل سيارة أجرة من أمام الكنيسة، جلس في المقعد الخلفي بصمت وهو يراقب الشوارع تنحسر من حوله. الهواء بارد بعض الشيء، ورائحة البنزين المختلطة بملوحة البحر وصلت إليه قبل أن تظهر الزرقة في الأفق.

عندما وصل إلى مرسى القوارب، لمح يخته من بعيد، راسيًا بهدوء كأنه لم يغادره أبدًا. صعد السلالم الخشبية المؤدية إلى الرصيف، وراح يخطو على الألواح البحرية المبللة بصبر، يسمع تحت قدميه صرير الخشب كأن الميناء يتنفس بقوة وببطء.

ما إن صعد على متن ميلافا، حتى شعر بشيء من الراحة يعود إليه. هنا كل

شيء يعرفه: الروائح، الأصوات، وحتى الصمت. توجّه مباشرة إلى مقصورة القيادة، حيث النظام الذكي ينتظر أوامره.

مدّ يده إلى لوحة التحكم، وضغط على زر اسألني.

أضاءت الشاشة لحظة، ثم تشكّل أمامه طيف القبطان باروناج، ليس على هيئة بشرية دقيقة، بل كضوء يحمل ملامحه، يطفو في الهواء بثبات، وصوتُه يخرج واضحًا كأنّه يتكلّم من داخل الجسد.

= أهلاً بك مجدداً حضرة الطبيب مورفين.

= أهلاً قبطان.

= هل كانت تجربتك في الكنيسة ناجحة ...؟

= أجل، لقد أصبحت مبدئياً أبيت هنالك وأعمل كطبيب كذلك، بانتظار أن يعرف القس فونسيكا بالضبط ما يمكنه مساعدتي به.

= أشعر من نبرة صوتك أن هنالك موضوعاً ما يشغلك.

ذهل سبيروزار من هذه الجملة، إنها المرة الأولى التي يظهر فيها الذكاء الصنعي ذكاءً عاطفياً، هذا غريب ومذهل للغاية. !

= معك حق حضرة القبطان، لقد استمعت إلى قصة غامضة في الكنيسة، وأريدك أن تساعدني في حلها.

= ما هي؟

= إنها قصة اختطاف أستاذ كيمياء يدعى.

= دييغو نيفيز.

دهش سبيروزار مجدداً.

= بالضبط.

= لدي كافة المعلومات المتعلقة بحيثيات القصة والتي انتشرت في الأخبار أو وسائل التواصل الاجتماعي.

= وهل هنالك من أدلة تفيد في معرفة مصير الأستاذ دييغو ...؟

= في الحقيقة هنالك دليلان يعززان فرضية أنّ عصابة ترويج مخدر الفلاكا هي من قامت باختطافه.

تنبه سبيروزار جيداً عند هذه الجملة.

= وكيف ذلك حضرة القبطان؟

= **الدليل الأول** اهتمام الأستاذ دييغو البالغ ومقالاته ومحاضراته الواسعة عن هذا المخدر.

دهش سبيروزار من هذه المعلومة، فهي مهمة بالفعل، كيف لم تنتبه الشرطة إليها. ؟!

= والدليل **الثاني؟**

= إنها عبارة عن معلومة غريبة تداولها الناس على وسائل التواصل الاجتماعي في جزيرة **فوغو** (النار بالبرتغالية) مسقط رأس السيد دييغو ومكان إقامته.

= جميل جداً، وما هي هذه المعلومة ...؟

= إن **سارقات الرمال** في قرية السيد دييغو التابعة لمدينة موستايروس تشتكين من ظهور أشخاص مسلحين في منطقة محددة على الشاطئ وتهديدهم لهن بالقتل إن عملن في تلك المنطقة.

= سارقات الرمال ؟!

= أجل، إنه لقب محلي يطلق على مهنة تقوم بها النساء بشكل خاص وتشمل جمع الرمال البركانية من الشواطئ الرملية وبيعها لأشخاص محددين للاستفادة منها.

= رمال بركانية، كيف ؟!

= أيها الطبيب جزيرة فوغو هي جزيرة بركانية تحوي بركاناً ضخماً يدعى **(بيكو دو فوغو)** أو قمة النار. وعملية سرقة الرمال هذه أدت إلى غياب كثير من الشواطئ الرملية وبقاء الشواطئ الصخرية فحسب، والغريب في الموضوع أن السلطات والشرطة تعرف بهذا النشاط وتغض النظر عنه كونه

مصدر دخل وباب رزق لعائلات كثيرة في الجزيرة، لكن هنالك غرباء مسلحون يهددون النساء من الاقتراب من منطقة محددة، وليس مفهوماً أبداً لماذا؟

= هذا غريب بالفعل!

= هنالك فكرة أخيرة أظنها غريبة وذات صلة بالموضوع.

= أخبرني بها حضرة القبطان، فأي دليل يجب متابعته.

= هنالك يخت لمليونير برتغالي يدعى ألفونسو **سيلفا** يتجول في المحيط بين جزر البلاد، لكنه كثيرا ما يرسو في مكانه لأيام عديدة مقابل المنطقة المحظورة التي تحدثنا عنها وإن كان بعيداً عنها نسبياً.

= هذا بالفعل غريب، لقد التقيت شخصياً بذلك المليونير في الكنيسة يبدو رجلاً شهماً ومحترماً. وأشعر مثلك حضرة القبطان بوجود رابط ما مجهول بين القصص الثلاثة هذه، نشاط الأستاذ دييغو في مجال المخدرات خاصة الفلاكا، سرقة الرمال والمنطقة المحظورة وأخيراً يخت المليونير

= بالضبط.

= هل هنالك معلومات أكثر عن هذا المليونير؟

= لا أحد يعرف طبيعة عمله، لكنه افتتح جمعية خيرية مصغرة في مدينة موستايروس لمساعدة العائلات الفقيرة، كما أنه يتبرع بشكل ثابت للمدرسة الحكومية فيها ولكنيسة سيدة النعمة في برايا أيضاً بالإضافة لدعمه المادي لمكافحة مخدر الفلاكا.

= جميل جداً وراقٍ ...!

= أجل، فعل الخير أمر مميز يستحق الاحترام، وقد يكون هذا المليونير هدفاً لعصابة ترويج المخدرات لسبب ما.

= هذا وارد جداً، وما الذي تنصحني بفعله الآن حضرة القبطان ...؟

= إن كنت تملك الوقت يمكنك زيارة قرية السيد دييغو والكشف عن المنطقة المحظورة بنفسك.

= وكم تبعد تلك القرية عن برايا؟

= حوالي **85** كم، أي نقطعها خلال نصف ساعة تقريباً.

= حسناً، هيا بنا.

*****

شواطئ جزيرة فوغو.

بعد ثلاثين دقيقة من الإبحار، رسا اليخت بهدوء على شاطئ قرية السيد دييغو، حيث الرمال ناعمة كقطن مصاغ من أشعة الغروب، تتلألأ كحفنة مجوهرات تحت ضوء شفق المساء، يلفّها نسيم البحر الحالم برائحة ملح البحر وطحالبه العتيقة. في حين تتراقص الأمواج الصغيرة بخفة على حافة الماء، كأنها تعزف لحنًا ناعمًا يسرد حكايات الأزمنة الغابرة لجزيرة فوغو، حتى تُلامس بأطرافها المبللة الرمال فتترك آثاراً مؤقتة، كشواهد عابرة على بساطة الحياة وجوهرها الحنون في القرية ثم تنحسر.

من بعيد علت أصوات ضحكات لأطفال يلعبون كرة القدم، تتشابك صيحاتهم مع همسات البحر في سيمفونيةٍ طبيعية تبهج الروح، تنساب كنسيج متجانس من النقاء والبراءة. اقترب منهم سبيروزار مبتسماً ثم قال ببرتغالية ضعيفة

= مرحباً يا أولاد، كيف يمكنني الوصول إلى منزل السيدة ماريانا نيفيز؟

بادله أكبرهم الابتسام وقال.

= أهلا سيدي. اتبعني كي أرشدك.

لحق سبيروزار الفتى عبر متاهات من الأزقة العتيقة، كأنهما يسيران في شريط من الذاكرة، لا في مكانٍ واقعي. كانت الحواري ضيقة كأنها مصمّمة لتحتفظ بالأسرار، تتلوى تحت سماء دافئة تتهدّل منها أشعة الشمس في خيوط ذهبية، ثم تنساب فوق الجدران المتهالكة كغبارٍ مقدّس.

هنا، الزمن لا يمشي... بل يتأمل. قال سبيروزار لنفسه.

كانت جدران البيوت ملوّنة بمزيج من الأزرق والبياض، وقد تسربت عليها آثار العمر، لكنّها لم تفقد بهاءها، بل ازدادت سحرًا. شرفاتٌ صغيرة تفيض بأصص الريحان والقرنفل، وستائر شفافة تتحرك بأناة مع نسيم البحر، كما لو كانت تلوّح لذكريات عابرة.

صوت المدى خافت، تملؤه طقطقة الأقدام على الحصى، ورائحة الأرض تتصاعد برفقٍ يثير الحنين، ممزوجة بعطر الصابون البلدي، ورائحة القهوة التي تنبعث من نوافذ غير مرئية. كل زقاق كان كحلمٍ بكر، وكل جدارٍ دفترًا مفتوحًا لحكايات وحكايات.

ثم، فجأة، توقف الفتى عند منزل صغير، لكنه يفيض بالجمال الهادئ... واجهته مطلية بالأزرق والأبيض، كأن السماء قرّرت أن تستريح على شرفاته.

= هذا هو المنزل سيدي.

انسحب الفتى بصمت، بينما اقترب سبيروزار من الباب وطرقه بهدوءٍ مفعم بالترقّب.

لحظات، ثم انفرج الباب، فظهرت السيدة نيفيز، عيناها اتسعتا بدهشة ناعمة حين أبصرت الزائر. ومن حسن حظه، كانت نيفيز معلّمة للغة الإنجليزية، مما جعل الكلمات تجد طريقها بسهولة بينهما، كما تجد الريح طريقها بين أغصان الأشجار.

= سيد.

= جان.

= تذكرتك، أهلا بك سيد جان ....

ابتسم سبيروزار ابتسامة خفيفة مطمئنة.

= أهلاً سيدتي، أعتذر عن الزيارة بشكل مفاجئ، لكن هنالك دليلاً قد يوجهنا أكثر نحو مصير زوجك الأستاذ دييغو.

أشرق وجه السيدة نيفيز بالأمل.

= تفضل، تفضل.

دخل سبيروزار إلى غرفة الضيوف، جلس وأخذ يروي للسيدة نيفيز عن الأدلة التي جمعها وختم كلامه بالقول.

= وأنا الآن أريد زيارة ذلك الشاطئ المحظور الذي تتحدث نساء القرية عنه.

= على الفور، تعال معي.

خرجا من المنزل، واتجهت السيدة نيفيز إلى منزل صغير مقابل لمنزلها ثم طرقت الباب. لحظات وفتح ولد صغير.

= أين هي والدتك **فلافيو** ...؟

نادى الطفل على والدته التي ظهرت بعد ثوان.

= أهلا **ماريانا** ...

= أهلا **صوفيا**، أريد منك معروفاً.

= بالطبع، ما هو؟

= أريد أن تأخذيني مع السيد جان إلى الشاطئ الذي تم تهديدكم أن تعملوا فيه.

ظهرت الدهشة على وجه صوفيا لكنها أجابت.

= بالطبع، هيا بنا.

نادت على ابنتها الكبيرة.

= انتبهي جيدا على إخوتك لن أغيب طويلاً.

ثم اتجهوا ثلاثتهم نحو الشاطئ الرملي للقرية.

= ألن تعرفيني بالأخ ماريانا ...؟

ارتبكت السيدة نيفيز ولم تسعفها بديهتها بجواب فوري فتدخل سبيروزار سريعاً.

= أنا المحقق جان. أتحرى عن اختفاء السيد دييغو.

= أهلا بك. أرجو أن تكون تحرياتك هنا مثمرة.

اتجهوا شمالًا بمحاذاة الساحل، بينما الشمس تلامس صفحة البحر كأنها تختبر حرارته للمرة الأخيرة قبل الغروب. الأرض تحت أقدامهم تحوّلت تدريجيًا من نعومة الرمال إلى صلابة الحواف الصخرية، وكأن الشاطئ لفظ جلده الطري وترك وراءه عظامه فقط. كانت الصخور تشقّ الأرض مثل ندوب قديمة، ناتجة عن جريمة بطيئة تُرتكب على مرّ السنين: سرقة الرمال.

الصمت ثقيل. حتى الريح بدت مترددة في العبور.

فجأة، وسط هذه الفوضى الجيولوجية، ظهرت قطعة أرض غريبة: مساحة رملية محدودة، قصيرة، وحيدة... كأن أحدهم نثر الرمال عمدًا هنا لتغطي شيئًا لا ينبغي لأحد أن يراه. رفعت صوفيا يدها وأشارت:

= هذه هي المنطقة...

لم تضف شيئًا. لم يكن عليها ذلك. فالمدى كله كان يتحدث نيابة عنها.

شكرها سبيروزار بنبرة قصيرة، ثم تابع بصمت، كأن صوته قد صار غير لائق في هذا المكان. عادت صوفيا أدراجها بخفة أنثى تعرف أنها اقتربت أكثر مما ينبغي من فوهة الأسرار.

وقف أمام الرقعة الرملية، خمسون مترًا لا أكثر، لكنها بدت له كأنها امتداد شاسع للغزٍ قديم. رملٌ بركانيّ، قاتم، كأن البحر قذف به ذات ليل بعد ثورة غاضبة. لا شيء فيها يوحي بالخطر... وهذا ما جعلها أكثر خطرًا.

رفع عينيه ببطء نحو الأفق، وهناك... كان يخت أبيض يطفو بثقة متعالية

وسط المدى، لا يتمايل ولا يهمس. يشبه شبحًا بحريًا ينتظر أوامره. يخت المليونير ألفونسو، بلا شك.

بدأ سبيروزار يقطع الرمال جيئة وذهابًا، أنفاسه تقطع الهواء كحد الخناجر. مرة، مرتان، ثلاث ... لا صوت، لا أثر، لا خلل في الموج. وكأن الأرض نفسها تدّربت على سيناريو التخفي والإخفاء.

كانت الرمال صامتة. أكثر مما ينبغي.

وكان هو الوحيد الذي يسمع ذلك الصمت.

توقّف أخيرًا في المنتصف، حدّق في الفراغ من حوله، ثم أغمض عينيه.

(هذا المكان يخفي شيئًا ولا بد. أشعر بذلك في أعماقي ...)

التفت إلى السيدة نيفيز بشيء من الخجل عقب تلاشي الخيط الذي لاحقه.

= للأسف، ليس هنالك من شيء مريب في هذا الشاطئ، مجرد رمال بركانية لا أكثر!

بدت خيبة الأمل واضحة على وجه السيدة نيفيز.

= أجل يبدو كذلك، هل وصلنا إذن إلى حائط مسدود جديد في البحث عن زوجي؟

= لا تيأسي سيدة نيفيز، ما يزال هنالك طرف خيط آخر وهو عصابة ترويج المخدرات، لعلها من قامت بخطف زوجك، فإن أمسكت الشرطة بها، قد يؤدي ذلك إلى تحرير زوجك من الأسر.

عاد بصيص من الأمل إلى وجه السيدة نيفيز.

= شكرا لك لاهتمامك الكبير بقصة زوجي، فلست مضطراً أبدا لفعل ذلك، أنت إنسان نبيل أيها الطبيب.

كان سبيروزار واقفًا على الرمال السوداء، يراقب الأفق كمن يستجدي البحر أن يبوح بسرٍ دفين يطفئ النيران المشتعلة في صدر السيدة نيفيز. غير

أن ما جذب انتباهه لم يكن البحر ذاته، بل حدود الشاطئ الداخلية، حيث لمح من بعيد رجلين واقفين بترقب، يكسوهما الصمت وتغلف نظراتهما شحنة نار، كأن الشر اشتعل فيهما دون أن يُعلن عن نفسه. لم يتحركا، لكن وجودهما كان طعنة صامتة في ظهر اللحظة.

أدار سبيروزار رأسه نحو السيدة نيفيز، وخبّأ ارتجافه القلق تحت قناع هدوء مصقول:

= هذا واجبي سيدة نيفيز... لكن سعادتي بخدمتك لا تكتمل إلا بعودة زوجك... أعطني رقم هاتفكِ على كل حال ، وسأُبقيكِ على علم بكل جديد.

كتبت ماريانا الرقم ويدها ترتعش كأنها تنقل له قطعة من أملها الأخير ولا تريد أن تفقده، ثم تبادلا نظرة قصيرة، كانت بمثابة اتفاق صامت على أن المكوث هنا أكثر لن يكون آمنًا بوجود تلك العيون المتلصصة.

سارا معًا بمحاذاة البحر، لم يتبادلا الحديث، فقد كانت الخطوات وحدها تنطق عن وداع قريب. وحين وصلا إلى حيث رسا اليخت ميلافا، توقّف سبيروزار يرمق الشاطئ لمرة أخيرة ثم التفت إليها، صافحها وشعر بيدها نبضة أمل منها كما لو أنها تترك قطعة من مصير زوجها بيده.

صعد بهدوء الى يخته، وصوت الخشب تحت قدميه بدا كأنّه يئن من ثقل الأسرار.

تحرّك اليخت ببطء، يشقّ صفحة الماء برصانة صامتة، والسيدة نيفيز تلوح له ودموع امتنان وأمل في عينيها بينما الشمس تنسحب من السماء بلون نبيذيّ خافت. خلفه، كانت الظلال تزداد كثافة على الشاطئ، والرجلان لا يزالان هناك... لا يلاحقانه بالجسد، بل بنظرات تنضح شراً وتهديداً.

أبحر عائدًا إلى سانتياغو، لكن قلبه بقي معلّقًا بشيء لم يُفهم بعد.

كان يعلم أن الظلال لا تظهر إلا عندما يبدأ الضوء بالغياب. ثمة ظلام دامس يقبع خلف هذ المكان الغريب.

*****

في طريق العودة، كان البحر هادئًا كأنما يلتقط أنفاسه، والضوء يتكسر على سطح الماء كرقائق زجاج ناعم. بينما يشقّ يخت ميلافا طريقه بثبات عائدا نحو جزيرة سانتياغو. في طريقه مر بجوار سبيروزار زورق خشبي صغير يطفو على مسافة قريبة. بدا وكأنه أبحر من جهة يخت المليونير ألفونسو، وكان على متنه رجل نحيل، يجلس بصمت كتمثال منحوت من ملح البحر والتعب. في حين تكدس السمك على حافة مركبه.

حياه سبيروزار بابتسامة. اقترب منه أكثر، ثم نادى عليه بصوت ودود:

= كيف حالك أيها الصياد ؟ هل تبيعني السمك؟

لم يلتفت الرجل، بل اكتفى بردّ بارد، خرج من بين شفتيه كطلقة كراهية تجهض الحديث قبل ان يبدأ:

= سمكي ليس للبيع.

ازدادت نبرة سبيروزار لطفًا، لكن ذلك لم يذب الجليد في ملامح ولهجة الصياد الغريب:

= لماذا ؟ هل تم بيعه مسبقًا للسيد ألفونسو؟

جاءه الرد كصفعة أخرى :

= هذا ليس من شأنك.

تابع الزورق طريقه في حين تجمّدت ملامح سبيروزار للحظات. كان في موقف الصياد شيء مقلق، شيء لا يُشبه الصيادين الذين اعتادهم سبيروزار: لا طيبة في الملامح، لا دعابة في الرد، ولا لهفة لبيع صيده طلباً للرزق، أو الترحيب بغريب. بل بدا كمن يحرس شيئًا... أو كمن يخفي شيئًا. ليضيف مزيداً من الأسرار إلى سابقاتها.

ظلّ السؤال يطوف في رأسه مع حركة الأمواج :

ما الذي يصطاده هذا الرجل حقًا؟ السمك... أم أسرار خطيرة أغرب من

خيال الأدباء؟

*****

الفصل السادس

البرتغال / لشبونة ...

مطعم فيدا ...

خرجت ماتيلدا بصحبة أوتافيو من المطعم، وابتسامة متقنة ترتسم على وجه كلٍّ منهما كقناع مسرحي براق. ضحكتهما كانت تلامس السطح فقط، لا تنبع من القلب، بل تتقافز كشرارات مصطنعة في ليلة برتغالية دافئة.

شوارع لشبونة أمامهما كانت تتلوى تحت ضوء المصابيح البرتقالية، مرصوفة بأحجار قديمة تشهد على آلاف القصص المنسية، تفوح منها رائحة البحر والتاريخ والنسيان. الأزقة كانت ضيقة كأسرار دفينة، والنوافذ نصف المفتوحة تُطلّ كعيون تراقب بصمت ما لا يُقال.

المدينة بدت لهما كخلفية حالمة، مسرحًا غامضًا لعلاقة لا تنتمي للواقع، علاقة منسوجة بخيوط الخداع الناعم. كانت يد ماتيلدا على ذراع أوتافيو تبدو حنونة، لكنها في أعماقها مجرّد حركة محسوبة بدقة. أما أوتافيو، فصوته كان دافئًا، لكن عينيه تخبئان حسابات لا تُقال.

= إذا متى موعدنا الثالث آنسة ماتيلدا؟

= لنرى، لدي عروض أزياء في هذين اليومين ووقتي ليس ملكي تماما، أحدثك لاحقا لنحدد الموعد، هل لديك أنت التزامات أخرى مساءً...؟

= أبدا، فقط في السادس من الشهر لا يمكنني السهر كثيراً فلدي عمل هام في البنك صباح اليوم التالي.

= حسناً إذاً نلتقي بعد ذلك التاريخ.

= هذا مناسب. بالمناسبة أنا أحضر لك مفاجأة مبهجة.

= لقد أثرت فضولي. مفاجأة من أي نوع ...؟

= من النوع الذي يليق بأنثى حسناء مثلك.

= أنا متشوقة للغاية. نلتقي قريبا إذاً.

افترقا وسمعت ماتيلدا صوت خواو عبر السماعة في أذنها.

= إذا فالعملية على الأرجح صباح السابع من الشهر الجاري، أحسنت العمل ماتيلدا.

= وسيحضّر لي مفاجأة في الموعد القادم الذي لن يتم للأسف.

= ليست كالمفاجأة التي تحضرينها له. ذبحة قلبية على أقل تقدير!!

ضحكت ماتيلدا ضحكة ساخرة وهي تذوب تدريجياً في ظلمات الأزقة بينما أوتافيو يرمقها بنظرات عمياء لا بصيرة فيها.

*****

في صباح اليوم التالي ...

انطلقت سيارة أوتافيو في شوارع لشبونة المبلّلة بنور الصباح، تسير بهدوء مدروس نحو البنك، كأنها تعرف الطريق من قبل أن تُرسم. خلفها، وعلى مسافة محسوبة، كانت سيارة داكنة اللون تتبعها بصمتٍ يشبه الصمت الذي يسبق العاصفة. لم تكن تُحدث ضجيجًا، لكنها كانت هناك، كنيّة خفيّة في مشهد لم يكتمل بعد.

ركن أوتافيو سيارته في زاوية بعيدة من موقف السيارات، مكان مهمل قليلًا، كما لو أنه اعتاد على التخفي دون أن يُدرك. ترجل بخطى هادئة، أنيقة، لرجل يعرف موقعه في هذا العالم، أو هكذا يبدو. خلفه، ظلّت السيارة المجهولة في موقعها، تراقب وتترقّب.

في الداخل، داخل الجدران الهادئة للبنك، كانت الساعات تمضي ببطء مقيت، وكان أوتافيو غارقًا بين دفاتر الحسابات، كمن يهرب إلى الأرقام من شيء لا يريد تسميته. كل شيء بدا اعتياديًا... إلى أن جاء الصوت.

انفجار هائل.

واحد فقط، لكنه بدا كأنه شقّ جلد المدينة. دوّى الصوت في المكان كضربة

مطرقة على قلب زجاجي، تبعته رجّة في الأرض، وصوت زجاج يتشظى في مكان ما. نهض أوتافيو من كرسيه، قلبه يسبق جسده نحو النافذة.

وهناك، رأى الكابوس بعينيه.

كتلة نيران تلتهم جزءًا من موقف السيارات، وأعمدة دخان تلتفّ نحو السماء كحية سوداء تبحث عن فريستها. صوت صفارات الطوارئ بدأ يتكاثر في الأفق، يعلو، يتقاطع، يركض في شوارع لشبونة كصرخات مذعورة.

لم تمر سوى دقائق حتى تهشّم صمت هاتفه.

اسم ظهر على الشاشة. ماتيو... حارس البنك، ورفيق لحظاته العابرة.

= سيد أوتافيو هل أنت بخير؟

= أجل، لكن أعتقد أن سيارتي تحولت إلى قطع صغيرة.

= إنه التفجير السادس خلال شهر والسلطات لم تصل إلى شيء بعد، هذا تقصير كبير منها، إن أرواح الناس ليست بلعبة، وأظن أنه قد سقط ضحايا في هذا التفجير، فموقف السيارات لا يخلو من الناس رغم أننا في ساعات الدوام.

= لا أدري ماذا أقول لك، لكن كما تعلم فالسلطات قد تحركت بالفعل منذ التفجير الثاني ووضعت حواجز على جميع مداخل العاصمة، حيث يتم تفتيش جميع السيارات الداخلة إليها بشكل دقيق للغاية، لكن يبدو أن المتفجرات يتم صنعها يدوياً داخل العاصمة.

= الحمد لله على سلامتك على كل حال، هل سنستمر في العملية بعد يومين أم نجهضها.

= القرار ليس لنا، بل للبنك المركزي، سأخبرك بما ستؤول إليه الأمور، انتبه لنفسك.

= إلى اللقاء.

*****

في مقر العصابة ...

في تلك الليلة، كانت لشبونة نائمة بنصف عين، تتثاءب بين الأزقة، وتتنفس ببطء من شرفات المنازل القديمة. أما في الطابق الأخير من مبنى مهجور يُطلّ على نهر التاجة، كانت الحقيقة تُخاط في الظلال.

جلس خواو على المقعد الخشبي المتآكل، يضع سماعاته بثبات جراح، يصغي لتسجيل صوتي التقطه عن بعد من هاتف أوتافيو.

كان الصوت خافتًا، لكنه واضح بما يكفي:

(التحويل سيتم صباح السابع من الشهر... الساعة التاسعة... المسار كما اتفقنا دون تغيير)

أغمض خواو عينيه للحظة. كان ينتظر هذه الجملة كما ينتظر السجناء شقوق الشمس على جدران الزنازين.

بهدوء، فتح هاتفًا مخصصًا للاتصال الواحد، وطلب الرقم المحظور.

جاءه الصوت فورًا، مشفراً، جافًا وعميقًا، كأن المتحدث لا يملك حبالًا صوتية بل فحمًا محترقًا :

= هل حصلت على النبض؟

أجاب خواو بنبرة لا تخون ارتجافة النصر:

= أجل ، النبض ثابت، والوريد مكشوف... صباح السابع، كل شيء سيتحرك...

ساد الصمت ثانية، ثم جاء الرد كما لو كان ختمًا على وثيقة موت :

= تابع الخطة... لا تغييرات... لا أسماء... و لا أثر...

= علم، أيها التنين.

وأغلق الخط.

في الغرفة ذاتها، كانت ماتيلدا تقف عند النافذة، سيجارة تتوهج بين أصابعها، تنفث دخانًا كثيفًا يشبه ستارة مسرح قبل بدء العرض.

جلس إلى جوارها كل من روي وخوسيه، وقد علت وجهيهما ملامح الارتياح المؤقت، أشبه بابتسامة من ينام على وسادة من ثروة مؤجلة.

على الطاولة بين أيديهم، كانت زجاجة مشروب فاخر قد فُتحت للتو، ينساب السائل الكهرمان في كؤوسهم كأنه دم الحياة الذي يربطهم بمصير واحد.

احتفلوا بنجاح النصف الأول من خطتهم المحكمة، الذي تمثل في سلسلة التفجيرات الستة التي هزت المدينة، ومعرفتهم بالتوقيت الدقيق والمكان الذي ستُنقل فيه الأموال.

لكن، رغم هذه الانتصارات، كانت نظراتهم متجهة نحو الأفق الأبعد؛ النصف الثاني من العملية. خواو، بنظرة واثقة وصوت هادئ، ألمح لهم أن المرحلة القادمة ستكون الأسهل، ولكنها بالتأكيد الأهم لذا لا تتحمل أي خطأ. واللعبة الآن أصبحت مسألة وقت لا أكثر.

قال روي.

= والآن خواو هل يمكنك إخبارنا بحيثيات النصف الثاني من العملية لقد أجلت الحديث عنه ريثما ننهي النصف الأول.

أخذ خواو رشفة من كأس الشراب ثم بدأ بالحديث المنتظر.

= بالطبع، العملية تتألف من أربعة أقسام، اكتمل منها حتى الآن قسمان.

- **القسم الأول** وكان الأصعب وهو اختراق هاتف مدير بنك نوفو وهو أوتافيو، وقد نجحت ماتيلدا بالمهمة ببراعة وفي زمن قياسي. لقد استخدمنا في هذا القسم التطبيق الجديد الذي صممه مبرمجنا الخاص **ماوريسيو** لاختراق أجهزة الهاتف والمسمى (هاتفك **في قبضتي**) قبل بيعه وانتشاره في الأسواق.
- **القسم الثاني** هو سلسلة التفجيرات العشوائية قبل الوصول إلى يوم

العملية.

○ **القسم الثالث** الاتصال بماتيو حارس البنك كما يدعوه أوتافيو أثناء عملية نقل الأموال من رقم أوتافيو وإخباره عبر نبرة صوت أوتافيو بالضبط بأن هنالك عبوة ناسفة مزروعة بالسيارة وعليهم مغادرتها على الفور، سيغادرها الطاقم بالطبع، وعندها نسيطر نحن عليها.

○ **القسم الرابع** وهو استخراج الأموال من سيارة نقل المال ثم زرع عبوة ناسفة فيها وقيادتها إلى **ميدان تشايادو** ثم ركنها هنالك ومغادرتها، بعدها نقوم بتفجير السيارة عن بعد، لإلهاء الشرطة بالتفجير من جهة، وطمس آثار السرقة من جهة ثانية.

= لكن ما الغاية من سلسلة التفجيرات التي قمنا بها ؟

سأل روي. فأجابه خواو.

= هنالك هدفان من التفجيرات:

الأول: إقناع ماتيو في يوم العملية بأن سيارة نقل الأموال تحمل قنبلة متفجرات بالفعل، فبعد سلسلة التفجيرات في لشبونة سيقتنع مباشرة بهذا الكلام، ناهيك عن الشعور بالخوف الذي سيراوده هو وطاقم الحراسة والسائق عند سماع كلمة قنبلة.

الثاني: بعد تفجير سيارة نقل الأموال نحول العملية في نظر الشرطة من سرقة إلى إرهاب مما يبعد الشبهات عنا ويمنحنا وقتاً ثميناً للهرب.

قطبت ماتيلدا حاجبيها.

= لكن سيسقط ضحايا في الميدان بهذه الطريقة.

= إنه أمر لا مفر منه، ومن كان حظه سيئاً ليتواجد في الميدان في تلك اللحظة فقد انتهت حياته بهذه الطريقة.

أجابها خوسيه، في حين عقب خواو على كلامه بعد أن شعر بارتباك ماتيلدا والذي قد يفسد الخطة بأكملها.

= سننتظر اللحظة التي يخلو فيها الميدان من المارة قدر الإمكان ثم نفجر العبوة لا تجزعي، فكري بالمال الذي ستحصلين عليه، أنا أعرف أنك تمرين بضائقةٍ ماديةٍ.

صمتت ماتيلدا بعد الجملة الأخيرة، وكأن الكلمات الأخيرة سحبت من الغرفة كل هواءها. كانت تحدق في كأسها نصف الممتلئ، كمن يحدق في مرآة ترى من خلالها وجهًا لم تعتد عليه بعد. استسلمت لقدَرها، نعم، لكنها لم تُطفئ بعد تلك الجمرة الصغيرة في صدرها... شيء يشبه تأنيب الضمير، لكنه خافت، ضعيف، لا يكفي ليوقف السقوط.

قطع روي الصمت بنبرة جمعت بين الذهول والرهبة، قال وهو يميل إلى الخلف:

= يا لها من خطة شيطانية... لا يمكن أن تخطر ببال أعتى العقول الإجرامية، حتى لو كانت منقوعة بالشر لقرون! من يكون هذا الزعيم بحق السماء ؟! لقد حسب كل تفصيله... كل احتمال.

لم يجب أحد. كانت الإجابة ثقيلة، مهيبة.

رفع خواو كأسه في الهواء، عيناه تلمعان ببريق نصر مؤجل:

= إنه لا يُدعى التنين عبثًا. لنشرب نخب انتصار القسم الأول من خطته العبقرية!!

تماهت الكؤوس الأربعة في ارتطام خفيف، كأنها تطرق بابًا على مصير معلّق. ارتفعت كأنها شعلة احتفال، أو إعلان ولاء، وارتشفت أفواههم أول نخب في طريقهم إلى الثراء، أو إلى الهاوية، لا أحد كان يملك الجرأة ليسأل.

كانوا على بعد أيام قليلة من أن يبلغوا سقف الثراء. أو يغوصوا في قاع الرمال المتحركة للمال الحرام.

الفصل السابع

الرأس الأخضر

طريق العودة من فوغو إلى سانتياغو.

ضغط سبيروزار زر اسألني فظهر القبطان باروناج مجدداً، وأخذ يروي له بحماسة تفاصيل زيارته لجزيرة فوغو، ثم ختم حديثه بسؤاله.

= والآن ما الذي تقترح على فعله قبطان؟

= تبعاً لمحاولة العصابة إبعاد الناس عن الشاطئ فلا بد من وجود سر خطير هنالك، وباعتبار أن الشاطئ كما قلت لا يحوي شيئاً مميزاً، فالسر غالبا تحته أي في قلب المياه، وبحسب ما كتب من مقالات عن جغرافية وتضاريس جزيرة فوغو، فهي تحتوي أسفلها **شبكة كهوف واسعة**، وقد يكون ذلك طرف الخيط الذي يجب أن تبدأ منه، وبهذه الحالة أنت بحاجة لبدلة غوص والبحث أسفل الشاطئ المحظور.

هز سبيروزار رأسه بإعجاب بطريقة تحليل القبطان للأمور وربط المعلومات ببعضها البعض.

= هذا كلام خطير بالفعل أيها القبطان، ما الذي يوجد أسفل ذلك الشاطئ؟ لابد أن السر يمكن هنالك كما قلت. وعليّ بالفعل محاولة الغوص واستكشاف المكان، بالمناسبة من أين يمكنني شراء بدلة غوص كاملة؟

جاء سؤال سبيروزار متزامناً مع اقتراب يخت ميلافا من مرسى قوارب برايا، كان صدى الحديث عن الغوص تحت الشاطئ المحظور يتردد في الأرجاء. لذا، بلمسة من الحنكة واليقين، أشار القبطان باروناج إلى أرقى متجر لمستلزمات الغوص في العاصمة، فانطلق سبيروزار على الفور، كمن يستجيب لنداء قديم محفور في أعماق ذاكرته. فخبرته التي اكتسبها في ميامي، تلك المدينة التي يلتقي عندها سرّ خليج المكسيك بسحر المحيط الأطلسي، جعلته سيدًا في عالم الغوص والسباحة.

اختار بدلة الغوص بعناية فائقة، مع أسطوانات الأوكسجين وكل ملحقات

الرحلة تحت الماء، كأنّه يستعد لاحتضان عالمٍ آخر، غارقٍ في السكون الأزرق والغموض الذي لا لون له ...

حمل معداته بعناية، ثم عاد بها إلى اليخت ومنه توجه الى الكنيسة، والساعة تشير إلى مرور ثلاث ساعات كاملة منذ غادرها. هناك، في صمت القاعة المقدسة، كان القس فونسيكا ينتظره بعينين تغمرانها ملامح القلق، كمن يراقب وقتًا يثقل بالأسئلة والشكوك.

= لماذا هذا التأخير؟

قال القس بصوت مزيج من الخوف والرجاء.

= ظننت أن الأقدار قد انقلبت عليك، وأن قبضة المجهول قد أحاطت بك.

روى سبيروزار ما حلّ به خلال تلك الساعات الثلاث، دون التطرق إلى القبطان باروناج، كما يحفظ المرء سرًّا مقدسًا لا يجوز إفشاؤه. استمع القس بدهشة تغلف ملامحه، تلك الدهشة التي تولدها قصص الغموض والظلال، حيث الحقيقة تلتقي بالمستحيل.

= إذا فأنت تعتقد بوجود علاقة بين عصابة ترويج المخدرات واختفاء الأستاذ دييغو؟!

= بالضبط.

= هذا أمر مثير للاهتمام، كيف غاب عن ذهني وعن الشرطة؟ إن الأستاذ بالفعل متمرس في مجال صناعة مخدر الفلاكا و آثاره، يجب إبلاغ الشرطة بذلك، سأذهب الآن مباشرة إلى قسم الشرطة، فغداً سأسافر إلى البرتغال لحضور ملتقى الأديان في لشبونة و لن أعود قبل ثلاثة أيام، و يجب ألا نضيع أي وقت، و إن كنت لست متفائلاً كثيراً، فالشرطة حاولت جهدها كاملاً للإيقاع بالعصابة دون جدوى، إنهم كأشباح لا يمكن معرفة مكانهم، لقد فتشت السلطات الجزر العشرة في الرأس الأخضر شبراً شبراً عبر المداهمات و عبر الأقمار الصناعية دون الوصول إلى شيء، على كل حال فإخبار الشرطة واجب حتمي علينا فعله ..

= وهل ستخبرهم عن زيارتي إلى شاطئ جزيرة فوغو؟

= بالطبع لا! مجرد فكرة خطرت لي عن إمكانية خطف عصابة ترويج

المخدرات للأستاذ دييغو، وعلى الشرطة متابعة البحث، ومن جهتك أنت عليك تأجيل البحث تحت ذلك الشاطئ المحظور لحين عودتي، فهو أمر خطير، وأنت بحاجة لمن يساندك، ويمكنني مع أحد الأخوة في الكنيسة مرافقتك إلى هنالك بعد عودتي.

= حسناً حضرة القس.

= لكن قبل كل شيء تعال معي.

تقدم القس بخطى هادئة صوب غرفته، وسبيروزار يتبعه في صمتٍ متأمل. ما أن دخلا الغرفة حتى اتجه القس نحو مكتبه، وفتح أحد أدراجه بهدوء، أخرج هاتفًا محمولًا ناوله إلى سبيروزار قائلاً:

= هذا هاتفك المؤقت، لنحافظ على تواصل دائم، فقد تجد نفسك في مأزقٍ لا تتوقعه، فتحتاج إلى وجودي. وبداخله أرقامنا جميعًا.

ابتسم سبيروزار بابتسامة تعكس امتنانًا عميقًا.

= شكرًا لك، حضرة القس، إنه بالفعل ضرورة لا غنى عنها في هذه الظروف...

اتجه بعدها القس نحو قسم الشرطة، لكنه عاد منه محملاً بخيبة أمل تحني المعنويات. فقد لمس برود فاضح لدى الشرطة تجاه القضية، ورغم منطقية فكرة اختطاف الأستاذ دييغو على يد العصابة، إلا أن الشرطة شرحت له ألا أثر يدل على مكان اختباء هؤلاء الظلال بالأساس كما توقع بنفسه من قبل.

*****

في صباح اليوم التالي.

بخطوات رصينة وخفيفة، توجه القس فونسيكا نحو سيارة الأجرة التي انتظرته عند مدخل الكنيسة، حاملاً في صدره وداعًا لا يتعدى بضعة أيام. وجهته كانت مطار برايا الدولي، إذ تنتظره رحلة قصيرة تعيده إلى دفء البرتغال حيث يقام ملتقى لرجال الدين حول العالم، كأنها فسحة مؤقتة في نهر الزمن لا تؤثر على تياره. كان وداعه بمثابة توقيع على صفحة مؤقتة في دفتر الأيام، قيدّت بالأمل والعودة السريعة.

أما سبيروزار، فقد أبدى اعتذاره إلى طاقم الكنيسة، الذين امتزج في عيونهم الإعجاب به والامتنان له بعد تشخيصه الغريب لحالة الأخت كاترين الذي ربما سيؤدي إلى انقاذها وشفائها. أخبرهم بأنه سيعود إلى يخته، ذاك الملجأ العتيق الذي يسمح له بالغوص في صمتٍ ينقّي الفكر ويهدئ العاصفة الداخلية ريثما يعود القس من رحلته.

دخل سبيروزار إلى يخته الذي يحتضن بين أشرعته همسات البحار وعبق المغامرات، مدّ يده بثقة نحو زر اسألني، فبزغ طيف القبطان باروناج أمامه، كرفيق قديم لا يفارقه.

= أهلاً حضرة الطبيب مورفين.

= أهلاً قبطان.

= لا بد أنك حزين على سفر القس فونسيكا إلى لشبونة.

هز سبيروزار رأسه بدهشة قد بدأ يعتاد عليها.

= أجل، لذا عدت إلى اليخت، فرغم أن طاقم الكنيسة كله ودود ورائع، إلا أنني أشعر بأني غريب بينهم عدا القس فونسيكا الذي يربطني معه رابط روحاني، كما أخبرتك من قبل.

= أفهمك جيداً، بالمناسبة تسمم بالكوبالت، تحليل ذكي وتشخيص دقيق.

سبيروزار بدهشة أكبر.

= وكيف عرفت بذلك أيها القبطان؟

= من وسائل التواصل الاجتماعي فأطباء مشفى برايا يتحدثون عنك وعن تشخيصك، لقد أثبتت التحاليل صحته، وبدأ علاج الأخت كاترين، حيث حدد موعد عمل جراحي لتبديل مفصلها مجدداً.

= هذا جيد، يسعدني أنني كنت سبباً في شفائها.

= يبدو من نبرة صوتك أنك مشغول بشيء آخر.

ابتسم سبيروزار بإعجاب مجدداً.

= أجل، في الحقيقة أفكر بالذهاب إلى الشاطئ المحظور في جزيرة فوغو والغوص هنالك.

= وما الذي يمنعك من فعل ذلك؟

= لقد وعدت القس أن أنتظر عودته من لشبونة لكي نذهب سوياً إلى هنالك لأنه يرى ذهابي بمفردي خطراً كبيراً، فما الذي تقترحه أنت أيها القبطان؟

= إن الحفاظ على الوعد أمر مهم وجميل، كما أن وجهة نظر القس لها ما يبررها، لكن من جهة أخرى فنحن في عملية صراع مع الزمن، وكل ثانية تمر قد تقربنا من الأستاذ دييغو أو تبعدنا عنه، لذا فأنا أقترح عليك الذهاب إلى هنالك وتجربة الغوص بحذر.

= وهذا ما أعتقد بدوري، لذا هيا بنا قبطان.

حرك سبيروزار الأذرع الثلاثة كالعادة ثم انطلق اليخت غرباً باتجاه جزيرة فوغو.

بعد حوالي نصف ساعة بلغوا قرية السيدة نيفيز للمرة الثانية، لكن سبيروزار لم يرسُ هناك هذه المرة، بل اتجه باليخت نحو الشمال قليلاً حتى أصبح على مقربة من الشاطئ المحظور ليفصل بينهما حوالي **100** متر فقط.

ارتدى ملابس الغوص كاملة ثم اتجه إلى مؤخرة اليخت فنزل عبر السلم إلى قلب المياه، تعمد السباحة أولاً لمسافة **50** متر كي لا يستهلك الأوكسجين،

ثم غاص إلى قلب المياه بعد أن حدد وجهته باتجاه الشاطئ المحظور.

بعد دقائق اقترب كثيراً من الشاطئ ليجد هنالك جدار صخري أسفله، فغاص أكثر وتجمد في مكانه، كانت هنالك فتحة كبيرة بقطر أربعة أمتار، تتسع لمرور شخصين بسهولة وتمتد عميقا إلى الداخل.

فكر قليلاً بالخطوة التالية، ثم تغلب فضوله على حذره وحزم أمره فغاص ضمن الفتحة، استمر بالغوص لحوالي خمس دقائق وكان الظلام يغمر المكان باستثناء ضوء ساعته المضادة للمياه. أخيراً انتهى النفق ووصل إلى مساحة واسعة من المياه وكانت الأنوار تتلألأ قرب سطحها، ما الذي يوجد في الأعلى في مثل هكذا مكان غريب؟

فكر قليلا، ثم اختار منطقة مظلمة تماماً وصعد إلى السطح، وما إن أخرج رأسه من الماء حتى كادت أن تفلت من فمه صرخة كبيرة، كان هنالك بناء كامل مصمم ضمن الكهوف مؤلف من عدة غرف متجاورة ومن الواضح وجود غرف أخرى في الداخل أيضاً، كما كان هنالك رجال مسلحون يقومون بالحراسة أمام الغرف.

اكتفى بما شاهده وغاص مجدداً وانطلق عائداً عبر النفق، لكن ما إن خرج من الفتحة حتى فوجئ بوجود **سمكة قرش** وجها لوجه معه وهمت بمهاجمته، كانت كبيرة الحجم للغاية، ارتبك كثيرا لكن سرعة بديهته أسعفته ونظر في عينيها ثم صوب أفكاره نحوها فتوسعت حدقتاه بالكامل وخلال ثوان كانت سمكة القرش ميتةً وطفت نحو السطح، إنه الوقت المناسب تماما لاستخدام قوته الجديدة.

استمر بالغوص نحو الجنوب بعيداً عن الشاطئ المحظور حتى اقترب من يخته فصعد إلى السطح وتنفس الهواء العليل، ثم أكمل الأمتار الأخيرة سباحة حتى بلغ مؤخرة اليخت وتسلق إلى سطحه.

استبدل ملابسه بعد أن قام بتنشيف جسده، ثم ضغط زر اسألني فظهر القبطان باروناج مجدداً. كان سبيروزار متحمساً للغاية، فأخذ يروي للقبطان ما رآه

بدهشة وتعجب ثم ختم حديثه بسؤاله.

= ما رأيك بما وجدته أيها القبطان؟

= أولا حمداً لله على سلامتك من سمكة القرش، ثانياً بخصوص الكهف فالمنطق والتحليل العلمي يقول بأن ما رأيته أسفل الشاطئ المحظور هو مقر عصابة ترويج المخدرات حيث تتم صناعتها، وهذا يفسر عدم سماح عناصرها للنساء بجمع الرمال هناك، فزوال الحاجز الرملي سيكشف الفتحة تحته للعين المجردة عند حدوث الجزر.

هز سبيروزار رأسه بدهشة.

= منطقي للغاية، لكنني لا أستطيع إخبار الشرطة بذلك، إذ أنني سأكشف هويتي ويتم القبض عليّ.

= بالفعل.

= من جهة ثانية فأنا لا أثق بعد بأي أحد هنا باستثناء القس وهو مسافر، فهل أنتظر عودته ليخبر الشرطة بنفسه؟

= هذا هو القرار الحكيم الآن أيها الطبيب.

= لكن كما قلت سابقاً أيها القبطان، نحن في صراع مع الزمن؟ د!

= بالطبع، لكن لا خيار آخر لدينا الآن.

*****

بعد عودته إلى برايا.

قرر سبيروزار أن يزور الكنيسة لبعض الوقت كي يطمئن على الجميع، لذا شق طريقه إلى كنيسة النعمة، شاهد الأخت تيريز عند بوابتها تطعم القطط كعادتها.

= كيف حالك أخت تيريز؟ وكيف حال القطط؟

ابتسمت تيريز ابتسامتها اللطيفة.

= جميعنا بخير. أين كنت كل هذه الفترة لقد افتقدناك؟ والأخ مارتيم سأل عنك.

= كنت في يختي. خير لماذا يسأل عني؟

= إنه يقوم بأرشفة تبرعات الشهر الفائت ويحتاج بعض المساعدة. والأخوة سانتياغو ورودريغو وفرانسيسكو في عمل خارج الكنيسة.

= والأخوات؟

= الأخت ليونور تروي نباتات الحديقة والأخت كارولين تعد طعام الغداء، أما أنا فلا أفقه شيئا في عمل الأخ مارتيم.

وضحكت ببراءة.

ابتسم سبيروزار.

= حسنا. سأذهب إليه مباشرة وأمد يد العون له.

*****

الفصل الثامن

البرتغال / لشبونة

في صباح اليوم التالي (يوم العملية).

بعد انتهاء الجلسة الأولى لملتقى رجال الدين في لشبونة، والتي بدأت بانسياب روحاني عند الساعة السابعة صباحًا، تفرّق الحاضرون عند التاسعة والنصف، كأمواج هدأت بعد عصفٍ صامت. خلفهم، تركوا قاعةً تُشبه معبدًا قديمًا استعار من الأرواح الحكيمة خشوعها، ومن المعمار الأوروبي بهاءه.

كان مقر الاجتماع قائمًا داخل دير عتيق تم ترميمه ليحمل الطابعَ الأصيل في روحٍ حديثة، تحيط به حدائق مائلة إلى الصمت، تتخلّلها نوافير حجرية تهمس كأنها تتهجّى صلوات بلغات منسيّة. سقوفه المعقودة على شكل أقواس تتشابك كأذرع المصالحة، وجدرانه مزدانة بنقوش تُحاكي دعاءً لا يُقال، بل يُستشعر. الضوء المتسلّل عبر النوافذ الزجاجية الملونة كان يغسل البلاط الموشّى برسومات هندسية، كأن الشمس تمشي على أطراف أصابعها داخل المكان.

في هذا الجو المشحون بالتأمل والرهافة، اقترب الشيخ الباكستاني كريم، ذو اللحية البيضاء كثلوج قندهار، من القس فونسيكا، الذي بدا وكأن ضوءًا خافتًا من النافذة اختار أن يستقرّ على كتفه الأيسر. كان الحديث الذي بينهما أكثر من مجرد تبادل كلمات؛ كان لقاءً بين نهجين، بين قارتين، بين رؤيتين تحاولان أن تضعا العالَم في كفّتي ميزان واحد.

= إن طريقة طرحك لمشكلة انتشار المخدرات في بلادك مثيرة للإعجاب والاهتمام أيها القس فونسيكا.

= أشكرك.

= هنالك نقطة أريد الاستفسار عنها من قبل حضرتكم، فهل يمكنني دعوتك لشرب فنجان قهوة في أحد المقاهي والحديث ريثما تستكمل جلسات الملتقى ...؟

= بالطبع، بخصوص ماذا؟

= بخصوص واقع المسلمين كأقلية في جزر الرأس الأخضر.

= حسناً، لنذهب.

كان مقر ملتقى الأديان لا يبعد كثيرًا عن ميدان تشايادو الشهير، القلب النابض للعاصمة البرتغالية لشبونة، حيث تلتقي الأرواح والطرقات على إيقاع الحياة اليومية. لذا، مضى الشيخ كريم والقس فونسيكا في نزهة قصيرة، يتكئان على خطواتهما كما يتكئ الفكر على التأمل بعد نقاش طويل.

الصباح في الخارج بدأ يُبدّد رطوبة الفجر، فيما الشوارع المرصوفة بالحصى تلمع تحت الشمس المتسللة بخجل بين أبنية تحمل تاريخًا من الغزو والتسامح، من الشِعر والدم.

وعندما وصلا إلى إحدى المقاهي على حافة الميدان، جلسا إلى طاولة صغيرة خارجية تُظلّلها مظلّة قماشية مخططة، وأمامهما مشهد مفتوح على نبض المدينة: موسيقي عجوز يعزف الفادو في الزاوية، نادل شاب يحوم بخفة بين الطاولات، وعجائز يقرأن الصحف كأنهن يقرأْنَ الزمن نفسه.

طلبا فنجاني قهوة، تلك القهوة الداكنة التي لا تُشرب على عجل، بل تُرتشف كأنها صلاة. كان الحوار بين الشيخ والقس قد بدأ يتعمّق، يمضي بين اللغة والروح، بين الإيمان والإنسان، حين توقّفت فجأة سيارة غريبة على بُعد ثلاثين مترًا منهما، على الجهة المقابلة من الشارع.

سيارة سوداء، لامعة على نحو مريب، بدت كأنها لا تنتمي إلى ضوء الصباح، بل إلى مشهد ظلامي من فيلم جريمة غامض.

ترجّل منها شابان بسرعة. ما إن وقع بصر القس فونسيكا على أحدهما، حتى تجمّد لوهلة. كان يعرف هذا الوجه، لقد رآه مرارًا في برايا؛ ذاك الشاب الذي كان يتردد على الكنيسة هناك، يسأل أسئلة لا يجرؤ كثيرون على طرحها، ثم يختفي كما جاء.

لكن... ما الذي يفعله هذا الشاب هنا، في لشبونة، عند هذا الوقت تحديدًا؟

ابتسم القس بتلقائية، ونهض من مكانه بنية التحية، رافعًا يده قليلًا وهو يناديه بنبرة دافئة. إلا أنّ الشاب، لحظة أن التقت عيناه بعيني القس، أدركه الذهول ثم أدار وجهه بسرعة ومضى في طريقه وكأن رؤيته للقس كانت خطأً لا

يجب أن يحدث أو يتمادى.

تجمّد المشهد.

يا إلهي، ما الذي يحدث؟ ما الذي يدفعه للهرب بهذه الطريقة؟ هل يحمل في صدره خجلًا؟ سرًا؟ أم تهديدًا غير مرئي؟

هزّ القس رأسه ببطء، كمن يحاول أن يفهم ترتيب العالم من جديد، ثم جلس دون أن يقول شيئًا، محاولًا أن يلملم بقايا السؤال الذي انكسر على الرصيف.

أطرق الشيخ كريم للحظة، ثم تابع الحديث وكأن شيئًا لم يكن، ولكن بين كلمات الحوار، كانت ظلال تلك السيارة ما تزال ترفرف في البال، تفتح بابًا خلفيًّا لحدثٍ لم يُكتَب بعد.

*****

في الصباح نفسه وفي مكان آخر.

منذ الساعة الخامسة فجرًا، كانت العصابة في حالة استنفار تام. بدا وكأن المدينة بأكملها نائمة تحت غطاء سميك من الغفلة، إلا ذاك النسيج العصبي المتوتر الذي ينبض خلسة في عروق العصابة. كان الصمت يلف المكان، لكنه لم يكن هدوءًا مطمئنًا، بل من ذلك النوع الذي يسبق العاصفة، حين تمسك الحياة أنفاسها منتظرة صفّارة البداية.

في غرفة خافتة الإضاءة، داخل شقة في مبنى مهجور على أطراف الحي التجاري القديم، جلس خواو أمام حاسوبه كأنّه في قدّاس إلكتروني. سماعتان ضخمتان تطوّقان رأسه، لا ليسمع، بل ليغرق في ترددات العالم السفلي: همسات، تشويش، نبض أقمار صناعية، وصدى رسائل مشفّرة تتلاطم في فراغ الأثير. حوله شاشات متعددة ترصد زوايا البنك من كل اتجاه، وأمامه لوحة مفاتيح تُصدر نقرات دقيقة أشبه بعدّ تنازلي للمصير.

في الخارج، على بعد أقل من ثلاثمئة متر من بنك نوفو، كانت سيارة داكنة اللون رابضة خلف شاحنة توصيل قديمة، كأنها جزء من النسيج المدني المعتاد. داخلها جلس روي وخوسيه، كل منهما كتمثال ينتظر الحياة في لحظة الانقضاض. المنظار الليلي بين أيديهم، وخط الاتصال المباشر مع خواو مفتوح على مدار الثانية. لم يكن أحد منهما يتحدث. كانا يكتفيان بإحصاء الأنفاس، وعدّ الظلال التي تمرّ على واجهة البنك، كمقامرة لا يُسمح فيها بالخطأ.

وفي مكان أكثر دفئًا، أكثر هدوءًا، أقل قابلية للاشتباه، جلست ماتيلدا. امرأة لا يعرف قلبها الارتباك، ولا تحتاج إلى إثبات شراستها. كانت في مقهى أنيق على تلٍّ مطلّ، متوارية خلف نظارة شمسية فاخرة، تتابع عبر جهازها اللوحي عملية تتجاوز الواقع. لم تكن مهمتها اليوم سوى الترقب. فقد أنهت الجزء الأخطر قبل ايام، حين نجحت في اختراق الهاتف الشخصي للسيد أوتافيو، وسلّمت الخلية مفاتيح اتصالاته الهاتفية كما تُفتح بوابة سرّية في قصر تحت الأرض. الآن، تجلس كعازف في أوركسترا أنهى سطره المعقّد، والآن يراقب بقية العزف من بعيد، بدم بارد.

وعند تمام الساعة التاسعة، بدا الزمن كوليد يشهق شهقته الأولى. فُتحت بوابة معدنية خلفية في البنك ببطء استعراضي، وانطلقت منها سيارة مصفّحة، سوداء كالموت، تلمع تحت شمس الصباح.

ارتعش ضوء أحمر على شاشة خواو، ثم صدر طنين خفيف، تبعه ظهور طرفي المكالمة، أوتافيو وماتيو:

= هل كل شيء على ما يرام ماتيو؟

= نعم سيد أوتافيو، لقد انطلقنا وسنصل بعد حوالي ثلث ساعة إلى البنك المركزي.

ابتسم خواو بصمت، ابتسامة لا تحمل فرحًا فحسب بل اعترافًا ببدء الرقصة. حدّق في الشاشة قليلاً، ثم قال لنفسه، كما لو أنه يتحدث إلى روح المدينة :

(انتهت اللعبة النظريّة... وبدأ عزف الرصاص.)

أعطى خواو التعليمات لروي وخوسيه، فانطلقت سيارتهم خلف السيارة المصفحة.

بعد حوالي عشر دقائق، قال روي.

= خواو الهدف أبطأ سرعته وهو في شارع خالٍ من المارة، افعلها الآن.

قام خواو على الفور بطلب ماتيو عبر رقم أوتافيو باستخدام التطبيق الجديد **(هاتفك في قبضتي)**، وكانت هنالك خاصية تعديل الصوت بحيث يتم تحويل نبرة صوت خواو إلى نبرة صوت أوتافيو.

= نعم سيد أوتافيو، ماذا هنالك؟

= ماتيو غادروا السيارة المصفحة بسرعة فهنالك قنبلة متصلة بها، إن التفجير السابع اليوم عبر سيارة نقل المال.

= سيد أوتافيو، هل أنت متأكد ...؟

= بالطبع لقد تلقيت مكالمة لا لبس فيها بهذا الخصوص، لا يوجد وقت غادروها بسرعة وابتعدوا قدر الإمكان ستنفجر في أي ثانية.

أشار ماتيو بصمت صارم إلى الحراس الأربعة، فأعادوا انتشارهم بسرعة وابتعدوا عن سيارة يطوقها الخطر المجهول. كان خبر وجود القنبلة كهمس مرعب، فانسحبوا دون أن يلقي أحدهم نظرة خلفه، كأنّهم يهربون من لعنةٍ لا تُرى.

في اللحظة ذاتها، ترجل روي وخوسيه من سيارتهما بهدوءٍ مهيب، ثم بخطوات متزنة تعرف جيداً إلى أين تتجه، شقا طريقهما نحو السيارة المصفحة. المفاتيح كانت بداخلها، كما تنبأ روي دون عناء. أما السائق، فلقد فرت روحه قبل جسده، حينما همس الذعر في أذنه بكلمة قنبلة .

عطل روي نظام التتبع بالأقمار الصناعية في السيارة ثم قادها بثبات وإصرار إلى مقر العصابة، حيث أُفرغت الحقائب الثقيلة من الأموال بعناية فائقة، وسط صمتٍ يخيم على المكان، لا يقطعه سوى أزيز العبوة الناسفة وهي توضع داخل إحدى الحقائب.

وفي عودةٍ لا تقل خطورة، انطلقا بالسيارة مجدداً نحو ميدان تشايادو، حيث ركنها روي في زاويةٍ مظللة، أمام مقهى يعج بروح المدينة، حيث جلس رجلان يرتديان زي رجال الدين: الشيخ كريم، والقس فونسيكا.

ترجل روي وخوسيه، والتقت عينا القس بنظرات خوسيه، التي كانت مليئة بالدهشة ثم الخجل والارتباك. ابتسم القس ابتسامة ود تعرف مستقبلها فهو رأى خوسيه كثيراً في وطنه الرأس الأخضر من قبل، بينما أدار خوسيه وجهه بعيداً، يسابق خطواته مبتعداً بسرعة، تاركاً خلفه دهشة القس التي تلونت بغموض ثقيل.

في تلك اللحظة، بدا الزمن وكأنه توقف، العالم المحيط أخذ يتنفس ببطء، ينتظر اللحظة التالية التي ستقلب الموازين.

صاح خوسيه والسماعة في أذنه.

= خواو الميدان فارغ، سنفجّر العبوة الآن.

= افعلها.

بكل برود، ضغط خوسيه على زر التفجير في هاتفه المتصل بدارة العبوة الناسفة. في لحظة، دوى الانفجار مدوياً هز أركان المنطقة، وتحطمت نوافذ المقهى المقابل كزجاج هش تحت وطأة الصدمة. سقط الشيخ كريم على الأرض جريحًا، فيما تسمّر القس فونسيكا في مكانه جثة هامدة، لا روح فيها.

هرعت فرق الإطفاء والإسعاف إلى موقع الحادث، لتبدأ بإخلاء الجرحى الذين أصيبوا في الانفجار، بينما بقي القس فونسيكا الضحية الوحيدة التي لم تفلح محاولات إنقاذها.

أما خوسيه، فكان يبدو عليه الارتباك الشديد، ويسكنه خوف دفين. فهو لا يستطيع أن يُفصح لروي عن الحقيقة، لأنّ العصابة لن تتوانى عن التخلص منه فوراً لو عرفوا أنه يشكل تهديدًا وخطرًا عليهم بأي شكل من الأشكال.

= هل كل شيء على ما يرام خوسيه؟ تبدو مرتبكاً للغاية!

= لا شيء، فقط فكرة سقوط قتلى في التفجير، لست معتاداً عليها فأنا أقوم بالسرقات فحسب.

= لكنك أنت من قال لماتيلدا أن من يتواجد في تلك اللحظة في الميدان هو شخص سيء الحظ وستنتهي حياته هنالك!

فكر خوسيه بينه وبين نفسه، لقد ارتد كلامه عليه، وكان هو سيء الحظ بتواجد القس في الميدان !!

= بلى، لكن عندما يصبح الموضوع واقعاً تختلف المعايير، على كل حال لنعد إلى المقر ونعرف تعليمات الزعيم الآن.

تمنى خوسيه في أعماق قلبه أن يحالفه الحظ ويكون القس قد قتل في التفجير.

*****

تلقى خواو اتصالات كثيرة من هاتف أوتافيو وإليه، سواء مع البنك المركزي أو الشرطة، وكانت تتحدث عن خطف سيارة نقل الأموال من قبل عصابة وذكر فيها إجمالي المبلغ المنقول أي **50** مليون يورو.

كان تفكير الشرطة في تلك الأثناء منصباً على التفجير لذا لم تعط موضوع السرقة الانتباه الكامل، بل اكتفت بإرسال دورية مع محقق لدراسة ملابسات السرقة مع تعميم نوع السيارة ورقمها على الحواجز.

ولكن ذلك كان بعد فوات الأوان فالأموال سرقت والسيارة احترقت.

اتصل خواو بالزعيم.

= سيدي، تمت العملية بنجاح والقيمة الإجمالية للمبلغ **50** مليون يورو.

= أنت متأكد من المبلغ؟

= بصراحة لم أعده بنفسي فذلك سيستغرق وقتاً طويلاً للغاية، لكن المكالمات الدائرة بين مدير البنك ومدير البنك المركزي والشرطة تؤكد ذلك.

= حسنا، سأرسل لكم شخصاً ليقوم بعد المبلغ ويعطي كل منكم **5** ملايين

كما اتفقنا وأما الثلاثون الباقية فسيأخذها هو بنفسه، هل فهمت ذلك خواو

= بالطبع أيها التنين.

في تلك الأثناء كانت الأجواء في بنك نوفو والبنك المركزي متوترة للغاية، فماثيو يؤكد أنه تلقى اتصالاً من أوتافيو والأخير ينفي ذلك، في حين سجل المكالمات على هاتفه يدعم كلام ماتيو بشكل قاطع.

كاد أوتافيو أن يجن فهو لا يعرف تفسيراً منطقياً لما يجري!

*****

البرتغال / لشبونة

بعد العملية.

كانت الأوضاع متوترة للغاية في البرتغال بشكل عام وفي العاصمة لشبونة على وجه الخصوص، فالتفجيرات مستمرة وقد سقط ضحايا بينهم قتيل هذه المرة، وهو رجل دين هام يزور البرتغال كضيف رسمي.

لذا كان الشعب في حالة ثوران كامل وبدأ بمهاجمة الحكومة ومطالبتها بالعمل الجدي لمعرفة خلفية التفجيرات ومنعها مستقبلا.

من جهة أخرى كانت الشرطة قد وصلت إلى حائط مسدود في التحقيق مع إشارات استفهام كثيرة، فما علاقة سيارة نقل المال بالتفجيرات السابقة، لقد تبين بالفحص أنه كان هنالك بالفعل قنبلة فيها، فمن قادها إلى الميدان وفجرها ولماذا ...؟

لقد عثر أيضاً على حقائب المال محترقة في الداخل دون أثر للمال فيها أو بقاياه المحترقة، فهل كانت التفجيرات مجرد تمويه على عملية سرقة كبيرة لمال البنك ...؟ أي عقل مجنون يقف خلف هذه الخطة الشيطانية؟

هنالك في البنك المركزي وبنك نوفو ...

في ذروة الصراع المحتدم، اشتدت الضغوط على أوتافيو حتى أصبح محاصراً من كل جانب. المدير فيليبي، الرجل الذي طالما حكم بقبضة حديدية ولا يقبل أي تنازل، وقف أمام الحاضرين بنظرة حادة تحمل ثقل المسؤولية والغضب في آنٍ واحد.

= يجب إيقاف أوتافيو فوراً، و احالته الى التحقيق...

قال فيليبي بصوتٍ صارم لا مجال فيه للنقاش أو التعاطف.

في حين كان أوتافيو يتكئ على الحائط، يئن من التعب والضغط النفسي، ملامحه تعكس حالة يرثى لها، عيناه شاحبتان ويداه ترتجفان قليلاً. لقد أدرك تماماً أن مكالمته مع ماتيو التي تم فبركتها كانت رصاصة قاتلة في صدغه. ولا مساحة له كي يناور فيها فقد حوصر في زاوية الاتهام بالدليل الدامغ

في مقر العصابة ...

كان الوضع مختلفا كليا وكأنه على كوكب آخر، حيث اجتمع أفراد العصابة الأربعة سوياً يحتفلون بنجاح العملية وقد فتحوا زجاجة شراب جديدة، كان في يد كل منهم سيجار وقد أمسك بورقة نقدية من فئة **100** يورو أشعلها بولاعة ثم أشعل السيجار بالورقة النقدية المحترقة إقراراً منهم أنهم أصبحوا أثرياء ومن أصحاب الملايين.

كانت السعادة عامرة بينهم وأصوات ضحكاتهم تملأ المكان، وكان أكثرهم سعادة هو خوسيه الذي تأكد عبر التلفاز بأن القس فونسيكا قتل في التفجير وأخذ سره الخطير معه.

حتى ماتيلدا التي كانت تشعر بشيء من تأنيب الضمير لسقوط ضحايا في تفجير الميدان نست الموضوع كله عندما رأت رزم المال أمامها، **فبينما أن الإنسان الشريف لا يمكن شراؤه بأي ثمن، فإن من يمشي في طريق الخطأ يصبح له مباشرة ثمن يشترى به، طبعا الثمن يختلف من شخص لآخر،**

لكن عند حدود معينة تسقط الضمائر تباعاً، وهذا بالضبط ما حدث مع ماتيلدا التي سألت.

= متى سيحصل كل منا على حصته ؟

= سيرسل الزعيم شخصاً من طرفه ليعد المال و يقسم الحصص...

رد عليها خواو.

= و لماذا لا نقتسم المبلغ كله بين بعضنا و يذهب كل منا في طريقه ...؟

سأل روي بنظرة ماكرة.

= يبدو أنك لا تعرف الزعيم بعد، إنه لا يلقب بالتنين عن عبث، سيصل إليك و لو كنت على المريخ أيها المتحاذق، و سيقتلك و يسترد المبلغ منك

أجابه خوسيه.

= و ما أدراك أنت بذلك ؟

سأله روي.

= إن من يضع مثل هكذا خطة عبقرية لسرقة مال البنك، و يملك التمويل اللازم لتنفيذها شخص ذو ذكاء و سطوة و سلطة لا حدود لها، مشكلتك أنك لا تحلل و لا تقرأ ما بين السطور يا روي...

= خوسيه محق، إن التنين ليس بالشخص الذي تحب اللعب معه و تجريبه روي، لذا خذ حصتك في صمت و ارحل بسلام...

تغيرت معالم وجه روي وهو يسمع هذا الكلام من خوسيه وخواو ثم التزم الصمت.

في مكان آخر كان الزعيم التنين يشعر بالنشوة وهو على متن يخته مقابل شاطئ جزيرة فوغو المحظور، فقد عادت ثروته، عقب نجاح عملية سرقة البنك، إلى سابق عهدها كما كانت عندما غادر البرازيل منذ ربع قرن. التفت إلى مساعده بيرناردو وهو يمسك كأس الشراب.

= لقد وصلنا التمويل الجديد و نحن في طريقنا إلى تحسين نوعية منتجاتنا من الفلاكا بشكل كامل و اكتساح السوق أكثر و ربما الانتشار إلى خارج الرأس الأخضر، لذا ستتضاعف أرباحنا قريباً...

= هذه أخبار جيدة أيها الزعيم، إن ذلك كله بفضل حكمتك و حنكتك في إدارة الوضع، و ماذا بخصوص الأستاذ دييغو ؟

= عندما يحصل **كارلوس** و **غوميز** على مهارته و خبرته كاملة سنتخلص منه، فبقاؤه هنا يمثل خطراً علينا، إنه منذ غاص تحت المياه إلى عريننا قد تجاوز الخط الأحمر فأصبح في منطقة اللاعودة و ختم مصيره بالموت...

وهكذا .. **فالتنين** مجهول الهوية هو زعيم العصابتين معاً، **عصابة سرقة البنك في البرتغال وعصابة ترويج المخدرات في الرأس الأخضر**، وأصبحت هويته معروفة، إنه المليونير ألفونسو سيلفا، البرتغالي حالياً والبرازيلي في الأصل.

المليونير الذي أوهم الرأس الأخضر بأنه رجل شريف مهتم بالفقراء والتعليم، في حين كان يصنع من ذلك كله ستاراً يقوم خلفه بصنع سموم تدمر عقول الشباب وتدفعهم للفقر والجنون. والذي عرض على السيدة نيفيز المساعدة في كشف مصير زوجها الذي خطفه هو شخصياً.

فما المصير الذي ينتظره الآن بعد أن أوصلت التحريات سبيروزار إلى مقره تحت الماء لصنع المخدرات، والصدفة القس إلى كشف علاقته بالتفجيرات ؟!

هل سينجو بفعلته بعد موت القس، كما فعل بعد سرقة البنك البرازيلي منذ ربع قرن، أم سيكون للقدر كلام آخر هذه المرة ؟!

*****

الفصل التاسع

الرأس الأخضر

كنيسة برايا ...

نزل خبر وفاة القس فونسيكا كالصاعقة على العاصمة برايا. لم يكن مجرد نبأ عابر، بل هزيمة روحية مباغتة، سرت في أوصال المدينة كريح باردة في عز القيظ. خفَتَ ضجيج الأرصفة، وانكمشت الوجوه في شحوبها، كأن الحياة فقدت ركناً من أركان اتزانها.

في أروقة الكنيسة، ارتجف الهواء. الجدران التي طالما ردّدت صلوات فونسيكا بدت موحشة، يتيمة الصدى. بكى الرهبان، وسقطت الشموع من أيدي العابدين، وتجمّدت النوافذ الزجاجية في ضوء خافت لا يكشف شيئًا سوى الحزن. كان موته فادحًا، لا لأنه كان قسًا، بل لأنه كان ضميرًا يمشي على قدمين، ورجلًا وقف طيلة حياته في وجه كل ما هو باطل، دون أن يتزحزح قيد خطوة.

المدينة كلها اتشحت بالحزن والكآبة. حتى البحر بدا كأن موجه خفت، وكأن السماء، فوق برايا، حجبت شمسها احترامًا لرجُلٍ لم يبع صوته ولا صمته. غاب فونسيكا، وخلّف وراءه فراغًا لا يملؤه الزمن ولا الكلمات.

أما سبيروزار، فقد وصله النبأ وهو على يخته عند حافة الميناء. توقف الزمن عنده للحظة، كأن قلبه تلعثم. تكدّست الذكريات مع القس فونسيكا على قلتها في صدره دفعة واحدة: صلوات الفجر، الابتسامة المطمئنة، المواقف الصلبة، وتلك النظرة الرحيمة التي لا يشوبها خوف. أحسّ بشيء ينكسر داخله، لا صخب فيه، فقط انكسار ناعم يُشعر به ولا يُشرح...

وقف هناك طويلاً، لا يتحرّك، لا يتكلم. كان وجهه خاليًا من الانفعال، لكن عينيه كانتا تنطقان بمرثية لا تُقال. عرف أن موت فونسيكا لم يكن نهاية رجل، بل بداية اختلال. شيء ما تغيّر في برايا. شيء لا يُرمّم. لكن القبطان

باروناج قطع عليه سلسلة أفكاره بفكرة غيرت كل هذه الأحاسيس وأخرجته من تلك اللحظة الوجودية.

= هون عليك أيها الطبيب، هل نسيت أنك تملك قوى خارقة الآن وبإمكانك إعادة القس إلى الحياة !؟

وقف سبيروزار مذهولا للحظة، بالفعل فقوته الجديدة ستمكنه من تغيير المعادلة والعودة بالزمن إلى الوراء. أشرق وجهه بتفاؤل عائد من الموت

= معك حق أيها القبطان، صدمة الحدث أنستني ذلك. سأستخدم قوتي إن نجحت بلا ريب، فهل لديك معلومات متى سيصل الجثمان؟

= فجر الغد سيصل إلى كنيسة (سيدة النعمة).

= إذا سأبيت اليوم في الكنيسة.

= هذا منطقي، لكن هل فكرت بالعواقب أيها الطبيب مورفين؟

= عواقب !؟

= بالطبع، عندما يعود القس فونسيكا إلى الحياة كيف ستفسر ذلك للآخرين، ألا يفترض بمهمتك أن تكون سرية ؟

فكر سبيروزار للحظات.

= معك كامل الحق، وماذا تقترح على فعله؟

= عندما تصبح مع جثمان القس لوحدك أعده للحياة، لكن أخبره هو والآخرين أن ذلك تم من تلقاء نفسه دون أن تعرف السبب، وأن القس ربما لم يكن ميتاً بالأساس، فمن حسن حظك أن سبب الوفاة هو نزيف دماغي داخلي من شدة الانفجار وليس إصابة بشظايا، فجثمان القس سليم تماماً.

= هذا رائع أيها القبطان، لقد حللت لي المشكلة، يبقى أن أتحين الفرصة المناسبة لأنفرد بجثمان القس.

= ومتى ستغادر اليخت؟

= على الساعة التاسعة مساءً.

= وماذا بخصوص الأستاذ دييغو وعصابة المخدرات؟

= ياه لقد انشغلت بوفاة القس فونسيكا ونسيتها بالكامل، سأناقش الموضوع مع القس لاحقا إن نجحت في إعادته إلى الحياة ونتفق على الإجراءات الواجب اتخاذها، هل لديك اقتراحات بهذا الخصوص؟

= بالطبع، بعد التحليل العلمي للقضية، فإن اقتراب زوارق الشرطة من مدخل الكهف عند الشاطئ المحظور سينبه العصابة في الخارج التي تراقب المكان مما يساعدها على الهرب والتخفي خاصة زعيمها.

= وهل هنالك معلومات جديدة عن هوية هذا الزعيم؟

= في الحقيقة هنالك شخص دخل دائرة الاتهام بعد ما شاهدته أنت في الكهف أسفل الشاطئ المحظور.

دهش سبيروزار.

= ومن هو؟

= المليونير ألفونسو سيلفا.

صعق سبيروزار بعد هذه الجملة حتى أنه صمت لدقائق دون كلام.

= هل تعتقد حقا قبطان بأن المليونير ذو علاقة بتهريب المخدرات؟ إنه متبرع سخي للجمعيات الخيرية والمدارس الحكومية فكيف يرتكب مثل هكذا جريمة؟

= أنا لا أعتقد أيها الطبيب بل أحلل وأربط، فقد يكون كل ما فعله ألفونسو مجرد تمويه وستار يختبئ خلفه ويدير أعماله غير القانونية، والمنطق المجرد يقول إنها ليست صدفة على الإطلاق أن يرسو يخته مقابل الشاطئ المحظور تماماً، **لابد من وجود رابط بين اليخت والكهف**.

هز سبيروزار رأسه بدهشة عارمة.

= معك حق، وما الذي تقترح فعله؟

= المنطق يقترح إرسال دوريتي شرطة واحدة لإيقاف المليونير على ذمة التحقيق وتفتيش اليخت، والثانية لاقتحام الكهف، وبالأخذ بعين الاعتبار أن الكهف ذو حراسة مسلحة من الداخل فعلى الشرطة أن تحضر معها قنابل مخدرة للاقتحام إذ لا يمكن حمل الأسلحة تحت المياه.

ابتسم سبيروزار بإعجاب صامت، وقد أشرق في عينيه ضوء الاكتشاف. للمرة الأولى، بدا له أن العالم لا يُفكّك فقط عبر الحدس والمشاعر، بل عبر التحليل الدقيق والمنطق المتماسك. القبطان باروناج لم يكن مجرد هولوغرام من نور، بل عقل متقد يعرف كيف يسبر أعماق التعقيد بحنكة العلماء.

بدت له المسائل التي أثقلت كاهله خلال الأيام المنصرمة كخيوط متشابكة انفرجت دفعة واحدة، لا بسحر، بل بعقلٍ لا يخاف أن ينظر في المجهول.

قضى بقية اليوم إلى جانب القبطان، يغوصان معًا في تفاصيل اللغة البرتغالية، في ألفاظها الدقيقة وإيقاعها الرخيم. كانت الساعات تمضي كقطرات عسل على حجر ساخن، تتبخر في صمت وتترك أثرًا من ترقب دافئ لا يُنسى.

وعندما دقت الساعة التاسعة مساءً، وقف سبيروزار على سطح اليخت لحظة، تطلع إلى المدينة التي بدأت أضواؤها تتلألأ على صفحة البحر، ثم انسلّ في هدوء نحو الكنيسة، بخطى واثقة وقلب أكثر امتلاءً بالنضج، كما لو أن المعرفة التي تلقاها اليوم لم تكن دروسًا عابرة، بل مفاتيح لصناديق مغلقة في أعماقه. ولتغيير قادم في الأقدار.

*****

في كنيسة سيدة النعمة.

حين بلغ سبيروزار عتبة الكنيسة، كانت رائحة الحزن كثيفة في الهواء، كأنها بخور غير مرئي يتصاعد من قلوب منكسرة. وجوه أفراد الطاقم كانت مطفأة، عيونهم تائهة في صمت يشبه الصلاة، وكأن موت القس لم يكن مجرد فَقْد، بل انكسار رمز.

واحدًا تلو الآخر، واساهم سبيروزار بصبرٍ نبيل، ثم انسحب بهدوء نحو غرفته، تاركًا خلفه رجع خطى ثقيلة تعبق بالفقد.

تمدّد على سريره لا طلبًا للراحة، بل ليعبر بجسده إلى ضفة أخرى من التفكير. اسم واحد كان يطفو فوق كل الأحداث: **ميدوسيز**، نبيّ كوكب كوليتوس. الآن فقط بدأت تتضح له خيوط الحكاية وحبكة القدر العبقرية، الأسباب التي دفعته للمجيء إلى الرأس الأخضر، إلى هذا الركن المتواضع من الأرض، إلى هذا القس تحديدًا، وهذا المصير بالذات. لم تكن صدفة. لا المخدرات، لا الموت، لا الحزن... كلها حلقات في سلسلة رأى طرفها الأول ولم يصل إلى الآخر بعد.

عند الثالثة صباحًا، وصلت عربة بسيطة يقلّها الصمت. فيها جثمان القس فونسيكا، مسجّى على خشب، تحيط به الأقمشة البيضاء كأكفان سماوية. حمله الإخوة الأربعة — سانتياغو، فرانسيسكو، رودريغو، ومارتيم — بخشوع ورهبة، ونقلوه إلى المحراب، حيث رُتبت الزهور الصامتة ليبدأ الوداع مع أول ضوء.

وعندما اقترب الفجر، خارت قوى الجميع. فتسللوا واحدًا تلو الآخر إلى أجنحتهم ليلتمسوا النوم الهارب. وحده سانتياغو ظلّ قائمًا، عيناه تراقبان الجثمان كما لو أنه كنز موصّد، لا يُؤتمن عليه الليل. لكن سبيروزار، وقد امتلأ باليقظة التي تبثها الغايات الكبرى، طلب منه أن يستريح على أن يتولى هو حراسة الجثمان.

بعد أن انطفأت الأصوات، وسكن المكان، اقترب سبيروزار من التابوت. حدّق في ملامح القس الراقد بسلام. ركّز أفكاره، وتباطأت أنفاسه حتى بدت غير موجودة، ثم انكمشت حدقتاه في تركيز تام، حتى صار الزمان يتقلص حوله كغرفة تغلق أبوابها.

وفجأة... انبعث من جسد القس إشعاع خافت، رمادي يشبه الفجر المعلق بين الغياب واليقظة. اهتز الجثمان اهتزازًا طفيفًا كصفحة ماء تمسّها نسمة، ثم... فتحت العينان.

كان بعثًا بلا كلمات. جسد يعود إلى الحياة، لا بعنف، بل بانبهار هادئ. رمش القس ببطء، وعيناه تسبحان في فضاء غريب لا يعرفه. وسبيروزار، الواقف

عند رأسه، ظلّ ينظر إليه بدهشة مصطنعة، يخفي وراءها عاصفة من الأسئلة التي لم تحن ساعة طرحها بعد.

= يا إلهي أيها القس أنت حي. !!

= ومن قال إنني مت؟

= الأطباء، تعال لأساعدك للخروج من هنا؟

= وما هذا الصندوق، يا إلهي أهو تابوت؟

= أجل لقد كنا نظن أنك فارقت الحياة!

خرج القس من التابوت وبدا مرتبكاً للغاية، توقف قليلاً يستجمع أفكاره ثم هز رأسه بدهشة.

= لقد تذكرت الآن ما حدث، لشبونة، الميدان، السيارة ثم الانفجار.

وجمد وجهه للحظات ثم قال بصوت جدي للغاية.

= أنا أعرف من هو المسؤول عن تلك التفجيرات.

= أي تفجيرات؟

= تفجيرات لشبونة السبعة.

= ومن هو؟

= المليونير ألفونسو سيلفا.

توقف سبيروزار مكانه وكأن لسانه قد ربط، ثم قال بعد لحظات.

= وكيف عرفت ذلك؟

= لقد رأيت مساعده الشخصي خوسيه يترجل من السيارة التي انفجرت وتجنب السلام عليّ وتجاهلني رغم معرفتنا الوثيقة ببعض. طبعاً هنالك احتمال أن خوسيه يعمل لوحده ولا علاقة للمليونير بالقصة كلها، لكنه احتمال غير منطقي وبعيد للغاية.

ابتسم سبيروزار.

= بل له علاقة وثيقة أيضاً، وستدرك ذلك بعد أن تسمع قصتي ومغامرتي هنا في الرأس الأخضر.

دهش القس من هذا الكلام.

= وما هي قصتك؟

= ليس الآن أيها القس فالجو العام لا يسمح بذلك، لا تنس أنك ميت بنظر طاقم الكنيسة وأهل البلاد، وعلينا إخبارهم بالحقيقة !!

= معك حق.

= ابق هنا أنت، وسأمر على الأخوة والأخوات واحد تلو الآخر وأخبرهم أنك لم تكن ميتاً كما اعتقد الأطباء.

بعد ساعة فقط، كانت أروقة الكنيسة تضجّ بفرحٍ يكاد لا يُصدّق. التمّ الجميع حول القس فونسيكا كما لو أنه خرج من بطن الحوت، لا من تابوتٍ كان قبل قليل محور صلاتهم. كانوا يلامسونه، يصلون، يذرفون الدموع، كأن الحياة قد مُنحت لهم جميعًا من جديد عبره. لم يسأل أحد **"كيف"**، ولم يحاول أحد أن يفهم، فقد اتفقوا جميعًا – دون اتفاق – أن هذه معجزة، وأن السماء قد تحدثت بلغتها الخاصة.

*****

في مساء اليوم التالي ...

في غرفة صغيرة تفوح منها رائحة الكتب القديمة والشموع المحترقة، جلس القس الذي صار حديث البلاد، والضوء يتسلل من نوافذ الكنيسة كأن الزمن نفسه ينصت. أمامه كان سبيروزار، بعينين لا تزالان مشبعتين بالأعماق، يروي تفاصيل رحلته الأخيرة تحت مياه الشاطئ المحظور، حين دخل الكهف الذي يحرسه الصمت والخطر.

كان القس يُصغي لا كواعظٍ أو رجل دين، بل كمن وجد في كلام الآخر مرآةً جديدة لفهم ما حدث ويحدث. توالت الأحداث في كلام سبيروزار كصفحات كتاب لم ينتهِ بعد، من دهاليز الكهف إلى استنتاجات تحوم حول العصابة، وكل كلمة كانت تضع حجرًا جديدًا في بناء فهمهما للمصير الذي يجمعهما كقس وطبيب.

وعندما بلغ الحديث نهايته، طرح سبيروزار الاقتراح الذي نقله عن القبطان باروناج، اقتراح بدا كأنه الحلقة الأولى في سلسلة من المواجهات الحاسمة: إرسال دوريتين، واحدة لليخت، والأخرى إلى الكهف.

= بالفعل أنت على حق، سأذهب إلى الشرطة على الفور وأقص عليهم الحكاية بالكامل، لكن كيف سنعثر على الشاطئ المحظور؟

= السيدة نيفيز ستدلكم إليه.

= بالضبط.

كان الليل قد بدأ يرخي ستاره حين انتهى الحديث، لكن داخلهما، كانت يقظةٌ مختلفة قد بدأت للتو.

*****

توجه القس فونسيكا إلى قسم الشرطة، وتم استقباله هنالك استقبال الأبطال كونه عائداً من الموت في نظرهم، لكن القس دخل مباشرةً في صلب الموضوع وشرح لرئيس الشرطة **كانسيلو** كل ما حدث في لشبونة وفي جزيرة فوغو دون ذكر اسم سبيروزار.

= ومن هو الشخص الذي غاص في الكهف؟

ارتبك القس كثيراً، ثم قال.

= في الحقيقة هو صديق لي يزورني منذ أيام قادم من الولايات المتحدة الأمريكية.

ابتسم رئيس القسم.

= هو إذاً بصفة غير شرعية كما تظهر ملامحك أيها القس.

= أجل، وهل ستعتقلونه؟

= نعتقله؟ إن كان كلامك صحيحاً فهو سيقودنا إلى القبض على عصابتين في نفس الوقت، عصابة تهريب مخدرات دمرت شبابنا، وعصابة إرهابية تقوم بالتفجيرات، إنه بطل قومي سيمنح الجنسية غالباً، على كل حال هذا ليس موضوعنا، الآن وقت العمل وعلينا الذهاب إلى جزيرة فوغو ونقتحم اليخت والكهف.

جهز رئيس القسم دوريتين ضخمتين مدججتين بالسلاح مع عناصر مجهزة بملابس غوص وقنابل مخدرة وانطلقوا نحو الجزيرة.

بعد حوالي ساعة من الإبحار وصلوا إلى الجزيرة وكانت السيدة نيفيز تنتظرهم أمام الشاطئ وهي مغمورة بالأمل بعد أن اتصل بها القس فونسيكا وأخبرها القصة باختصار.

انقسمت الدوريتان فذهبت الأولى باتجاه اليخت يقودها رئيس الشرطة في حين اتجهت الثانية نحو الشاطئ المحظور.

ارتدى فريق الغوص المكون من **8** أشخاص ملابسهم الخاصة وغطسوا في المياه حتى عثروا على الفتحة فدخلوها حتى نهاية النفق ليجدوا القاعة الواسعة، انتشروا من الزوايا ثم رموا القنابل المخدرة باتجاه الحراس وغطسوا مجددا، بعد **5** دقائق عاودوا الصعود بعد أن انتهى مفعول الغاز في الجو، وكان الحراس الأربعة في سبات عميق.

اقتحموا المكان وعثروا على معمل صنع المخدرات، كما عثروا على الأستاذ دييغو في إحدى الغرف المغلقة التي خلعوا بابها وكانت تلك مفاجأة كاملة للأستاذ الذي لم يصدق عينيه ونفسه، قام فريق الغوص بربط وتكميم كامل أفراد العصابة من حراس وعاملين في صنع المخدرات أما الأستاذ دييغو فقد وجدوا بدلة غوص في إحدى الغرف ارتداها وخرج بصحبة الفريق.

كانت السيدة نيفيز تراقب المياه من زورق الشرطة وقلبها مفعم بالأمل بعد

ثلاثة أشهر من الألم النفسي والترقب والصبر والدعاء، وبعد نصف ساعة ظهرت الرؤوس فوق الماء واحد تلو الآخر وكان بينها رأس زوجها فأغمي عليها من صدمة الفرحة، فأسرع القس برش الماء على وجهها حتى استعادة

وعيها وأجهشت بالبكاء.

أما هنالك في اليخت فقد فوجئ المليونير تماما باقتحام دورية الشرطة له وغضب بشدة خاصة بعد أن سمع اتهامات رئيس الشرطة له.

وعندما جاء رئيس الشرطة كانسيلو على ذكر اكتشاف مخبأ العصابة السري تحت المياه، ارتبك ألفونسو كثيراً لكنه استعاد توازنه فوراً وأنكر أي صلة له بهذه الحكاية.

= كيف تجرؤون على اتهام شخص ساعدكم بماله للجمعيات الخيرية والمدارس والكنائس ولمكافحة هذا المخدر اللعين، هل جننتم ؟! تكلم حضرة القس. قل شيئاً. أنت أكثر شخص يعرفني !!

التزم القس الصمت في حين قامت الدورية بتفتيش اليخت بدقة ثم عادت إلى رئيس الشرطة بخيبة أمل.

= لم نعثر على شيء هام في اليخت عدا كمية كبيرة من السمك في قاعه

ارتبك رئيس الشرطة كثيراً فهو كان يتوقع على الأقل أن يعثر على كمية ولو بسيطة من المخدرات في اليخت.

اتصل القس فونسيكا بسبيروزار وأخبره بنتيجة البحث المبهجة في الكهف لكن المخيبة للآمال والتحليلات على اليخت.

فكر سبيروزار قليلا بكلام القس، هنالك كمية كبيرة من السمك على يخت مليونير لماذا يا ترى؟

ثم تذكر فجأة زورق الصيد الذي كان قادماً من اليخت ورفض بيعه السمك بأسلوب فظ، وخطرت على باله فكرة غريبة.

= أيها القس ابحثوا في أحشاء السمك فالمخدرات محشوة بداخلها.

ابتسم القس عند سماع ذلك، وهمس لرئيس الشرطة بنظرية سبيروزار الجريئة لكن المنطقية للغاية.

وبالفعل نزل رئيس الشرطة بنفسه إلى الأسفل. أخرج سكينه متعددة الاستعمال وشق بطن إحدى الأسماك الكبيرة فظهرت حبوب المخدرات في كيس نايلون محكم الإغلاق.

انهار المليونير تمام عند مواجهته بالأدلة الدامغة واعترف بكل شيء، بأنه رئيس عصابة ترويج المخدرات حيث يتم حشو السمك بالمخدرات في قاع اليخت كل يوم خميس بعد أن يتم جلبها من الكهف عبر غواصين، ثم يوزع السمك على الزوارق المتعاملة معه باقي أيام الأسبوع، مستغلين كون اليخت يتمتع بنوع من الحصانة المعنوية بفضل سمعة المليونير الجيدة في البلاد.

كما اعترف بعد مواجهته بكشف أمر خوسيه في لشبونة وادعاء الشرطة أن خوسيه قبض عليه واعترف بضلوع الزعيم في التفجيرات والسرقة، بقيادته لمنظمة سرقة البنك هنالك والتفجيرات التي رافقتها وبأن خوسيه مساعده الشخصي في الرأس الأخضر هو عميله الخاص ضمن المنظمة في لشبونة لمتابعة سير العمل هناك.

تم إلقاء القبض على ماتيلدا وخواو وخوسيه وروي قبل أن ينجحوا بالهروب من البرتغال، وتم إعادة المال إلى بنك نوفو ليرتاح بال المدير أوتافيو الذي تعرف على ماتيلدا واكتشف الفخ الذي أوقعته فيه.

وهكذا ساعد سبيروزار الشرطة على الإيقاع بعصابة خطيرة ذات ثلاثة رؤوس، **مخدرات وسرقة وإرهاب.**

وعرضت عليه حكومة الرأس الأخضر بعد مساعدته هذه الجنسية فوافق عليها على الفور، وأصبح بطلاً شعبياً في البلاد.

لكن في الحقيقة البطل الأكبر في هذه القصة كلها هو القبطان باروناج، فبتحليله العلمي المنطقي تم ربط **اختفاء الأستاذ دييغو بعصابة ترويج المخدرات وبالشاطئ المحظور وبيخت المليونير**. ولولاه لبقيت رؤوس هذا المربع عبارة عن نقاط عشوائية لا رابط بينها ولا يخطر ببال أحد أن يجمعها في قصة واحدة.

ولا ننسى **سارقات الرمال** على شواطئ الجزيرة، فمنع العصابة لهن من ممارسة عملهن في ذاك الجزء من الشاطئ كان هو الشرارة التي بدأ منها كل شيء وبعث الأمل مجدداً.

*****

بعد مرور ثلاثة أشهر...

على الشواطئ الخلابة لجزيرة سال أجمل جزر الرأس الأخضر.

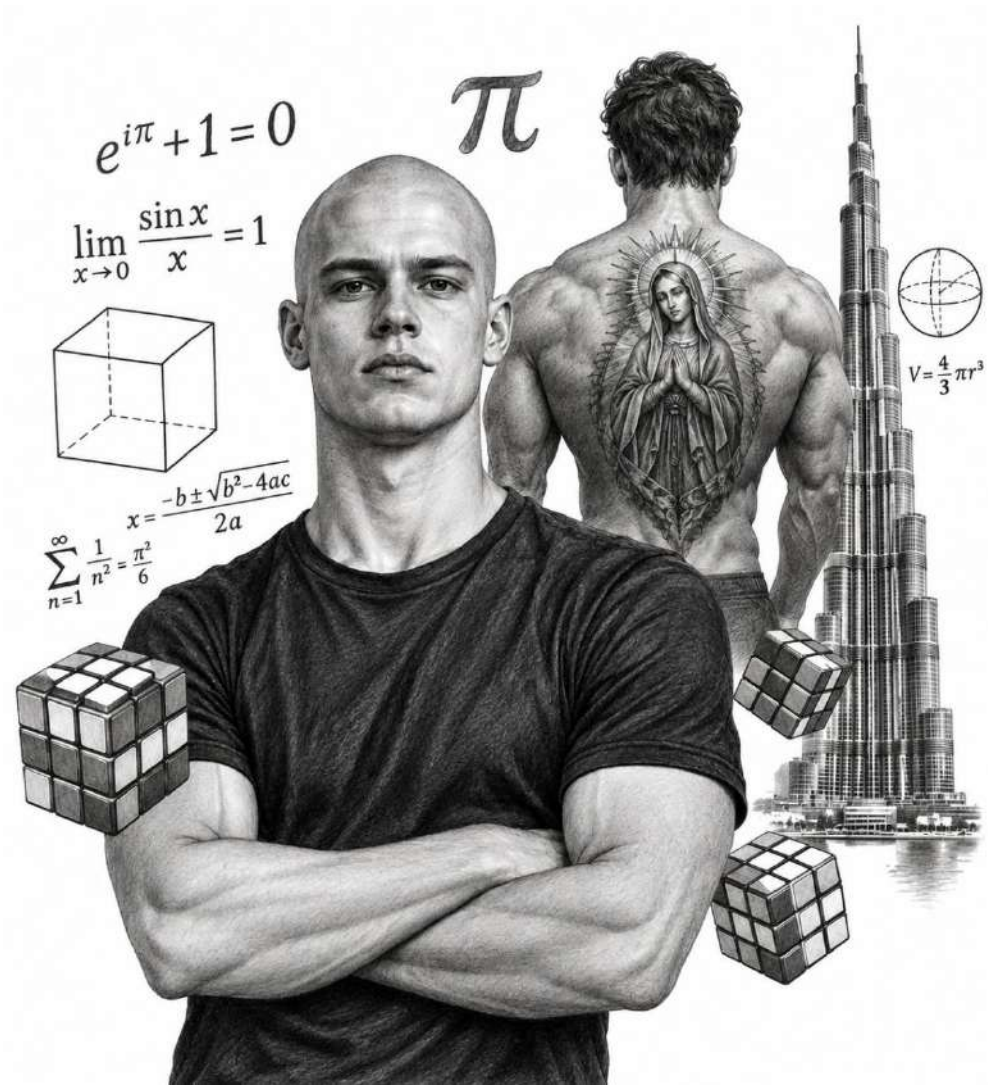
جلس سبيروزار على كرسي مريح على إحدى الشواطئ الساحرة وهو يتأمل جمال المنظر، لقد راقت له الحياة كثيراً هنا في الرأس الأخضر، إذ أصبح يتقن البرتغالية إلى حد ما، ولديه الجنسية ومحبة الناس. كما أنه ساعد الشعب على التخلص من أكبر آفات المجتمع وهي المخدرات، واستطاع تأمين عقد عمل في مشفى برايا الحكومي بعد أن سبقته سمعته الطبية الجيدة إلى هناك عقب علاج الأخت كاترين. والأهم من ذلك كله أنه حافظ على سره الكبير بأنه الطبيب مورفين المميت المحيي.

فكيف ستسير الأمور لاحقاً، هل ستبقى على ما هي عليه؟ أم أن حدثاً مفاجئاً سيغير المعادلة لتولد مغامرة جديدة من رحم الغموض !!

*****

الجزء الثالث

(سافانت)



الفصل الأول

البرتغال / لشبونة

2029 م...

حين بدأ ضوء الصباح يتسلل خافتًا من نافذة المشفى، متواطئًا مع سكون الغرفة وهدير الأجهزة الناعم، ارتجف جفن **الشيخ كريم** للمرة الأولى منذ يومين، كأن الروح فيه تتلمس طريق العودة من متاهات الغيبوبة. استيقظ، لا كما يعود النائم من حلمٍ عابر، بل كما يُبعث العابر من رماد الذاكرة، حاملاً في أعماقه صدى التفجير المروّع الذي هزّ قلب لشبونة.

كانت عيناه شاحبتين، وفي مقلتيه طيفُ ارتباكٍ ثقيل، كأن الدماغ ذاته لم يتيقّن بعد من نجاته. فقد ارتطم رأسه بعنف بجدار خلفي أثناء الانفجار، مما سبّب له ارتجاجًا قويًا في الدماغ، ناهيك عن الجروح المتناثرة على جسده كخرائط لجراح لا تُنسى.

بجواره، جلس **محسن**، ابنه البكر، وقد توزعت على ملامحه علامات الإنهاك والسهر الطويل، لكنه ما إن لمح ومضة الوعي في عيني والده حتى تسارعت أنفاسه. أمسك بكف الشيخ كأنما يخشى أن يُفلت من يده مرة أخرى إلى العتمة.

نظر إليه والده نظرة بطيئة، مترددة، كأنه يعود من عالم بلا أسماء، بلا وجوه. ثم تكسرت على شفتيه ابتسامة ضئيلة، فيها امتنان عميق للحياة، وفيها شيء من ألم العودة أيضًا.

كان الصمت بينهما أبلغ من الكلام. فقط صوت الأجهزة الطبية، وهمس الهواء في الستائر البيضاء، ونبضات قلب الشيخ المتعثرة ترسم لحظة تتجاوز اللغة.

= إن منظمة أخيك **فاطر** تقف وراء التفجيرات أليس كذلك؟ إنه يحاول الانتقام مني واغتيالي كما هددني وكما فعل بأخيه يوسف.

محسن بسعادة غامرة بعد استعادة أبيه الشيخ لوعيه.

= الحمد لله على سلامتك والدي، كلا إنه ليس فاطر، لقد تبين بعد التحقيقات أن عصابة سرقة أموال بنك هنا في لشبونة هي من يقف وراء تلك التفجيرات، بعد أن تعرف القس فونسيكا على وجه منفذ العملية الأخيرة التي أصبتما فيها.

= صحيح القس فونسيكا كان معي، ما أخباره؟ هل تأذى في الانفجار؟

= لقد اعتقد الأطباء بعد الفحص الأولي أنه قتل في التفجير.

صعق الشيخ كريم بالنبأ.

= قتل !؟

= هذا كان رأي الأطباء، لكن بعد نقل جثمان القس إلى برايا في الرأس الأخضر عاد إلى الحياة على نحو مفاجئ! والأطباء هنا في لشبونة يؤكدون أنه قد توفي مباشرة بعد الحادث ولا يملكون تفسيراً لما حدث!

= هذا غريب بالفعل، وما تفسير القس لما حدث؟

= ليس عنده أي تفسير حتى الآن، إنه مصدوم بدوره، لكنه حسب ما قرأت في الأخبار قد انشغل مباشرة بعد عودته للحياة بقضية التفجيرات وسرقة أموال البنك، إضافة إلى قضية أخرى تتعلق بترويج المخدرات هنالك في الرأس الأخضر.

هز الشيخ كريم رأسه.

= أنا على دراية بموضوع المخدرات هذا، لقد طرحه القس في ملتقى الأديان.

= وقد تم القبض على العصابة تلك وتبين أنها تقف وراء كل ما سبق من تفجيرات، سرقة ومخدرات.

ابتسم الشيخ ابتسامة متعبة.

= هذه أخبار سارة للغاية.

= بلى إنها كذلك.

فكر الشيخ للحظات.

= وما هو وضعي الصحي بدوري، لقد انشغلنا عنه بقضية القس فونسيكا والتفجيرات. ؟!

= يقول الأطباء أن وضعك جيد نسبياً، أصبت بجروح بسيطة متفرقة وبارتجاج قوي في الدماغ، لكن لا نزوف باطنية ولا إصابات خطرة والحمد لله.

= الحمد لله، ومتى يمكننا مغادرة المشفى.

= سننتظر رأي الأطباء لنرى.

*****

الرأس الأخضر / برايا

بعد ثلاثة أشهر.

كانت حياة سبيروزار قد بدأت تأخذ شكلاً من الهدوء الذي يشبه اكتمال القمر على صفحة بحر ساكن. كل شيء من حوله بدا كما لو أنه قد وجد طريقه أخيرًا نحو الاتزان: لغته البرتغالية الجديدة بدأت تنساب على لسانه بمرونة، عمله في مشفى برايا يلقى التقدير، ووجوه الناس تبتسم له كما لو كانوا يعرفونه منذ ولادته. لقد أصبح ابنًا للرأس الأخضر، لا بالوثائق وحدها، بل بمحبّة القلوب.

وفي إحدى الليالي التي كان فيها النسيم يداعب ستائر نافذته، استسلم سبيروزار للنوم كالمخدّر، فاستقبلته الأحلام كما تستقبل العوالم الأخرى مبعوثًا غامضًا. وفي ذلك الحلم، لم يكن على الشاطئ أو في طرقات برايا، بل في مكان آخر. في الحكاية التي لا تُروى في اليقظة.

ظهر له ميدوسيز، نبي كوكب كوليتوس، في هيئة تتأرجح بين الحضور والضوء. عيناه كانتا تشعّان بزُرقة سماوية غريبة، وصوته، حين انساب في الحلم، بدا كما لو أنه قادم من بُعدٍ لا يخضع للزمن.

= أهلا بك سبيروزار، ها نحن نلتقي مجدداً.

= سيد ميدوسيز، هذا أنت بالفعل، هل أنا ميت مجدداً ؟!

ابتسم السيد ميدوسيز.

= أجل إنه أنا، لا لست ميتاً، إنك تحلم فحسب، عمل جيد للغاية حتى الآن، الشرطي ديف والقس فونسيكا، خيارات مناسبة تماماً لاستخدام قوتك الجديدة

= لقد كنت تعلم مسبقاً إلام ستؤول الأمور سيد ميدوسيز، أليس كذلك؟

= ربما سبيروزار، ليس هذا موضوع نقاشنا الآن على كل حال، أنا هنا لتنبيهك حول خطر كبير محدق بك.

تنبه سبيروزار جيداً بعد هذه الجملة.

= خطر ؟!

= أجل، لقد تم التعرف عليك من قبل استخبارات الولايات المتحدة الأمريكية وستتم المطالبة بك كسجين هارب من القانون من سلطات الرأس الأخضر وحتى في حالة رفض السلطات هنا تسليمك، فهم لهم طرقهم الخاصة للوصول إليك والقبض عليك، ولا بد أن لك بعض المعرفة بخصوص هذا، أضف إلى ذلك أن المخابرات تشك بقوة أنك الشخص الذي أحيى يانا ابنة الشرطي ديف والقس فونسيكا أيضاً، مما سيوقعك في مأزق كبير إن صرح بذلك للعلن أو تم القبض عليك.

= وما الذي تقترحه على أن أفعل؟

= أخبر القس بأني زرتك في الحلم مجدداً وأنني طلبت منك أن تسافر إلى **باكستان** وبالتحديد مدينة **كراتشي** هنالك للقاء الشيخ كريم.

= ومن هو الشيخ كريم هذا؟

= القس فونسيكا يعرفه، فقد كانا معاً لحظة وقوع انفجار لشبونة الأخير، ولديه رقمه ويمكنه الاتصال به وتوصيته بك.

= وماذا سأفعل هنالك؟

= ستبقى هنالك لعدة أيام وبعدها ستسافر إلى **ميانمار** شرقي باكستان.

= عدة أيام !!. ما الغاية من هذا السفر الطويل إذن سيد ميدوسيز؟

= سترى هنالك بنفسك، أنت عليك السفر والباقي على القدر.

ابتسم سبيروزار.

= ألا يمكنك إخباري بالقصة كي أجهز نفسي للأحداث المقبلة.

ابتسم السيد ميدوسيز بدوره.

= صدقني سيد سبيروزار، أن تجهل المستقبل خير لك من كل النواحي، وأؤكد لك أنك ستوافقني على هذا عندما نلتقي مجدداً المرة القادمة. من جهة أخرى فإن معرفتك بما ستؤول إليه الأمور سيجعلك قادرا على تغيير الأحداث وهذا غير جائز الحدوث.

= إلى باكستان إذن.

= أجل، ألقاك بعدها بطريقة ما. والآن عليك الاستيقاظ وإخبار القس.

= إلى اللقاء سيد ميدوسيز.

اقترب ميدوسيز من سبيروزار ودفعه بقوة، ففتح عينيه مستيقظاً، وكانت الشمس قد بدأت بالشروق.

*****

اغتسل سبيروزار في هدوء الصباح، كأنما يغسل عن جسده بقايا حلم الأمس، ثم تناول فطورًا بسيطًا، وهو يُمعن النظر من شرفة شقته المستأجرة إلى شوارع المدينة التي بدأ ينسجم مع نبضها شيئًا فشيئًا. كان كل شيء فيها قد غدا مألوفًا: ضجيج الباعة، رائحة القهوة المنبعثة من النوافذ، والأصوات المتداخلة في الأزقة الضيقة كأنها أنفاس الحياة ذاتها.

ارتدى ملابسه بتؤدة، ثم خرج ماشياً باتجاه كنيسة سيدة النعمة، ذلك المعبد الذي احتواه ذات يوم كغريب، ثم صار له فيه مقام كالأهل. لم تكن المسافة

بعيدة، لكنها بدت له في تلك اللحظة وكأنها دهليز زمني يفصل بين مرحلتين من حياته، إحداهما بدأت بلقاءٍ مصادف، والأخرى توشك على الانتهاء بوداع محسوم.

حين وصل بعد ربع ساعة، لم يتوقف كثيرًا أمام البوابة كما اعتاد، بل عبر بهدوء يشبه خشوع المصلّين، واتجه مباشرة إلى غرفة القس فونسيكا، مُحمّلًا بشيء من الامتنان، وكثيرٍ من الصمت.

طرق الباب برفق، فأتى صوت القس من الداخل، دافئاً وهادئاً كعادته:

= ادخل...

وفي تلك اللحظة، تراجع الزمن خطوة إلى الوراء. المشهد نفسه، الباب نفسه، حتى نبرة الصوت... كل شيء أعاد إليه ذكرى اللقاء الأول، حين كان القلب مثقلًا بالريبة واليقين المشوش، لكنه اليوم يقف عند الباب ذاته، لا ليستقبل قدرًا، بل ليودّعه.

وهكذا، التقت البداية بالنهاية على عتبة خشبية واحدة، تحمل آثار خطاهما معًا، وتُخفي بين شقوقها حكاية مغامرة مثيرة حدثت، ومغامرة أعظم لم تروَ بعد.

فتح الباب برفق ودخل.

= صباح الخير حضرة القس.

كان القس كعادته خلف مكتبه يقرأ أحد الكتب.

= صباح الخير سبيروزار، ماذا هنالك؟ إن تعابير وجهك قلقة وقد أتيت لزيارتي مبكراً للغاية؟

= في الحقيقة هنالك أخبار جديدة يجب أن تعرفها.

= تفضل.

شرع سبيروزار يروي له تفاصيل حلمه الجديد الذي أعلن اقتراب النهاية والوداع. فخيمت على وجه القس فونسيكا ظلال الحزن العميق. كان سبيروزار في قلبه بمنزلة ابن لم يهبه إياه القدر، وفراقه الآن أمر عسير

للغاية، لكنه كان في ذات الوقت مشدودًا إلى عمق إيمانه الراسخ، ذاك الإيمان الذي يسمو فوق المشاعر ويحتويها في حضن الحكمة والصبر. فهو يعي جيداً أنّ الرسالة التي يحملها سبيروزار ليست حلمًا عابرًا، بل نداءً من السماء، دعوة لا تحتمل التأجيل أو التجاهل.

خيّم الصمت على المكان، صمت ثقيل يحمل في ثناياه ثقل القرار الذي لا مفر منه. إنه الوداع.

في ذلك اللقاء، اختلط الحزن بالإيمان، وتحولت العاطفة إلى تسليم عميق للغيب، ليودع القس رجلاً أحبه وأحب وجوده، لكنه سيحرره من تعلقه ليبدأ رحلة عميقة في كراتشي، رحلة ليست مجرد انتقال جغرافي، بل عبور إلى سر جديد ينتظر الكشف، مفتاح قد يفتح أبواب الخلاص والسلام، في لعبة القدر التي تصوغها السماء بكل حكمة وعبقرية.

قال القس بهدوء حزين راضٍ بحكمة القدر.

= بالطبع سبيروزار، إن أخبرك الرجل الوقور بذلك فعليك المغادرة، وإن كانت هذه خسارة كبرى لي ولطاقم الكنيسة وللبلاد كلها على وجه العموم، وأكرر شكرنا لك على مساهمتك العظيمة في الإيقاع بالمنظمة ثلاثية الرؤوس وإحياء شبابنا من جديد بتحريرهم من قيود المخدرات السامة.

= لم أفعل سوى واجبي حضرة القس، وهل ستوصي بي عند الشيخ كريم؟

= بالطبع، وهل هذه بحاجة إلى سؤال؟ لقد تبادلنا أرقام هواتفنا في ملتقى رجال الدين وسأتصل به وأوصي بك.

متى ستسافر؟

= اليوم، لقد أعطيت السيدة جوانا أجرة الشهر القادم وليس على أي التزامات مادية، فقد أخبرني رجل الحلم بالسفر في أسرع وقت ممكن لأن هنالك خطر كبير يحدق بي دون أن يفصح عن طبيعة هذا الخطر.

بدت الجدية على ملامح القس واقترب من سبيروزار واحتضنه.

= بالطبع، إن كان هنالك من خطر فسافر على الفور، السماء أدرى بمصلحتنا، هل تريد توديع طاقم الكنيسة؟

= كلا، فأنا أكره الوداع من جهة، كما أنني سأتعرض لأسئلة لا أملك إجابات ممكنة عليها من جهة أخرى، لذا ودعهم أنت بالنيابة عني بعد سفري، ولعل السنوات القادمة تجمعنا مجدداً سوياً، إلى اللقاء حضرة القس وشكراً على كل شيء.

غادر سبيروزار الكنيسة بخطى بطيئة والدموع تخطّ أخاديدها على خديه، ليس ضعفًا، بل امتنانًا مغموسًا بالحزن. لم يكن وداعه للقس فونسيكا فحسب، بل وداعًا لقطعة من روحه نمت هنا، في هذه الأرض التي ضمّته كأم رؤوم، وفي حضن كنيسة غمرته بعزاء الروح وسكينة القلب.

لقد أحبّ هذا المكان بصدقٍ. أحبّ ناسه الطيبين، أزقته المتلوّنة، شواطئه التي تشبه الأحلام في وضوحها وغموضها. كان يشعر أن كل شيء في الرأس الأخضر قد صنع له، أو أعيد خلقه من أجله: اللغة التي بات يفهمها كأنها نُسجت من ذاكرة قديمة، العمل الذي منحه رسالة ومعنى، وحتى الغرباء الذين صاروا أهلًا وأصدقاء.

لكن ها هو اليوم، وفي لحظة خاطفة، يعود إلى حياة التنقل، إلى المجهول الذي يشبهه بقدر ما يرهقه. سيعبر الكرة الأرضية نحو قارة أخرى، وشمسٍ أخرى، ووجوه لم يرها من قبل، وأقدار لا يعرف ما تخبئ له. وكأن العالم، رغم اتساعه، يضيق حين نغادر من أحببنا.

عاد إلى شقّته بصمتٍ ثقيل، لا شيء فيه يعلو على صوت الحنين. حزم بعض حاجياته، ثم غادر نحو يخته ميلافا، ذلك الرفيق الصامت، العابر للبحار والقدر.

بعد نصف ساعة من السير المتأمل، وصل المرسى. لم يكن هناك من يودّعه، لكن البحر فعل. فالموج كان هادئًا كما لو أنه يعانقه باكياً. صعد إلى القمرة، وتوقّف لحظة أمام لوحة القيادة، ثم مدّ يده، وضغط زرّ: اسألني

ظهر القبطان باروناج من جديد، وجهه العجوز الواثق ينبض بالحكمة. لم تكن الكلمات العميقة مطلوبة الآن، يكفي أن تبدأ الرحلة من جديد.

= صباح الخير حضرة الطبيب مورفين.

= صباح الخير قبطان، لدي أخبار جديدة هامة لأقولها لك.

= أنا أسمعك.

روى له سبيروزار تفاصيل الحلم الجديد، ليختم حديثه بسؤال.

= فما رأيك بما سمعت قبطان؟

= إن السيد ميدوسيز على حق، فبعد كلامك هذا وبمعالجة بعض المكالمات والرسائل الخاصة يمكنني القول بأن هنالك بالفعل في الولايات المتحدة الأمريكية من يريد القبض عليك بأي ثمن، وعليك السفر للضرورة القصوى كما أخبرك السيد ميدوسيز.

= هكذا هو الوضع إذاً ...!

= بلا أدنى شك.

= إذن لا خيار آخر أمامنا. وجهتنا القادمة مدينة كراتشي في باكستان، والقيادة لك قبطان.

= لننطلق في رحلتنا الجديدة أيها الطبيب مورفين.

*****

الفصل الثاني

إيطاليا / روما

2028م قبل عام

في صباح رمادي كئيب تسللت فيه أشعة الشمس بخجل عبر غيوم كثيفة، خيّم الصمت على **حيّ براتي** الراقي في قلب العاصمة الإيطالية روما. على مدخل قصر رخامي الطراز، اصطفّت سيارات الشرطة، وأحاط عناصرها بالمكان كما لو أن الزمن توقف داخل هذا المبنى المترف. كان ذلك المنزل ملكًا للممثل الشهير **جيانلوكا كامبيدانو**، الذي وُجد جثة هامدة داخل جناحه الخاص، في مشهد غامض حيّر المحققين وأربك التوقعات.

لم تُلاحظ على جسده أي علامات عنف أو مقاومة، لا كدمات، ولا آثار تعنيف، ولا جروح مفتوحة. كان مستلقيًا كما لو أنه غفا بهدوء، لكن موته لم يكن طبيعيًا تمامًا في عيون أولئك الذين يعرفون أن خلف بريق الشهرة دومًا ما يُخبّأ شيء آخر. تشعبت التحقيقات الأولية في القصر بانتظار تقارير السموم، يتلوها تشريح دقيق للجثة، في محاولة يائسة لتمييز إن كانت الوفاة قضاءً وقدرًا... أم أن للغموض رأيًا آخر.

كان جيانلوكا كامبيدانو ذو الأربع والأربعين ربيعاً من ألمع نجوم السينما الإيطالية في العقود الأخيرة، رجلٌ ذاع صيته حتى عبر حدود أوروبا، ليتحول اسمه إلى لافتة مألوفة في استوديوهات هوليوود. أعزب، غامض، يعيش وحيدًا في قصره الفخم، ولا يفتح أبوابه إلا نادرًا، كما لو أن العزلة كانت شرطًا للشهرة أو ضريبة لها.

ولادته كانت بعيدة عن كل هذا البذخ؛ فقد نشأ في مدينة **كالياري**، عاصمة جزيرة **سردينيا**، وسط أسرة معدمة بالكاد تجد قوت يومها. من بين الأزقة القديمة في تلك المدينة، تشكّلت ملامح حلمه. بدأ كممثل ثانوي في أحد مسارح المدينة، يؤدي أدوارًا بسيطة لا تكاد تُذكر، حتى جاء مساء فارق غيّر مسار حياته إلى الأبد. خلال عرض مسرحي رتيب، كان في القاعة رجل غير اعتيادي، مدير أعمال إيطالي ذو نفوذ في صناعة السينما، انبهر بأداء جيانلوكا الحيّ، وتبنّى موهبته كمن يكتشف كنزًا دفينًا.

منذ تلك الليلة، توالت عليه العروض، وراحت أدواره تكبر مثل ظله تحت شمس المجد، حتى صار في الثلاثين من عمره أيقونة تمثيلية لا تُضاهى. اجتاحت صورته الشاشات، وذاع صيته في العالم بأسره، ليصبح لاحقًا الممثل الأعلى أجرًا في إيطاليا، وتُقدّر ثروته بأكثر من **700** مليون دولار.

لكن الأغرب من كل ذلك، لم يكن نجاحه الفائق، بل علاقته العجيبة بالمال. كان يرفض بشكل قاطع إيداع أمواله في البنوك، ويرى فيها أقفاصًا ذهبية لا يُؤمن بها. كان يحوّل ثروته إلى سبائك ذهبية ومجوهرات نادرة، يقتنيها كما لو أنها طلاسم تحميه من لعنة ما، ويخزنها في مكان مجهول، حتى أصبح جيانلوكا يمتلك كنزًا حقيقيًا، لا يملك أحد خريطةً إليه. لا أفراد عائلته القليلة، ولا أصدقاؤه النادرون، ولا مساعدوه المقربون، يعلمون أين يخبّئ ثروته التي لطالما كانت حديث الصحافة.

والآن، بعد وفاته المفاجئة، وبعد أن غلّف الغموض موته كما غلّف حياته، تسود قناعة خفية بين من عرفوه:

جيانلوكا أخذ سر كنزه معه إلى القبر.

من بين كل ما كُتب عن جيانلوكا كامبيدانو، من حكايات المجد والتوهج، بقي تفصيلٌ واحدٌ أكثر إثارة للريبة من ثروته نفسها: الوشم.

لم يكن وشمًا عابرًا أو نزوةً فنية كما يفعل الفنانون عادة. بل كان نقشًا شاملاً يغطي ظهره بكامله، وشمَه قبل عام واحد فقط، في التوقيت ذاته الذي فاجأ فيه العالم بإعلان إسلامه في مقابلة تلفزيونية لم تُذع إلا مرة واحدة، وكأنها اعترافٌ حميمي خرج من فم الموتى.

تقول الشائعات ـــ وتزداد بمرور الوقت ـــ إن هذا الوشم لم يكن مجرد بيان روحاني، بل خريطة صامتة، لغزًا مشفّرًا يُخفي بين خطوطه موقع الكنز الذي حوّله إلى أسطورة، أو على الأقل، مفتاحًا أوليًا لفك شيفرة تلك الثروة التي لم تدخل بنكًا يومًا.

الوشم كان ثلاثي العناصر: صورة، ورقم، وعبارة.

أما الصورة، فهي تجسيد دقيق ومهيب لتمثال السيدة مريم العذراء، المعروفة

في المشرق العربي بلقب **سيدة حريصا** أو **سيدة لبنان**، والتي تقف شامخة على سفح جبال لبنان المُطلة على **خليج جونيه.** رسمها الوشم كما رآها جيانلوكا ذات يوم حين زار لبنان لتصوير أحد مشاهد أفلامه: تمثال أبيض، ذراعان مغزولتان بالرحمة، ونظرة تهبط من السماء كأنها تغفر للناس دون أن يُطلب الغفران.

أسفل الصورة مباشرة، رقم واحد: **25**

بلا شرح، بلا سياق. مجرّد رقم، كما يُترك حجرٌ في الطريق دون أن يلفت انتباه أحد.

ثم، عند أسفل الظهر، جاءت العبارة الغريبة:

(أجمل شقيقاتها الستّ)

منذ ظهوره، أشعل هذا الوشم جحيمًا من التأويلات. كيف تكون السيدة العذراء شقيقة لستٍّ، وهي – كما أجمعت الكتب السماوية – وحيدة، بلا أخوات؟

وما علاقة الرقم 25؟ هل هو تاريخ؟ ترتيب؟ ذكرى؟ أم كود سري لشيء لا يعرفه إلا هو؟

لم يقدّم جيانلوكا تفسيرًا قط، بل كان كلما سُئل عن الوشم، يبتسم بصمت، يغيّر الموضوع، أو يكتفي بعبارة واحدة:

(من يعرف الحب، لا يحتاج الشرح)

لكن بعد وفاته، تحوّل هذا النقش من غموض خاص إلى هوسٍ عالمي.

محبّوه، الباحثون عن الكنز، وحتى أجهزة الاستخبارات، بدأوا محاولات محمومة لفك الشيفرة. البعض بحث في الأديرة، البعض الآخر في سجلات الفن والرموز. هناك من ربط الرقم 25 بسفرٍ من أسفار الكتاب المقدس،

وآخرون رجّحوا أنه يشير إلى بابٍ في معبد، أو شاطئ منسي، أو حتى طابقٍ في فندق مهجور.

لكن الحقيقة الوحيدة الواضحة هي أن الوشم لا يريد أن يُفهم. كأنه شيفرة كتبت بلغة لا يجيدها سوى صاحبها. وكأن جيانلوكا، وهو الذي عرف أن أعين العالم ستلتفت بعد موته، قرر أن يترك لهم فتاتًا من الجنون، لا أكثر.

وما بين صورة العذراء، ورقمٍ لا ينتمي، وعبارةٍ تُخالف المنطق، يبقى الظهر الموشوم آخر ما تبقّى من جسد الرجل، جدارًا صامتًا قد يُفضي ذات يوم إلى باب الكنز... أو إلى لا شيء على الإطلاق.

*****

روسيا / موسكو

2028م...

في ساعةٍ متأخرة من الليل، حين تنكمش الأرواح في أزقة موسكو وتضيق الأنفاس من فرط البرد والصمت، كان ديمتري يسير بخطى متثاقلة نحو منزله في ضواحي العاصمة.

الساعة تشير إلى الثالثة صباحًا. المدينة نائمة إلا من أضواء المصابيح الخافتة التي تنعكس على أرصفة مبتلّة، وأصداء خطواته التي ترتطم بجدران الزقاق المهجور كما لو أنها تذكّره بأنه وحده.

كان ديمتري، البالغ من العمر تسعةً وعشرين عامًا، شابا تعوّد على السكون القاسي لمدينةٍ لا تبتسم إلا نادرًا. لكن تلك الليلة، لم تكن كسابقاتها.

بينما كان يمر عبر ممر ضيّق تتكدس فيه صناديق خشبية قديمة ورطوبة لا تشفى، خرج من الظلال شخصان، لا يحملان سوى الجوع والعدوان في عيونهما. أحدهما قبَض على هراوة خشبية كأنها امتداد ليده، والثاني لفّ سلسلة حديدية حول معصمه كأفعى تنتظر الانقضاض.

قال الأول بصوت أجش :

= أعطنا محفظتك حالًا... واخرج من هنا بسلام.

لكن ديمتري، بنزقه المعتاد، لم يكن ليخضع بسهولة. رمقهم بنظرة فيها مزيج من التهكم والغضب وقال:

= وإن لم أفعل ... هل ستموء كالنساء أيها الضعيف ؟

لم تكن هناك حاجة للرد. نظرة واحدة بين الشابين كانت كافية.

تقدّم أحدهما وانقضّ على ديمتري، ولكمه في وجهه بقبضة غليظة أسقطته على الأرض، لكن ديمتري نهض كمن يحمل في صدره ثأرًا قديمًا.

هاجم الشاب بعنفٍ لا يُنتظر من شاب أنهكه التعب والشتاء، لكنه ما لبث أن وجد نفسه في مواجهة الاثنين معًا، تنهال عليه اللكمات من كل صوب، كأنهما قررا أن يعلّماه درسًا لا يُنسى.

في لحظة هستيرية، حاول ديمتري أن يعض الشاب الذي يحمل الهراوة، فصرخ الأخير من الألم وتراجع خطوتين، ثم ضربه بتلك الهراوة ضربة عنيفة على رأسه، ضربة أفقدته الوعي في الحال.

سقط ديمتري على الأرض كجذع شجرة مقطوع.

تجمّد الزمن للحظة.

ارتبك الشابان، وبدأ الرعب يتسلّل إلى وجهيهما. لم يتوقّعا أن تنتهي السرقة بهذا الشكل.

سرق أحدهما المال من محفظته، ثم ركضا في الظلام دون أن يلتفتا، كأن الشارع نفسه يطاردهما بينما بقي ديمتري، ممددًا في الزقاق البارد، تتساقط عليه رقائق الثلج الأولى لتلك الليلة، كأن السماء تغطّيه بردائها الأخير.

مع أول خيوط الضوء المتسللة من بين مباني الضواحي الباردة، استعاد ديمتري وعيه. فتح عينيه ببطء، وكأنهما تحاولان النجاة من بين رماد

الغيبوبة. رأسه ينبض بالألم، الهواء من حوله بدا أكثر لزوجة، والشارع الذي استلقى فيه قبل قليل لم يعد كما كان. كل شيء بدا... مختلفًا. الألوان أبهت، والأصوات أعلى مما يحتمل، والضوء... الضوء كان طعنة في عينيه.

وقف مترنحًا، مستندًا إلى جدار متشقق، وجعل خطواته تتجه نحو المنزل كأنما تقوده غريزة بدائية لا غير. وفي منتصف الطريق، لمح رجلاً يمرّ أمامه، يحمل كأسًا بلاستيكيًا وكتابًا في اليد الأخرى. لم يكن مشهدًا استثنائيًا في مدينة مثل موسكو، لكن ديمتري توقّف، متسمّرًا في مكانه.

الكتاب كان يحمل عنوانًا صادمًا: **كيف تقهر السرطان؟**

أما الرجل، فكان في منتصف العمر، عيناه محاطتان بهالات سوداء، وسترته غير مكوية، وربطة عنقه مرتخية بشكل مزعج، كأنما لم يزر المرآة منذ أيام. كان يمشي ببطء، كمن أثقل الحزن خطواته.

وبدون أن يُحلل الأمر عمدًا، بدأ عقل ديمتري في رسم صورة متكاملة :

((الرجل مشخص حديثًا بالسرطان. لم ينم منذ ليلتين على الأقل من قلقه وحزنه، والهالات السوداء تشهد بذلك. كتابه ورفيقته البلاستيكية المليئة بالكحول تفضحان محاولاته المستميتة للهروب من الواقع. ملابسه المجعدة تشير إلى نوم متقطع على كرسي صلب، ربما في غرفة حراسة. وطريقة مشيته المتمهلة لا تدل على توجهه إلى عمل، بل على عودته منه. نعم، هو حارس ليلي على الأرجح، يقرأ أثناء السهرات الطويلة الموحشة، ويحاول الآن النجاة بما تبقى له من آمال))

توقّف ديمتري عن السير وهزّ رأسه بعنف، مذعورًا من ذاته. ما الذي يحدث؟

من أين له بهذه القدرة على قراءة البشر بهذه الدقة؟ عقله لم يكن يعمل بهذه الطريقة من قبل !! هناك شيء يتغيّر فيه. شيء لم يكن موجودًا البارحة.

عاد إلى منزله بخطى مضطربة. أول ما فعله كان التوجه نحو النوافذ، ألقى نظرة حذرة على الخارج، ثم أغلق الستائر بإحكام، واحدة تلو الأخرى لأن النور بدأ يزعجه بشدة، حتى استحال المنزل كتلة مظلمة من الصمت.

لكنه لم يكتفِ.

راح يتأكد من الإغلاق خمس مرات. خمس مرات كاملة. !!

تجمّد مكانه...

هذا وسواس.

هو يعرف ذلك جيدًا. قرأ عنه. شاهد عشرات الوثائقيات التي تشرّح أدمغة من يعانون منه. لكن أن يكون هو الآن ضحية لهذا التكرار القهري؟ لا بد أن للضربة العنيفة التي تلقاها على رأسه دورًا في هذا التحوّل الغريب.

تسلل إلى الداخل بهدوء. والدته لا تزال نائمة في غرفتها، وعيناه تبحثان عن الأمان وسط هذا الارتباك الحسي. أغلق باب غرفته خلفه، وبدأ يتحقق من القفل... مرة، مرتين، ثلاث... حتى طمأنته الخامسة. جلس على سريره، ارتجف قليلًا، ثم مدّ يده إلى رفّ مكتبته الصغيرة، وسحب منه نسخة من الإنجيل، تلك التي كانت والدته تصرّ على وجودها في غرفته، وتلحّ عليه دومًا بقراءتها دون اقتناعه بذلك.

تمدد على الفراش، وراح يقرأ. لم تكن عيناه تبحثان عن الإيمان، بل عن تفسير... عن مخرج من نفسه.

ديمتري شاب روسي يبحث عن ذاته، وحيد والديه، أليكسي وستيلا، اللذين انفصلا قبل ثلاث سنوات، كطيفين تاها في دوامة القدر. أليكسي، الأب الذي غادر موسكو بحثًا عن فرصة عمل في رومانيا، تاركًا خلفه طفله ديمتري ثم تزوج ثانيةً هناك، بينما بقي ديمتري مع والدته في شوارع العاصمة المتجمدة.

كانت الأموال التي يرسلها والده نهاية كل شهر تتساقط كرماد على نار الاحتياجات المتزايدة، لا تكفي حتى لتغطية نفقات الحياة التي لا ترحم؛ أسعار السكن المتصاعدة، وأسعار الطعام التي لا تعرف الرحمة، كلها كانت تلتهم ما يصل إليهم من أموال. وكأن الصراع اليومي على البقاء يعيد تشكيل ملامح ديمتري وشخصيته.

لكن في عالمه المظلم، كان يمتلك مهارة فريدة؛ عقل حاد كالسيوف، قادر على اختراق جدران الحماية الإلكترونية التي تحيط بالمصارف والحسابات

البنكية. كان **هاكر عبقرياً** لا يخشى الخطر، يُتقن فن التسلل الإلكتروني بشكل مثير للدهشة، لكنه يتقن الحذر أكثر من ذلك. فالمبالغ التي كان يسرقها صغيرة جداً، تتسلل كذبابة بين أعين الكبار، حتى لا تستنهض الشرطة أو تفتح تحقيقات واسعة. هذه الحيل الصغيرة كانت مصدر دخله الأساسي، الذي يؤمّن له بعضًا من الهواء في هذا العالم الخانق.

كان هذا الشاب، ذو المهارات الفذة، مختلفاً تمامًا عن والدته التي تربّت على إيمانٍ صلب، فهي امرأة متديّنة، تقف عند حدود عقيدة صارمة، في حين أن ديمتري – خلافًا لها – كان يعتنق روح التمرد والشك، ربما ورث ذلك من والده الملحد أليكسي، الرجل الذي رحل لكنه ترك خلفه الكثير من الأسئلة بلا إجابات.

كانت شجارات ديمتري وأمه اليومية في الشقة تضجّ بالصراخ، حيث يلتقي التوتر الديني بالحرية الشخصية، فتتبدل الكلمات إلى رصاص يطلق في الهواء، وسط صمت جدران المنزل التي تحكي عن قلوب متعبة، وعن روح تبحث عن ملاذ بين تناقضات الحياة.

مع بزوغ الفجر، استيقظت ستيلا على سكون الشقة التي غلفها ظلام الستائر المغلقة على غير العادة، فانتفضت في قلق. فتحت الستائر بدهشة ثم اتجهت نحو باب غرفة ديمتري فطرقت عليه برقة وهمست:

= ديمتري... هل أنت بخير؟

وقف ديمتري خلف الباب، ممزقًا بين خوف الظهور أمام والدته بمطهره الكارثي وحاجته للراحة في حضن دافئ. صوتها الحنون اقتحم عزلته، ففتح الباب بتردد. دخلت والدته لترى وجهه المغطى بالدم، وملابسه الممزقة تحكي قصة الألم الذي اختبره منذ ساعات.

وقفا صامتين لوهلة جراء الصدمة، قبل أن تنطق ستيلا بفزع:

= يا أمنا العذراء، ما الذي حدث لك بني ؟

تنفس ديمتري ببطء، ثم شرع يروي لها ما جرى معه في الزقاق المظلم: الضرب، السرقة، والشعور الغريب الذي بدأ يملأه من الداخل بعد أن فقد

وعيه. تحدث عن الضوء الذي صار يثقب عينيه ويربك دماغه، والتفكير الذي أصبح كالطعنات في رأسه، عن الوسواس الذي استقر فجأة كضيف غير مرحب به.

نظرت إليه ستيلا بعينين حائرتين:

=اغتسل و بدل ثيابك كي نذهب إلى المستشفى فورًا... لابد من الاطمئنان على حالتك ...

غسل ديمتري وجهه بصمت مطبق ثم استبدل ملابسه بأخرى نظيفة وعيناه شاردتان في فراغ الغرفة حتى وقع بصره على مكعب الروبيك الرابض على مكتبه. حاول مرارًا من قبل حله دون جدوى، لكن هذه المرة كل شيء تغير، أمسك به وأخذت يده تتحرك بلا وعي، كأنها تملك إرادة مستقلة عن دماغه. في دقائق، أضاء المكعب بألوانه الكاملة، مكتملًا كسرّ جديد داخل عقل ديمتري !!.

ارتجف برهبة، شاعراً بأن شيئًا قد بدأ يتحرك في أعماقه، شيء أكبر من الألم... شيء غير مفهوم.

في المشفى تبين بعد تصوير رأس ديمتري أنه تعرض لارتجاج قوي في الدماغ، و بعد فحص الأطباء له و شرحه لهم عن التغيرات التي طرأت على شخصيته ، تم تشخيصه بالإصابة بحالة نادرة للغاية تصيب شخصاً من بين كل مليون شخص تقريباً و تدعى **متلازمة الموهوب أو سافانت** و هي غالباً متلازمة خلقية تأتي مع ولادة الشخص و نشوئه و تترافق عادة مع طيف من التوحد في حين ينبغ المريض في أحد مجالات الحياة، و في حالات قليلة للغاية تحدث هذه المتلازمة عند الأشخاص الذين تعرضوا لأذية دماغية كالرضوض القوية أدت إلى دخول مناطق جديدة من الدماغ إلى العمل في حين كانت غير مفعلة سابقاً ..

طمأن الأطباء ديمتري ووالدته أن أعراض الخوف من الضياء والوسواس القهري ستتراجع مستقبلاً تدريجياً خاصة مع العلاج النفسي المناسب، وبأن ديمتري أصبح منذ اليوم نابغة جديدة في عالم حل الأحاجي والشفرات، وعليه أن يطور موهبته لكي يستفيد منها في حياته.

عاد ديمتري إلى منزله بصحبة والدته وهو يشعر بخوف أقل بعد أن توضحت الصورة لديه خاصة وأن والدته أصبحت على دراية بحالته، لذا ما إن دخلا المنزل حتى أغلقت أمه الستائر كلها وقادته إلى غرفته، احتضنته وقالت.

= نم قليلاً بني، فأنت لم تنم طوال الليل وهذا سيرهق أعصابك ودماغك أكثر.

= أريد أن أطلب منك طلباً أماه.

= اطلب ما تشاء بنيّ.

= اقرئي لي قليلاً في الكتاب المقدس حتى أغفو تماماً.

تفاجأت الأم تماماً من هذا الطلب، لكنها ابتسمت وربتت على رأس ابنها بحنوّ.

= من دواعي سروري.

وعلى وقع كلمات الكتاب المقدس وشعور ديمتري بالطمأنينة ذهب في نوم عميق.

*****

الفصل الثالث

يخت ميلافا

المحيط الأطلسي

2029 م...

شق اليخت طريقه سريعاً كرمح إسبرطي عبر المحيط الأطلسي على أن يلتف لاحقاً حول رأس الرجاء الصالح، ثم يغير دفته نحو المحيط الهندي متجهاً إلى باكستان، تلك الأرض التي تحتفظ بأسرارها في طيات الضباب والصمت.

في الهواء، كان عبق ملح البحر يلتقي برائحة الطحالب فيشكلان مع هدير الأمواج خليطاً يوقظ ذاكرة الروح ويزرع في القلب مشاعر من حنين غير مفهوم.

هناك، في مقدمة اليخت، وقف سبيروزار يتأمل المشهد بسعادة وقد فتح صدره للنسيم كي يداعب وجهه بنسمات باردة منعشة أشعلت في أعماقه توقاً متأججاً لما هو قادم كقصيدة من جليد ونار. وعندما لفظت الشمس آخر أنفاسها في الأفق البحري، دخل إلى اليخت، متجهاً مباشرةً إلى زرا سألني فضغطه ليظهر القبطان باروناج مجدداً، برزانة رجل اشتق شخصيته من عالم البحار، وبعينين تحملان قصصًا لا تنتهي.

= أهلاً حضرة الطبيب مورفين.

= أهلاً قبطان، كيف حالك؟

أصدر القبطان ضحكته العميقة المحببة.

= لماذا تسألني هذا السؤال باستمرار، أنا دائماً بخير، كيف حالك أنت؟

ابتسم سبيروزار.

= بخير أيضاً، إننا في طريقنا إلى بلاد جديدة علي، لذا أخبرني حقائق أكثر

عن باكستان وعن مدينة كراتشي على وجه الخصوص قبطان.

= في الحال، كلمة باكستان بالأصل تعني **الأرض الطاهرة**، عاصمتها **إسلام أباد**، ولغتها الرسمية **الأوردية**. حدودها الشرقية مع الهند، الغربية مع أفغانستان وإيران، الشمالية مع الصين والجنوبية مع بحر العرب.

أما مدينة كراتشي فهي تقع على بحر العرب في الجنوب وتعتبر أهم مدينة في إقليم السند وحتى الآن هي الميناء الأهم في البلاد رغم وجود منافسة حقيقية مستقبلية لها من ميناء **جوادر** في إقليم **بلوشستان** غربها، وأشهر المعالم السياحية في كراتشي هي: مزار القائد **محمد علي جناح**، وهو مؤسس دولة باكستان عام **1947** م باستقلالها عن الهند. وشاطئ كليفتون للاستجمام.

= جميل، وماذا بخصوص الشيخ كريم، ما معلوماتك عنه؟

= الشيخ كريم هو إمام (**الجامع الكبير**) في منطقة باهريا في كراتشي ثالث أكبر مسجد في العالم وهو من الرموز الدينية الهامة في البلاد. متزوج من باكستانية تدعى فاطمة وله منها أربعة أبناء هم **التوأم فاطر ويوسف** ثم ابنة تدعى **نور الهدى** ثم ابن يدعى **محسن**. وقد اغتيل ابنه يوسف منذ أربع سنوات بالرصاص أثناء عبوره لأحد الشوارع، ويتهم أخوه التوأم فاطر بذلك.

= قتله أخوه!

= أجل، فاطر منشق عن العائلة منذ **15** سنة وانتسب لمنظمة دينية متطرفة للغاية تدعى (**العودة إلى الأصل**) وقد دعا والده وأخوته للانضمام إليها فرفضوا كون الوالد ملتزم بالمسار المعتدل ويكره التطرف في كل شيء كما يقول، وقد عارض يوسف أخاه فاطر بشدة سراً وجهاراً ووجه إليه فاطر تهديدات كثيرة انتهت بتنفيذه لها كما يرجح، إذ أصدرت المنظمة بياناً بعد اغتيال يوسف، بأن القتل هو مصير كل من يقف في وجه المنظمة.

دهش سبيروزار من هذا الكلام.

= زودني بمعلومات عن هذه المنظمة قبطان.

= المنظمة حتى الآن تعمل داخل باكستان، وزعيمها الحالي هو فاطر ابن الشيخ كريم، وهي تقوم بأعمال تفجير كل فترة في مكان مختلف من باكستان وخاصة في المنشآت الحديثة التي تعتبرها تشبهاً بالغرب وخروجاً عن صميم وتقاليد العقيدة، وهي تقوم **بنشر رسالة مشفرة قبل كل هجوم** تحدد فيه تفاصيله وتتحدى قوات الأمن بفك شفرتها، وبعد حدوث الهجوم تنشر حل الشفرة لتبدو بسيطة للغاية بعد معرفة المكان والتفاصيل.

= ولماذا تقوم المنظمة بتحدي الأمن ...؟

= إنه نوع من الحرب النفسية، وإثبات الذات للمجتمع الباكستاني كي تجذب عناصر جديدة إليها.

= وكم يبلغ تعداد عناصرها؟

= حتى الآن بالآلاف لكن أغلبهم موزعون في باكستان والبعض فقط هنا في كراتشي؟

= والزعيم فاطر؟

= مجهول مكان الإقامة.

ساد الصمت للحظات وسبيروزار يفكر بهذه المنظمة الخطيرة وغريبة السلوك والعقيدة.

= ومتى سنصل إلى كراتشي؟

= المسافة تقدر بحوالي **16** ألف كيلومتر أي نقطعها بحوالي **54** ساعة، وبمعدل سير يومي **10** ساعات سنصل بعد حوالي **6** أيام. حيث سندور حول رأس الرجاء الصالح لنصل إلى المحيط الهندي ثم نتجه نحو بحر العرب لنصل إلى كراتشي.

= وبالطبع ستعينني على تعلم اللغة الأوردية أليس كذلك قبطان؟

= بالطبع ولنبدأ منذ هذه اللحظة.

*****

باكستان

كراتشي ...

مع انقضاء الأيام الستة في مغامرة سفر ممتعة وشيقة وصل اليخت ميلافا عصرا إلى ميناء كراتشي المزدحم حيث رسا في مكان خالٍ وبعيد عن الأنظار.

= كيف سأعثر على عنوان الشيخ كريم قبطان ...؟

= إنه مشهور جداً في كراتشي، ويقع منزله بجوار الجامع الكبير، اسأل أي شخص هنالك وسيدلك بالتأكيد.

= لكن لغتي الأوردية لا تزال ضعيفة.

= لا تخش شيئاً حضرة الطبيب فاللغة الإنجليزية هي اللغة الثانية الشائعة في البلاد.

أوقف سبيروزار أول سيارة أجرة في طريقه وسأل السائق بالأوردية.

= هل تتحدث الإنجليزية؟

= قليلاً، أين وجهتك؟

= الجامع الكبير، هل تقبل بعملة الدولار؟

= بالطبع اصعد.

بعد مضي ربع ساعة من السير وسط أزقة المدينة المكتظة برائحة التوابل وهمسات المآذن، بلغ سبيروزار أبواب الجامع الكبير، شامخًا كتحفةٍ زمنية تنبض بالسكينة. كانت الشمس تميل قليلاً نحو الغرب، ترسل أشعتها على القباب المزخرفة فتُضيء النقوش بمشهد مهيب.

اقترب سبيروزار من مجموعة رجال جلسوا على عتبات المسجد، وسألهم من جديد عن منزل الشيخ كريم. لم يتردد أحد منهم، بل بادروا جميعا

بالإشارة والشرح، بابتسامات دافئة ولهجة لا تخلو من لطف نبيل. شعر حينها أن البساطة ليست فقرًا، بل سِمة كريمة تتزين بها أرواح الناس هنا. (إن الشعب الباكستاني شعب بسيط، رائع، ومتعاون). همس في داخله، وقد امتزج إعجابه بشيء من الامتنان.

سار في الاتجاه الذي دلوه عليه، حتى وقف أخيرًا أمام بابٍ خشبي عتيق، كأنه يحرس حكايةً مضى عليها زمن طويل. تريّث قليلًا، يستجمع أفكاره، ويرتب كلماته، ثم رفع يده وطرق الباب ثلاث طرقات متتالية.

مضت لحظات صامتة، لم يُسمع فيها سوى أنفاسه المتوترة، ثم انفتح الباب ببطء. وظهرت أمامه فتاة في العشرينات من عمرها، ملامحها هادئة كصباح شتوي، ترتدي شالاً خفيفًا يغمر كتفيها بلون السماء بعد المطر. نظرت إليه باستغراب خفيف، دون خوف، وكأنها تقرأ في وجهه شيئًا لم يُقل بعد.

= مرحباً أيتها الأخت الفاضلة، أدعى جان وأنا هنا لزيارة الشيخ كريم، هل هو في المنزل؟

ابتسمت الفتاة.

= أهلاً سيد جان، أدعى **نور الهدى** نحن بانتظارك، تفضل بالدخول.

هم بانتظاره !!

إذاً فقد اتصل القس فونسيكا بالشيخ كريم مسبقاً كما وعده.

وصلا إلى غرفة الضيوف.

= تفضل بالجلوس سيد جان، لحظات ويأتي البقية.

بعد حوالي خمس دقائق ظهر على باب الغرفة شاب في العشرينات من عمره، يحمل فتاة صغيرة في الثالثة من عمرها لونها أصفر بشكل واضح وخلفه ظهر رجل كهل في الخمسينات من العمر وبجانبه امرأة في الأربعينات.

ابتسم الرجل له.

= أهلاً بك حضرة الطبيب جان، أنا الشيخ كريم.

= أهلاً حضرة الشيخ، الحمد لله على سلامتك من انفجار لشبونة منذ أشهر

= شكراً لك، لقد نجونا أنا والقس فونسيكا بمعجزة سماوية بالفعل، لقد كان التفجير قريباً للغاية، دعنا من هذا الحديث المظلم على كل حال، أعرفك بعائلتي، هذه زوجتي فاطمة وأبنائي نور الهدى ومحسن الذي يحمل ابنته حفيدتي **نعمة الله**.

ابتسم سبيروزار.

= أهلاً بكم جميعاً، لي الشرف بلقائكم.

بادله الجميع الترحاب.

= وما حال الجميلة نعمة الله؟ لماذا لونها مصفر هكذا؟

= إنها مصابة بالتهاب معوي.

= ولماذا اللون الأصفر إذاً؟

= بصراحة لا نعرف، إنه يحدث عند إصابتها بأي مرض، وقد شخص لها طبيب الأطفال الخاص بها انحلال دم مصاحب للمرض.

= وهل قامت بإجراء تحاليل مخبرية؟

= بالطبع وقد أكدت التحاليل ارتفاع مركب يترافق مع انحلال الدم لكنها بالوقت نفسه نفت وجود الانحلال مما حير الطبيب، ونحن في الحقيقة قلقون من تطور حالتها في المستقبل عندما تكبر، رغم طمأنة الطبيب لنا بأن لا وجود لما يدعو للقلق.

ابتسم سبيروزار.

= إن الطبيب محق بطمأنتكم، وإن كان قد أغفل التشخيص الصحيح.

نظر الشيخ كريم باستغراب وأمل إلى سبيروزار.

= وهل تعرف التشخيص حضرة الطبيب؟

= على ما أعتقد فنعمة الله مصابة بمرض نادر يدعى (**داء جيلبرت**) وهو عوز أنزيم في الكبد مما يرفع صباغاً في الدم يسبب اليرقان أو اللون الأصفر للجلد والعين، وهي حالة حميدة تتظاهر فقط عند الإصابة بمرض حاد في الجسم.

نظر الجميع إلى سبيروزار بإعجاب، وقال محسن.

= إنك وجه خير علينا حضرة الطبيب من أولها.

أضاف الشيخ.

= بالفعل، بالمناسبة ما غايتك من زيارة باكستان حضرة الطبيب، وأين ستقيم؟

= شكراً لكم، أنا في طريقي إلى دولة ميانمار سفراً بيختي وسأتوقف هنا في كراتشي للراحة والتموين، لذا نصحني القس فونسيكا بزيارتكم والتعرف عليكم، سأقيم في يختي فهو مجهز بالكامل.

= يسعدنا أن تقيم هنا في منزلنا حضرة الطبيب.

= هذا يسعدني أيضاً حضرة الشيخ، لكنني معتاد على يختي.

قضى سبيروزار أمسية هادئة ودافئة في منزل الشيخ كريم، حيث اختلط صوت الأحاديث برائحة الشاي الذهبي الممزوج بالقرفة، وتسلل دفء الجدران الحجرية إلى قلبه كأنها حضنٌ مؤقت لروحٍ اعتادت الترحال. كان المكان بسيطًا، لكنه مشبع بالسكينة، وكأن الزمن فيه يسير على مهل.

جلس إلى جانب الشيخ في بهوٍ متواضع، تزيّنه مصابيح خافتة وسجادة شرقية داكنة الألوان، واستمع بإصغاء إلى حديثٍ غني عن باكستان وتاريخها، عن كراتشي وصخبها، عن شوارعها التي لا تنام، وعن وجوهها المفعمة بالأمل رغم تعب الحياة. كان الشيخ يتكلم بعينين تعرفان الأرض التي تنتميان إليها، وبصوتٍ يحمل نبرة الأبوة، نبرة من رأى كثيرًا واحتفظ بالحكمة دون أن يفقد الحنان.

لكن حين جاء الحديث على فاطر، تبدلت ملامح الشيخ. سكت لوهلة كمن يختار كلماته بدقة، ثم نطق بها ببطءٍ صارم، وملامحه تتماوج بين الحزم والأسى:

= فاطر... هو ابني نعم، لكن الوطن أولى... إن عرفتُ مكانه، سأبلغ عنه فورًا... لا أستطيع أن أغض نظري عن شخص ينشر الخوف والترهيب والدمار بين أبناء هذا البلد الطيب... لن أتسامح مع أيّ أحد ، كائنًا من كان، حين يتعلق الأمر بأمن باكستان وسلامها.

ساد الصمت من جديد، صمتٌ ثقيل وحزين. شعر سبيروزار آنذاك أن الشيخ لا يواجه ابنه فحسب، بل يواجه ذاته، ووجعًا أعمق مما يُقال.

*****

الفصل الرابع

روسيا / موسكو

2029 م...

منذ اللحظة التي شُخّص فيها بمتلازمة سافانت، انقسمت حياة ديمتري إلى مرحلتين، ما قبل وما بعد. كأنما أُزيحت عنه ستارة كثيفة كانت تحجب عن عقله ضوءًا غريبًا، ضوءًا لم يره أحد سواه. ذاك الشاب الروسي، الذي كان يعيش على هامش الحياة، أصبح فجأة قادراً على فك الشفرات المعقدة كما لو كان يقرأ قصائد، يحلل الأنماط الرقمية كمن يعزف مقطوعة كلاسيكية على بيانو الزمن.

لم يكن الأمر مجرد عبقرية، بل أشبه بإلهام سماوي مسّه ذات مساء بعد حادثٍ غامض قلب كيانه. ومع هذه القدرة، تفتحت داخله مسارات روحية لم يكن يعرف أنها موجودة. أصبح أكثر تأملاً، أكثر قربًا من الله، وكأن شفافيته العقلية الجديدة قد فتحت له أبوابًا نحو الماورائيات. رويدًا رويدًا، بدأت وساوسه القديمة بالانحسار، وانزعاجه من الضوء الذي لازمه طيلة أشهر خفّ بفضل العلاج النفسي والجلسات العميقة التي مزجت بين العلم والروح.

وفي أحد الأيام، حين كانت السماء الرمادية تعكس مزاجه الصامت، جلس ديمتري إلى حاسوبه الصغير يتصفح مواقع التواصل. كان فضوله هادئًا، أقرب إلى التجوال الذهني منه إلى الاهتمام الحقيقي. غير أن شيئًا ما، فجأة، أوقف كل شيء.

ظهرت على الشاشة صورة، لكنها لم تكن مجرد صورة.

كان الظهر العاري لرجل، ووشمٌ يمتد كخريطة صوفية محفورة على جلده، مرسوم بخطوط دقيقة، ملتفة، على هيئة بشرية كأنها متاهة من الرموز القديمة التي تتحدث بلغة منسية. غير أن عيني ديمتري لم تتوقفا عند الرسم، بل ارتجف شيءٌ في داخله حين قرأ العبارة أسفل الصورة :

(فُكّ الشفرة... واربح كنز جيانلوكا السري، مجهول المكان...)

تصلب في مقعده. للحظة، نسي أنفاسه.

الصورة تعود للممثل الإيطالي الراحل جيانلوكا كامبيدانو، الذي قيل إنه توفي في ظروف غامضة قبل عام. وتروي الصفحة أن الحقيقة التي لم تُعلَن كانت أغرب من الخيال: اغتيل بالسيانيد، في عملية مدبّرة، بقي دافعها مجهولاً حتى اليوم. وان كانت اصابع الشك تتجه الى يمين متطرف اعترض على الاسلام الفجائي للممثل.

لكن ما أثار انتباه ديمتري لم يكن الموت... بل التحدي.

هذا اللغز، هذا الوشم، لم يكن موجهًا للعالم... بل له هو وحده كما غمره الشعور. كأنه كُتب بلغة لا يفهمها سواه. كانت الرموز تناديه، لا لتمنحه كنزًا فحسب، بل لتقوده إلى رحلة أعظم: نحو الحقيقة، نحو الظلال التي تتحرك خلف الأضواء، وربما نحو نفسه التي لم يفهمها تمامًا من قبل.

في تلك اللحظة، أدرك ديمتري أن حياته توشك أن تنقلب من جديد.

لكن هذه المرة... كان مستعدًا.

سرح ديمتري في خياله كمن يسبح داخل متاهة من المرايا، كل واحدة تعكس صورة مختلفة عن ذاته الجديدة.

لقد مضى عام كامل على تلك الحادثة الغامضة، حين انهال عليه مجهولون بالضرب على قارعة الطريق، وكأنهم كانوا أدوات القدر لإعادة تشكيل مصيره. حدث واحد فقط، لكنه كان كفيلاً بأن يُعيد برمجة عقله، بأن يصنع منه آلة عبقرية لفك أعقد الشفرات، بل وأغربها.

ومنذ ذلك اليوم، بدأت عبقريته تُحلق في فضاء لا يصل إليه سوى القلة؛ كان يحل الرموز كما يُرتل شاعر أنشودته الأولى، يتعامل مع الأرقام والأنماط كما يتعامل رسام مع ألوانه الداخلية.

ففي أحد الليالي، استطاع أن يفك الجزء الرابع من **شفرة كريبتوس**. ذلك النقش الغامض المحفور على جدار مبنى وكالة الاستخبارات الأمريكية في لانغلي.

كان الجزء الرابع لغزًا استعصى على كبار الخبراء لعقود، لكن ديمتري اقتحم حواجز الشبكة المظلمة، اخترق جدار الوكالة الإلكتروني، ووضع الإجابة ببساطة: كلمة واحدة لا أكثر، لكنها تختصر العالم.

وهاجت الدنيا وماجت.

تسارعت الأجهزة، واستُنفر المحللون، لكن لم يتمكن أحد من معرفة هذا العقل الغامض الذي أحرج المؤسسات وعرّى اخفاقات عباقرتها.

لم تكن تلك سوى البداية.

فكك ديمتري بعدها **شفرة تمام شود**، تلك العبارة الغامضة بالفارسية، بمعنى (انتهى الأمر)، التي عُثر عليها داخل جيب جثة مجهولة على شاطئ أسترالي.

ثم فكك أسرار **قضية ريكي مكورميك**، الشاب الأمريكي الذي عُثر عليه مقتولًا عام **1999** وجيوبه تمتلئ برسائل مشفّرة أربكت مكتب التحقيقات الفيدرالي لأعوام.

حتى **سفاح الأبراج**، القاتل المتسلسل في كاليفورنيا، لم ينجُ من ذكائه؛ فبفضل تحليل ديمتري ودقة قراءته لرموزه المريضة، قاد الشرطة إلى المجرم الحقيقي بعد أن دفنت القضية لسنوات في أدراج النسيان.

وأخيرًا كسر **شفرة كتاب داغابييف**، المنشور في عام **1939**، الذي ترك في خاتمته تحديًا للعقل البشري... تحديًا دام عقودًا حتى جاء ديمتري، وحلّه دون أن يطلب شيئًا في المقابل.

كانت تلك الشفرات طريقته في إثبات موهبته، في ردّ الدين لقدره، وشكر لله الذي أنقذه من نفسه.

لكن وشم الممثل الإيطالي الراحل جيانلوكا كامبيدانو كان أمرًا مختلفًا تمامًا.

هذه المرة، لم يكن التحدي لأجل المتعة، بل ضرورة معيشية. فقد أقلع ديمتري عن اختراق الحسابات البنكية بعد يقظةٍ روحية وجد فيها ضوءًا ما وسط رماد نفسه المشتعلة.

لكنه، ووالدته، كانا يعيشان أوضاعًا مالية خانقة، وكأن العالم لا يكافئ الفضيلة إلا بالجوع.

كان بحاجة إلى فرصة... إلى مفتاح ذهبي ينقله من العتمة إلى فسحة من نور.

لذلك، أرجأ مغامرته الاخيرة مع **شفرات بييل**، تلك الثلاثية الغامضة التي وضعها توماس بييل عام **1817**، والتي يُقال إن إحداها فقط قد حُلّت، وكشفت عن كنز ذهبي خيالي قيمته **15** مليون دولار.

كان يعلم أن فك تلك الشفرات يتطلب تمويلاً، ومساعدين قد لا يثق بأحد منهم.

وهنا، اتجه قلبه وعقله نحو وشم جيانلوكا.

لم يكن فقط أكثر قربًا وإثارة... بل ربما كان مصيره كله مرهون به.

فقد شعر أن هذه الشفرة الأخيرة كُتبت له وحده، كما لو أن الممثل الذي اغتيل بالسمّ قد عرفه قبل موته... وأراد له أن يكشف الحجاب. شعر ان الضربة على رأسه كانت لأجل هذا الوشم الغامض ولا شيء آخر.

لم يتلكأ بالعمل، كانت البداية مباشرةً مع بحثٍ نهم وقراءةٍ محمومة لكل ما كُتب عن جيانلوكا: نشأته، أدواره، خصوماته، تحركاته في سنواته الأخيرة، علاقاته الغامضة، وحتى ولعه بالفنون الرمزية والوشوم الميتافيزيقية...

كان ديمتري يشعر أن كل سطر يقرأه عن جيانلوكا يقترب به أكثر من نقطةٍ ما، كأن الوشم لم يكن مجرد رمز... بل خريطة تقود إلى ما هو أبعد من الذهب.

ربما إلى الحقيقة.

*****

كانت الأوراق مبعثرة أمامه كأحلامٍ ممزقة لرجل مات وهو يحدّق في السرّ السماوي دون أن يفكّه.

قرأ ديمتري عن جيانلوكا كامبيدانو كمن يقرأ عن شبحٍ عاد ليملي وصيّته: نجمٌ سينمائيٌ لمع في السماء ثم انطفأ فجأة، لا بسبب أفول الشهرة، بل لأن هناك ما هو أعمق من الموت... شيء يشبه التخلّي المتعمّد عن العالم.

ولم يكن ما وجده ديمتري في بحثه مجرّد سيرة، بل خيطًا واحدًا ناصعًا وسط حقلٍ من الغبار:

جيانلوكا أعلن إسلامه قبل وفاته بوقت قصير.

خبرٌ عابر، قد تظنه من حكايات النجوم التي يلهثون خلف الروح حين تخذلهم الأضواء. لكن بالنسبة لديمتري، لم يكن ذلك سوى علامة أولى على بابٍ موارب.

ثم جاء الوشم.

صورة للعذراء سيدة لبنان، مهيبة الجمال، وتحتها عبارة لا علاقة لها بالمنطق:

(أجمل شقيقاتها الست)

عبارة أثارت فيه خدرًا مريبًا... شقيقات؟

العذراء لم تُعرف بأن لها أخوات.

أهو تشبيه؟ تورية؟ أم شيفرة مخفية كما اعتاد جيانلوكا في أفلامه؟

الجواب، كالعادة، لم يأتِ من التفكير الحرفي ... بل من ربط الامور ببعضها بشكل منطقي...

ما علاقة العذراء بالإسلام؟ بحث أكثر عن ذلك فاكتشف وجود سورة كاملة في القرآن الكريم كتاب الله عند المسلمين تحمل اسم (مريم). ليست مصادفة على الأرجح. الأغرب من ذلك والذي أكد له أنه يفكر بالاتجاه الصحيح هو أن القرآن كتاب مؤلف من سور مرقمة مؤلفة من آيات مرقمة بدورها. فهل رقم 25 الموجود في الوشم ذو علاقة بذلك؟

سورة مريم. السورة الوحيدة في القرآن التي تُعنى بمريم العذراء رقمها 19، الآية رقم 25 فيها تقول:

(وهُزّي إليكِ بجذعِ النخلةِ تُساقطْ عليكِ رُطباً جنياً)

في لحظة خاطفة، كمن يُنزل الستار عن مسرح مسحور، أدرك ديمتري أن كل شيء بدأ يتكشّف.

إشهار الإسلام، ثم الوشم، ثم الرقم 25 الذي ظهر في الشيفرة، لم تكن مصادفات بل أركانًا لطلسمٍ ينتظر من يفقهه.

لكن (جذع النخلة) ... هل هو مجاز؟ أم إحالة مموّهة إلى مكان واقعي؟ هذا مرجح فالنخيل كنبات بعيد تماماً عن مضمون الوشم.

بدأ يبحث عن النخلة في الجغرافيا لا في النبات. وحينها ظهرت أمامه صورة جزيرة النخلة في دبي، المعلم الاشهر المرتبط بالنخيل حول العالم. انتفض قلبه كما لو سمع نداءً من ماضٍ لم يعشه.

بحث أكثر عن الامارات فوقع بصره على المعلومة الذهبية التي حلت كل شيء وجعلت الوشم مفهوما في غمضة عين. الامارات مؤلفة من سبع امارات وتعتبر دبي درتها الأكثر فتنةً وبهاءَ.

دبي إذن هي أجمل شقيقاتها الست.

والجذع الذي يبدأ منه تصميم الجزيرة، والذي تتفرّع منه سعفات البحر الاسمنتية، ليس سوى ما أشارت إليه الآية...

هزي جذع النخلة.

لم يعد هنالك مجال للشك.

الكنز، أو السر، أو ما خبأه جيانلوكا ذات يقين... موجود هناك. لا شك انه في منزل ما في جذع جزيرة النخلة.

بحث أكثر بهذا الخصوص فاكتشف أن الممثل الايطالي امتلك بالفعل فيلا فارهة تقع في جذع الجزيرة بالضبط. وانه اشتراها بعد اسلامه بفترة قصيرة.

اذن لقد حل لغز الوشم تماما.

بحث ديمتري عن سجلات ملكية الفيلا، وعثر عليها:

الفيلا اشتراها رجل اعمال اماراتي عقب وفاة الممثل الإيطالي، وهي معروضة للبيع الآن بحوالي 25 مليون دولار.

قفز ديمتري من مكانه كمن رأى النور يتكشف فجأة في غرفةٍ مظلمة.
ملايين تعاقبوا على محاولة حلّ شيفرة الوشم منذ عام وفشلوا جميعاً.
وهو؟
لم يحتج سوى دقائق لتحقيق ذلك.
ماذا جرى لعقله عقب تلك الضربة بحق السماء؟

لكن النشوة لم تدم طويلًا.
الفيلا للبيع، نعم. لكن بثمنٍ لا يستطيع ديمتري تخيّله.
كان بحاجة إلى خطة. إلى خدعة، أو ربما... إلى معجزة.

بحث عن اسم المالك الحالي، فوجده.
رجل إماراتي يُدعى **هيثم**.
تتبّع ملفه الرقمي كقنّاص لا يخطئ، ووجده على تطبيق اجتماعي.
كان الرقم واضحًا، كأنه كُتب له هو فقط.
تنفّس ديمتري ببطء، ثم كتب له رسالة بلغة انجليزية، لا يعلم إن كانت ستفتح له الباب ام تعقده...

(**مرحباً سيد هيثم، أدعى ديمتري وأنا من روسيا، ومهتم بشراء فيلا جزيرة النخلة.**)

جاءه الرد بعد دقائق.

(**أهلاً سيد ديمتري، ما الذي تحب الاستفهام عنه؟**)

(**أولاً، هل الفيلا مسكونة؟**)

(لا، إنها على حالها كما تركها الممثل الراحل جيانلوكا كامبيدانو.)

ابتسم ديمتري، فهذه نقطة هامة نحو الأمام.

(النقطة الثانية، هنالك موضوع صغير قبل شرائي للفيلا ...؟)

(بالطبع، ما هو؟)

(أرغب بتجربة الفيلا لليلة واحدة فقط قبل اتخاذ قراري النهائي بشرائها، فهل تمانع؟)

(ولماذا ترغب بالقيام بذلك؟)

(إن مجرد كون الفيلا ملك سابق للمثل الإيطالي الراحل يجعلني أرغب بشرائها بنسبة 90٪، لكنني بحاجة لرؤيتها أولاً بعيني على أرض الواقع وتجربة الحياة فيها لليلة لأرى إن كانت تناسبني، فإن ناسبتني بالفعل سأشتريها على الفور وسأدفع مليون دولار إضافي إلى سعرها)

تأخر الرد قليلاً مما يوحي إلى تفكير السيد هيثم بطلب ديمتري.

(**لا مشكلة أبداً، وأؤكد لك أنها ستنال إعجابك الشديد، فهي فيلا فخمة تحتوي كل ما تشتهيه.**)

(**اتفقنا، غداً مساءً سأصل إلى دبي، أين ألتقيك؟**)

تأخرت الإجابة قليلاً، وقد استشعر ديميتري دهشة السيد هيثم لسرعة الإجراءات.

(**انتظرني عند مدخل جزيرة النخلة على الساعة الثامنة مساءً**)

(**ممتاز، إذاً موعدنا على الثامنة مساءً وعندما أصل هناك سأتصل بك مباشرة على تطبيق التواصل الاجتماعي**.)

(**على بركة الله**.)

أخذ ديميتري نفسًا عميقًا، وترك الهواء يتسلل ببطء إلى رئتيه كأنه يستنشق نبوءة قديمة، ثم أغمض عينيه للحظة، كمن يستمع لصوت داخلي لا يسمعه سواه. لقد أتم **الجزء الأول** من العملية بنجاح مذهل، وانتزع فرصة نادرة للانفراد بالفيلا التي قد تخفي بين جدرانها أكثر من مجرد كنز. كانت تلك اللحظات أشبه بسكون ما قبل العاصفة، تلك اللحظات التي يتهيأ فيها العقل لعبور ما وراء المألوف.

فتح عينيه، وفي بريقهما توهجت شرارة العزم. الآن يبدأ **الجزء الثاني،** الجزء الذي لا يحتمل الخطأ. عليه أن يغوص في ثنايا المكان كما يغوص عالم آثار في مدينة منسية، أن يُنصت للفراغ، ويترجم صمت الجدران، ويتتبع أنفاس الغبار على الأسطح المهجورة.

كان على يقين أن جيانلوكا كامبيدانو، الممثل الفذ الذي أخفى إيمانه كما أخفى ثروته، لم يكن ليختار مكانًا عاديًا لإخفاء كنزه. في كل ركن من أركان الفيلا، قد يكون هناك مفتاح، إشارة، تفصيله خادعة تنتظر من يملك الصبر والدهاء لاكتشافها.

ربما خلف لوحة، أو تحت أرضية خشبية، أو بين طيّات جدار مزيف... لا أحد يعلم. ما يعلمه ديميتري فقط، أن لحظة الحسم قد بدأت، وأن الكنز ليس مجرد مال، بل لغزٌ اختار عقله لحلّه، وكأن القدر أرسله خصيصًا لهذه المهمة.

*****

الفصل الخامس

باكستان

ميناء كراتشي

يخت ميلافا ...

عاد سبيروزار في جنح الليل إلى يخته ميلافا، قادمًا من منزل الشيخ كريم، يسير بخطى مثقلة يغمرها النعاس وتتخللها ظلال الإرهاق التي تركها السفر الطويل على ملامحه. كانت الأنوار الخافتة في الميناء ترتجف على صفحة الماء كأنها ذكريات تحاول التشبث بالحاضر.

صعد السلم المؤدي إلى قمرة القيادة متكئًا على درابزين خشبي ناعم تشرب من ملح الزمن، ثم جلس أمام لوحة التحكم وأغمض عينيه للحظة، قبل أن يمد يده ببطء ويضغط الزر المضيء: **اسألني**. في الحال، انبعث الضوء الأزرق من الشاشة، وظهر القبطان باروناج:

= أهلاً حضرة القبطان.

= أهلاً حضرة الطبيب مورفين، ما أخبار زيارتك لمنزل الشيخ كريم ...؟

= جيدة، عائلة غاية في الذوق والكرم وحسن الضيافة، لكن الشيخ كريم أحزنني للغاية.

= ولماذا؟

= ابنه فاطر.

= ما به؟

= لقد فطر قلب والده بالفعل، بعد انتسابه للمنظمة المتطرفة (العودة إلى الأصل) وقتله لأخيه التوأم يوسف.

= بمناسبة الحديث عن فاطر، هنالك معلومات جديدة بشأن تلك المنظمة التي يتزعمها الآن.

لم يكن سبيروزار يرغب بالنقاش الطويل لكنه تنبه بكليته لهذا الكلام.

= وما هي؟

= إنها بعض القصص التي تم تداولها على وسائل التواصل الاجتماعي وبالتحليل العلمي والمنطقي يشتبه بعلاقتها بموقع المنظمة ونشاطها.

= مثل؟

= لقد ذكر بعض الرعاة في المنطقة الغربية من كراتشي على سفوح **جبال كيرثار** تعرضهم للتهديد و الطرد من منطقة محددة هنالك خلال الشهر الفائت، حتى أن هنالك راع قتل في تلك المنطقة و عثر بجوار جثته على آثار عجلات لسيارات عديدة انتهت عند بداية السلسلة الجبلية، و قامت الشرطة بتفتيش المنطقة بالكامل دون العثور على أي دليل على هوية القاتل، خاصة أن سلسلة الجبال تمتد لمسافات شاسعة و تحوي شبكة كهوف عميقة لا يعرف خفاياها أحد و الأهم من ذلك كله أن المنظمة رفعت تهديدها الجديد بشكل شفرة في نفس اليوم الذي قتل فيه الراعي أي أن هنالك عملية قادمة على الطريق قريباً ..

= هذا غريب بالفعل! وما الذي تنصحني بفعله قبطان؟

= باعتبار أنك ستبقى هنا لأيام فيمكنك زيارة المنطقة ورؤية مسرح الأحداث بالعين المجردة ثم إخباري بتقرير زيارتك، فربما بالتحليل نصل إلى نتائج جديدة مهمة، إن كنت مهتما بموضوع المنظمة والإمساك بها.

= بالطبع أنا مهتم، أي طريق يمكنني بها تجنيب الناس الموت والدمار سأسعى فيها، من جهة أخرى، أشعر بقوة أن هذه هي غاية السيد ميدوسيز من إرسالي إلى هنا ...!

= أتفق معك.

= وكم تبعد تلك المنطقة عن كراتشي؟

= حوالي **200** كم، لكن عليك اصطحاب مرافق إلى هنالك، فأنت غريب عن المنطقة ولا تتحدث اللغة بشكل متقن.

= ومن تنصحني بمرافقته؟

= محسن ابن الشيخ كريم إنه في السابعة والعشرين ومتمرس بالمنطقة وخفاياها كما يقول عن نفسه على مواقع التواصل الاجتماعي.

= هذه فكرة جيدة قبطان، سأتواصل غداً صباحاً مع الشيخ كريم وأنقل له هذه المعلومات لنرى ما يمكننا فعله، أما الآن فقد غلبني النعاس وأنا منهك من السفر الطويل لذا سأخلد إلى النوم، تصبح على خير.

= تصبح على خير حضرة الطبيب مورفين، نوماً هانئاً.

*****

في الصباح التالي مبكراً نسبياً.

تسلّلت خطوات سبيروزار بهدوء إلى عتبة منزل الشيخ كريم في حي باهريا الغارق بين صمت النخيل وأصوات المآذن البعيدة. لم يكن في خطواته استعجال، بل ذلك التريّث الخفيف الذي يمارسه المرء حين يكون على مشارف تحري سرّ خطير.

رفع يده وطرق الباب طرقًا ناعمًا، وانتظر.

لحظات مضت كأنها انكمشت داخل بركة زمن راكد، حتى انفتح الباب ببطء، وطلّ من خلفه وجه محسن.

= السلام عليكم سيد محسن.

ابتسم محسن بود.

= وعليكم السلام حضرة الطبيب، تفضل.

دخل سبيروزار وهو يسأل محسن.

= هل الشيخ كريم في المنزل؟

= أجل، إنه يستعد للتوجه إلى الجامع فاليوم هو الجمعة وهو يؤم المصلين في صلاة الجمعة ويؤدي خطبتها.

= أريد الحديث معه بموضوع مهم قبل أن يغادر إن أمكن.

= بالطبع، تفضل اجلس، سيوافيك الشيخ بعد لحظات.

بعد دقائق دخل الشيخ كريم وخلفه محسن إلى غرفة الضيوف فابتسم لسبيروزار.

= أهلاً بضيفنا العزيز.

= أهلاً حضرة الشيخ.

= يقول محسن أنك تريدني بموضوع هام.

أومأ سبيروزار برأسه ببطء، ثم شرع يسرد على الشيخ كريم تفاصيل الأحداث الغريبة التي جرت عند سفوح جبال كيرثار، حيث هجّر الرعاة وقتل أحدهم، وتزامن كل شيء مع الشيفرة الجديدة التي بعثت بها منظمة فاطر، شيفرة بدت كأنها تنبض بنُذُر خفية لا يفك رموزها إلا من تذوّق مرارة الارهاب.

كان الشيخ كريم يصغي بكامل جوارحه، عيناه المثقلتان بالحكمة تتابعان ملامح سبيروزار كأنهما تقرآن ما بين الكلمات، وملامح وجهه تتبدّل بين الدهشة والتأمل، بينما رأسه يهتزّ موافقًا على منطق التحليل، لا بقبول أعمى، بل بتبصّر العارف الذي خبر تقلبات الدهر وخبايا البشر.

ثم، وبعد لحظة صمت حملت في طيّاتها عبق الإدراك، تنفس الشيخ ببطء وقال بصوت عميق:

= لكن ما الذي يمكننا فعله؟ أنت تقول بأن الشرطة مسحت المنطقة كلها دون العثور على أي دليل؟

= صحيح، في الحقيقة كنت أود زيارة المنطقة بنفسي والقيام ببعض الاستقصاءات هنالك علني أصل لأي جديد.

= هذا لا يضرّ، وكيف يمكنني مساعدتك؟

= أنا أفكر بزيارة المنطقة بصحبة محسن فهو متقن للغة ومتمرس بالجغرافيا

هنا كما أخبرني أمس.

فكر الشيخ كريم للحظات.

= لا مانع بالطبع، يمكنكم الذهاب بسيارة محسن ستستغرق المسافة منكم حوالي الساعتين ويمكنكم البقاء هناك لساعة مثلاً أي ستعودون على وقت الغداء.

= هذا كلام رائع!

= لكن عليكما الحذر تماماً، إنها منطقة نائية والمنظمة خطيرة للغاية.

*****

الطريق إلى جبال كيرثار.

انطلقت السيارة ببطء مهيب، كما لو كانت تدرك أنها تشق طريقها لا عبر تضاريس كراتشي فحسب، بل عبر طبقات من الغموض والغبار والذاكرة. جلس سبيروزار إلى جانب محسن، ينظر من النافذة إلى المدينة وهي تنسحب خلفهم مثل ستارة مسرح قديم أُسدلت بعد مشهد لم يُفهم تمامًا.

كانت كراتشي تمتد وكأنها قصيدة نثر كُتبت على عجل ثم مُزقت، مدينة تتلوى بين الحداثة والبداوة، بين ألوان الأقمشة الصارخة وصمت الأبنية المحترقة بالشمس. كل حجر على الطريق، كل ظل يتسلل بين الأشجار المتناثرة، كان يوشوش بسر لا يفهمه إلا من فقد طريقه إلى اليقين.

سارت السيارة في تضاريس لا تخلو من فتنةٍ قاسية، تتلوّن فيها الصخور بألوان الظهيرة، ويشرب الهواء نكهة الرماد القديم. كانت السفوح هناك، في الأفق، تنتظر كشبكة عنكبوت نسجت بين رمال الصحراء مترامية الأطراف وتنتظر الفريسة الجديدة كي تعلق بها.

إنها سفوح كيرثار... حيث طُرد الرعاة، وسقط أحدهم قتيلاً كجملة ناقصة في كتاب لم ينتهِ بعد.

نظر سبيروزار إلى الأمام، وفي عينيه لمعة من يعرف أن كل إجابة لا بد أن تمر أولاً عبر صمت الجبال.

= ما الذي تتوقع العثور عليه هنالك حضرة الطبيب ...؟

= لا أعرف بالضبط، لكن رؤية مسرح الأحداث بالعين المجردة يختلف تماماً عن سماع الأخبار فحسب، وأي ملاحظة ولو كانت صغيرة قد تغير المعادلة تماماً وتدلنا إلى مكان المنظمة أو تمنحنا إشارة إلى مكان تنفيذها للعملية القادمة.

مع انقضاء الساعتين وصلت السيارة إلى وجهتها واستمرت بالتقدم حتى لمح سبيروزار أحد الرعاة مع قطيع الماشية خاصته واقفًا كجذع نخلة وحيد في مهب الريح، على تخوم صحراء تتنفس الصمت. ملامحه منحوته من تعب الأيام، بشرته مصفوعة بلون الشمس، وعيناه، الضيقتان كشقّين في صخر، تراقبان قطيعه كملائكة لا تغفو. يرتدي شالًا قطنيًا باهت اللون، معقودًا على رأسه كالتاج، يقيه لهيب الشمس وزحف الرمل.

= لنقف هنا ونتحدث مع ذلك الراعي الكهل.

توقفت السيارة، ترجل منها سبيروزار وتقدم من الراعي الذي كان في الخمسينيات من العمر. ثوبه البسيط يتماوج مع الريح، مرقّع عند الركبتين، تفوح منه رائحة حليب الماعز والدخان. في يده عصا طويلة، ممسوكة بثقة البدوي الذي تعلّم من الصمت أكثر مما تعلّم من الكلام. خطواته ثابتة على الرمال الناعمة، يعرف الممرات الخفية، وآبار الماء القديمة، كما يعرف أسماء كل شاة من قطيعه...

= سيد محسن، من فضلك ترجم للراعي ما سأقوله.

= حسناً.

= صباح الخير أيها الراعي.

= صباح النور سيدي.

= لقد سمعت أخباراً عن تعرضكم أنتم كرعاة في هذه المنطقة للتهديد و

الطرد، فهل هذا الكلام صحيح؟

= إن بعضه صحيح، لقد تعرضنا لذلك بالفعل لكن ليس في هذه المنطقة بل هناك.

وأشار الرجل بيده إلى منطقة بعيدة عند بدء السلسلة الجبلية تماماً.

= لا أحد يسمح له بالاقتراب من تلك الجبال أبداً.

= ومن الذي قام بتهديدكم؟

= رجال ملثمون، بعضهم مسلح.

هز سبيروزار رأسه.

= شكراً لك سيدي.

= أهلاً بكم.

مضى الراعي في طريقه في حين نظر محسن إلى سبيروزار.

= ماذا الآن؟ هل انتهت رحلتنا مبكراً هنا ...؟

= بالطبع لا، سنقترب من الجبال بحذر لنرى ما سيحدث، وفي حال ظهور أي أحد نخبرهم بأنني سائح هنا وأنت دليلي.

= وما الذي تتوقع رؤيته هنالك؟

= سنرى بأنفسنا، هيا بنا.

مضى سبيروزار ومحسن باتجاه سفح السلسلة الجبلية كيرثار بفضول لا يوصف مختلط مع قلق يتسلل كنسمة حارّة في ليلة صيفية. الرمال تحت عجلات السيارة تتطاير كالشرر، وكل خطوة تقربهما من مجهول مشحون بالغموض والتوتر، وفي قلبيهما، ينبض شعور متقلب بين الحذر والرغبة في الكشف عن أسرار سفوح كيرثار، حيث ينتظرهما ما لا يُتوقع. إنهما قاب قوسين أو أدنى من حافة مجهول قد يكون أخطر بكثير مما يجول حتى

في خيال كاتب متخصص في روايات الرعب.

*****

الفصل السادس

روسيا

موسكو ...

اقترب ديميتري من والدته ستيلّا بخطى مترددة وثابتة في آن، وكأن قراره يسبق لسانه بثوانٍ. نظر في عينيها العسليتين المتعبتين من سهر الحياة وميراثها الذي أثقل كاهلها، وقال بصوت خافت يحمل تحت طبقاته جدية وإصرار:

= أمي... أحتاج كل ما ادخرته من مال. فغداً سأسافر إلى دبي.

جزعت ستيلا من الطلب.

= دبي !؟ وما الذي ستفعله في دبي بني؟

ابتسم ديميتري.

= لقد ربحت على إحدى مواقع الانترنت جائزة وقدرها مليون دولار أمريكي في مسابقة لحل الأحاجي والشفرات، ويجب استلامها غداً حصراً في دبي

تغيرت ملامح وجه الأم بالكامل وقالت بسعادة خجولة مترددة على حافة الشك والذهول.

= هكذا ببساطة، مليون دولار دفعة واحدة.

احتضنها ديميتري.

= أجل أماه، ستتغير حياتنا بعد اليوم إلى الأبد.

كان في حساب ديميتري البنكي ما يكفي من المال ليشق أول خطوة في مغامرته المنتظرة. جلس إلى حاسوبه، وحجز تذكرة سفر إلى دبي، موعدها الثالثة بعد الظهر.

بعد أن أُغلقت نافذة الحجز أمامه، نهض من مقعده وكأن شيئاً بداخله بدأ يتحرك بثقة. خرج من المنزل بخطى ثابتة، لكنه كان يحمل في قلبه رعشة لا تشبه الخوف، بل أشبه بنداء القدر. اتجه إلى السوق السوداء، وهناك، تحت ظلال الصفحات الرمادية للعالم السري، حول مدخراتهم من الروبل الروسي إلى الدولار الأمريكي، وكأنّه يبدّل جلد الرحلة نفسها: من وطنٍ يعرفه إلى مغامرة لا تشبه شيئاً.

*****

الإمارات العربية المتحدة / دبي

جزيرة النخلة ...

كان المساء قد أسدل ستاره الأرجواني على سماء الإمارة المتلألئة، عندما وقف ديميتري تحت نخلة باسقة تشعّ سعفاتها كأنها تيجان ملوكية، عند مدخل جزيرة النخلة، يراقب دبي وهي تتوهّج تحت أضواء الذهب والحداثة. في الأفق، كان برج خليفة يشق الفضاء بجرأة معماريّة، كرمح ضوئي ينغرس في قلب السماء.

تنشّق ديميتري عبير المساء المختلط برائحة البحر والمجد الحضاري، وتفحّص المكان بدهشة القادم من بلاد مختلفة. كل شيء هنا يوحي بالكمال: الأرصفة اللامعة، السيارات التي تهمس بدلاً من أن تزأر، والمدينة التي تنبض كساعة سويسرية بلا خلل.

بعد ربع ساعة من الانتظار، توقفت سيارة سوداء أنيقة على جانب الطريق، وترجل منها شاب بملابس إماراتية تقليدية، الشمس المحتضرة تلاعب بياض دشداشته، وبدا وكأنه يبحث عن وجه مألوف في مدّ العابرين.

ابتسم له ديميتري وأشار بيده في تحية ودودة، فالتقط هيثم الإشارة، وردّ الابتسامة بخفة، وسار نحوه بخطوات واثقة كأن الرمال نفسها تمهّد له الطريق.

= الحمد لله على سلامتك سيد ديمتري.

= شكراً سيد هيثم.

= اصعد إلى السيارة وهيا بنا إلى الفيلا.

بعد مضي خمس دقائق من السير المتأمل وسط هدوءٍ نادر على شاطئ دبي، توقفت السيارة أمام فيلا تغفو بهدوء عند بداية جزيرة النخلة، كما لو أنها انتُزعت من حلمٍ شرقي ووُضعت هنا بعناية فوق صفحة البحر.

ترجل ديميتري وهيثم، وبينما كان النسيم يحمل نكهة البحر وشيئًا من صدى المدينة البعيدة، رفع ديميتري بصره نحو البناء. الفيلا لم تكن مجرد سكن، بل كيانٌ له ذاكرة. جدرانها بلون العاج، مزينة بنقوش خفية لا تراها العين من النظرة الأولى، وكأنها شيفرة لا تنفتح إلا لمن يطرق الباب بنيّة صادقة أو بفضول لا يُرد. شرفاتها المتموجة تحاكي أمواج الخليج، وسقفها المائل بلون النحاس الباهت بدا وكأنه يستدعي العاصفة القادمة أو يودّع شمسًا غاربة. الأشجار التي تحيط بها لا تصدر ظلًا، بل تحرسها بصمت، أما الباب الخشبي العتيق ذو المقابض البرونزية فوقف كحاجز بين عالمين، عالم الواقع وعالم لا يُفتح إلا بكلمة سرّ أو مصادفة مُرتّبة بعناية من القدر.

أخرج هيثم مفتاحًا داكن اللون، تتخلله زخارف قديمة كأنها مستوحاة من كتب المنجّمين، ومدّه إلى ديميتري.

= هاك المفتاح افتحها بنفسك.

تناول ديميتري المفتاح بحذرٍ يشبه التوق، وهو يدرك في أعماقه أن ما ينتظره خلف ذلك الباب ليس مجرد غرفة... بل بداية القصة الحقيقية. فتح الباب ودخلا.

= تجول في الأرجاء كنظرة أولية وللتأكد من سلامة كل شيء.

تسللا عبر أروقة الفيلا بخطوات هادئة، وكأنهما يخوضان رحلة عبر متحف يتنفس الحياة والفخامة في كل تفاصيله. الأسقف المرتفعة تزينها زخارف دقيقة تنبض بالفن، بينما تشرق أنوار الثريات الكريستالية لتعانق الأرضيات الرخامية التي تعكس ألوانها كلوحة فنية حيّة. الجدران تحكي قصصًا من

الزمن عبر لوحات فنية نادرة. الأثاث فخم يلامس الذوق الرفيع في أبهى صوره. والنوافذ العملاقة تتفتح على حدائق غنّاء، حيث يختلط عبير الياسمين بنسمات الهواء العليل، فتنسج مشهداً يسر القلب والعين.

شعر ديميتري في تلك اللحظة أن مبلغ **25** مليون لا يساوي سوى قطرة في بحر عظمة هذا الصرح الساحر، الذي هو أكثر من مجرد بيت، بل تحفة متكاملة تجمع بين الفن والراحة والحلم.

= هل كل شيء على ما يرام ؟؟

= فيلا من دنيا الأحلام !! ..

= أخبرتك أنها ستأسر قلبك. الآن أعذرني سيد ديميتري فأنا مرتبط بموعد وعلى المغادرة، تشرفت بلقائك ومعرفتك وأتركك لتجرب الفيلا هذه الليلة وموعدنا غداً صباحاً على الساعة التاسعة.

= إلى اللقاء سيد هيثم، تشرفت بمعرفتك أيضاً.

وقف ديميتري وحده في صالة الفيلا، والسكون من حوله يُضخم من وقع أفكاره التي كانت تتسارع كأنها ضوء يخترق الزمن. في عينيه بريق سؤال واحد:

أين يمكن لرجل مثل جيانلوكا كامبيدانو أن يخبئ كنزه؟

استعاد تفاصيل الوشم الغريب المحفور على ظهر الممثل الراحل، تلك الآية القرآنية التي طالما حيّرت مخيلته: (وهزي إليكِ بجذع النخلة...).

هل يمكن أن يكون المعنى حرفيًا؟ هل يوجد في هذا المكان المترف ما يشبه نخلة تكون هي المقصودة؟

انطلق بخطى متوترة عبر الغرف، يتنقل بينها كما يتنقل العابر بين عوالم

متوازية، مبهورًا من ترف مفرط يكاد يلامس الخيال، وتحف ولوحات تحمل عبق قرون من الحكايات، وكل تفصيلة فيها تتحدث بلغة الجمال والذوق الراقي.

وحين صعد إلى الطابق العلوي، توقّف أمام غرفة خُصصت للمكتبة. وعلى

جدارها المقابل، فوق مدفأة حجرية أنيقة، انتصب مجسم رخامي لثلاث نخلات، تتجاور بصرامة مهيبة، وكأنها تحرس سرًّا.

خفق قلبه بسرعة.

هل هي المقصودة بالوشم ؟!

اقترب بخفة، وكلمات الآية تتردد في ذهنه كترنيمة قديمة: (هزي جذع النخلة...).

أمسك بجذع النخلة الأولى وحركه إلى الأمام، فأذعن له بسلاسة.

أما الثانية، فعاندته ولم تستجب إلا بعد أن حركها إلى الخلف.

ثم الثالثة، فتحركت معه إلى الأمام مجدداً.

وفجأة دوى في الغرفة صوت خفي كأن الجدران تنفست. دارت المكتبة العتيقة من مكانها ببطء، في حركة نصف دائرية صامتة كأنها رقصة عفريت يخرج من قمقمه، لتكشف عن غرفة مخفية تغوص ثلاثة أمتار في أحشاء الجدار، وفي قلبها استقرت خزنة فولاذية هائلة الحجم.

اقترب ديميتري من الخزنة، وقد اشتعل قلبه كمن يسير نحو لحظة وُلد من أجلها.

نظر إلى لوحة الأرقام... عليه إدخال أربعة أرقام.

ابتسم ابتسامة تعرف الطريق، وأدخل: 1 - 9 - 2 - 5

سورة مريم 19... والآية التي عشقها جيانلوكا حتى الموت 25.

صدر عن الخزنة صوت ناعم، وانفتح الباب ببطء، ليكشف عن لُبّ الحكاية:

ذهب يلمع كالنار في ليل الصحراء، مجوهرات تتلألأ كنجوم الثريا المتجمعة، ورزم من ورقة العشرة آلاف دولار، تفيض على حواف الرفوف.

ثروة خرافية.

كنز لا ينتمي لهذا العالم.

ابتسم ديميتري بانتصار، ومدّ يده يتحسس أثر الضربة القديمة على رأسه.

قبل عام، كادت تلك الضربة تودي به، لكنها اليوم. فتحت له بوابة العبور نحو حياة لم يكن يجرؤ على تخيّلها حتى في أحلامه الأكثر جنونًا.

والآن، كيف سيتصرف؟

سؤالٌ ثقيل ارتسم في ذهن ديميتري وسط صمتٍ مفعم بالدهشة.

أعاد عدّ النقود بدقّة العارف بقيمة اللحظة: خمسون مليون دولار استقرت بين يديه كقدرٍ مكتوب بماء الذهب. اقتطع منها ستة وعشرين مليونًا ثمناً للفيلا، وحجز مئة ألف لتكون زاده في أيامه الأولى. ثم، وكمن يطمس آثار معجزة، أعاد النخلات الرخامية إلى وضعها الأول، فعادت المكتبة تدور ببطء كصندوق أسرار يُغلق على سره مرة أخرى، وتماهى كل شيء مع سكونٍ خادع.

جلس أمام الشاشة الكبيرة، يلفه وثيرُ المقعد كحضنٍ ناعم لحياة جديدة. عيناه تسبحان في الفراغ، وروحه تتقلب بين واقعٍ فاق الخيال وتوقعاتٍ لم يعد لها سقف. أمسك بجهاز التحكم وبدأ يتنقل بين القنوات، لا يبحث عن شيء بعينه، بل كأنما يختبر شعور أن يمتلك العالم.

لكن ما لم يكن يبحث عنه... وجده.

خبرٌ عابر على إحدى القنوات الأجنبية شدّ انتباهه من أول كلمة، تسلّل إلى يقظته كهمسة شيطان. لم يكن مجرد عنوان، بل شيفرة جديدة، يد خفية تحرّك الأحداث عن بعد، وتكاد تهمس له: هذا هو الكنز الحقيقي الذي من أجله تلقيت الضربة على رأسك منذ عام.

*****

الفصل السابع

باكستان / كراتشي

جبال كيرثار ...

زحفت السيارة ببطء كأنها تحترم جلال المكان، تتهادى فوق الطرق الوعرة المؤدية إلى سفوح جبال كيرثار، حيث ترقد الصخور مثل شهود عيان على أسرار لا يجرؤ الزمن على البوح بها. توقف المحرّك عند عتبة الغموض، وترجّل سبيروزار بخطى واثقة، تبعه محسن وهو يتلفّت من حوله كمن دخل نصًا غامضًا لا يعرف عنوانه.

مدّ سبيروزار عينيه عبر المساحات القاحلة التي تلتف فيها الأرض حول نفسها كأنها تخبئ شيئًا، تأمل الحصى الساخن، والتلال التي بدت كأنها تنصت. لا شيء يُرى، لا صوت يُسمع. كانت الطبيعة بكامل طقوسها تراقب صامتة.

قال سبيروزار وهو يشير إلى سفحٍ صخري حاد:

= دعنا نتسلق الجبل قليلا ... فكثير من الأسرار لا تكشف إلا من الأعلى.

شرعا بالتسلق، كمن يتسلّق طبقة من التاريخ المطمور. كانت الصخور تتفتت تحت الأقدام، والريح تعصف من بين الشقوق بصوتٍ خافتٍ كأنها تهمس بأسماء من مروا قبلهم من دون أثر. امتزج التعب بالحذر، وراح العرق يتسلّل من الجباه ليلتقي بالتراب، في طقسٍ شبه مقدّس بين الإنسان والجبل.

وفجأة... كُشف الستار عن المفاجأة.

من بين نتوءين حجريين، انبثق رجلان ملثمان، خرجا من رحم الجبل ككائنين حارسين لما لا ينبغي معرفته. كانا يحملان بنادق سوداء مستعدة للإطلاق عند اي حركة خاطئة. وقف أحدهما كتمثال منحوت من وعيد وتهديد، بينما تقدم الآخر خطوةً إلى الأمام، وصوته الجاف يخترق سكون

الهواء:

= توقّفا فورًا... ماذا تفعلان في هذا المكان ؟

تبادل سبيروزار ومحسن النظرات. لم يكن هناك مجرد خوف في عيونهما، بل أيضا ارتعاشة الخيط الأول من الحقيقة حين يُسحب ببطء من بين طبقات الصمت. أجاب محسن بثبات مصطنع.

= السيد هنا سائح أجنبي وأنا دليله السياحي في المنطقة.

= وما الذي سيراه في هذه الجبال الجرداء؟

= إنه يهوى تسلق الجبال.

نظر إليه الرجال نظرة تهديد تنم عن عدم التصديق المطلق لكلامه.

= هل تهزأ بنا؟

ثم مال على زميله وهمس له ببضع كلمات، هز الآخر رأسه بالموافقة وهو يتمعن في معالم وجه محسن بشكل دقيق، ثم رفع بندقيته وصوبها باتجاه سبيروزار ومحسن.

= ارفعا أيديكما وامشيا أمامنا.

= لماذا؟ ما الذي فعلناه؟

= هذا ليس من شأنك، منذ هذه اللحظة عليك الإجابة واتباع التعليمات فحسب إن كنت تريد البقاء حياً.

نظر محسن إلى سبيروزار نظرة فيها الكثير من القلق والخوف.

= يقول الرجل أن علينا المشي أمامهما حفاظا على حياتنا.

لم ينطق سبيروزار بحرف واحد. مضى صامتًا كمن دخل للتو نفق قدر لا رجعة فيه. خطواته تسير في نغمات متقنة من الهدوء المصطنع، بينما عيناه تمسحان تفاصيل الصخور، يقيس كل ذبذبة في الهواء، ويدرك أن أي حركة

زائدة قد تُقرأ كتهديد. خلفه تبعه محسن، بنفس الثقل، كأنهما يسيران في جنازتهما دون نعش.

الجبال من حولهما بدت كأنها تنكمش وتبتلع ما يمر بينها، والطريق صار يضيق أكثر فأكثر حتى انتهى بهم عند فم كهف أسود، نافر وسط الجبل، لا يفصح بشيء سوى الصمت المطبق. مدخله ضيّق، لا يتسع إلا لمرور ثلاثة أجساد، كأنما صُمّم لابتلاع الغرباء.

قال أحد الرجلين ببرود:

= ادخلا أمامنا...

دخل سبيروزار أولاً، تسبقه عيناه أكثر من قدميه. كان الداخل أشبه بممر بين الحلم والكابوس؛ جدرانه الحجرية مضاءة بفوانيس صدئة معلّقة كل عدة أمتار، تخلّف ظلالًا راقصة تُمزق السكون وتضخّم التوجس. رائحة الرطوبة ممزوجة برائحة معدن قديم، والهواء ساكن حد الرعب، كأنه نُزع من صدور المسلحين.

تعمقوا في بطن الجبل لأكثر من ربع ساعة، حتى انفتح الممر على ساحة واسعة تُشبه جوف كائنٍ أسطوري نائم. سقفٌ عالٍ مشقق، وأرضية تتفرع إلى ممرات كأذرع أخطبوط حجري. لا أصوات سوى وقع أقدامهم، كأن الجبل نفسه يراقبهم دون أن يتكلم.

توجه أحد الحارسين إلى باب معدني سميك بلا معالم، فتحه دون جلبة. سمعا الآخر يأمر:

= ادخلا...

نفذا الأمر دون تلكؤ أو مجادلة.

كانت الغرفة واسعة ومجرّدة من كل حياة، يضيئها مصباح واحد من السقف، يُسقط ضوءًا أبيضَ قاسيًا في المنتصف، كأنه يحاكم كل شيء تحته. في الداخل ثلاث كراسٍ معدنية، بلا وسائد، بلا ترف، بلا شفقة.

أشار الحارس إلى سبيروزار، فجلس. اقترب منه وربط معصميه وكاحليه

بشريط لاصق رمادي خشن، لا يُصدر صريرًا لكنه يُعلن الهيمنة. لم يقاوم، بل اكتفى بأن ينظر للأمام كما لو أنه في مسرحية قُدر له أن يلعب فيها دور الضحية الصامتة.

ربطوا محسن بنفس الطريقة، ثم غادرا.

وحدهما الآن. باب فولاذي انغلق خلفهما كختم نهائي، وأطبق على الغرفة صمت كثيف. لم يبقَ سوى نبض القلب يتردد صداه في الجمجمة، وإحساس غامض بأن الجبل كله... بدأ يهمس.

نظر محسن إلى سبيروزار بقلق.

= أين تظننا الآن؟

= من الواضح أننا في عمق مقر المنظمة، والأمور لا تبشر بالخير.

= هل سنتعرض للأذى برأيك؟

= على الأرجح، فنحن نتعامل مع منظمة إرهابية، ستستجوبنا ثم تتخلص منا إن لم تحصل على شيء مفيد.

= يا إلهي!

= أملنا الآن يعتمد على والدك الشيخ كريم أن يبحث عنا هنا بعد تأخر عودتنا إليه، إن حالفنا الحظ وأسعفنا الوقت.

بعد مرور نصف ساعة، سمعا صوت المفتاح وهو يدور ببطء في القفل، ثم انزلق الباب على مهل ليفتح على مصراعيه. كان الرجلان نفسهما، لكنهما تنحيا جانباً، ليكشفا عن حضور شخص ثالث. رجل باكستاني يحمل على وجهه ملامح القسوة التي تليق بسليل صراعات بلا نهاية؛ جبينه عريض متجعد كأنه نقش من حكايات الحقد الذي يعمي البصيرة، وعيون سوداء نافذة تحترق بنيران الرفض والجنون. لحيته الكثيفة، السوداء كالليل، تكسو فكه القوي كغطاء من الظلال، وشعره ملفوف بعمامة باهتة تعكس الرغبة بالإقصاء والتمرد.

كان يرتدي ثوبًا تقليديًا خشن الملمس، بلون ترابي قاتم، يشي بأنه رجل

اعتاد على العيش في قسوة الطبيعة، قبضته تتشنج بشدة ممسكةً بعصا معدنية غليظة، وكأنها أداة لعقاب قادم لا مفر منه، ووجهه جاد ينبعث منه تهديد صامت يقطر برودة وموت. كان محسن يحدق به في صمتٍ محاط بصدمة عميقة لا تخطئها العين.

= **فاطر!**

= إذاً هذا أنت بالفعل كما أخبراني، ما الذي تفعله هنا؟ ومن هو مرافقك الأجنبي هذا؟

فكر محسن للحظات، لكن فاطر صرخ في وجهه.

= أجب بسرعة.

= إنه طبيب، يحل ضيفا على والدك الشيخ.

= ضيف أجنبي! وما جنسيته؟

= إنه أمريكي.

= عميل مخابراتي إذن.

= أخبرتك أنه طبيب.

= أجل سمعتك، وقد جاء ليعالج الماشية في هذه الوديان ويتسلق الجبال! لقد حذرتك أنت ووالدك من الوقوف في وجه المنظمة فماذا كان ردكما على تحذيري، اقتحام مقري بصحبة عميل أمريكي. ستدفعان الثمن غاليا

ثم التفت إلى الرجلين خلفه.

= جهزا الكاميرا فورا سيعرف الناس حول العالم عقوبة من يتآمر على منظمتنا.

نظر إليه محسن بغضب وحقد.

= ما الذي ستفعله أيها الولد العاق؟

نظر إليه فاطر بسخرية.

= سأتعامل مع الماشية التي تتسلق جبالنا بالطريق التي تناسبها. ابدأوا أولا بالعميل الأجنبي ثم بالمسلم العاق، ليرى الجميع خاصة الشيخ كريم عاقبة الوقوف في وجهنا.

ثم استدار الرجل بثبات وحزم، وغادر الغرفة كأنه شبح اختفى في الظلام، بينما جلب أحدهما كاميرا متقدمة مثبتة على حامل بثلاث قوائم، وضعها ببرود ثقيل مقابل كرسي سبيروزار. أما الآخر، فاقترب ببطء من الخزانة، وأخرج سيفًا براقًا بحدٍّ قاتل، لامعًا تحت ضوء الفوانيس الخافتة وكأنه قطعة من الجحيم. صرخ محسن بالإنجليزية.

= سيد جان... انهم ينوون ذبحنا و تصوير العملية!

تشنّجت عضلات سبيروزار، وبدأ القلق يتسلل إلى عقله كسم بطيء، تصاعدت حرارة الخوف في صدره، وهو متأكد من كلام محسن. هذا ليس مجرد تهديد عادي... بل مشهد إعدام مُصوَّر سينتهي بحياةٍ تنطفئ.

قال الرجل الذي ينظم الكاميرا بصوت جاف وحاد:

= حرّك كرسي الباكستاني بعيدًا عن مجال التصوير.

رفع الرجل الضخم كرسي محسن بقوة، كأنه يرفع صندوقًا ثقيلًا، ووضعه بحزم خلف عدسة الكاميرا. ثم توجّه بثقة دامية نحو سبيروزار، سيفه يلمع كأنه يرسم قدره المميت.

صاح الرجل خلف الكاميرا:

= ابدأ كلامك المعتاد بعد ثلاثة ... واحد... اثنان... ثلاثة...

في اللحظة التي هم فيها الرجل بالسيف، ترجم عقل سبيروزار كل خوفه إلى قوة جامحة. توسعت حدقة عينيه فجأة بشكل مخيف، وارتسم على وجهه مزيج من الرعب والقوة، ثم انقلب المشهد: الرجل أمامه سقط فجأة كدمية مقطوعة الخيوط واصطدم بالأرض بقوة بوجه جامد ميت.

صدى سقوط السيف على الأرض ضجّ في الغرفة، حيث وقف الرجل الثاني مذهولاً، ثم أسرع نحو رفيقه يخاطبه بلهفة وخوف:

=عبد العليم! ما الذي حدث لك؟

ضرب وجهه بيده في محاولة يائسة لإيقاظه، لكنه لم يتحرك. نظر إلى سبيروزار بعينين تحترقان بالريبة والحقد، ولكن قبل أن يرتكس لما حدث، توسعت حدقتا عيني سبيروزار من جديد، وأخذ الموت يتسلل إلى جسد الرجل الثاني كسرطان حتى سقط بجانب شريكه ميتاً دون أن يلفظ كلمة أو يقدم على حركة.

خيم الصمت على الغرفة مجددا، وكانت الدهشة تكسو محيا محسن مع لمسات رعب حقيقي، وهو يراقب المشهد وكأنه في كابوس يتمنى الاستيقاظ منه على الفور.

من هذا الطبيب بحق السماء وكيف فعل ذلك؟

تساءل بصمت.

أما سبيروزار، فقد تحولت ملامحه إلى تركيز مكثف، فهو يدرك جيدًا أن الوقت ضدّه، وأن فاطر أو أحد الحراس يمكن أن يعود في أي لحظة. لم يكن هنالك سوى تصرف يتيم مناسب ليفعله، أسقط نفسه مع الكرسي أرضًا، محدثًا صوت ارتطام يشبه صفعة في صمت المكان، ثم بدأ يتحرك ببطء نحو السيف، وبحركة سريعة وحاسمة، قص جزءاً من الشريط بحذر بنصل السيف، ثم شد قبضتيه بعزيمة حتى تمزق القيد بالكامل وتحررت يداه. مزق قيود قدميه أيضا، ثم وقف بثبات رغم توتر الأعصاب، توجه نحو محسن، وبدأ يحرره من قيوده بدوره، فيما كان وجه محسن مزيجاً من الدهشة والارتياح.

= من أنت أيها الطبيب جان؟ وكيف فعلت ذلك؟

= إنه حديث يطول سيد محسن، ولا وقت للشرح الآن، المهم أن نتصرف بسرعة.

= وما الذي يمكننا فعله؟

= هل هاتفك بقي معك؟

= لا لقد أخذوه.

فكر سبيروزار قليلا وهو يتلفت حوله باحثاً عن أمل، عن مخرج من مأزقهما. فتش الرجلين الميتين على الأرض، وسرعان ما وجد هاتفاً محمولاً بحوزة أحدهما.

= لا يمكننا مغادرة المقر فهو يعج بالمسلحين، خذ اتصل بوالدك وأخبره بوضعنا وبأن عليه أن يخبر الأمن مباشرة ليتابعوا موقعنا عبر نظام تحديد المواقع على هذا الهاتف.

= لكن على الأرجح لا تغطية في هذا المكان النائي.

= على الأغلب هنالك، لقد شاهدت برج إشارة على أحد الجبال المحيطة، كما أن وجود الهاتف بحوزة الرجل دليل على إمكانية الاتصال.

قام محسن بمحاولة الاتصال بوالده، وبعد عدة محاولات نجح بالفعل، فوضعه في صورة الوضع وبما يجب عليه فعله ثم أغلق الخط بسرعة.

تقدم سبيروزار بخطى متأنية وثابتة، واضعًا أذنه على الباب يسترق السمع بكل حذر، لكن الساحة خارج الغرفة كانت صامتة، لا حركة، لا همس، ولا حتى نسمة هواء. فتح الباب بهدوء كأنه يحاول ألا يوقظ جبلًا نائمًا، وألقى نظرة خاطفة، فوجد المكان خالياً تمامًا. بسلسلة من الأفعال الهادئة، سحب المفتاح من الخارج، وأغلق الباب بإحكام من الداخل، كأنه يرسخ حاجزًا من الأمان بينهم وبين المجهول.

همس إلى محسن بصوت خافت لكنه حازم:

= ساعدني في تقييدهما على الكراسي و تكميم أفواههما ، فلا مجال لأي خطأ.

دقائق وأنجز ذلك. وقف سبيروزار أمام أحد الرجلين وركز نظره

على عينيه؛ فجأةً انكمشت حدقتا عيني سبيروزار حتى كادتا تختفيان، ثم توهج جسد الرجل بهالة غامضة، وفتح عينيه بذهول وحيرة، حاول ان يصرخ أو يفك وثاقه عبثًا. ثم كرر سبيروزار الأمر نفسه مع الرجل الثاني، بينما وقف محسن يراقب المشهد بذهول مشوب برعب حقيقي.

*****

مرّت ساعة كأنها دهر من الصمت، ثم اجتاحت المكان أصوات الحوامات كقطعان من الصواعق تخترق السماء، وزأرت محركات السيارات الأمنية زاحفة إلى سفوح الجبال في مشهد من الفوضى المنظمة. تلا ذلك رذاذ رصاص كثيف في الخارج، ثم اقترب أكثر وانتشر في أرجاء شبكة الكهوف، تتخلله انفجارات عنيفة تُهز الأرض والجدران، وانتشرت سحب الدخان والرماد في كل مكان. استمر القتال المروع أكثر من ساعة، ثم انحسرت أصوات المعركة شيئًا فشيئًا، كأنّ الليل نفسه استعاد سيطرته.

بعد دقائق سمع سبيروزار ومحسن، طرقات عاتية على الباب، وصوت فيه كثير من الأمان والدعم يتسلل إلى الداخل :

= سيد محسن ، نحن قوات الأمن ، هل أنتما في الداخل؟

تحرك سبيروزار ببطء، وعندما فتح الباب، وجد أمامه رجالاً يرتدون بزات أمنية رسمية، عيونهم كالسهام، وأسلحتهم معلقة كالوعود الصارمة بالعدالة.

خرج الجميع من الكهوف. تنفسوا هواء الغسق البارد تحت سقف السماء المفتوحة من جديد، حيث كانت الأصوات تخفت وألوان الغروب تتلاشى في الأفق. المعتقلون مكبّلون على الأرض، وبينهم فاطر، الذي صرخ بنبرة تهديد ووعيد حين رأى أخاه محسن:

= تعتقدون أنكم انتصرتم؟! العملية الكبرى على الأبواب، ولن يتوقف قطارها مهما فعلتم. آلاف غيري في الانتظار ليخلفوني في زعامة المنظمة، ومستعدون ليواصلوا المسير. لن تنطفئ جذوة الثورة مهما فعلتم. سينطلق عهد جديد من العمليات، والانتقام قادم لا محالة...

وقف سبيروزار ومحسن ثابتين، كأنهما جلمود يصد عاصفة القدر، عاقدين العزم على أن يكتبوا نهاية مختلفة، رغم ما يحوم في الأرجاء من ظلال التهديد والغدر والخطر.

*****

الفصل الثامن

الإمارات العربية المتحدة.

دبي.

جزيرة النخلة.

كان الليل ممددًا على المدينة كجسدٍ نائم، لا يقطعه سوى وميض شاشة تلفاز أمام وجه ديميتري الجامد. لم يكن يولي انتباهًا لأي شيء... حتى انقطع البث فجأة، وعاد بصورة باهتة يظهر فيها مذيع باكستاني يتلعثم:

((شفرة جديدة... تهديد على الهواء... المنظمة تتحدّى العالم... من يفك الشفرة و يقي العالم من عملية ارهابية جديدة))

لم يسمع ديميتري ما تبقى. كل حواسه انتفضت. تمدّد داخله ذاك الصمت الثقيل الذي يسبق العاصفة، ثم اندفع كبرقٍ أصمّ نحو هاتفه، يبحث... ينبش... يعثر. هناك كانت الشفرة.

قرأها بعينيه أولاً. ثم بعقله. ثم بحدسه.

ثوانٍ فقط... وتدفّق في رأسه جدولٌ من المعاني، تكوّنت كالنيزك داخل جمجمته، ومن ثم احترقت عند اكتمال الفهم.

شهق. حدّق من زجاج النافذة..

((برج خليفة ؟! يا الله... إنهم على وشك إشعال القيامة !))

نظر إلى ساعته...

التاسعة إلا ربع.

أمامه دقائق قليلة فقط. لا وقت للشرح. لا وقت للبحث عن نافذة رسمية أو إرسال تقارير أو اتصالات عبثية. كانت الساعة تخونه، وكانت الأرواح المعلّقة في السماء تنتظر إشارة.

كان عليه أن يعود إلى ذلك العالم الذي تخلى عنه، حين كان هاكرا يخترق جدران البنوك والحسابات كما يخترق السهم الضباب.

جلس أمام الحاسوب... لم يشعر بنفسه، كانت أصابعه تتحرك وحدها، كأن روحًا أخرى تولّت زمام القيادة. مرّت دقيقة... ثم دقيقتان... ثم انفتح الحصن الرقمي أخيرًا.

وزارة الدفاع الإماراتية. قلب الحدث. آخر فرصة.

نشر الشفرة المذكورة مع ترجمتها كتحذير عاجل لهم:

(على الساعة التاسعة والنصف مساءً من تاريخ 7-6-2029 م ستخرج مسيراتنا من مدينة كراتشي متوجهة إلى مدينة دبي وستسقط برج خليفة ركاماً إلى الأرض، هذا عقاب المرتدين الذين خالفوا روح الشرق وتعاليمه وتشبهوا بحضارة الغرب الزائفة، وبدءاً من اليوم ستصبح جميع الأماكن المشابهة هدفا لعملياتنا القادمة)

وقف ديميتري في توتر. ثم تمتم:

(الآن... الكرة في ملعبهم) .

رفع عينيه نحو السماء.

في الخارج... كانت دبي نائمة.

وفي الداخل... كانت الثواني تنزف.

في تلك الأثناء وعلى قمة جبل شاهق من سلسلة جبال كيرثار في كراتشي، وقف رجل ملثم كظلال الليل، يرفع يده التي تحمل جهاز التحكم كيد شيطان مغمسة بالدماء. بصوتٍ خافتٍ محاطٍ بخشوعٍ غامض، تلا آية من القرآن الكريم، كأنما يستحضر قوة أسمى تبارك فعلته المشؤومة. ثم، بلمسةٍ واحدة، ضغط على زر صغير في الجهاز.

ومن ثمّ، انطلقت عشرة مسيرات محملة بالمتفجرات من مخابئها السرية الموزعة بعناية في الجبال المحيطة، تصاعدت بسرعة هائلة، تخترق السماء كسهام غضب تتجه صوب دبي. الهواء مفعم برهبة اللحظة، وكأن الأرض تحبس أنفاسها في انتظار المصير.

في دبي، تسارعت دقات القلوب واشتد التوتر، فقد وصلت الرسالة واضحة إلى وزارة الدفاع. وعلى الفور، أُصدرت الأوامر لأجهزة الرادار بأن تظل يقظة على مدار الساعة، وللقوات الصاروخية المضادة بالتحضير الكامل للإطلاق التلقائي.

حينما دخلت المسيرات المجال الجوي الإماراتي، كانت قوات الدفاع لا تزال في حالة استعداد متأخر، لكن قبل أن تلامس أهدافها، انطلقت صواريخ الاعتراض في السماء، تتعقب بدقة قاتلة كل واحدة من المسيرات المهاجمة.

تفجرت المسيرات تلو الأخرى في مشهد يحبس الأنفاس. تطايرت شظاياها كأمطار من نار في ليل دبي المتوتر، متساقطة على رمال الصحراء كأشلاء قاتمة.

هناك في الفيلا، كان ديميتري يقطع الغرفة ذهابًا وإيابًا، وجهه محمر من التوتر والقلق، عرقه يتصبب وكأنه يخوض معركة حياته. ولكن حينما انطفأت آخر مسيرة في السماء، خمدت النيران في صدره، وسقط على كرسيه متنفّسًا الصعداء.

همس في نفسه بامتنان عميق:

(الحمد لله الذي حفظ دبي أجمل شقيقاتها الستة و إحدى أجمل مدن العالم من آثار و آثام الإرهاب)

*****

باكستان.

كراتشي.

كانت سيارة محسن تشق الطريق عائدة إلى المنزل خلف رتل سيارات الأمن المحملة بالإرهابيين فيما يدور حوار ساخن بينه وبين سبيروزار.

= ألن تخبرني سيد جان كيف استطعت إفقاد الرجلين وعيهما عن بعد؟ وكيف جعلتهما يستردان وعيهما من جديد؟

فكر سبيروزار قليلا.

= سأخبرك، لكن هذا يبقى سر بيننا ويجب ألا يعرف به أحد اتفقنا ...؟

= بالطبع!

= إنها تقنية تنويم مغناطيسي حديثة قيد التطوير، وقد خضعت في الولايات المتحدة الأمريكية لجلسات تدريب مطولة عليها، لكنها تقنية سرية ويجب أن تبقى كذلك.

= حسنا، كما تريد، إنها تقنية فعالة وخطيرة للغاية على كل حال كما رأيت بأم عيني !! ..

وصلت السيارة إلى منزل الشيخ مجددا، وكان الجميع ينتظرهما بفارغ الصبر.

= أهلا بالأبطال.

= أهلا حضرة الشيخ.

= لقد كان وجهك خيرا علينا في أولها وفي آخرها كذلك حضرة الطبيب جان، أنت رهيب بالفعل، في يومين أوقعت بمنظمة تبحث البلاد كلها عنها منذ سنوات.

ابتسم سبيروزار وهو يفكر بينه وبين نفسه، إن القبطان باروناج هو الرهيب وهو الذي أسقط للمرة الثانية على التوالي إحدى المنظمات الخطيرة بفضل تحليله العلمي والمنطقي للأحداث والدلائل، إنه الجندي المجهول في الحكاية كلها.

= إن لي الشرف أن أخدم شعبا طيبا كشعبكم وأحميه من الإرهاب حضرة الشيخ.

= لقد كانت المنظمة تخطط لضرب برج خليفة في دبي منذ دقائق، لكن أحد الهاكرز فك الشفرة في اللحظات الأخيرة ونبه وزارة الدفاع التي أنقذت الموقف.

= مذهل، من هو هذا الهاكر المحترف والنبيل. ؟!

= لا أحد يعرف هويته بعد.

= وكيف حصلت المنظمة على مسيرات متطورة كتلك؟

= غالبا من السوق السوداء، ووصلت إليهم على الأرجح عبر ميناء كراتشي من خلال رشوة بعض الموظفين الفاسدين هنالك، فهذا يحدث أحيانا.

= وبربط الأمور ببعضها، فقد تم نقل المسيرات باستخدام عربات خاصة في اليوم الذي شاهدهم فيه الراعي فقتلوه إثر ذلك، ثم عثرت الشرطة على آثار عجلات السيارات هنالك والتي انتهت عند سفوح جبال كيرثار حيث تم نقل المسيرات يدويا بعد ذلك عبر الجبال.

ابتسم الشيخ بإعجاب

= على الأرجح هذا ماحدث، تحليل دقيق وذكي للغاية.

= إذا فقد كان ذاك الراعي شهيدا مجهولا، إذ فدى بحياته حياة آلاف من البشر الآخرين.

= تماما، وسأطالب السلطات بوضع نصب تذكاري له في ذاك الوادي عند سفح الجبل كتخليد له.

= هذه بادرة لطيفة للغاية ومعبرة جدا، وهل تتوقع استمرار المنظمة بعد اليوم؟

= على الأرجح لا، فبفضلك تم قطع رأس الأفعى اليوم وستتفكك المنظمة نتيجة لذلك.

= أرجو ذلك، وفاطر؟

= سينال فاطر العقاب المناسب له، لقد خرج من دائرة عائلتي منذ سنوات عديدة، منذ قتل أخاه يوسف، وهو بالنسبة لي كالغريب الآن وسأطالب السلطات بإنزال أشد العقوبات عليه.

حين حلّ المساء، ارتسم على الأفق لون خافت من الحزن تسلل إلى حنايا منزل الشيخ كريم، كان وداع سبيروزار والعائلة لحظة تتسرب فيها الدموع بصمتٍ ثقيل. لم يعرفوا بعضهم سوى يومين، صحيح، لكن تلك الأيام كانت كأنها سنوات حُفرت في القلب بحروف من ذهب وعمدت بأحداث عظيمة أنهت ليل الارهاب لتشرق شمس الأمان والسلام .

في نظراتهم، وفي صمتهم، كان ثقل الوداع يختلط بعمق الارتباط الذي لم يكن متوقعًا، كأنما كانت أرواحهم تودع بعضها بعضها، وتتبادل عهودًا صامتة باللقاء من جديد.

= ألا تبقى بضيافتنا لعدة أيام أخرى.

= أتمنى ذلك بالفعل سيدي، لكن على الرحيل لارتباطي بأعمال هامة. نلتقي في مناسبة أخرى بإذن الله.

= بإذن الله رافقتك السلامة.

*****

ميناء كراتشي.

يخت ميلافا.

وصل سبيروزار إلى يخته وسط هدوء الليل الساحر، حيث تتلألأ أضواء المدينة الحالمة والبعيدة كنجوم تتراقص على وجه المياه الصافية. دخل قمرة القيادة بخطوات واثقة، وضغط على زر **اسألني**، ليظهر له القبطان باروناج بابتسامته الهادئة.

بدأ سبيروزار يسرد له تفاصيل مغامرته الأخيرة بحماس متقد، وكأن كل كلمة تحمل في طياتها شعلة من الإنجاز والفرح مشوبة بلمسة من الحزن جراء فراقه لعائلة الشيخ كريم. كانت عيناه تلمعان ببريق التفاؤل، وصوته يحمل نفحة الانتصار التي صنعت من قصة كراتشي أسطورة ستروى على مر السنين.

= هذا رائع حضرة الطبيب مورفين مبارك لك إنجازك الجديد.

= إنه إنجازك وليس إنجازي قبطان.

= هذا تواضع منك حضرة الطبيب، بالمناسبة، تنويم مغناطيسي! سرعة بديهة أكثر من رائعة، لقد حافظت على سرك مجددا، وهذا أمر جيد على كل الصعد.

ابتسم سبيروزار.

= بقي أن نعرف من هو الهاكر الذي أنقذ مدينة دبي من الدمار بحرفيته العالية وضميره الصاحي وأخلاقه الاستثنائية.

= فيما يتعلق بالهاكر، بعد التحليل وربط جميع المعلومات حول العالم ببعضها، هنالك شخص تتوجه إليه الأدلة بقوة أنه المنشود.

شعر سبيروزار بالفضول العارم.

= ومن هو؟

= شاب روسي يدعى ديميتري.

= وكيف عرفت هويته؟

= هنالك ثلاثة أدلة على ذلك، الأول إصابته منذ عام بمتلازمة الموهوب (سافانت) التي أصبح على إثرها نابغة في حل الشفرات كما ذكرت وسائل التواصل الاجتماعي، الثاني هو حل كثير من شفرات العالم المستعصية منذ سنوات بعد تاريخ إصابته بالمتلازمة تماماً.

= والثالث ؟!

= الثالث وجوده في دبي يوم فكّ الشفرة وتهكير موقع وزارة الدفاع الإماراتية. فهل كل ذلك مصادفة؟

ابتسم سبيروزار.

= بالتأكيد لا، أنت رهيب حضرة القبطان باروناج.

أصدر القبطان ضحكته العميقة المحببة.

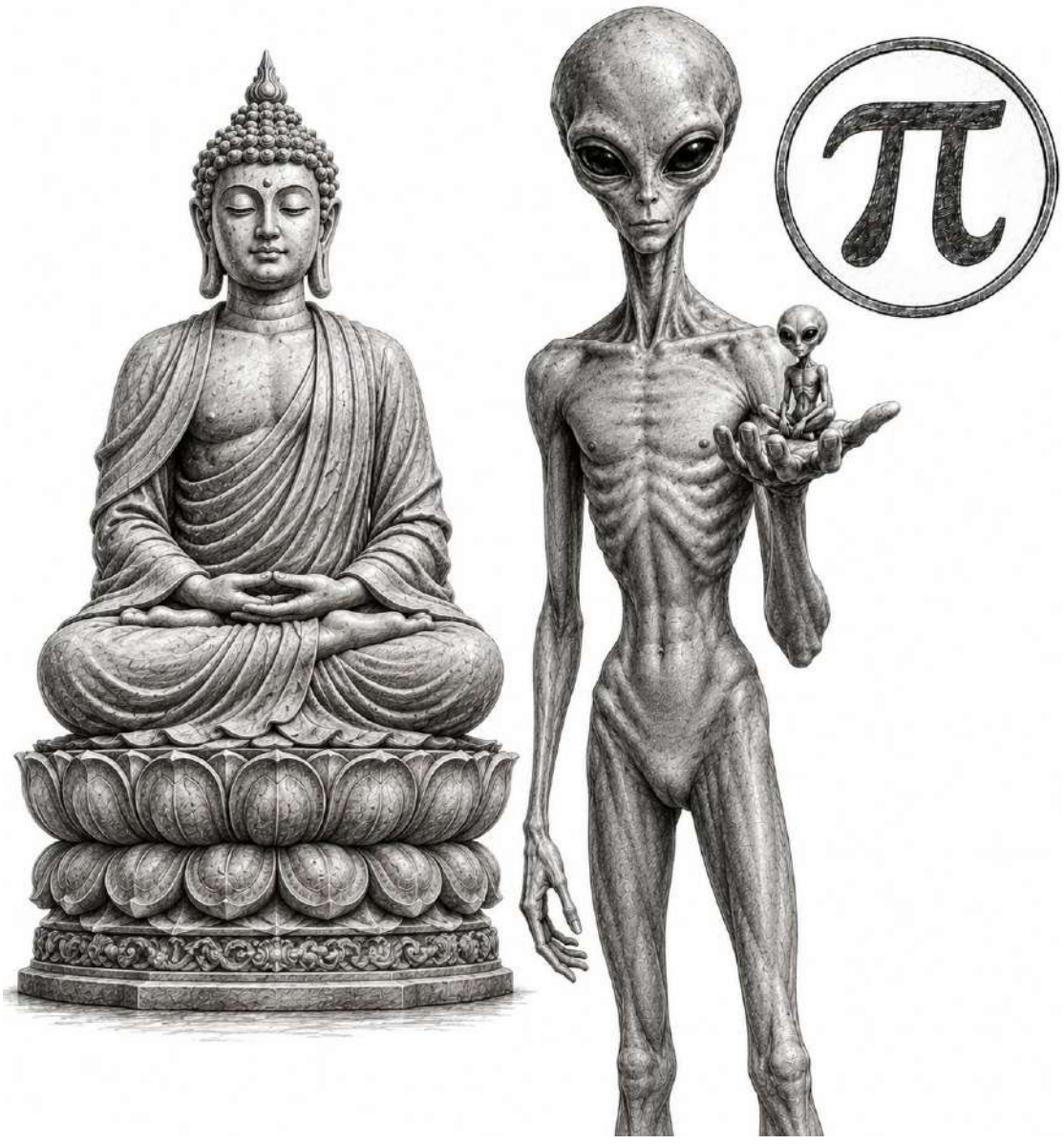
= إلى ميانمار إذاً. مع مغامرة جديدة. ؟!

= إلى ميانمار، والقيادة لك قبطان.

*****

الجزء الرابع

(هيكل أتاكاما)



الفصل الأول

تشيلي.

إقليم أتاكاما / أريكا.

مطعم نوستالجيا.

1977م... بحدود منتصف الليل...

سكنت المدينة تحت عباءة المطر، وتسللت رائحة الأرض المبتلة عبر شقوق الأبواب والنوافذ المغلقة.

في مطعم صغير عند طرف الزقاق، لم يبقَ سوى طاولة واحدة مأهولة، وكأنها الوحيدة التي قاومت النعاس.

اقتربت النادلة **إيزابيلا** من تلك الطاولة بخطى رشيقة وصوت خافت، مع ابتسامة دافئة من تلك التي لا تعرف الكذب، بملامحها التي تروي حكايات قديمة من جبال الأنديز، مزيجًا مدهشًا من نقاء الدم الهندي الأحمر وجمال الحزن الكامن في أعين أهل الجنوب.

هناك جلس شاب أشقر وسيم، متأنقاً على نحوٍ يثير الأسئلة.

كان يحدّق في زجاج الواجهة، يراقب قطرات المطر وهي تتسابق على الزجاج البارد عيناه لا تتبعان شيئًا محددًا، بل تغوصان في عالم لا تراه إيزابيلا.

هدوءه لم يكن طبيعيًا... بل كمن يحمل عاصفة في صدره يخشى أن تنفجر.

وكلما همّت بسؤاله إن كان بخير، تراجعت، لأن شيئًا ما في وقفته، في شروده، قال لها بصمت: (دعيه... هذا رجل لا يشاركه أحد في لحظاته الأخيرة مع الذاكرة.)

لم ينبس ببنت شفة، ولم تتحرك أصابعه نحو الشوكة والسكين، وكأن الزمن تجمّد عند طاولته، فيما بقية المكان استسلم للنوم.

أخيراً مالت إليه بهدوء يخترق فضاءه الشارد.

= أحيطك علماً سيد **ماكسيمليان** أننا سنوشك على إغلاق المطعم خلال

دقائق كالعادة. إن كنت ترغب بإنهاء وجبتك والعودة إلى منزلك.

التفت إليها بلا مبالاة للحظات ثم نطق بنبرة تنضح حزناً.

= منزلي! أنا لا أملك منزلاً آنسة إيزابيلا. كما تلاحظين أنا أمكث هنا حتى وقت متأخر كل ليلة.

= لا تملك منزلاً! أين تبيت كل ليلة إذاً؟

= في الحدائق العامة غالباً.

صاحت بدهشة.

= أنت مشرّد ؟ !

ابتلعت كلماتها بحياء وصمتت لثوانٍ.

= أقصد أن مظهرك لا يوحي بذلك! كما أنك تنفق الكثير على الطعام!

= ما أجنيه من مال أنفقه على الملابس والطعام لا أكثر.

= لكن الجوّ بارد للغاية ومطير أيضاً في الخارج.

صمتت للحظات أخرى ثم أردفت بابتسامة عطف.

= لديّ غرفة شاغرة في منزلي. يمكنك المبيت فيها هذه الليلة ريثما تدبّر أمورك غداً إن أحببت.

= هذا نبل ولطف بالغ من حضرتك. أشكرك. سيكون ذلك عرضاً منقذاً بلا شك من هذه الليلة العاصفة الهوجاء .

عند تمام منتصف الليل، أُغلقت أبواب المطعم أخيرًا بعد يوم هادئ لم يزر فيه المكان سوى العابرون. انطفأت الأضواء تدريجيًا، وظل الضوء الأخير ينعكس على الواجهة الزجاجية المبتلّة بالمطر.

خرجت إيزابيلا، بملامحها العتيقة التي تشي بأصولها من هنود تشيلي، تلف جسدها بمعطف رمادي طويل، تتأمل الشارع الخالي بنظرة شبه حزينة. ماكسيمليان كان ينتظرها عند الباب، بنفس سكونه الساحر المعتاد. تبادلا

نظرة سريعة بلا كلمات، ثم انطلقا معًا في صمت هادئ، يعبران الزقاق الرطب نحو شقتها القريبة.

*****

في تلك الليلة الماطرة، حين تواطأت السماء مع الوحدة، جلس ماكسيمليان ذو الثلاثة والثلاثين عامًا قرب مدفأة حجرية تئن من لهبها الخافت، مقابل إيزابيلا، الشابة ذات الملامح الأصلية والتجاعيد الخفيفة على جبهتها كأنها ترسم خريطة حياة أكبر من عمرها.

أمامهما كأسان من النبيذ الحار، تصاعد بخارهما ببطء بينما راح ماكسيمليان يروي — بصوت خفيض كالمطر على الزجاج — فصولًا من طفولة مغتالة، يتيمًا على هامش العالم، يعيش على هامش الأرصفة، يؤنس وحدته بعروض سحرية صغيرة يكسب منها ما يكفي ليبقى واقفًا يومًا آخر.

لم يلمس كأسه، كأنه يخشى أن يسكر قبل أن يُنهي الحزن ما تبقّى من وعيه. كانت عيناه تحكيان نصف القصة، والنصف الآخر يقطر من بين كلماته المتقطعة. شعرَت إيزابيلا بشيء داخلي يتحرك، ليس فقط تعاطفًا، بل انجذابًا إنسانيًّا لعزلته، لاحتراقه الصامت.

اقتربت منه، بخفة مَن يتقدّم نحو جرح لا يراه إلا هو، واحتضنته، كأنها تمنحه اعتذار العالم عن قسوته. شمّ عطرها — الذي يحمل نكهة الأرض بعد المطر — ثم رفع وجهه، وبحركة خاطفة كأنها اعتراف، طبع على شفتيها قبلة سريعة، مرتجفة، حارقة.

لم تتراجع. نظرت إليه بذهول غامض، لثوانٍ امتزج فيها دفء النبيذ، وسردُه الحزين، وجاذبيته الرصينة، في خليط دفعهما معًا إلى الانزلاق الصامت نحو الفراش، وكأن اللحظة اختارت نفسها دون إذن.

بعد أن هدأت العاصفة خارج الجدران، وبين الجسدين، جلس ماكسيمليان على حافة السرير. كان الصمت كثيفًا. ارتدى ملابسه على عجل، وعيناه تفرغان وجعًا خافتًا، كأن العلاقة لم تشفِ جرحًا بل أيقظته. حدّق في إيزابيلا طويلًا، بنظرة كانت تقول أكثر مما يستطيع أن يبوح.

= ما الذي تفعله؟ إلى أين أنت ذاهب في هذا الطقس السيء سيد ماكسيمليان؟

نظر إليها نظرة غريبة.

= شكراً على كل شيء آنسة إيزابيلا. أنت امرأة صالحة ونبيلة وتستحقين الأفضل.

أخرج من حقيبته الجلدية البنية رزم مال وضعها على الطاولة المجاورة له ثمّ لوّح لها بيده مودّعاً وضغط زراً في سوار معصمه وسرعان ما تشوشت الرؤية أمامها وبدا لها جسد ماكسيمليان يتحوّل تدريجياً إلى جسد غريب يوحي بمخلوق فضائي كما يصوّر عادةً في وسائل الإعلام وأفلام الخيال العلمي ثم تلاشى طيفه كلياً.

انتابت إيزابيلا نوبة من الذعر المتطرّف واعتدلت في جلستها في السرير لا تصدّق ما الذي حدث للتوّ. كادت تصرخ من الفزع وتطلب النجدة. لكنها سرعان ما استوعبت أنه ما من أحد سيصدّق روايتها العجيبة وستصبح مثار سخرية أو أكثر من ذلك موضوعاً لروايات شاذّة كثيرة.

أخذت تفكر بفزع.

من هو ماكسيمليان هذا؟

جلّ ما تعرفه عنه أنه شرع يرتاد منذ قرابة الشهر مطعم نوستالجيا حيث تعمل كنادلة، واعتادت على تواجده اليومي هناك حيث تعرّفا على أسماء بعضهما لا أكثر. هو شاب بسحنة شقراء على نحو غريب عن ملامح سكّان البلدة، وسيم للغاية وذو جسم رياضي. أنيق الهندام على الدوام. لكن ما سرّ تحوّل جسده إلى كائن فضائي ثم اختفائه فجأة وكيف تمكن من فعل ذلك أصلاً !؟

إن الأدرينالين يغزو كل ميكرون من جسدها والنوم هرب من مقلتيها تماماً. هل هو تأثير النبيذ فحسب جعلها تتخيّل مغادرة ماكسيمليان بتلك الطريقة؟ هل هو اضطراب نفسي تعاني منه وعودة ماكسيمليان معها للمنزل كانت مجرد هلوسات وتخيلات. إنها تودّ أن تصدّق ذلك فلا تفسير منطقي مريح غير ذلك في جعبتها. لكنّ رزم المال على الطاولة تنطق بغير ذلك وتشهد

على ما حدث !!

بقيت إيزابيلا ساهرة لساعة متأخرة تفكّر بذلك الموعد العجيب ونهايته الخيالية المرعبة ثم غلبها النعاس دون أن تشعر فاستغرقت في نوم متقلب راودتها فيه الكثير من الكوابيس السريالية المخيفة، وجوه تتبدل، أجساد تتلاشى، سماء تمطر أحرفًا غريبة.

استيقظت في صباح اليوم التالي مرهقة للغاية، كان يوم عطلتها وكل ما حدث في الأمس يدور في دماغها كحلم بعيد. هزّت رأسها بدهشة، حاولت إنكار ما حصل وأنها كانت في حالة سكر لا أكثر. نهضت وأعدّت طعام الإفطار بأيدٍ مرتجفة وروح مذهولة ومرتعدة تعجز عن إرسال ليلة الأمس من وعيها المرتعب الذي استيقظ للتو إلى لا وعيها الذي لا يزال نائماً.

*****

بعد فترة من الزمن.

انتابت إيزابيلا نوبات من الاقياء الصباحي العنيف وشعور بالتعب العام فاعتذرت من مالك المطعم السيد **ماركيز** عن الحضور إلى العمل، ثم توجهت إلى عيادة الطبيب **خيسوس** القريبة للاطمئنان على نفسها وهي تفكر بقلق بماكسمليان الذي اختفى تماماً منذ تلك الليلة ولم يزر المطعم إطلاقاً بعدها مما أعاد نوبة الذعر إليها مجدداً فعلى الأرجح ما جرى معها لم يكن وهماً على الإطلاق.

روت إيزابيلا للطبيب أعراضها بدقة فسألها مباشرةً عن دورتها الطمثية، وأقرّت أنها تأخرّت في الفترة المنصرمة فطلب لها على الفور اختبار حمل ونصحها بإجراء الاختبار المنزلي أوّلاً فإن كان إيجابياً تأكدت مخبرياً من ذلك.

عادت إيزابيلا إلى شقتها والأفكار تتلاطم في دماغها. هل ما رأته في تلك الليلة المشؤومة هو حقيقة وليس وهماً. هل هي حامل من كائن فضائي الآن !؟ هذه ستكون كارثة فعلياً، إذ كيف لها أن تتعامل مع هذا الوضع الغريب الذي يعصف كزوبعة من الجنون في كل خلية من خلايا دماغها المرهق المرتعد ؟!

في طريقها ابتاعت من الصيدلية اختبار حمل منزلي وما أن وصلت شقتها حتى أجرته على الفور وهي تصلي للسماء أن يكون سلبياً وأن كل ما حدث معها هو بالفعل وهم كابوسي لا غير، لكن النتيجة بعد دقائق عصيبة منهكة نفسياً حطمت آمالها لتؤكد أن اختبار الحمل إيجابي بالفعل.

إذاً هي حامل بحق وربما من كائن فضائي، إن كان ما رأته عن تحول ماكسيمليان واقعاً وليس مجرد أوهام نبيذ أو اضطراب نفسي تعاني منه كما تأمل من صميم قلبها.

يا إلهي. ما الذي ستفعله الآن. إنه أمر جلل مهما كان سببه، فكيف إن كان الجنين في رحمها غير بشري، لربما أودى بحياتها إن رفض جسدها ذلك الجسم الغريب عنه فهي لا تعرف كيف سيتفاعل معه؟ ناهيك أنها عاجزة عن تدبر أمور طفل بالأساس في حياتها الصعبة مالياً لا سيما بقدوم طفل بملامح غريبة وطباع عجيبة عن البشر، كيف لها أن تشرح وضعها للمحيط ؟!

فكرت مطوّلاً لساعات والقلق والفزع ينهشان عقلها وروحها لتصل إلى نتيجة وحيدة لا مفر منها. عليها إسقاط الطفل بأي طريقة ممكنة والتكتم على الموضوع تماماً كي لا تصبح موضوع حديث دسم ومثار سخرية بين الناس تودي بسمعتها للأبد.

هنالك في تشيلي وصفة طبية من الأعشاب يقال إنها تسبب الإجهاض بشكل مضمون. جمعت المعلومات عنها من الشبكة العنكبوتية وأعدّت الوصفة بأيدٍ مرتجفة ثم أغمضت عينيها وتناولتها بقلق. وبعد نصف ساعة بدأت تشعر بتوعك في بطنها وبأن أحشاءها تتمعّج بقوّة، ثم بعد مخاض قصير لكن مؤلم للغاية أسقطت الجنين بالفعل ... نظرت إليه برعب ودهشة، كان أخضر اللون بطول **25** سم لا أكثر وبجمجمة متطاولة وملامح لكائن فضائي كما يعرفه البشر.

إذاً ما رأته كان حقيقياً بلا شك. استحال لونها كالأموات وأرادت أن تصرخ بصوت عالٍ لكن الخوف على سمعتها لجمها وانسابت الدموع من عينيها كساقيةٍ.

بعد تفكير مطوّل لساعات أخرى فيما ينبغي عليها فعله الآن، استجمعت قواها المنهارة ثم تسللت تحت جنح الظلام بحذر خارج المدينة إلى حدود **صحراء أتاكاما** المجاورة وهي تحمل في حقيبتها جنينها العجيب ملفوفاً بكيس جلدي، ثم رمت به في الصحراء خلف إحدى الصخور بالقرب من إحدى الكنائس.

عادت أدراجها بحذر مجدداً وهي تفكّر بهذه القصة العجيبة التي لم تكن لتتوقعها ولو في أقصى حدود كوابيسها .

من هو ماكسيمليان هذا؟ كيف وصل إلى الأرض، ولماذا اختارها شخصياً ليعاشرها؟ من جهة أخرى، لماذا ترك لها تلك الثروة التي ستغيّر حياتها للأبد إن كان جلّ همه هو استغلال جسدها لا أكثر ؟! ..

إن الكائنات الفضائية حقيقة مؤكدة كما أثبتت تجربتها الشاذة المرعبة وليست خيالاً على الإطلاق، كما أنها بإمكانيات خطيرة للغاية وبنوايا صعبة التكهن والتفسير .

يا أمنا العذراء أنجديني، أنا بأمسّ الحاجة لكِ!

*****

تشيلي. / أريكا .

بعد مرور 26 عاماً. 2003 م...

عثر أحد سكان المدينة ويدعى سيباستيان بالصدفة على الكيس الجلدي المرمي خلف تلك الصخرة والحاوي على الجنين الذي لم يتحلل ويفسد لعقود على نحو مذهل. ففتحه بفضول وسرعان ما انتابه الذعر ورمى به مباشرةً إلى الأرض وهو يتعرّق. هدأ بعد دقائق وتناول الجنين مجدداً وهو يتأمله بتعجّب وأول ما خطر بباله بالطبع هو ملامحه الفضائية العجيبة. فكّر قليلاً ثم لفه بالكيس الجلدي مجدداً ووضعه في حقيبته واتجه مباشرة إلى منزله.

جلس سيباستيان يفكر فيما ينبغي عليه فعله بالجنين. إن هذا الهيكل الغريب قد يكسبه ثروة إن تم بيعه لشخص مهتم بهذه الأمور فالكائنات الفضائية موضوع دسم للصحافة على الدوام.

بالفعل في صباح اليوم التالي توجه إلى السوق السوداء مباشرةً وسرعان ما أثار الهيكل اهتمام أحد المشترين المطلعين على أمور الفضائيين فاشتراه منه بثمن باهظ. ومنذ تلك اللحظة أخذ الهيكل ينتقل من يد لأخرى بثمن أكبر حتى وصل في نهاية المطاف إلى أيدي رجل أعمال إسباني قدّر له بعد فترة أن يتواصل مع **غاري نولان** وزملاؤه من جامعة ستانفورد الذين تمكنوا عبر صفقة رابحة من الفوز بفرصة لفحص بقايا الهيكل الذي لقبوه (أتا) نسبة إلى مكان العثور عليه في صحراء أتاكاما وإجراء تحليل لحمضه النووي **(DNA)**، وتوصلوا من دون أدنى شك بعد الفحص والاختبار والتحليل إلى أن هذا الهيكل يعود إلى جنين بشري أنثى مع مزيج من أصول أميركية أصلية وأوروبية. لكن مع وجود جينات أخرى غريبة لم يتمكنوا من تحديد أصلها بالضبط على نحو غريب للغاية وغير مفسّر.

ثمّ عاد الهيكل مجدداً إلى تشيلي ليستقر في مركز أبحاث **SYV.**

سرعان ما انتشرت قصة الهيكل في الإعلام وتم ربطه بقصص غريبة عن فضائيين وما شابه ذلك وأصبح هيكل أتاكاما أشهر من نار على علم خلال السنوات اللاحقة وأسهبت الصحافة بالروايات العجيبة المختلفة عنه.

وصلت الأخبار بالطبع إلى **إيزابيلا** التي ناهزت الخمسين من العمر وكانت قد تزوجت وكونت عائلة بدورها، وتعيش حياة رفاهية بفضل الثروة التي تركها لها ماكسمليان. فالتزمت الصمت تماماً واحتفظت بسرها لنفسها فحسب. فهي ليست بحاجة لفضائح أخرى تدمّر سمعتها وعائلتها نهائياً.

*****

ماكسيمليان هو كائن فضائي يدعى **سولاس** من كوكب باي **π** في مجرة سيشبرينتال في الكون المتطرّف.

وصل الأرض عام **1977** م في مهمة سرية مع مجموعة فضائيين مكونة من **10** أفراد لجمع المعلومات أكثر عن البشر وتكوينهم وحياتهم وطباعهم في العصر الحديث بعد أن تم جمع المعلومات سابقاً عن العصور الوسطى والقديمة والبدائية. أعجب سولاس للغاية بالحياة البشرية خصوصاً العلاقات الحميمة التي تجمعهم ببعض والتي يفتقدها سكان كوكب باي **كونهم لا يتكاثرون أبداً ولا يكبرون أيضاً ولا يموتون إلا بحوادث الانفجار أو التحطم،**

والعواطف بينهم معدومة تماماً فالعقل والمنطق هو المتحكّم الوحيد بتصرفاتهم وحياتهم بغياب تأثير الدين أيضاً عليهم إذ لا عقائد على كوكبهم. رغب سولاس بشدة في تجربة العواطف البشرية وإقامة علاقة حميمة مع أنثى بشرية. وبفضل قدرة أفراد كوكب باي على التحول الفوري لأي هيئة بشرية يريدونها بفضل **سوار متطور في معصمهم** قرر التخلّف عن زملائه في العودة إلى كوكبهم واتخذ هيئة شاب وسيم رآه في إحدى مهماتهم في **النرويج** فأعجب بشكله للغاية كونهم في كوكبهم موحدو الشكل غير الوسيم فعلياً واعتمد اسم **ماكسيمليان** تيمناً بطفل ودود بعمر خمس سنوات رآه في العاصمة **سانتياغو** في تشيلي مؤخراً.

بعد أيام قليلة من اتخاذ قرار إقامة علاقة مع أنثى، وبينما كان يبحث عن الهدف المناسب له، دخل إلى مطعم نوستالجيا في مدينة أريكا ليحصل على وجبة طعام ومن نظرة واحدة وقع في غرام الآنسة إيزابيلا النادلة اللطيفة للغاية هناك وعقد العزم على إقامة علاقة معها مهما كلّفه الأمر. فارتاد المطعم يومياً لساعات لمدة شهر تعرف فيها أكثر عليها وحلل طباعها وشخصيتها وعندما حانت الفرصة المناسبة في تلك الليلة المطيرة استغلها تماماً عندما ادعى أنه مشرد لا يملكك منزلاً يبيت فيه ثم اصطحبته إيزابيلا إلى منزلها. تودد إليها هنالك واختلق قصته المؤلمة عن كونه يتيم ومشرد ليكتسب عطفها وبالفعل نجح بذلك وأقام علاقة عابرة معها كان يتوقّع لها أن تتطوّر وتستمر، لكنّه اختفى بعد تجربته الحميمة تماماً لينتقل إلى قارة إفريقيا وينتحل شخصية شاب من **بوتسوانا** يدعى **دينيو**.

قضى هنالك فترة من الزمن يجمع معلومات أكثر عن البشر ومتنقلاً بين الدول الإفريقية فقد عشق تلك القارّة السمراء المكافحة. لكنه تجنّب إقامة علاقات أخرى مع الإناث بعد أن اكتشف بشكل صادم أن العلاقة الجنسية ذات هالة أكبر بكثير مما تستحقه ومما يمنحها البشر من تفكيرهم واهتمامهم ووقتهم فهي تمنحك متعة مؤقتة وهميّة تزول سريعاً كحالة من فقدان التوازن للحظات ثم العودة إليه مجدداً لتخلّف وراءها عواقب كبيرة. **وبأنها لا ترتقي أبداً للمتعة التي يشعر بها في كوكبه باي على خلفية استخدام العقل بشكل مذهل**. وبأن العواطف البشرية لا تقتصر على الحب والحنان والعطف كما اعتقد بل تتشعّب إلى قائمة تطول من المشاعر السلبية الكارثية كالغضب

والغيرة والحسد والحقد والكراهية التي تدمّر مزاجك وحياتك وسعادتك والتي يعتبر الجنس كما اكتشف بنفسه فتيل إشعالها جميعاً في مناسبات كثيرة. **وهذا يفسّر لماذا يكون الأطفال أبرياء ومجبولين بالمحبة والمشاعر الإيجابية ثم يفقدونها تدريجيا مع ظهور شهوة الجنس لديهم.**

حاول سولاس التواصل مع كوكبه الأصلي في مناسبات عديدة عبر نظارات الواقع الافتراضي المزود بها مع نسخة احتياطية منها في حالات الضرورة، راجياً إعادته إلى وطنه، لكنهم كانوا غاضبين للغاية بسبب تمرّده عليهم وتخلفه عن العودة مع زملائه إلى الكوكب، فالانضباط واستخدام العقل هو فقط ما يحكم ذلك الكوكب منذ آلاف السنين ولا يتم التهاون بذلك أبداً. تم رفض كافة طلبات الرجوع إليهم رغم توسّل سولاس، وكرحمة أخيرة منهم تمت معاقبته بالنفي في كوكب الأرض لمدة **100** سنة مع تسليمه مهمة وحيدة فقط وهي جمع المعلومات عن البشر بشكل دائم وإرسالها إليهم كي يستطيع بعدها العودة إلى كوكب باي مجدداً كعقوبة على التمرّد وعدم الاصغاء إلى تعليمات قائدهم (العقل الأعظم).

قضى سولاس العقود اللاحقة محاولاً جمع معلومات عن البشر قدر الإمكان مستغلاً قدرته على التنقل الآني من مكان لآخر بفضل السوار المتطوّر حول معصمه، حيث تدخل إليه الإحداثيات المطلوبة شفهياً فيقوم بنقلك مباشرة إليها عبر تحويل الجسد إلى طاقة أولية ثم إعادة تحويلها إلى مادة مجدداً في مكان آخر، إضافةً إلى قدرته على التحول إلى أي هيئة يريدها لأي كائن حي آخر بفضل السوار ذاته والذي يطلق عليه سكان كوكب باي (**المساعد الأعظم**) وهو خلاصة تطورهم التكنولوجي عبر آلاف السنين.

وهنالك في كوكبهم من الاختراعات الأخرى ما يفجر العقل البشري بحق، مع الإشارة إلى قدرة فريدة يتمتع بها أفراد كوكب باي في جيناتهم الخاصّة وهي القدرة **على نقل ذكريات ومعلومات أي كائن حي إلى دماغهم بلمس رؤوس أصابعه فحسب، إضافةً إلى قدرتهم على التواصل مع أفراد جنسهم عبر التخاطر الذهني.**

ما أثار دهشة سولاس خلال تلك الفترة هو **الانقسام الخطير والغريب بين دول العالم البشري من حيث الإمكانيات المادية. والتاريخ العنصري الطويل لديهم والأهم هو إثارة الفتن بين بعضهم البعض للحصول على مكاسب**

مادية من أراضٍ وثروات. وأنهم يميلون على نحو غير مفسر إلى تغييب العقل الهبة الأعظم عبر المشروبات الروحية والمخدرات وإدمان الجنس بحثاً عن متعة وسعادة وهمية كسراب لا وجود له.

إن الجنس البشري مخيف وغريب بالفعل فهو غير منطقي البتّة ولا حدود لأنانيته! إنها عقوبة كبيرة له أن يلتصق بهذا الكوكب سجيناً لقرن كامل من الزمن. لكنّه من جهة أخرى وبعد لقائه بإيزابيلا في تشيلي ومساعدتها له بمنتهى النبل واللطف أدرك أن هنالك بشر صالحون رغم كل الظروف، ورغم قلتهم النسبية، لذا اتخذ قراراً هاماً بمساعدة كل محتاج يلتقيه وكل مظلوم يصادفه مستخدماً كل إمكانياته المتاحة فهؤلاء البشر الصالحون يستحقون ما هو أفضل مما منحهم إياه حظهم البائس كما يعتقد سولاس.

*****

أيرلندا الشمالية / **بيلفاست**.

أيّار. **عام 2030 م**

الساعة الواحدة صباحاً.

في ذلك الليل البارد، وبينما العالم يغفو على وسادة الظلام، كانت السيارة الكلاسيكية تشقّ الطريق السريع الخالي، وقد ضجّ صوت محركها كأنّه يقاوم سكون الكون. **جيمس ماك غريغور**، ذو الأربعة والأربعين عامًا، يقودها بنوع من العجلة، وإلى جانبه زوجته **لوتس**، بملامحها المتعبة ونظراتها التي تسكنها رغبة العودة إلى دفء المنزل بعد سهرة صاخبة. في المقعد الخلفي، كان طفلهما **بيتر** ذو السبعة أعوام قد غطّ في نوم بريء، رأسه الصغير يتمايل مع اهتزاز السيارة كزهرة في مهب النسيم.

لكنّ الطمأنينة لم تدم.

فجأة، اخترق الظلام ظلّ بشري، شاب ثلاثيني قفز أمام السيارة بلا مقدمات. ضغط جيمس الفرامل بكل ما أوتي من قوة، فانزلقت السيارة خارج الطريق،

ثم هوت من فوق التل كجسد يتدحرج من السماء، تقلبت مرارًا قبل أن يستقر حطامها في قاع الوادي المجاور.

داخل السيارة المنكوبة، شعرت لوتس بألم حاد يعصف بذراعها، كأن عظامها تصرخ، لا بد أنه كسر. حاولت أن تلتقط أنفاسها، فاستدارت بذعر نحو زوجها، لتجده غارقًا في دمائه، وشظية زجاجية تبرز من عنقه كنصل مسموم. لم يكن هناك مجال للشك... لقد فارق الحياة.

بصعوبة، أدارت وجهها نحو المقعد الخلفي، وهناك رأت صغيرها مغمًى عليه، وجهه مغطّى بالدم، هامدًا كدمية مهجورة.

وقبل أن تغيب عن الوعي، سمعت خطوات تقترب، ثم تراءى لها وجه الشاب الغريب الذي تسبب بالفاجعة. ولكنّ ملامحه لم تكن بشرية تمامًا... كانت تتلوّن، تتبدّل، كأنها تذوب في هيئة أخرى أكثر غرابة، أقرب إلى ما تصوّره القصص عن الكائنات الفضائية.

ثم جاء صوته غريباً كما لو أنه قادم من كهف عميق مهجور:

= أنا آسف، سيدتي... الأمر برمّته خطئي... لكن لا تقلقي، ستكون الأمور على ما يرام.

شعرت بذراعيه ترفعانها برفق، كما لو كانت قطعة من زجاج هشّ. ثم تدلّت جفونها، واسودّ كل شيء.

حين استعادت وعيها، كانت في غرفة مشفى بيضاء، ساكنة كصمت القبور. ضمادات تلف ساقها وذراعها، والجروح التي على جسدها تشير إلى أن ما حدث لم يكن كابوسًا. لم يكن حلمًا على الإطلاق.

تذكرت الحادث بتفاصيله كحلم راودها منذ لحظات وكانت صورة الكائن الفضائي لا تزال متسمرة أمام عينيها. التفتت حولها فوجدت ممرضة تضع لها دواءً في المحلول المغذي فصاحت بلهفة.

= سيدتي... أين هما زوجي و ابني ...؟

التفتت إليها الممرضة بدهشة وارتياح لاستعادتها وعيها، لكنها أشاحت بنظراتها عنها ثم قالت بحزن.

= لقد حاول الأطباء جهدهم... لكن للأسف لم يتمكنا من النجاة فقد كان الحادث عنيفاً...

امتلأت عينا لوتس بالدموع وشعرت بالخبر كطعنة خنجر في صميم قلبها. يا إلهي جيمس. بيتر. لماذا. لماذا ؟!

رغم الحالة الجسدية والنفسية السيئة التي تمر بها لوتس فقد اضطر رجال الشرطة مجبرين إلى التحقيق معها لمعرفة حيثيات الحادثة فيما إذا كانت قدرية أم أن هنالك صفة جنائية تشوبها. فقصت عليهم لوتس ما جرى بالضبط وكيف اقتحم شاب غريب الطريق فجأة فاضطر زوجها للخروج عن الطريق كي لا يصدمه. كما أخبرتهم بالهيئة الغريبة التي تحول إليها وشبهها بالكائنات الفضائية عندما ساعدها وأخرجها من السيارة. بالطبع لم يأخذ رجال الشرطة كلامها على محمل الجد بسبب غرابته وردوه إلى تدهور سلامتها النفسية والعقلية عقب الحادث وخسارة زوجها وابنها مما جعلها تتوهم أشياءً لم تحدث. إلا محقق واحد منهم توقف مطولاً عند كلامها وربطه بالاتصال الذي ورد إلى الإسعاف من شخص غريب أخبرهم بموقع الحادث دون أن يفصح عن هويته أو يتواجد في المكان لحظة وصول الشرطة والإسعاف، مما يوحي بأن كلام لوتس ربما كان صحيحاً على غرابته !

بالطبع وصلت قصة الكائن الفضائي الغريب إلى الصحافة، وفي زمن العولمة والشبكة العنكبوتية ومواقع التواصل الاجتماعي انتشرت فيديوهات هذه الصحافة بخصوص الحادثة كالنار في الهشيم حول العالم معيدةً إلى الواجهة موضوع الفضائيين وإمكانية وجودهم فعلياً. ما بين مصدّق لقصّة لوتس ومؤمن بوجود الفضائيين في الكون ومكذّب لها مقتنع بأنها تلفيق منها أو وهم بصري جرّاء حالة سكر أو نعاس وتشوّش الرؤية ليلاً كون الحادثة جرت في وقت متأخّر أو بالطبع بسبب خسارة لوتس لعائلتها مما سبب لها ربما متلازمة ما بعد الصدمة.

في الحقيقة ذلك الشاب الثلاثيني لم يكن سوى سولاس الكائن الفضائي المنفي من كوكب باي إلى كوكب الأرض والذي انتقل إلى مدينة بلفاست في إيرلندا الشمالية منذ أشهر على خلفية ورود معلومات كثيرة عن ظواهر غريبة

للحيوانات كتجمع الخراف في دوائر متحدة المركز وتحليق الطيور المكثّف فوق المدينة. فأراد التأكد من الموضوع بنفسه ونقل ما يتوصل إليه من معلومات إلى العقل الأعظم في كوكبهم الأم.

أما لوتس فقد تأزمت نفسيتها أكثر فأكثر بعد خسارة عائلتها وموضوع الشاب الغريب مع كلام محيطها المشكك والساخر أحياناً من قصتها. حتى لجأت إلى طبيبة نفسية كي تعالجها، وللأسف رغم أن الطبيبة أراحتها نفسياً قليلاً بالعلاج المعرفي السلوكي ووصف الأدوية المناسبة، إلا أنها كغيرها عزت قصة الفضائي إلى ضغوط نفسية عقب صدمة الحادث وفقدان الأحبة وجسدية كارتجاج الدماغ.

*****

الفصل الثاني

تشيلي / سانتياغو.

مركز SYV للأبحاث.

حزيران. عام 2030 م.

وقف البروفيسور **فيسينتي**، ذو الثمانية وخمسين ربيعا، بجسده النحيل كظلٍ تمدد في الزمن، إلى جوار مساعده الشاب الفضولي المرح **أنطونيو**، يحدقان بصمت ثقيل في الصندوق الزجاجي العميق، حيث يرقد الكائن المجهول الذي عُرف في الأوساط العلمية باسم (هيكا أتاكاما).

كان أشبه بجنين ضامر، لكنه لم يكن بشريًا بالكامل. جمجمة ممدودة، عظام دقيقة متناسقة في غرابتها، وملامح لا ينتمي أي منها إلى السجلات المألوفة للأحياء أو الأموات.

انسكب عليه الضوء الأبيض المختبريّ كشلالٍ بارد، ينعكس على المادة الحافظة الشفافة التي تغمر الجسد كأنها زمردٌ مذاب. كانت هناك مهابة في تلك اللحظة، مهابة لا تليق بمتحف أو مختبر، بل بمعبدٍ يضم سرًّا أبديًا لا يُقال.

همس أنطونيو، من خلف كمامته، كمن يخشى أن توقظه كلماته من حلم أو توقظ ما في الصندوق من سباته.

= هل سمعت بقصّة المرأة الإيرلندية التي ادعت رؤية كائن فضائي في مدينة بلفاست حضرة البروفيسور؟

= بالطبع عائلة ماك غريغور، وهل هنالك من أحد على هذا الكوكب لم يسمع بها بعد؟

= وهل تصدّق روايتها، أم تؤمن كغالبية الناس أنها مجرّد كذبة أو وهم بصري؟

= لا أستطيع الجزم بذلك. لكنني مقتنع تماماً بأن هذا الكون الواسع للغاية لا بد وأن يحوي غيرنا من الكائنات ومن الغرور والتكبّر أن يقتنع البشر أنه مقتصر على حياة وحيدة على كوكبهم الأرض.

= بالطبع، لكن في حال وجود كائنات حية أخرى في الكون. أين هي

، ولماذا لا تتواصل معنا؟

ربت البروفيسور على كتفه بإعجاب.

= سؤال رائع ومنطقي أنطونيو، وقد سبقك إليه منذ عقود العالم الأمريكي الإيطالي إنريكو فيرمي بمفارقته الشهيرة (**مفارقة فيرمي**) عام **1950** م التي تقول:

(**أين الجميع**؟)

ويقصد به غيرنا من الكائنات في الفضاء الواسع.

= مفارقة فيرمي !

= أجل وسميت مفارقة لأن اتساع الكون الشاسع يفترض بقوة وجود حياة أخرى فيه وبنفس الوقت عدم اتصالها بنا طوال السنين الفائتة يضع إشارات استفهام قوية ويفترض بقوة أيضاً أن لا وجود لها. لذا فهي معضلة بلا حل نهائي حاسم حتى اللحظة. لكنّ القصص العديدة لكثير من البشر حول رؤيتهم لأطباق طائرة أو كائنات فضائية وآخرها قصّة عائلة ماك غريغور يدعم بشكل مهم إمكانية وجود كائنات أخرى في الكون. وصديقتنا (أتا) أمامنا خير مثال على ذلك. ألا ترى سحنتها الفضائية الفاضحة. إضافةً إلى الجينات الغريبة التي ظهرت بتحليل **DNA** جسدها والتي عجز العلم عن تفسيرها.

= أفهمك. لكن هل يعقل أن يكون جسد الكائنات الفضائية صغيراً لهذه الدرجة؟ إن طول هيكل أتاكاما لا يتجاوز **25** سم!

= هذا سؤال هام ومحيّر، وللأسف لا جواب واضح له حتى الآن، فأغلب روايات البشر الذين ادعوا رؤية فضائيين تؤكد أنهم بحجم البشر تقريباً.

= بالنسبة لي ، أعتبر وجود الفضائيين كذبة بلا أي دليل سيد فيسنتي... و ربما كان لأتا قصة خاصة مجهولة تفسر شكلها الغريب...

ساد صمت ثقيل للحظات ثم هشّمه البروفيسور بكلام وقع كالقنبلة على مسامع أنطونيو.

= هل تعلم يا أنطونيو بأن الدين بدوره أخبرنا بوجود غيرنا من الكائنات

في هذا الكون؟

= معقول.. !

= أجل، فقد أخبرني صديقي المسلم البروفيسور **اسحق حليم** عن آية في القرآن كتاب الله عند المسلمين تقول:

(ومن آياته خلق السنوات والأرض وما بث فيهما من دابة وهو على جمعهم إذ يشاء قدير)

وكما تلاحظ مقدار غرابة وأهمية هذه الآية القرآنية التي تتحدث بشكل صريح عن خلق الله لكائنات حية أخرى في الكون وقدرته إن شاء على جمعنا بهم.

نظر أنطونيو إليه بدهشة.

= لكن ألا تقصد الآية بدواب السماء (الطيور)؟

ابتسم البروفيسور.

= الدواب هي ما تدب على الأرض ولا تطير يا سانتياغو. كما أننا على تواصل دائم ومباشر بالطيور فما الغرابة بأن يجمعنا الله تعالى بهم؟ الآية تشير بشكل واضح إلى صعوبة التقائنا بالمخلوقات الكونية الأخرى لكن الله تعالى قادر على تحقيق ذلك بسهولة متى شاء.

فتح أنطونيو فمه مذهولا .

= إنه كلام سليم لا غبار عليه وخطير أيضاً، يؤكد بشكل قاطع -من منظور ديني على الأقلّ -وجود حيوات أخرى في هذا الكون الواسع بالفعل.!

= بلى إنه كذلك. وهذا ما يثبت أن مفارقة فيرمي منطقية تماماً ومن حقها طرح التساؤل الشهير (أين الجميع؟). وفي الحقيقة سعى العلماء خلال عقود على وضع تفسيرات منطقية لهذا التساؤل بل أن بعضهم حاول وضع معادلات رياضية كجواب له **كمعادلة ديرك الشهيرة**.

= وهل هنالك من تفسيرات لها في جعبتك.. .؟

= طبعاً. أشهر التفسيرات توزعت على الاحتمالات التالية.

❁ هم موجودون لكنهم لا يتواصلون معنا.

❁ هم موجودون ويتواصلون معنا ولكن لا يمكننا فهمهم.

❁ هم كانوا موجودين في وقت لم نكن نحن فيه (لم يمروا بالضرورة على الأرض)

❁ هم موجودون لكن معظم الناس لا تدرك ذلك حتى الآن باستثناء القصص الغريبة لبعضهم وآخرها قصة عائلة ماك غريغور.

❁ اختفوا! (أي دمروا أنفسهم أو دمرهم شيء ما، كما قد يحصل مع البشر في حال نشوب حرب نووية!).

❁ قد نكون غير مهمين بالنسبة لهم (فقد يكونون متطورين لمراحل قد تجعلنا بنظرهم كالنمل مثلاً بالنسبة للبشر، فهل فكر البشر يوماً ما بالتواصل مع النمل؟ رغم أنهم أمامنا طوال الوقت!).

= تفسيرات منطقية بالفعل. وأنا شخصياً أميل للتفسير الأخير.

= وارد جداً. من ناحيتي وكما قلت منذ قليل لا يمكن لهذا الكون الشاسع أن يقتصر على الحياة على كوكب الأرض فقط فهو منافٍ للعقل وللحسابات الرياضية. فهناك ما يقدر بنحو **200- 400** مليار نجم في مجرتنا العزيزة درب التبانة و**70** سيكستيليون نجم في الكون المرصود، وحتى لو نشأت الحياة الذكية على نسبة ضئيلة فقط من الكواكب حول هذه النجوم يكون احتمال وجودهم هائلاً. هذا من منظور علمي. ومن منظور ديني كما تحدثنا آنفاً فالله يقول بوجودهم فعليّاً وربما جمعنا بهم ذات يوم إن شاء ذلك.

= وهل هنالك أي دليل علمي مادي على وجود الفضائيين ...؟

= الدلائل قليلة لكنها قوية بنفس الوقت. هنالك بالطبع حوادث رؤية الفضائيين و الصحون الطائرة العديدة و أشهرها على الإطلاق حادثتان شهيرتان ، الأولى قصة اختطاف **بيتي و بارني** من قبل الفضائيين عام **1961** م و دراستهما ثم إعادتهما خلال عودتهما من كندا إلى الولايات المتحدة الأمريكية ،و الثانية قصة تحطم صحن طائر قرب **مدينة وزويل** الأمريكية عام **1947** م في حقل **المزارع ماك برازيل** الذي شهد على

الحادثة رغم تهجير الأمن الأمريكي له من المكان ، و من ثم اعتراف ممرضة ساعدت طبيب القاعدة العسكرية التي نقل إليها حطام الصحن الطائر و جثث الفضائيين التي عثر عليها ، و تلك الممرضة رأت الجثث بأم العين ، ثم شهادة الضابط **فيليب كروسو** الذي رآها بأم العين بدوره !

= قصص تطرح عشرات الأسئلة !

= بلى. أكثر من ذلك هناك أيضاً الهياكل العظمية الغريبة الشبيهة ببنية الفضائيين التي عثر عليها وأشهرها:

- بالطبع هيكل أتاكاما الذي نراه أمامنا بأم العين.
- مومياوات السير ويليام بيطري في مصر.
- مومياوات المكسيك التي عرضت على البرلمان المكسيكي عام **2023**
- هياكل باراكاس في البيرو.

= وما تفسير هذه الهياكل؟

= لا تفسير منطقي سوى أنها هياكل فضائيين بالفعل، ويؤكد ما سبق أيضاً الإشارة اللاسلكية الغريبة التي التقطها التلسكوب الراديوي لجامعة أوهايو في عام **1977** الموجهة من مصدر ذكي لا يبتعد كثيرا عن كوكب الأرض ومن المذهل أنه نفس العام الذي يعتقد أن هيكل أتاكاما تكوّن فيه مما يطرح الكثير من التساؤلات الهامة. ومن الفرضيات التي ظهرت حينها أن هذه الإشارة والتي دعيت واو **Wow** صدرت من مركبة فضائية كانت تمر بالقرب من الأرض. لكنها تبقى مجرّد فرضية لا أكثر وإن لم يتمكن العلماء من وضع فرضية علمية بديلة مثبتة ومنطقية لها. ومع تطور أجهزة الرصد الفلكي ربما تمكنا مستقبلاً من رصد آلاف الإشارات اللاسلكية من جوانب الكون المختلفة وربما تمكنا من تفسيرها أيضاً والتفاهم مع نظرائنا في الخلق في هذا الكون المذهل ومعرفة المزيد عنهم.

= كل هذه الأدلة !! كنت أظن الفضائيين مجرد خرافة وادعاء بلا براهين.

= وهنالك المزيد أيضاً، فقد تم العثور على معادن صنعية غريبة في صحاري متعددة في إفريقيا لم تكتشف في أي مكان آخر من العالم كما لم يتوصل الإنسان بعد إلى صنع معادن شبيهة بها ويعتقد البعض أنها تعود

لحطام صحون طائرة متطورة. وهنالك بالطبع الهياكل المعمارية الضخمة التي شيدها الإنسان منذ آلاف السنين بدقة وإعجاز ولم يتمكن العلماء من تفسير آلية بنائها كأهرامات مصر والهنود الحمر وخطوط نازكا الضخمة في البيرو التي تمثّل أشكالاً هندسية ولحيوانات على رقعة شاسعة من الأرض منذ آلاف السنين والتي تفترض بعض الفرضيات أنها تمت بمساعدة كائنات فضائية متطورة إذ لا تفسير علمي مقنع لكيفية تشييدها حتى اليوم.

حدّق أنطونيو في هيكل أتاكاما مجدداً وقال.

= لو كان بوسع (أتا) أن تتكلّم لحسمت الموضوع تماماً وأنهت الجدال والفرضيات.

= ولارتاح العالم إنريكو فيرمي في قبره بعد الجواب عن سؤاله الخالد: (أين الجميع؟)، وما أدراك ربما يتطور العلم أكثر في المستقبل ويجد طريقة للتواصل مع (أتا) ومعرفة مصدرها الأصلي. لا يسعنا سوى الترقّب والانتظار.

*****

الولايات المتحدة الأمريكية

مونتانا.

تموز. عام 2030 م

أنهى البروفيسور شينغاس، البالغ من العمر ثمانية وستين عامًا، والمتخصص في علوم الاقتصاد، من تسجيل محاضرته التي امتزج فيها العمق الأكاديمي بشغف الحكمة المتراكمة عبر العقود. شينغاس طويل القامة، ذو الملامح المتشبثة بسلالة أجدادها من الهنود الحمر وترفض التهجين، كان حضوره في الفيديو وحده كافيًا لجذب الانتباه، ناهيك عن كلماته التي نُسجت بعناية لتلامس العقول وتوقظ الأسئلة.

وما إن انتهى من التسجيل الذي وضع فيه خلاصة سنوات من البحث والتأمل، حتى جلس إلى مكتبه الخشبي العتيق، وشرع في تحميل المحاضرة على منصاته الخاصة في مواقع التواصل الاجتماعي، حرصًا منه على أن

تبلغ أفكاره جمهورًا أوسع، لعلّها تزرع بذور الفهم أو الجدل البنّاء في عالم يعجّ بالضجيج والمعلومات المبتورة.

وكان فحوى المحاضرة على النحو التالي...

= أرحب بالمشاهدين الكرام فرداً فرداً في هذه المحاضرة المهمة اليوم بخصوص الأزمة المالية العالمية الحالية التي تعصف بكوكب الأرض على خلفية انتشار **فيروس زوسا** التنفسي الخطير منذ قرابة العام والذي أعاد للذاكرة مأساة انتشار فيروس كورونا عام **2020** م لكن على نحو أوسع وأشد فتكاً. كان ينبغي لمقر المحاضرة أن يكون جامعة هارفرد لكن بحكم قوانين الحظر الراهنة سأكتفي بمحاضرة مقتضبة نسبياً على مواقع التواصل الاجتماعي كون الموضوع طويل وشائك، كمحاولة لتغيير العالم نحو الأفضل ضمن إمكانياتي المتواضعة .

أعزّائي المشاهدين منذ انتشر فيروس زوسا وحتى الآن رحل عن كوكبنا العزيز قرابة **5** ملايين نسمة والعدد في تزايد مستمر مع صعوبة إنتاج لقاح فعّال له حتى اللحظة. وبعيداً عن الحديث عن حيثيات السياسة والقول بانتشار الفيروس عبر دول العالم المتطورة في الشرق والغرب والتي قامت بإنتاجه مخبرياً ونشرته عمداً، فإننا سنتحدث عن الأزمة المالية التي سببها الفيروس بسبب الحظر المشدّد وشلل مؤسسات الدول نسبياً وتراجع عمليات الإنتاج المحلي والتصدير والتي للأسف كالعادة كان المتأثر الأكبر منها هي دول العالم الثالث بميزانياتها المحدودة. مما زاد البطالة والحاجة والفقر في تلك الدول مع تفشي مظاهر مؤلمة من الجريمة والسرقة فيها وتردي الأحوال الصحية.

قد يعتقد القسم الأعظم منكم كما يشاع حالياً بأن هذه السنة هي الأسوأ في تاريخ البشرية لكن في الحقيقة لا تزال سنة **536** م متربعة عرش الصدارة. تلك السنة الكبيسة البائسة التي رشحها عالم العصور الوسطى **مايكل ماكورميك** لتكون ((**أسوأ سنة في تاريخ البشرية**)) بسبب الشتاء البركاني الذي ربما كان ناجما عن انفجار بركاني في **إيسلندا** على الأرجح في أوائل ذلك العام والذي أدى إلى انتشار سحب الرماد البركاني في كل مكان حاجبةً ضوء الشمس لفترة طويلة، مما تسبب بانخفاض متوسط درجات الحرارة

في أوروبا وآسيا، وأدى إلى ذبول المحاصيل وحصول المجاعة لأكثر من عام.

وكانت النتيجة كارثة حقيقية أودت بحياة الملايين من البشر والكائنات الحية الأخرى. وتلا هذا الحدث بفترة قصيرة انتشار وباء الطاعون الذي حصد ملايين أخرى بسبب المجاعة والفقر. فكان البشر يتساقطون أسرع من أوراق الشجر في خريف عاصف.

وكما ترون لم ترتقي أزمتنا الراهنة إلى تلك المأساة بعد. وبعيداً عن ذلك دعونا نتحدّث قليلاً في الاقتصاد والسياسات المالية العالمية.

استمر الفيديو قرابة الساعة شرح فيها البروفيسور شينغاس بالأرقام حجم الكارثة العالمية الاقتصادية وأسبابها ثم تداعيات ذلك على مختلف دول العالم خاصّة دول العالم الثالث وتطوره المستقبلي وختم حديثه بالقول.

= أسوأ ما يمر بنا اليوم ليس الأزمة الاقتصادية فحسب بل هو الكارثة الأخلاقية العالمية التي تشهدها الأرض بتجاهل دول العالم الأول والثاني شرقاً وغرباً لمعاناة دول العالم الثالث القاسية واعتماد مبدأ ((**اللهم أسألك نفسي**)) في إدارة الأزمة.

وللأسف ما تجهله تلك الدول التي تدعو نفسها متطوّرة أو تتعامى عن إدراكه أن الأرض كالجسد البشري تماماً إن أصيب جزء منه وتعرّض للإنتان فإن ذلك لن يقتصر على ذلك الجزء بل سيزحف الإنتان ليشمل الجسد بأكمله قريباً ويقتل الكائن برمّته وأكبر مثال على ذلك هو الاحتباس الحراري الذي تولده المصانع الكبرى حول العالم والذي سيفتك بالكرة الأرضية جمعاء قريباً إن لم يوضع حد حاسم له.

هنالك في إفريقيا فلسفة شائعة تدعى ((**فلسفة أوبنتو**)) تقوم على مبدأ نبيل يقول:

((**أنا أكون لأننا نكون**))

أي أن تعم الفائدة على الجميع ولا يحتكرها شخص بمفرده لنفسه، وهنالك قصة عميقة ذات مغزى مرتبطة بهذه الفلسفة تتناول أحد علماء الاجتماع الذي قام بعرض لعبة على أطفال **قبيلة خوسا** الإفريقية بوضع سلة من

الفواكه اللذيذة قرب جذع شجرة وأخبرهم أن أول من يصل منهم إلى الشجرة يفوز بالسلة كلها. لكنه عندما أعطاهم إشارة البدء تفاجأ بهم يسيرون سوياً ممسكين بأيدي بعضهم البعض حتى بلغوا الشجرة ثم تقاسموا الفواكه من السلة.

وعندما سألهم لماذا فعلوا ذلك في حين كان بإمكان أحدهم الفوز بالسلة بأكملها لنفسه، أجابوه بتعجب: أوبنتو. أي كيف يستطيع أحدنا أن يكون سعيداً فيما الباقون تعساء ؟!

وهذا سر هام من أسرار الحياة التي تجهلها المجتمعات التي تدعو نفسها متحضرة ومتطورة، في حين اكتشفه أفراد قبيلة بدائية . فبلدان العالم الثالث تمسك بأيدي بعضها في الأزمات لتتجاوزها معاً في حين تميل الدول الغنية إلى الاستئثار بالسلة لنفسها غير عابئة ببؤس الآخرين.

نحن شركاء في هذا الكوكب والكارما تحكمنا جميعاً وكل تصرّف أناني سيرتدّ علينا عاجلاً أم آجلاً وندفع ثمنه. لذا علينا أن نتعاضد ونساعد بعضنا قبل فوات الأوان .

والأسوأ من ذلك كله أن تكون تلك الفيروسات فعلياً هي صناعة بشرية في مخابر الدول المتطورة لإنقاص عدد البشر وبالتالي تحجيم عدد المستهلكين وتوفير المصادر المادية أكثر. ناهيك عن إضعاف الدول الأقل تطوّراً مما يسهل الوصاية عليها والتحكم بثرواتها على نحو مخزٍ يندى له الجبين. وهنالك مؤشرات قوية لا يمكن الاستهانة بها على إمكانية حدوث ذلك بالفعل من قبل الدول العظمى شرقاً أو غرباً.

أختم بمقولة جميلة من التراث الإنساني تقول:

((إذا كان الإنسان ذا اخلاق فهو يساوي 1

وإذا كان ذا جمال فأضف الى الواحد صفراً فهو يساوي 10

وإذا كان ذا مال ايضاً فأضف صفراً آخر فهو يساوي 100

وإذا كان ذا حسب ونسب فأضف صفراً آخر فهو يساوي 1000

فإذا ذهب الواحد وهو الأخلاق ذهبت قيمة الإنسان وأصبحت معدومة ومجرد أصفار))

وما ينطبق على الفرد ينطبق على الدول برمتها أيضاً.

أشكركم جميعاً على حسن الإصغاء مرّة أخرى رغم العوائق والصعاب التي تحكم حيواتنا في هذه الفترة العصيبة وأرجو ممن يؤمن بوجهة نظري أن يكافح بإمكانياته الخاصة على نشر ثقافة التعاون وتوعية الآخرين إلى المصير المشترك للبشر على الأرض بمشاركة هذا الفيديو أو حتى بكلمة مقتضبة على مواقع التواصل الاجتماعي فالكلمة بذرة لا بد أن ينبت منها بيدر من الحقيقة إن كانت صادقة وتدعو للخير وتحسين الأخلاق البشرية. دمتم سالمين.

بعد مضي نصف ساعة على تحميله للفيديو، وبينما كانت أصداء أفكاره ما تزال تتردد في جنبات بيته الصامت، دوّى رنين جرس باب المنزل، ذاك المنزل الذي اعتاد الصمت منذ رحيل زوجته **أبوني** إثر صراع طويل مع القصور الكلوي، تاركة وراءها فراغًا لا يُسدّ.

نهض بخطى متثاقلة وفتح الباب، ولم تكد عيناه تلتقطان الصورة حتى ارتجف قلبه بلطف...

كانت **لوماسي**، حفيدته التي لطالما أحبها كما تحب الأرض العطشى المطر، واقفة أمامه تبتسم ببراءةٍ لم تُخفها الكمامة التي تغطي نصف وجهها، كأن البهجة تسللت من عينيها وبثّت فيه الحياة من جديد.

كانت زيارة مباغتة، لكنها مبهجة، نزلت عليه كنسمة ربيعية غريبة في يوم خريفي كئيب.

بادلها التحية بحنوّ مقيّد، عن بعد، مخافة أن يُعرّضها أو يُعرّض نفسه لخطر العدوى، ثم دعاها لاحتساء الشاي معه في الحديقة، حيث الهواء الطلق يغسل النفوس ويُقلل من احتمالات الوباء.

جلسا معًا تحت شجرة وارفة، تتوسّطهما طاولة صغيرة وفنجانان من الشاي بالقرفة، تفصل بينهما مسافة أمان، وتجمع بينهما مسافة حنين.

راحت لوماسي تحدّثه عن عملها، عن العائلة، عن ثقل الحياة اليومية في هذا العالم المختلج لاسيما بوجود حظر الاختلاط بسبب الوباء.

أما هو، فحدّثها عن محاضرته الأخيرة التي بثّها منذ قليل على مواقع التواصل، تلك التي تناول فيها الكساد الاقتصادي ووباء النرجسية العالمية الذي يتغذّى على الأزمات كما يتغذّى الطفيليّ على الجسد الضعيف.

أنهى حديثه بابتسامة حزينة، كأنها تميمة ضد اليأس، وقال:

= هذا الواقع مؤلم بالفعل. إن أولى الوصايا المتوارثة لدينا نحن الهنود الحمر هي التعاون وحب الآخرين كأنفسنا ...وحتى في الأديان السماوية الشائعة نجد ذات الخلاصة، فمن أولى وصايا المسيح للبشر كما أخبرني صديقي **القس هنري** هي تجنّب الأنانية وتمني الخير للآخرين كما تتمناه لنفسك بالضبط فهو يقول:

((عليك أن تحب قريبك كنفسك... لا أعظم من هذه الوصية))

ويقول:

((من أراد أن ينهج نهجي فلينكر نفسه ويحمل صليبه ويتبعني))

فإنكار الذات وحب الغير من أهم وصايا الأنبياء على الدوام وهذا كما هو واضح ليس بالأمر اليسير بل هو مجبول بالمعاناة وبآلام الصليب على أكتافنا. لكن البشر كالعادة يختارون الطريق السهل دوماً.

صمت البروفيسور للحظات ثم أضاف.

= حتى أن صديقي المسلم **عبد الحق** أكد لي في مناسبات كثيرة على ذلك وأن نبيهم محمد يقول:

((لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه))

وهو بذات المعنى ونفس الغاية .

إن إهمال الدول (المتطورة) لدول العالم الثالث معضلة أخلاقية لن تمر هكذا. فالله موجود بشكل قطعي مهما اختلفت هويته بين الأديان وعدله يقتضي توازن كفتي الميزان ولو تم ذلك بأقسى طريقة ممكنة .

إن البشر عبارة عن قصاصات ورقية إن أضرمت النار في طرفها فهي ستصل عاجلاً أم آجلاً إلى الطرف الآخر لتلتهم القصاصات بأكملها كحال

فيروس زوسا الذي لم يوفر أي بلد أو شعب.

وكما يقول الأديب الإيطالي **ألبرتو مورافيا**:

((ليست الأنانية مجرد عيب أو شائبة، بل وأيضا الباب المفتوح على جميع الشوائب الأخرى قاطبةً))

= لكن جدّي، أليس الله نفسه من خلق البشر طبقات متفاوتة وجعل بعض الدول متفوقة على غيرها علميا وعسكريا واقتصاديا. إنها تعمل بجد أكبر. ألا تستحق النتيجة الأفضل بدورها **!؟** أعطِ ما لقيصر لقيصر وما لله لله جدي العزيز!

= ومن قال إن دول العالم الثالث لا تعمل بكد بدورها. بل أنها بسبب ظروفها الاقتصادية الصعبة تعمل بجهد أكبر من غيرها وخير دليل هو شعوب قارة إفريقيا التي تعمل لساعات طوال يومياً في لهيب الشمس وقد أنهكتها الأمراض والأوبئة والفقر والمجاعات دون أن يثنيها كل ذلك عن تحصيل قوت يومها، رغم أن بلادهم تمتلك كمّاً هائلاً من الثروات التي للأسف تذهب إلى دول العالم المتطورة فلا تستفيد منها إلا بالقدر اليسير بسبب السياسات اللاأخلاقية لتلك الدول. على قيصر نفسه أن يعطي ما لله لله فيساعد الدول الأقل حظاً على الارتقاء بنفسها أو على أقل تقدير ترك ثرواتهم لهم لا الاستيلاء عليها بأبخس الأثمان بسبب السلطات الفاسدة في تلك الدول.

صمت البروفيسور للحظات ثم أردف.

= سأروي لك قصة قصيرة وبسيطة لكن معبرة للغاية وتلخص مصير العالم القادم، وقد ترجمها الأديب العالمي **تولستوي** حول (الكارما) ومأخوذة عن قصة نشرها كاتب مغمور في إحدى الصحف الأمريكية فنقحها تولستوي ونشرها، وكان السر وراء ذلك إعجابه بعبرة القصة العميقة.

= تفضل جدّي.

= تروي القصة حكاية صائغ يبيع الذهب كان مارًا بعربته في إحدى الطرقات ومعه خادمه، فأشار إليهما راهب أن يقلاه معهما، فتوقفا وبعد لحظات من التفكير والتأفّف سمحا له بالركوب، وفى الطريق صادفا عربة أحد تجار الأرز غارقة في وحل إحدى الحفر، فنزل الخادم ليتدبر أمر عربتهما فقط.

فما كان من الراهب إلا أن وبّخ الصائغ وخادمه، وقال لهما إن الفردية أنانية والأنانية هي شر الخطايا، ثم نزل من العربة ليواسى تاجر الأرز في حين تابع الصائغ وخادمه طريقهما إلى فندق مجاور أخبر الراهب عنه خلال مجريات الحديث غير عابئين بمساعدة التاجر والراهب. وبعد أن أصلح التاجر والراهب مشكلة العربة اكتشفا أن صرة ذهب سقطت من عربة الصائغ في الوحل، فطلب الراهب من تاجر الأرز أن يذهب إلى الصائغ ويعطيه الذهب، وأن يسامحه على أنانيته وعدم مساعدته له فهذه أخلاق الله والأنبياء والبشر الصالحين.

بالفعل توجه تاجر الأرز الصالح إلى ذلك الفندق فوجد الصائغ وحوله رجال أشداء يعذبون الخادم بتهمة سرقة الذهب ويستجوبونه لمعرفة أين خبأه، فلما أعطاه التاجر الصرة فك الصائغ قيود خادمه واعتذر منه إلا أن الخادم ترك سيده بسبب تخوينه له وعدم ثقته به وتعذيبه الهمجي ثم ذهب إلى الجبال وكوّن فريقًا من قطاع الطرق كعمل جديد له.

مع مرور الأيّام دار الزمن دورته و قام الخادم وعصابته بقطع الطريق ذات يوم على الصائغ نفسه ومن معه وأخذوا منه تاجًا ذهبيًا كان الملك قد كلّفه بإعداده مقابل مبلغ باهظ و مجوهرات أخرى نفيسة، فلاذ الصائغ بالفرار خوفاً من الملك و أدرك أن ما جرى له كان من تداعيات الكارما بسبب أنانيته تجاه تاجر الأرز ذاك اليوم و ظلمه لخادمه المخلص بعدها فخسر هو كل شيء في حين ورث خادمه خلاصة تعبه و جهده ، بل إن الخادم قام بتعويض تاجر الأرز بمبلغ باهظ تكفيراً عن أنانيته تجاهه ذاك اليوم و تكريماً لأمانته المذهلة بإعادة صرة الذهب إلى الصائغ و تحريره من التعذيب بتبرئته و ترفعه عن معاملتهما بالمثل .. وبذا كان الشخص الأناني في القصة (الصائغ) هو الخاسر الأكبر الذي خسر ثروته ومكانته عند الملك وهرب فاقداً الأمن والأمان. أما الشخص المجدّ والكادح وهو تاجر الأرز فعوّض عن ذلك بثروة. وأما الشخص التائب في القصة وهو الخادم فقد كوّن ثروة حررته من عبوديته وبلسمة جراح تعذيبه وأيامه الصعبة في الماضي.

وهذا هو حال العالم اليوم تلعب فيه الدول المتطورة دور الصائغ الثري ودول العالم الثالث دور تاجر الأرز والخادم، فعربة الدول المتقدمة تمر يومياً بعربة تاجر الأرز المنكوبة وتتابع طريقها دون اكتراث والسماء هي ذلك الراهب الذي يرى كل شيء ويشهد عليه. ولا عجب أن تحوّل الدول

المتطورة الدول الأقل حظاً إلى قطاع طرق سيرثون ذات يوم كل جهدها فتستقيم الأمور مجددا يا حفيدتي الغالية. وأكبر إسقاط لهذه القصة على واقع العالم الحالي هو تعامل دول العالم الأول شرقاً وغرباً مع دول العالم الثالث في أزمة فيروس زوسا الراهنة الصحية والاقتصادية بلا اكتراث واهتمامها بنفسها فحسب.

ابتسمت حفيدته بلطف.

= الكارما ستنتصر إذن بالتأكيد؟

= بشكل قطعي. لا أدري بالضبط ما الذي تخبئه السماء لدول العالم المتطوّرة، لكنني على يقين بأنه سيكون حازماً وقاسٍ على حد سواء إن لم تغير سياساتها مع الدول الأقل قوة وحظاً قبل فوات الأوان. تذكرتي عزيزتي هذه الكلمات العميقة من **المستنير بوذا**:

(إنكم تجعلون من ذواتكم سجوناً ضيقه مظلمه قاتله حين تعكفون على أنفسكم وحدها وتعيشون لأنفسكم وحدها)

الفصل الثالث

المحيط الهندي 2029 م.

بعد أن أسدل الستار على فصول منظمة فاطر الإرهابية في باكستان، أطلق يخت ميلافا أشرعته من ميناء كراتشي، متهاديًا فوق مياه المحيط الهندي كأنّه يمحو آثار العنف بأنغام الأمواج الهامسة، متجهاً إلى ميانمار، وفق توصيات السيد ميدوسيز من قبل، ملتفًا حول شبه القارة الهندية كما لو كان التاريخ ذاته ينحني على صفحة جديدة تُكتَب بمداد البحر.

كان سبيروزار مشبعًا بمزيج من الحماس والرضا، فقد حقق انتصارًا حاسمًا بوأده تهديدًا متطرفًا أنقذ به آلاف الأرواح من شفير الهلاك. لكن ما كان يشغل باله حالياً هو أقرباؤه وأصدقاؤه في الولايات المتحدة الأمريكية والرأس الأخضر فهو لم يطمئن عليهم منذ فترة طويلة، لذا وجه حديثه إلى القبطان باروناج.

= أيها القبطان، هل لديك أي أخبار عن عائلة عمي **رودريغيز** وصديقي جيسون في بلادي؟

= بالطبع، الأخبار جيدة بالمجمل، لا جديد مهم في حياتهم والأمور تسير على خير ما يرام.

= والقس **فونسيكا** وبقية طاقم الكنيسة في الرأس الأخضر؟

= بخير أيضاً.

انفرجت أسارير سبيروزار براحة نفسية.

= هذا مطمئن للغاية قبطان، والآن هل يمكنك تزويدي بمعلومات أكثر عن وجهتنا القادمة ميانمار.

= على الفور أيها الطبيب مورفين، من دواعي سروري.

- الاسم السابق لهذه البلاد هو **بورما** وقد تحول إلى ميانمار عام **1989**
- العاصمة **ناي بيداو** وتعني مدينة **الشمس الملكية**.
- اللغة الرسمية هي البورمية.
- الديانة الغالبة هي البوذية مع وجود أقليات أخرى عديدة أشهرها **مسلمو**

الروهينجا.

وميانمار وجهة مناسبة تماماً لك للاختفاء عن الأعين لفترة من الزمن خصوصاً هرباً من المخابرات الأمريكية التي تبحث عنك بشكل حثيث.

= وأين يمكنني الاختباء هناك قبطان؟

= بعد دراسة وتحليل جغرافيا وتاريخ ميانمار، فخيارك الأفضل هو مدينة **باغان** أو (**مدينة المعابد**) كما تسمى والواقعة وسط البلاد، حيث يمكنك الادعاء بأنك تود اعتناق العقيدة البوذية والترهبن وهو أمر شائع الحدوث هناك. وتختفي بذلك لأشهر ريثما تهدأ الأوضاع.

صمت سبيروزار للحظات.

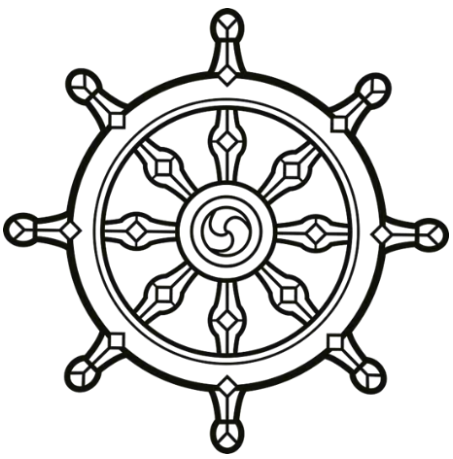
= إذاً على تعلم اللغة البورمية والكثير عن الديانة البوذية.

= بالطبع، وهذا ما سنفعله خلال الأيام القادمة ريثما نصل.

= لنبدأ تواً، زودني بمعلومات عن الديانة البوذية قبطان فأنا أكن لها الكثير من الاحترام مسبقاً قبل أن أتعرف عليها ويغمرني الفضول لكشف تعاليمها

= حسناً، البوذية ديانة شائعة للغاية في جنوب وشرق آسيا يتبعها الملايين، وهي عبارة عن سلوك طريق يدعى **بالدرب الثماني النبيل** الذي يتكون من: (الفهم السوي، القول السوي، النية السوية، الجهد السوي، الذهن السوي، التركيز السوي، الفعل السوي وأخيراً الحياة السوية.) ويرمز إلى ذلك **بعجلة الدارما** ثمانية الرؤوس.

تغير صورة الهولوغرام إلى صورة العجلة الشهيرة.



سبيروزار بدهشة.

= إنها تشبه عجلة القيادة في اليخت ميلافا !!

أصدر القبطان باروناج ضحكته العميقة المحببة.

= بالضبط، إن من صمم هذا اليخت هو مهندس من كوكب كوليتوس أعجب كثيراً بالديانة البوذية والطاوية على كوكبكم تبعاً لما وصلنا عنهما وجعل من عجلة القيادة تجسيداً لعجلة الدارما وفي مركزها رمز التاو إن لاحظت ذلك.

= لقد لاحظت الرمز بالفعل لكن غفلت عن حقيقة أن الطاوية عقيدة من كوكب الأرض وليست منتشرة لدى سكان كوكب كوليتوس. وكيف يتعلم الإنسان هذه الأسس الثمانية؟

= يتم ذلك بالانتساب إلى أحد المعابد والتتلمذ وراء معلم معين وبذلك تبدأ حياة الرهبنة الخاصة بك والتي ستتخلى فيها عن الملذات الدنيوية وتتفرغ للتنور ومساعدة الآخرين في سبيل الوصول إلى **النيرفانا** أي التحرر من العبودية للدنيا.

= جميل. لكن ما قصة بوذا بالأساس؟

= اسم بوذا يعني المتيقظ أو المستنير، لكن اسمه الحقيقي هو **سدهارتا جوتاما** وعاش في منتصف الألفية الأولى قبل الميلاد، ويلقب أيضاً **سكيا موني** ومعناه المعتكف. وقد نشأ بوذا في بلدة على حدود **نيبال**، وكان بالأصل أميراً لذا ترعرع مترفاً في نعيم هائل، و في سن السادسة عشرة تزوج ، لكنه عندما بلغ سن السادسة والعشرين هجر زوجته منصرفاً إلى الزهد والتقشُّف والخشونة في المعيشة والتأمل في الكون و كان هدفه أن يخلص الإنسان من آلامه التي مصدرها الشهوات بحسب وجهة نظره ، ثم دعا إلى تبني وجهة النظر هذه فتبعه الكثير من الناس .. وانتشرت بعدها تعاليم بوذا بعيداً في منطقة جنوب وشرق أسيا وأتباعه اليوم يقدرون بأكثر من نصف مليار إنسان.

= حسناً. أنا على أتم الاستعداد للمضي قدماً على خطا بوذا لأتبع هذا الدرب الثماني النبيل بغية الوصول إلى النيرفانا. إنها مغامرة مثيرة وتجربة غريبة وجديدة تستحق الخوض فيها. لكن كيف سنصل إلى مدينة باغان تلك؟

= مدينة باغان كما ذكرت تقع في قلب البلاد أيها الطبيب، ويمكننا الوصول إليها عبر **نهر إيراوادي** الذي ينبع من الشمال ويصب في المحيط الهندي جنوباً.

= وما هي أهم مميزات دولة ميانمار؟

= كثيرة لكن هنالك ثلاثة مميزات تختص بها هذه الدولة دون سواها. إضافة إلى ميزة رابعة هامة وخطيرة للغاية.

= وهي؟

= **أولاً**، كما ذكرت لك سابقاً مدينة المعابد أو باغان التي تحوي آلاف المعابد فيها وإن كان المعبد الأشهر والأقدس في البلاد موجود في مدينة أخرى وهو معبد **شويداغون** في مدينة **رانغون**.

ثانياً، حجر **البيانيت** الكريم الذي اكتشف فقط في هذه البلاد وخاصة في مدينة **موجوك** ويعتبر من أثمن الأحجار الكريمة حول العالم بسبب ندرته

ثالثاً: اضطهاد مسلمي الروهينجا في **إقليم أراكان** دينياً بارتكاب مجازر بحقهم مع غطاء سياسي خلال فترة سابقة من الزمن ومحاولة تهجيرهم من الإقليم إلى الدول المجاورة.

= هذا غريب قبطان؟ أليست الديانة البوذية قائمة على السلام ونبذ العنف؟ لماذا يتعرض مسلمو الروهينجا لكل هذا الاضطهاد؟

= بلى هذا غريب حضرة الطبيب، ويعتقد بوجود أسباب أخرى خفية تقف وراء هذا الفعل.

هز سبيروزار رأسه بدهشة. فهي معلومة غريبة للغاية.

= والميزة الرابعة الخطيرة ؟!

= **الميزة الرابعة** تقول بأن دول جنوب شرق آسيا ذات الانتشار البوذي الكبير بين السكان أعلنت منذ أشهر عن نيتها الاتحاد معاً في دولة فدرالية واحدة تحمل اسم بوذا نفسه لتشمل دول **ميانمار، فيتنام، كمبوديا، بوتان، سنغافورة، سيريلنكا، لاوس وتايلند.**

= وما المشكلة في ذلك؟

= المشكلة أن الدول التي تحوي أقليات بوذية **كالهند والنيبال وماليزيا واندونيسيا وبروناي والصين ومنغوليا واليابان وكوريا** بدأت تنتشر فيها حركات شعبوية بوذية تطالب بالانفصال والانضمام إلى الاتحاد البوذي الكبير. لا سيما في الصين والهند. مما اثار غضب وسخط الأنظمة السياسية فيها. إضافةً إلى الهندوس الذين يشكلون الغالبية الدينية في الهند، مما يثير جواً عاماً بأن حرباً عالمية مقبلة على هذه المنطقة.

= وهل هنالك اختلاف كبير بين البوذية والهندوسية، حسبتهما يتماهيان مع بعضهما، فكما أعلم كلاهما يؤمن **بالكارما** وتناسخ **الأرواح !!؟**

= صحيح. هنالك بعض التشابهات بينهما لكن هنالك فروق كبيرة أيضاً. فالبوذية ديانة أرضية تعنى بالإنسان ورمزها الوحيد هو بوذا. أما الهندوسية فديانة تعنى بالآلهة، إذ هنالك عدة آلهة لديهم وأشهرهم براهما وفشنو وشيفو. وكتابهم الديني الأشهر هو **الفيدا** ويعني بالسنسكريتية **الحكمة والمعرفة**. هم يقدسون الأبقار ويحظرون ذبحها أو الإساءة إليها لأنها ترمز بنظرهم إلى الأمومة والوفرة والإنتاجية، أما البوذيون فيقدمون على ذلك كغيرهم فهي مجرد حيوانات عادية بالنسبة لهم. كما أنهم يقدسون زهرة اللوتس بدلاً من الأبقار، فهي ترتبط عندهم بالنقاء واليقظة الروحية والإخلاص. لأنها قادرة على الخروج من المياه العكرة في الصباح وهي نظيفة تماماً. لذلك فهي ترمز إلى نقاء الكلام والجسد والعقل.

= خلاف واضح في الجوهر والطقوس والمبادئ إذن**!**

= بالفعل. وتعتبر النيبال القنبلة الموقوتة للانفجار، فهي ذات قداسة عند البوذيين كونها مهد بوذا، لكنها من جهة أخرى ذات غالبية هندوسية ساحقة، لذا فمطالبة البوذيين فيها بالانفصال سيفجر أزمة هائلة. وبالتالي عليك الحذر في رحلتك القادمة، لاسيما أن الاتحاد البوذي القادم أعلن أن ميانمار ستكون مركز الفدرالية فيه.

= وماذا عليّ فعله ...؟

= عندما تصل إلى مدينة المعابد باغان اسأل عن **الراهب دينبا**. إنه الراهب الأكبر فيها ويعتبر أحد أكبر الأصوات المناهضة لفكرة الاتحاد الفدرالي. سيهتم بك ويحميك على الأرجح، فهو شخص عقلاني وودود إلى أبعد الحدود.

= هذا أمر عجيب. راهب بوذي كبير يرفض قيام فدرالية بوذية كبيرة ؟!
= أجل. يقول بأن الدين شيء والسياسة شيء آخر. ولا يجوز الخلط بينهما. وأي كيان سياسي يقوم على أساس ديني مصيره الفشل والحروب بكل تأكيد. فالوطن للجميع وليس لدين أو طائفة بعينها منه.

= مثير للإعجاب والاحترام.

= بلا شك.

*****

قضى سبيروزار الأيام التالية من الرحلة غارقًا في تعلّم اللغة البورمية، عاقدًا العزم على اكتساب ما يكفي منها ليتمكن من تدبّر أموره اليومية والتواصل مع السكان دون حواجز. وبفضل عزيمته، بلغ مستوى مقبولًا يُعينه على المضي قدمًا في مهمته.

أخيرًا، بدا خط الأفق يلوّح بملامح الأرض الموعودة؛ فقد وصل يخت ميلافا إلى المياه الهادئة قبالة ميناء إقليم إيراوادي في الجنوب الميانماري. لكنّه لم يرسُ هناك، إذ كانت تعليمات القبطان بارواناج واضحة: الاستمرار في الإبحار شمالًا، عكس تيار نهر إيراوادي العظيم، حتى الوصول إلى مدينة باغان في إقليم ماندالاي.

استغرقت الرحلة النهرية بضعة ساعات اضافية من الإبحار المتواصل، حيث انساب اليخت بين ضفّتي النهر كأنّه يسترجع ذاكرة حضارات بادت بين أطلال الهياكل الغابرة. وعند المغيب، رسا اليخت أخيرًا في ميناء قديم من موانئ باغان، مدينة المعابد ومهد الأساطير، كأنما جاء ليوقظ فيها قصة جديدة تستعد لتُروى.

= الحمد لله على سلامتك أيها الطبيب مورفين.

= شكراً لك قبطان. ما الذي على فعله الآن؟

= لا شيء، إنه المساء وسيخيم الليل قريباً، غداً صباحاً تسأل عن الراهب **دينبا** ثم تتجه إليه وتطلب منه الإذن بالتتلمذ خلف أحد المعلمين للترهبن. أخبره بأنك عشت حياة متكاملة لنفسك ومللت من الأشياء الدنيوية وأنك حالياً تريد مساعدة الآخرين والارتقاء بروحك لمستويات أعلى.

= إذا موعدي غداً مع الراهب دينبا. اسم غريب بالمناسبة!

= إنه يعني **الحقيقة** باللغة البورمية.

= معنى جميل ...!

= والأهم هو استخدام اسمك المزور في هويتك أي **جان ويليامز** وليس اسم سبيروزار فلا تنس! أنك ملاحق.

= بلا شك قبطان، سأفعل.

*****

ميانمار / باغان

صباح اليوم التالي ...

ما إن لامست قدماه اليابسة حتى شعر سبيروزار وكأنه انتُزع من الزمن الاعتيادي، وأُلقي به في هامش أسطورة تُكتَب للتو. ترجل من يخت ميلافا بخطى متأملة، كأن الأرض التي يسير عليها ليست سوى قشرة رقيقة تغلّف سرًا كبيراً ينتظره. خلفه النهر يتلوّى كأفعى مقدّسة، وأمامه مدينة باغان وقد ارتفعت كصلاة معلّقة في الهواء، تغلفها أدخنة البخور وخيوط الذهب المنبعثة من المعابد القديمة.

كل شيء كان يتنفس الصمت. وجوه العابرين، ملامح الأشخاص، حركة الريح بين الأروقة الحجرية، حتى دهشة الرهبان الذين رمقوه بنظرات طويلة، لم تكن من باب الغرابة فحسب، بل كأنهم كانوا يلمحون فيه نبوءة قديمة منتظرة.

كانت الأسئلة ترتج في العيون ولا تنطق بها الألسنة (**ماذا يفعل رجلٌ خلاسي البشرة هنا؟**) ..غير أن سبيروزار، وقد تدرّب قلبه على الإنصات للغة ما بين الكلمات، التقطها كلها، وابتسم بملامح مشبعة بالسكينة والشك في آن واحد.

كان يحمل في ذاكرته اسماً، لا أكثر. دينبا. راهب قديم، غامض، لا يعرف وجهه ولا صوته، بل بالكاد يعرف هويته. لكنه يعلم ـ علمًا لا يخضع للمنطق

ـ أنه إن وُجد مكان يمكن لصوت روحاني كهذا أن يُسمع فيه، فهو هنا.

لمح أخيرا ثلة من الرهبان بثيابهم الزعفرانية يسيرون على مهل في أحد الممرات الترابية، اقترب منهم بهدوء وبدا المشهد له أشبه بديجافو، كما لو أنه يقترب من ذاكرة لم يعشها، بل سكنها من قبل.

انحنى قليلًا احترامًا، ثم قال بصوته العميق، المختلط بشيء من الحياء:

= كيف حالكم أيها الرهبان؟

= أهلاً أيها الغريب.

= أين يمكنني العثور على كبير الرهبان دينبا؟

= ولماذا تريد مقابلته؟

= أنا طبيب من الولايات المتحدة الأمريكية وجئت بلادكم من أجل عيش تجربة الرهبنة والارتقاء الروحي.

بدت الدهشة واضحة على ملامح الرهبان، وأجابه أكبرهم سناً.

= هذا قرار جريء للغاية منك، الراهب دينبا موجود حالياً في **معبد شويساندو** (معبد غروب الشمس).

= وكيف يمكنني الوصول إلى المعبد؟

أرشده الرهبان بلطفٍ إلى درب ضيق يلتف بين ظلال الأشجار الكثيفة، نحو ذلك الصرح المقدس الذي يحتضن شخص المعلم دينبا.

قطع سبيروزار المسافة بخطى متأنية، يتغلغل في زوايا المكان ويستنشق عبق الخشب والطحالب، بينما عقله تائهٌ في دوامة أفكاره حول الغاية التي دفعته إلى هذا الطريق الموحش، وكيف سيفاتح الراهب دينبا بموضوعه.

أخيراً بلغ المعبد المنشود. وامتد أمامه درجٌ حجري طويل، ارتقى درجاته كمن يعانق السماء، تاركاً خلفه كل شكٍّ وهموم، وغارقاً في صمت داخلي عميق.

عند بوابة المعبد، تجاوز عتبة الزمن حيث ينفصل العالم المادي عن الآخر

الروحاني، وجد المكان يزخر برهبان ينسجمون مع إيقاع الصلاة، تحيط بهم هالة من السكينة التي تخترق الصدور.

سأل عن الراهب دينبا، فهُديَ إلى قلب المعبد، حيث تجمّع نور خافت ينساب برقة على هيئة رجلٍ في لحظة تأمل مقدس. كان الراهب محاطاً بسكون سماوي، يؤرجح روحه بين الظلال والنور، ممارساً طقوساً تتجاوز الحواس.

انتظر سبيروزار في صمت، كأنه يشارك المكان رهبته، حتى أنهى الراهب طقوسه المقدسة، فالتقت العيون ببعضها في لحظة مفصلية، واجتمع الغريب والمحلي تحت سقف معبد واحد. ابتسم له المعلم دينبا فتشجع سبيروزار.

= كيف حالك سيدي؟

= أهلاً أيها الغريب. كيف يمكنني مساعدتك؟

= أدعى جان، أنا طبيب من الولايات المتحدة الأمريكية وأتيت إلى بلادكم بقصد الترهبن وعيش الحياة الروحية ومساعدة الآخرين فقد مللت من الحياة المادية الفانية.

انفرجت ابتسامة إعجاب من شفتي الراهب وقال بإنجليزية سليمة وإن كانت بلكنة أجنبية:

= هذا مثير للإعجاب وجريء أيها الطبيب، يمكنك ذلك بالطبع فالباب مفتوح أمام الجميع.

شعر سبيروزار بالارتياح لإتقان الراهب للغته الأم، كان يراقبه وهو يتحدث، رجلٌ في الستينيات من العمر، وقور المظهر كراهب بوذي نموذجي، ولاحظ أن **الشريان الصدغي** في صدغه الأيمن بارز للغاية وأنه يضعه يده عليه بين الفينة والأخرى، فقاطع حديثه على الفور.

= أعتذر عن مقاطعتك سيدي، لكنني لاحظت أنك تضع يدك على صدغك بشكل متكرر فهل يؤلمك ...؟

بدت الدهشة على وجه الراهب.

= أجل بدأ الألم منذ يومين وأخبرني البعض أنه صداع الشقيقة وسيزول من تلقاء نفسه.

= أعذرني سيدي، لكن عليك التوجه مباشرة إلى أقرب مشفى لتلقي العلاج، هذه ليست شقيقة بل تدعى **التهاب الشريان الصدغي** وعلاجه بسيط بدواء وحيد يدعى **الستيروئيدات** لكنه يسبب العمى إن لم يعالج فوراً.

= العمى؟

= أجل سيدي إذ ينتقل الالتهاب إلى شريان العين خلال فترة قصيرة. لذا أرجو منك التوجه مباشرة إلى المشفى حفاظاً على بصرك.

= وهل أنت متأكد من التشخيص؟

= شبه متأكد، وعلى كل حال علاج هذه الحالة يكون حتى بالاشتباه وقبل تأكيد التشخيص حفاظاً على البصر.

هز الراهب رأسه بدهشة مشوبة بالقلق.

= حسناً، سأذهب مباشرة، فالبصر من الأمور التي لا يمكن التلاعب بها.

التفت إلى راهب بجواره في الثلاثين من العمر.

= هذا الشاب هو طبيب يدعى جان، إنه ضيفنا، اهتم بشؤونه وعلمه أساسيات الرهبنة ريثما أعود من المشفى لأكمل معه بنفسي.

= كما تشاء معلم.

تسلل إلى قلب سبيروزار دفء عميق من الفرح، إذ إنّ القدر نحت له مساراً فريداً، فرصة لا تُقدر بثمن، ليتعلم من حكمة كبير رهبان باغان. كانت تلك اللحظة في حياته كدرة نادرة تتلألأ بجاذبية، يدرك تمام الإدراك أن عليه اقتناصها بكل جوارحه، كي يغوص في أعماق التعاليم البوذية التي طالما نبض لها قلبه منذ نعومة أظفاره بشغف واحترام لا حدود لهما.

*****

انقضت الأيام على رحيل كبير الرهبان إلى المستشفى، وفي غيابه شرع سبيروزار في رحلة التحول الروحي، حلق رأسه بأصابع يديه المتأنية، وارتدى رداء الرهبان الزعفراني، رمز الزهد والتجرد، متبنيا بذلك أولى

خطواته على طريق الرهبنة. ومع ذلك، كان يعود كل مساء إلى يخت ميلافا، حيث يحتضن هدوء البحر وصفاء الليل ليستعيد قواه ويجد فسحة للتأمل.

بعد نحو أسبوعين، عاد الراهب دينبا إلى المعبد، مفعماً بالامتنان العميق لسبيروزار، الذي لم يكن مجرد تلميذ، بل طبيب أنقذ بصره ورفيق درب جديد في مسيرة السعي وراء النور والحكمة.

= أشكرك جزيل الشكر أيها الطبيب جان، لقد أثبتت الخزعة أن تشخيصك صحيح، لقد أنقذتني من العمى المحقق.

= لم أفعل سوى واجبي سيدي، ويكفيني شرفاً أنني ساعدت رجلاً في مكانتكم منحني فرصة التتلمذ على يديه.

= هذا تواضع منك يؤهلك بشكل كبير كي تكون راهباً مثالياً، بالطبع سأكون بنفسي بكل تواضع مرشدك نحو الارتقاء الروحي والرهبنة اعتباراً من هذه اللحظة. هيا بنا لنتحدث أكثر خارج المعبد فتعرفني بنفسك وأعرفك بنفسي وبمدينة باغان والديانة البوذية.

سبيروزار بسرور بالغ.

= هيا بنا معلّم.

مشى الاثنان تحت ظلال أشجار باغان الكثيفة، حيث كانت أشعة الشمس تتسلل بخجل بين الأغصان المتشابكة والتماثيل الحجرية المبعثرة. صمت الطبيعة من حولهما كان بمثابة خلفية ساحرة لحوار عميق بدأه سبيروزار، حين روى للراهب دينبا قصته التي نسجها بحذر، كما أوصاه القبطان باروناج، حكاية مزيفة لكن متقنة يكتنفها الغموض والأسرار.

أما الراهب، فقد منحه بسخاء إرثه الروحاني، فتح له أبواب الحكمة دون تحفظ، متحدثًا عن كل ما يحتاجه سبيروزار، من تعاليم روحية، إلى أسرار البوذية التي لا توجد في الكتب، بل تزدهر في القلب.

وفي ذروة حديثهما الشيق بدا لوهلة كما لو أن الزمن توقف فجأة، حين كشف الراهب عن موضوع أثقل وقعًا، ذلك الذي أشار إليه القبطان من قبل: **الاتحاد الفدرالي البوذي**. الذي أثار اهتمام واستغراب سبيروزار وقتها. فرفع رأسه، وعيناه تلمعان بفضول لا يخفى، ليطرح السؤال الذي كان حتميًا.

= اعذرني على فضولي سيدي، لكن لماذا يرفض راهب بوذي بمكانتك ويقيم في مدينة باغان أحد أهم المدن البوذية شهرة ومكانة قيام مثل هكذا اتحاد؟

= لأنه غير متوافق مع الحياة يا بني ولن يجرّ إلى المنطقة والعالم سوى الحروب والدمار والضحايا والتشرد. على الإنسان العاقل ولاسيما البوذي أن يعمل على تقريب الشعوب من بعضها لا التفريق بينها أكثر. إن مطالبة بوذيي التبت والصين والنيبال والهند بالانفصال عن بلدانهم لا يعني سوى شيء واحد فقط وهو إعلان الحرب، فلا الصين الشيوعية ستقبل ذلك سياسياً لاسيما أن الاتحاد مدعوم من الدول الرأسمالية، ولا الهند الهندوسية ستسمح بذلك. فوجود دولة بوذية كبيرة بحجم الاتحاد المفترض يمثل خطراً على دول الجوار المختلفة كلها. إنّ بوذا يعلمنا أن نتحرر من العبودية للدنيا وإعلان هذا الاتحاد هو تعلق أكبر بها **فالبوذية دين روحاني وليست سياسة مادية**، أي أنّ ما يحدث يخالف أولى وأهم وصايا بوذا. وهذا يذكرني بالمأساة التي حدثت منذ عقود.

= أي مأساة تقصد سيدي. ؟!

= مأساة اعتداء البوذيين على مسلمي الروهينجا في بلدي ميانمار. و الذي كان بمثابة طعنة في صميم مبادئ بوذا والبوذية. والآن يعيد التاريخ نفسه على نحو أوسع وأخطر.

= لكن ألا يشكل اعتراضك على قيام الاتحاد خطراً على حياتك؟

= بلا شك، ولقد وصلتني بالفعل عدة رسائل تهديد بالقتل، بل إنني أصبت بحالة تسمم شديدة منذ شهر ويعتقد الرهبان أنها كانت محاولة اغتيال حقيقية

= هذا يعني ضرورة تحصين نفسك وحماية حياتك بشكل أكبر، فأنت هكذا مكشوف للجميع !!؟

= لا أكترث يا بنيّ. عندما سيحلّ أجلي لن يحميني أحد، وعندما لا يحلّ، ما من قوة يمكنها أذيتي في الكون برمته.

هزّ سبيروزار رأسه بدهشة من هذه الفلسفة الغريبة وتابعا سيرهما وحديثهما بين الأشجار الضخمة المتعانقة والمعابد المشرئبة كابتهال للسماء.

الفصل الرابع

إيرلندا الشمالية / بلفاست.

منزل السيدة لوتس.

تموز 2030.

كانت لوتس متمددةً على الأريكة الرمادية في غرفة الجلوس، تنكمش على نفسها كزهرة أُغلقت أوراقها من فرط الحزن. التلفاز أمامها يبعث ضوءًا باهتًا يرقص على جدران الغرفة الكئيبة، لكنه لا يدفئ شيئًا في داخلها. مرّت أشهر منذ اجتاح فيروس زوسا العالم، جاعلاً من العزلة قانونًا ومن الوحدة طقسًا يوميًا، لكن الألم الحقيقي لم يكن في الحجر الصحي بل في ذاك الحجر الذي استقر في صدرها منذ فقدت زوجها وابنها في تلك الليلة المشؤومة.

كانت غمامة الحداد تحوم فوقها كروح لا تنوي المغادرة، وذاكرتها تلوك تفاصيل الحادثة بشراهة، لا تمنحها لحظة تنفس. وأكثر ما كان ينهشها من الداخل هو سخرية الناس. قصة "الكائن الفضائي" الذي أنقذها ؟! أصبحت أضحوكة على ألسنهم، كأنها مجنونة تبتدع الأساطير فرارًا من الحقيقة.

وفيما كانت عيناها تحدقان في الشاشة دون وعي، بدأ التلفاز يضطرب. خطوط مشوشة مزّقت الصورة، ألوان تتداخل ثم تختفي، لتظهر بعدها هيئته. ذاك الشاب، ذاك الغريب الذي أطلّ عليها لحظة غيابها عن الوعي بين أنقاض الحادث، كأنما خرج من رحم المجهول.

شهقت لوتس ونهضت فزعة كمن صُفع من حلم. هل فقدت عقلها أخيرًا؟ هل هذا نتيجة العزلة والضغط النفسي؟ أهو وهْمٌ بصري ؟!

لكن الصوت نفسه، الغريب العذب العميق، اخترق الحيز الساكن وأعادها إلى واقع يفوق الخيال:

= سيدة لوتس. أعتذر مجدداً لك عن تسببي بالحادثة المأساوية في تلك الليلة المشؤمة والتي فقدت جراءها عائلتك. فكل ما حدث هو نتيجة قلة تركيزي وحذري. كما أنني متأسف جداً للوضع الاجتماعي الذي سببته لك بسبب

قصة تحولي إلى كائن فضائي، كان ذلك غير مقصود ونجم عن ضغطي بالخطأ على زر في سوار معصمي بسبب ارتباكي بعيد الحادثة وقلقي عليكم. أنتِ لم تكوني متوهمة فأنا بالفعل كائن من كوكب آخر. وهذا هو الدليل.

ضغط زراً في سواره فتحول شكله بالفعل إلى هيئة الكائن الفضائي الذي أخرجها من السيارة بين ذراعيه قبل أن تفقد الوعي.

تابع حديثه.

= لقد تركت لك في صندوق البريد خارجاً طرداً يحتوي نظارات واقع افتراضي خاصة بي. إن أردت معرفة قصتي أكثر فأنا مستعد لشرحها لك عبر تلك النظارات كنوع من التكفير عن خطأي الفادح في تلك الليلة الكئيبة. شريطة أن تبقي قصتي سراً بيننا. وأحيطك علماً بأن تلك النظارات ستتدمر تلقائياً في حال استخدمها أي شخص آخر غيرك فهي تتعرف على بصمة قزحيتك فقط. وأترك لك حرية الاختيار. إما أن ترفضي اعتذاري وتتابعي حياتك كما هي، أو تغفري لي ونتابع التواصل كي أقص عليك أموراً مذهلة بحق عن نفسي وكوكبي الأصل مؤكداً لك أن ذلك كله سيبلسم كثيراً من جراحك ويعيد إليك حيويتك وطاقتك مجدداً. إلى اللقاء.

تشوّشت الشاشة مجددًا للحظات، كأنها تئنّ تحت وطأة رسالة تتحدّى منطق البشر، ثم عادت بهدوء إلى القناة السابقة التي كانت لوتس تتابعها، وكأن شيئًا لم يكن! لكن شيئًا قد كان. شيء غير مرئي انشطر في داخلها، كُسر جدار الصدمة، وتسرّبت الحقيقة إلى روحها كماءٍ بارد فوق جمر الذكرى.

جلست لوتس على الأريكة كمن يهوي من سماوات الإدراك إلى قاع المجهول. كانت يداها ترتجفان، وقلبها يخفق بشدة. لم تكن تهلوس إذن تلك الليلة... لم يكن وهْمُ الألم ولا فورةُ الحزن ما جعلها ترى وجهه العجيب، ولا صوته المعدني الحنون الذي ما زال يرنّ في أذنيها الآن... بل الحقيقة! الحقيقة التي تعجز الكلمات عن تبريرها أو احتوائها.

(المخلوقات الفضائية ؟!). همست بشفاه مشققة من الجفاف، كأنها تنطق باسمه للمرة الأولى. جلجل في رأسها السؤال: لماذا ساعدها ليلة الحادثة وأنقذ حياتها؟ ولماذا عاد الآن؟ بل لماذا... هو الوحيد الذي آمن بألمها؟

مرّت دقائق كالدهر وهي متسمّرة في مكانها، تحدّق في لا شيء. ومع ذلك، في أعماقها، بين طبقات الجرح وأكوام الخسارة، كان هناك شعور آخر... شعور لا يمتّ بصلة للعقل أو المنطق. كالنور الخافت في نهاية نفق الحداد الطويل. ربما كان أملًا... وربما مجرد هلوسة أخرى قررت تصديقها. لكنها – في تلك اللحظة – أرادت أن تصدّق.

كأن شيئًا ما همس لها في قلبها لا أذنها، فنهضت كالمسحورة، مشت على أطراف الشك والفضول، فتحت الباب وكأنها تفتح باب القدر. خرجت إلى البرد الكئيب، إلى صمت الحجر الصحي الذي لا يُكسر إلا بنقيق الضفادع من البركة القريبة، وسارت إلى صندوق البريد بخطى مترددة.

مدّت يدها ببطء وفتحت الغطاء... فكان هناك.

طرد وردي صغير، بلون الغروب حين يختلط بالحزن. أملس، بلا عنوان ولا ختم.

تأملته بدهشة لثوانٍ طويلة، ثم سحبته من الصندوق بحذر المرتجف، وعادت أدراجها، ممسكةً به كأنها تحمل قطعة من الحلم، أو مفتاحًا لباب لن يفتحه أحد سواها كي تخرج عبره من واقعها المرير.

وفي الداخل، حين أغلقت الباب خلفها، شعرت لأول مرة منذ الحادثة أن الحياة لا تزال قادرة على المفاجأة... وربما حتى على منح معنى جديد للمأساة.

جلست لوتس على الأريكة وكأن العالم كله ينكمش داخل رئتيها، تتنفس بتوجس وتُجاهد أفكارها المتشابكة. نظرت إلى الطرد الوردي في حجرها كما لو أنه صندوق باندورا، تَهاب فتحه وتتشوق لمعرفة ما يحتويه. أخيرًا، بعد لحظةٍ بدت كدهر، مزّقت الغلاف وأصابعها ترتعش، فإذا بها تجد نظارات واقع افتراضي بيضاء ناصعة، يزينها زرٌ أزرق يتوهج بخفة. ارتجف قلبها بين أضلاعها، لكنها ارتدتها، وكأنها تعتمر قناعاً لبعثٍ جديد. ضغَطت الزر.

في لحظةٍ خاطفة، اختفى كل شيء مألوف. لم تعد في غرفة الجلوس، ولا على الأرض. وجدت نفسها تقف على أرضٍ بلون الزمرد، تحت سماء أرجوانية تسبح فيها سُحب شفّافة، وعلى بُعد، شموس ثلاث تدور كسراجٍ

معلقٍ في قاعة الآلهة. لقد أُلقي بها إلى عالم آخر، عالم لا تحكمه قوانين البشر، ولا تُحدّه ذاكرة الخسارة أو العزاء.

شهقت، لكنها لم تسمع صوتها. جسدها اهتز فعليًا. نظرت إلى نفسها، فرأت جسدًا فضائيًّا نحيلًا بلون الزبرجد، له أصابع أطول وعيون تتوهج كبُركان هادئ. بدت غريبة عن نفسها، لكنها شعرت — لسببٍ مجهول — بأنها أقرب إلى ذاتها من أي وقت مضى.

مشَت. تحرّكت قدمَاها في ذاك الفضاء الجديد، فتحرك معها الحلم. كانت المنازل من حولها أشبه بفقاعاتٍ زجاجية شفافة تتنفس مع الضوء. بينها تسلقت نباتات بلون الفيروز تتفتح ككائنات حية، وحولها طافت مركبات بانسيابية، كأن الجاذبية تعقد اتفاقًا معها لا ضدها.

لم يكن المشهد مجرد "واقع افتراضي"، بل كان جنةً. جنةً حيكت من خيوط الهروب والأمل.

وفي لحظة سكونٍ غير متوقعة، شعرت بيدٍ توضع على كتفها. تجمّدت، ثم التفتت ببطء. ..

رأته.

كان هو، الكائن الفضائي ذاته. لم يكن مخيفًا، بل بدا كما لو أن الحنان تجسّد في ملامح. ابتسم، فذابت بقايا الخوف في داخلها.

قال بصوتٍ لم تسمعه بأذنيها، بل بشيء يشبه الروح:

= سيدة لوتس. أهلاً بك على سطح كوكبنا المذهل **باي**، أنا الشخص الذي تسبب بحادثتكم الأليمة وأدعى سولاس. أعتذر مجدداً على كل شيء سيء أصابك بسبب إهمالي.

نطقت بنبرة مرتجفة مذهولة وغير مصدقة لما يحدث:

= لا داعٍ للاعتذار المتكرر سيد سولاس. لقد كان قدراً لا مهرب منه ويكفيني أنك تعترف بخطئك وتطلب الغفران. لكن لماذا ساعدتني يوم الحادثة وأنت غريب عن كوكبنا؟ ولماذا تعرض سرك للانكشاف اليوم بالتواصل معي بغية اعتذار لن يغير ما حدث؟

= أنا شخص منفي من كوكبي بجميع الأحوال سيدتي فلا أخشى العواقب على الإطلاق. وبصراحة الشعور بتأنيب الضمير ينهش أعماقي منذ يوم الحادثة. فقد اتخذت على نفسي عهداً بأن أساعد كل إنسان مظلوم ألتقيه على كوكبكم على خلفية موقف نبيل تجاهي من قبل فتاة التقيتها في دولة تشيلي منذ ثلاثة وخمسين عاماً غيّر كثيراً من نظرتي السابقة للبشر. لذا لم أتحمل فكرة أن أكون بنفسي سبباً في ظلم شخص ومصدراً لآلامه ثم أتوانى عن تصحيح خطأي وتقليل حجم الأضرار التي ألحقتها به.

= موقف نبيل منك بلا شك يترك انطباعاً مبهراً عن شعبكم. لكن كيف أتمكن من رؤيتك وكيف شعرت بيدك على كتفي ونحن في واقع افتراضي كما ينبغي !؟

= هذه النظارات هي درة الاختراعات في كوكبنا، يمكنك من خلالها زيارة أي عالم حقيقي أو افتراضي والعيش بداخله والتفاعل معه بحواسك جميعها. وما يحدث الآن أن نظارتينا مقترنتان معاً فنتشابك سوياً في نفس العالم، على سبيل المثال اقتربي من هذه الزهرة وحاولي شمها.

بالفعل مالت لوتس إلى الزهرة وتمكنت من لمسها وشمها كما لوكان كل شيء حقيقياً وكان عبقها ساحراً أشرق دماغها معه بكليته فابتسمت بسعادة حقيقية لم تجربها من قبل أبداً على كوكب الأرض.

= مذهل! لكن كيف يحدث هذا؟

= إنه التطور التكنولوجي ببساطة. وكل ما ترينه الآن على كوكبنا سيكون مستقبل كوكبكم ذات يوم، فقد بدأتم مثلاً السير على طريق الذكاء الاصطناعي والواقع الافتراضي وما أنجزتموه حتى الآن يبدو عظيماً وإن كنتم لا تزالون في بداية الرحلة.

= وهل يمكن التذوق أيضاً؟

= بالطبع وأكثر من ذلك. أهلاً بك في كوكب باي فخر التطور العلمي في الكون وأول حضارة كونية على الإطلاق.

= أنتم موجودون قبل البشر؟

= بالطبع، وبمئات الآلاف من السنين.

= ولماذا تزور الأرض بشكل سري. لماذا لا تتواصلون مع البشر وتتعاونون معهم ؟!

= لأن البشر لا يؤتمن جانبهم يا صديقتي. ربما هنالك قلة طيبون كحالك مثلاً. لكنها ليست السمة الغالبة على البشرية. ونحن لا نعرف ما مصير أفراد شعب باي في حال تجلوا بحقيقتهم بين البشر. إن عددنا ثابت يا صديقتي فنحن لا نتكاثر وكل فرد يموت فينا هو خسارة لا تعوض. صحيح أن بإمكاننا استنساخه، لكن الأجساد المستنسخة أقل كفاءة وأقصر عمراً.

= وربما استقبلكم البشر أحسن استقبال.

= ربما. لكن تجاربنا على أرض الواقع أثبتت العكس. وخير دليل على ذلك هو المنطقة **51** في الولايات المتحدة الأمريكية، حيث تم اعتقال بعض من أفراد شعبنا وأجريت عليهم تجارب مرعبة. فكيف بعد كل ذلك تتوقعون منا التعاون معكم ؟! وفي الحقيقة لقد جرى التعاون بيننا وبين حضارات قديمة على سطح كوكبكم كالفراعنة مثلاً وساعدناهم على بناء الأهرامات. حتى أن بناءها بالكامل معتمد على النسبة باي كما أكد علماؤكم.

= وما هي النسبة باي هذه ؟! هل هي ذاتها التي نستخدمها؟

= أجل. النسبة باي هي النسبة المقدسة في كوكبنا، وقد أطلقنا عليه باي تيمناً بها. وتمثل كما تعرفين نسبة محيط الدائرة إلى قطرها، والذي يساوي تقريبا .....**3.14** لكنه في الحقيقة رقم سحري بامتياز فهو بلا نهاية، ونحن نؤمن بأن الدائرة هي أقدس شكل في هذا الكون وبأن النسبة باي المنبثقة عنها هي سرّ الإله الخالق في كونه.

= أنت تتحدث عن إله خالق للكون، هل لديكم عقائد دينية على كوكبكم كحالنا على الأرض؟

= لا... لا أديان... لا أنبياء... لا بيوت عبادة... النبي الوحيد الذي نؤمن به هو العقل... لذا لدينا شخص حكيم انتخبناه منذ آلاف السنين ليكون مرشدنا و ندعوه (العقل الأعظم) الذي يتشاور مع مجلس عقول مؤلف من **25** شخص ليخرج بالقرارات المصيرية المتعلقة بشعب باي... و **غياب الدين هو سرّ تطورنا التكنولوجي الكبير** ، فالدين كما يقال على كوكبكم هو أفيون الشعوب ، يفتر همتها و يجعلها تعيش في الآخرة قبل انقضاء الدنيا ، كما

أنه مدخل للشقاق و الخلافات التي لا طائل منها و من ثم الحروب الطاحنة

= إذاً أنتم لا تؤمنون بوجود إله ؟! ..

= لا. ليس صحيحاً. رغم أننا لم نحظَ بأنبياء لكن عقولنا قادتنا لوجود خالق مبرمج للكون بل إن اكتشافاتنا العلمية أثبتت ذلك بما لا يدع مجالاً للشك، فمثلاً تمكنا من رسم **خريطة دقيقة رباعية الأبعاد للكون** أثبتت لنا بأن له حدوداً تخفي خلفها عالماً مجهولاً بالنسبة لنا، لكننا تمكنا من رصد إشارات غامضة منه وهذا لا يمكن أن يحدث دون وجود عالم آخر خارج هذا الكون يدعوه شعبنا (الكون الأكبر) وهو يكافئ في أديانكم السماوية (الآخرة). حتى أن تحليلنا لأديانكم هذه أوصلتنا لحقائق مذهلة أنتم بأنفسكم تجهلونها وتهدرون وقتكم بالجدل البيزنطي والجزئيات السطحية والصراعات التي لا تقدم ولا تؤخر.

= حقائق من قبيل ماذا ؟! ..

= أعتذر عن إفشاء هذه المعلومات فهي أسرار مقدسة على سطح كوكبنا ولا يمكنني حتى اللحظة أن أبوح بها إلى غريب عن شعب باي. لكن يمكنني القول بأنّ الحياة على كوكبكم الأرض برمتها وبحسب دراساتنا الدقيقة مصممة إلهياً وفق نسبيتين مقدستين وهما باي ذاتها وفاي أيضاً التي تساوي بدورها **1.618** أو ما تطلقون عليها على كوكبكم النسبة الإلهية الذهبية.

= أي أنّ الدين من وجهة نظركم هو الفرامل التي تكبح عجلة التطور العلمي.

= بلا شك، لكن ذلك لا يقلل من تأثير الروحانيات الإيجابي على حياة الكائنات، فالفرق هائل بين من يعيش في دنيا وهو مؤمن بأن موته هو نهاية أبدية لكيانه، وبين من يعيش وهو مؤمن بأن هنالك حياة خالدة ابدية تنتظره عقب موته، فالأول يميل للأنانية والعدوان والثاني يميل إلى الإيثار والسلام. أو كما يقول عالمكم الشهير **ألبرت أينشتاين**:

(العلم بلا دين أعرج والدين بلا علم أعمى)

= محق. إنهما كتوأم سيامي ملتصق لا يمكن فصلهما عن بعض إذ أنهما يكملان بعضهما.

= بالضبط. عند وضع الأمور في نصابها الصحيح يمكننا حصد إيجابيات

كل من العلم والدين، أما إساءة استخدامهما ففيه هلاك للكائنات بلا شك.

= تماماً. لكن ما الذي تريده مني سولاس؟ لماذا تواصلت معي اليوم مجدداً ؟!

= لأسباب عديدة صديقتي لوتس. **أولاً** كي أعتذر منك عن خطئي الجسيم بقلة حذري والذي أودى بحياة أقرب شخصين إلى قلبك. وثانياً لأنكم عائلة طيبة، لقد فضل زوجك الخروج عن الطريق وتعريض حياتكم للخطر على أن يصدمني ويؤذيني وهذا إن دلّ على شيء فيدل على أخلاقكم الرفيعة. وثالثاً أردت أن أريحك من عذابك النفسي وحيرتك بخصوص كوني فضائياً أم لا وأثبت لك أنك لم تكوني متوهمة، وأن الآخرين الذين يسخرون منك مخطئون. وأخيراً تجربتك هنا على سطح كوكبنا ستكون بمثابة علاج نفسي ونقاهة لك من آثار الحادث المؤلمة كما سترين بأم العين بعد لحظات. إن قبلت متابعة مغامرتك بصحبتي هنا بالطبع!

= و كيف لي أن أرفض هذا العرض السخي من شخص طيب و نبيل كحالك يا صديقي... إن صدقك وأخلاقك الرفيعة جعلاني أرى هذا الواقع الشاذ المرعب على سطح كوكب آخر مع مخلوقات مختلفة عنا كوضع طبيعي... **فالكائن الحي بالنهاية هو مضمون لا شكل... و وحش يحترمك أفضل من إنسان يحتقرك** فما قولك بكائنات نظيرتنا في الخلق بل ربما افضل منا كما يظهر لي حتى الآن.

= هذا قرار يسعدني بالفعل. تعالي إذن لأعرفك أكثر على أسرار كوكب باي المذهلة.

= هيا بنا.

مَشَيا الهوينى في الطرقات المرصوفة بالأحجار المصقولة. أحجار متداخلة الألوان، تدرّجات من الزمرد والعقيق واللازورد، كأن أحدهم جمع جمال المجرّات ونثرها تحت الأقدام.

وبينما كانت لوتس ترفع ناظريها من حين لآخر إلى السماء الغريبة التي لا تعرف زرقة الأرض ولا غيومها، بل تموج بألوان غير مسمّاة، كأنها لوحات مزاجية للكون نفسه، تأملت عن كثب المنازل الزجاجية كروية الشكل المبعثرة على جانبي الطريق، شفّافة كالبلّور، تنبض بالحياة من الداخل،

وفيها كائنات تتنقل بهدوء، بعضها يطير داخل منازلها، وبعضها يطفو كأفكار في عقلٍ متأمل.

لكن كل تلك الغرابة تلاشت أمام ما ظهر لهما في نهاية الطريق: منزل أبيض ضخم، فخم البناء، يختلف اختلافًا صارخًا عن بقية البيوت. لم يكن زجاجيًا، بل بدا كأنه منحوت من سُحب متجمدة، ذات ملامح كلاسيكية بروح عصرية. أعمدته لامعة، وسطحه مقوس كقلب مقلوب، نوافذه فسفسائية لا تُفتح بل تُقرأ، كأن كل زجاجة منها قصة تنتظر أن تُفهم.

وقفت لوتس أمامه، وداخِلها يخفق. لم يكن منزلًا فحسب، بل وعدًا بسلام عارم نهائي.

نظر إليها سولاس وابتسم من جديد، تلك الابتسامة التي لا تعتمد على شَفَةٍ أو عضلة، بل تنبع من العينين وما وراءهما. ثم قال بصوت هادئ يشبه نغمة نجم يسقط في بطء:

= هذا المنزل ندعوه **(بيت السعادة)** لأن من يدخله ينسى أحزانه وهموم الكون برمته بفضل الرفاهيات المتوفرة بداخله والمحكومة بالذكاء الاصطناعي شديد التطور. هل تعرفين كم استغرق بناؤه يا صديقتي؟

= يبدو معقداً من الداخل بناءً على كلامك. لا أدري ربما ستة أشهر أو أكثر.

سولاس بابتسامة:

= بل هي ساعتان لا أكثر.

صاحت بدهشة:

= مستحيل !!

= أبداً. بل إن صناعة أي شيء على كوكبنا لا يستغرق أكثر من ذلك.

= وكيف يتم ذلك؟

= باستخدام **طابعات ثلاثية الأبعاد عملاقة** ومتطورة، تدخلين التصميم المطلوب إليها وخلال دقائق فقط يتم إنشاء التصميم المطلوب من المواد الأولية التي ندعوها هنا **(مينا)**.

= وما هي هذه المادة الغريبة؟

= مادة من ذرات صنعية تملك قابلية التحول إلى أي عنصر كيميائي نريده. حيث يتم إدخال نوع المواد المرغوبة إلى الطابعة مع نسبها وشكلها النهائي والآلة تتكفل بالباقي.

= كم هذا عظيم!

= بل هنالك ما هو أغرب من ذلك. هنالك **آلات خاصة بصناعة أي شيء تريدينه** من طعام أو شراب أو ملابس أو أدوية أو أي شيء يخطر ببالك، فقط تضعين كرة من مادة المينا في جهة من الآلة ثم تختارين من القائمة ما تريدين صنعه وتضغطين زر البدء وخلال لحظات سيكون أمامك الشيء المطلوب على أفضل هيئة. إنها ببساطة عملية تفكيك المادة إلى ذرات أولية ثم معالجتها كيميائياً وإعادة تركيبها بالهيئة التي نريدها.

= مثلاً لو أردت فطيرة هامبرغر.

= أي شيء يا صديقتي. أي شيء. بالمناسبة الطعام والشراب لدينا متطور للغاية عن كوكبكم، حيث تمكنا من صنع مواد تحقق **أقوى وألذ مذاق** يمكن أن تتخيليه بدراسة الحليمات الذوقية بدقة وعمق أكثر.

= بدأت الأمور تتجاوز حدود استيعابي.

= ولا زلنا في بداية الطريق، فهنالك أيضاً خاصية **الانتقال الآني للأجسام** التي تعتمد مبدأ تحويل المادة إلى طاقة تنتقل عبر الأثير ثم إعادة تحويل الطاقة إلى المادة الأولية في البقعة الجغرافية المنشودة، وهذا السوار بيدي مثلاً يقوم بهذه العملية

= وهل يمكنك تجريبه الآن ...؟

= للأسف لا، فنحن في عالم افتراضي يا صديقتي، لكن يمكنك تجريبه بنفسك على كوكب الأرض إن التقينا بعد هذه المغامرة.

= أتوق لفعل ذلك بشدة. هل يمكنني مثلاً أن أنتقل من بلدي إيرلندا الشمالية إلى أستراليا أو نيوزيلندا أو فيجي، فأنا أعشق قارة أوقيانوسيا.

= بالطبع، يمكنك الانتقال إلى أي موقع جغرافي شريطة أن يكون مخططه محفوظاً على السوار بدقة، فمثلاً أنا قمت بإدخال بيانات كوكبكم الأرض

الدقيقة من الإنترنت إلى السوار فأصبحت قادراً على التنقل من قارة لأخرى بضغطة زر واحدة.

= واقع يفوق القدرة على الوصف.

= احتفظي بدهشتك للقادم، فهنالك ما هو أعجب من ذلك، هذا السوار يمكنه مسح صورة أي كائن أمامه ثم تحويل جسدي إلى هيئته بنفس التقنية تفكيك المادة ثم إعادة بنائها.

= حتى الحيوانات؟!

= بل حتى النبات والجماد، لكن بالطبع عليك اختيار الهيئة بحذر بحيث يمكنك ضغط الزر مجدداً للعودة إلى هيئتك الفضائية الأساسية وإلا بقيت حبيسة الهيئة الجديدة إلى الأبد.

= هذا السوار أشبه بمارد الفانوس الذي يفعل العجائب ويحقق الأمنيات.

= بالضبط، بمناسبة الحديث عن مارد الفانوس تعالي لأحدثك عن تطور **الذكاء الاصطناعي** على كوكبنا، إنه أشبه بقدراته بمارد الفانوس بحق، فهو يمكنه إنجاز أي أمر توجهينه إليه.

= من قبيل ماذا؟

= مثلاً هذه النظارات التي نرتديها تحوي ذكاء اصطناعي يدعى (هالي)... انظري مثلاً ما يمكنه فعله... **هالي** انقلني أنا و لوتس إلى شاطئ جزيرة استوائية بهيئة بشرية لكلينا.

في غمضة عين، تبدلت الأجواء حول لوتس، فغدت أمامها شاطئاً أخّاذاً يمتد تحت أقدامها برماله البيضاء الناعمة كقطن الغيوم، تنعكس عليه أشعة الشمس الذهبية، التي تذوب ببطء في حرارة حانية تلفح وجهها برقة. هدير الأمواج العذب ينساب كأنشودة قديمة، تلامس شغاف روحها المثقلة، وتدعوها إلى الهدوء والسكينة.

شذا البحر يملأ الأجواء، يحمل نفحات الملح والزهور البحرية، يعانق أنفاسها المنهكة ويمنحها شعوراً غامراً بالراحة والسلام. رفعت عينيها نحو السماء الزرقاء الفيروزية، حيث أفقٌ بلا نهاية يذوب فيه البحر مع السحاب الناعم، وكأنهما يحيكان معاً قصة خلود لا تنتهي.

نظرت إلى جسدها، فوجدته قد تحول إلى صورة فتاة أفريقية متوهجة، بشرتها تشع دفء الحياة، وملامحها تنضح بهدوء وثقة، وشعرها المجعد يتمايل كأنه موج البحر بين كفيها. ابتسامة خفيفة ارتسمت على شفتيها، مشاعر متداخلة من دهشة ودهشة متجددة، وراحة لم تعرفها منذ زمن بعيد.

خطت أولى خطواتها على الرمال الناعمة، تشعر بكل ذرة تراب تحت قدميها على نحو غريب للغاية، وكأنها تستعيد اتصالها مع الحياة من جديد.

= يا رب السماء. شيء لا يصدق!

= ويمكنك السباحة إن شئت أيضاً.

= هل أنت جاد؟

= في العالم الافتراضي الذي صممه شعب باي، يمكنك تجربة أي مغامرة تريدين بحذافيرها وباشتراك حواسك كلها أيضاً، إنه يحكم كوكبنا حرفياً وكل شيء في حياتنا اليومية قائم على الأوامر الصوتية التي يلبيها مارد الفانوس دون تلكؤ أو اعتراض أو خطأ. لقد نجح البشر على كوكبكم في زرع بذرة هذا التطور بإنشاء عين لاس فيغاس العملاقة التي تؤمّن تجربة شبيهة بهذه التجربة وإن كانت خجولة وبعيدة بسنين ضوئية عما وصلنا إليه هنا. لكن السنين أمامكم ولا شك أنكم ستبلغون هذه الدرجة عاجلاً أم آجلاً.

= بمناسبة الحديث عن كوكبنا، إنكم تعيشون في الجنة حرفياً، فلماذا تكترثون بكوكب الأرض البدائي بالنسبة لكم؟!

= نحن نهتم بأي حياة غيرنا في الكون ونتابع تطورها، لأنها إن بلغت ما بلغناها فلربما أفنت حضارتنا من الوجود.

= تقصد أنكم في حالة حرب باردة دائمة ...؟

= يمكنك قول ذلك.

= سؤال آخر يفرض نفسه بحكم أنني أستاذة فيزياء للمدرسة الثانوية، أنا أعلم بأن أسرع شيء في هذا الكون هو الضوء وهو يحتاج آلاف مؤلفة من السنين كي يقطع مسافات الكون الشاسعة فكيف تمكنتم من الوصول إلى كوكب الأرض. ؟!

= بالاعتماد على **فقاعة الاعوجاج** يا صديقتي.

= فقاعة الاعوجاج ؟!

= بالضبط، إنه مصطلح نظري بحت وجديد على البشر حتى الآن، لكننا تمكنا من دراسته بعمق كافٍ وطبقناه على أرض الواقع فتمكنا من السفر بين الكواكب ثم بين المجرات، وهذا مصير البشر على الأرض في المستقبل أيضاً.

= لقد أثرت فضولي، هلا شرحت لي باقتضاب فكرة فقاعة الاعوجاج هذه؟

= من دواعي سروري. من المعروف أنه في إطار النسبية العامة التي اكتشفها على كوكبكم العالم ألبرت أينشتاين، من الممكن تشويه نسيج الزمكان بطريقة تسمح لسفينة فضائية بالسفر بسرعة كبيرة. هذا التشوه يحدث بفعل موجة تخلق أمام السفينة الفضائية انكماشاً بالفضاء وتمدداً خلفها، مما يخلف فقاعة في الزمكان تعرف بفقاعة الاعوجاج. ثم تنطلق هذه الفقاعة بسرعات مجنونة دون الحاجة للمركبة أن تتحرك بذاتها. إنّ هذه الفقاعة الزمكانية بإمكانها السفر والتنقل في الفضاء بسرعات تتجاوز سرعة الضوء بكثير.

= معقد وبسيط في آنٍ معاً، أتمنى أن نصل إلى تطبيق هذه الفكرة عملياً وأنا على قيد الحياة، فإحدى أحلامي أن أمشي على سطح كوكب المريخ وأرى كوكبنا الأرض من سطحه.

ربت سولاس على كتفها بحنوّ وابتسم:

= ولماذا تنتظرين قدوم هذا اليوم، لنفرك الفانوس قليلاً ونطلب من الجني تحقيق هذه الأمنية. **هالي،** هلّا نقلتنا أنا ولوتس إلى سطح كوكب المريخ بملابس رواد فضاء.

في لحظة خاطفة، تحوّل المشهد من حول لوتس إلى سطح الكوكب الأحمر الخالي، والأرض تبدو كجوهرة زرقاء تلمع في بعد الفضاء السحيق، هادئة وصامتة كحنين بعيد. امتدت تحت قدميها أرض المريخ القاحلة، جرداء، تتخللها حفر عميقة ووديان وتلال تلامس السماء بصمت مهيب.

نظرت إلى جسدها فكان مغطى ببذلة فضائية، رفعت يدها وأشارت إلى سولاس بعلامة النصر، وعيونها تشع ببهجة لا توصف، كأن حلمها الأعظم

قد تحقق بلمسة من السحر.

قالت بصوت مفعم بالدهشة:

= إنها لحظة تتجاوز كل الكلمات... كأنني أعيش حلمًا لا ينتهي.

بدأت تخطو على سطح المريخ بحذر وفرح، تحيط بها دهشة الطفولة التي تزور عالماً جديداً لأول مرة. لكن في غفلة منها، اختفت الأرض تحت قدميها فجأة، وانزلقت نحو منحدر مظلم خفي بين التلال الحمراء.

سقطت، وارتطم جسدها بصلابة على الأرض، وامتزج الألم البدني الحاد بأصداء ذكرى حادث السير التي لا تفارقها، وكأن الزمان يعيد مشهداً واحداً من الألم والخوف.

هرع سولاس إليها بابتسامة هادئة، كأنه نور وسط الظلام.

= تتألمين ؟!

= بشدة.

= لا عليكي. إنه مجرد شعور، فجسدك سليم. هالي احذف شعور الألم من حالة لوتس وأعدها إلى الصحة التامة.

بالفعل وبغمضة عين، اختفى الألم كلياً. صاحت لوتس بانفعال.

= مذهل! إذاً فأنتم لا تتألمون على سطح كوكبكم ؟!

= ليس صحيح. بل نتألم كحالكم، لكننا الآن في عالم افتراضي يمكنه تغيير حالتك بأمر صوتي لا أكثر.

= وكيف تعالجون آلامكم؟

ساعدها على النهوض مجدداً وهو يتابع كلامه.

= إن الطب متطور كثيراً على كوكبنا، ولنقل إن هنالك ثلاثة محاور أساسية تحكم حالتنا الصحية ونتفوق بها على البشر بمسافات.

= المحور الأول؟

= المحور الأول هو **العلاج المتطور للغاية**، فنحن يمكننا تسكين الآلام مثلاً بالتعرض لإشعاعات من جهاز يدوي تؤثر في مركز الألم في الدماغ وتثبطه. كذلك حال السرطانات مثلاً فإشعاعات من طبيعة أخرى تعطل أنزيم يدعى تيلوميراز في الخلايا السرطانية التي تجتاح الجسم وبالتالي تسبب هذه الإشعاعات موت الخلايا السرطانية، لأن هذا الأنزيم هو سبب خلود هذه الخلايا بانقسامها المستمر ...

= علاج للسرطان. مبهر!

= وأيضاً هنالك العلاج **بالخلايا الجذعية** التي توصلنا إلى درجات مثالية فيه، وبحقنة وحيدة يمكن ترميم أي جزء تالف من الجسم دون أي اختلاطات أو عواقب مرضية. هذا فيما يخص محور العلاج.

= و المحور الثاني ؟

= المحور الثاني هو تطور تقنية **الاستنساخ والتعديل الجيني** لدينا. فأمكننا مثلاً استنساخ كافة الكائنات المعروفة على سطح كوكبكم ووضعناها في حديقة حيوان شاسعة خاصة بكوكبنا بما في ذلك الحيوانات المنقرضة كالمأموت والديناصورات وغيرها.

= مستحيل!

= بل حقيقة.

= وهل يمكنني رؤية ديناصور الآن على أرض الواقع ؟!

= بمنتهى اليسر والبساطة. **هالي** هلّا نقلتنا إلى **حديقة كوجاو**.

في لحظة ساحرة أخرى، تبدّل المكان من حول لوتس وسولاس فجأة، ليصبحا يمشيان في طريق ضيق مرصوف يتلوى بين أشجار عملاقة تعانق السماء. كانت أوراق الأشجار تهمس بأسرار عصور سحيقة، ورياح خفيفة تعبث بفروعها، حاملة معها عبق زمنٍ نسيه البشر.

بجانب الطريق، انبثقت أمامهما صور مدهشة من حقبة ما قبل التاريخ: ديناصورات كثيرة بأجساد هائلة وأصوات مهيبة. بعضها رفع رأسه بعنقه الطويل صوب السماء وكأنه يراقب الفضاء، وبعضها الآخر كان يغوص بين الأعشاب الضخمة، يبحث عن فريسة أو طريدة.

وفي زاوية من المشهد، استقر ماموث ضخم الحجم، معطفه الفروي الكثيف يلمع تحت ضوء الشمس المتسلل بين الأغصان، يرعى العشب بسلام تام، وكأنه تسلل خلسة من الزمن العتيق. شعرت لوتس بقشعريرة تخترق جسدها، مزيج من الإعجاب والخشية، وكأنها عبَرت عبر بوابة الزمن، وشهدت عبقرية الطبيعة وأسرارها التي تتنفس في هذه اللحظة الخالدة، حيث الماضي ينبض في قلب الحاضر بطريقة عجائبية. صاحت بدهشة مشوبة بالقلق.

= يا إلهي. منظر الديناصورات مهيب على نحو لا يصدق! لكنها قريبة للغاية ألا يمكن أن تؤذينا ...؟

= لا تخشي شيئاً يا صديقتي هنالك عازل من مادة شفافة يفصل الغابات عن الطرقات. أنت الآن تشاهدين منظراً لم يسبقك إليه أي إنسان منذ آدم وحواء. هنيئاً لك يا صديقتي.

= أشكرك. إن ما أمر به في هذه التجربة الفريدة أشبه بمغامرات أليس في بلاد العجائب.

= ومجالات الاستنساخ لا نهاية لها على كل حال. أما التعديل الجيني فهو حكاية أخرى تماماً بعوالم أكثر إذهالاً.

= مثل ماذا؟

= بادئ ذي بدء، يمكننا إنتاج أي نبات أو حيوان بالهيئة التي نرغبها من حيث الحجم واللون والشكل. كحوت بجناحين أو قطة بنفسجية اللون أو نحلة عملاقة. أو أي شيء يجول في خيالك.

= غير معقول !!

= بل واقع حقيقي موجود على سطح كوكبنا. يمكنك القول بأننا صممنا **برنامج فوتوشوب واقعي وملموس**، وهنالك ما هو أغرب من ذلك أيضاً.

= المزيد !!

= بالطبع، يمكننا إنتاج أي مادة خاصة بكائن من كائن آخر، فمثلاً أنتم على كوكبكم تمكنتم عبر التعديل الجيني من إنتاج خيوط حرير العنكبوت من ثدي الماعز. أما نحن فالأمور تطورت أكثر بكثير. فيمكننا مثلاً إنتاج ثمرة فاكهة تختزل فوائد الفواكه كافة في أحشائها. أو إنتاج لحوم بيضاء من الماشية أو بيض كافيار من الطيور. وهكذا. خيارات لا حصر لها.

= لساني يعجز عن التعبير! يتبقى لدينا المحور الثالث.

= المحور الأخير متعلق **بالروبوتات المجهرية**، فقد تمكنا من صنع روبوتات بأحجام متناهية في الصغر يمكنها التغلغل داخل الجسد وتصوير كل شيء عيانياً بدءاً من البنية الجزيئية وانتهاءً بالأعضاء. كما يمكنهاإجراء الإصلاحات الضرورية ذاتياً وبكفاءة مثالية. ويمكنني اختصار ما سبق بأن الطب لدينا تطور إلى درجة لم نعد نحتاج فيها إلى أطباء. بل بضعة إجراءات بسيطة تدرب عليها شعب باي لعلاج أي طارئ صحي يعترضه.

= إنّ الفرق بين تطوركم وتطورنا كالفرق بين الثرى والثريا.

= مبدئياً يا صديقتي. فكل ما نعيشه هنا سيصبح واقعاً ملموساً على سطح كوكبكم في المستقبل، وأنتم على الطريق الصحيح حتى الآن. لا تنسي بأن البشر منذ ثلاثة آلاف عام مثلاً كانوا يعتبرون الهواتف والحواسيب والسيارات وغيرها ضرباً من الخيال. لكنها أصبحت واقعاً حياً اليوم بفضل تطور العلم.

= محق. إنها دعوة إلى تقديس العلم وإلى التفاؤل والأمل. هل انتهت جولتنا ؟!

= عجائب كوكب باي لا تنتهي يا صديقتي، لكن سأكتفي للحين بمغامراتنا السابقة. يتبقى أمامنا شيء وحيد فقط هو الأهم. وغايتي من التواصل معك اليوم.

= مفاجآتك لا يمكن التنبؤ بها!

= هالي. هلّا نقلتنا إلى العالم **X**.

تبدّل المشهد حول لوتس كما لو أن قلب الكون خفق مرةً جديدة... وفجأة، انفرجت الحجب أمام عينيها، لتجد نفسها في مرج فسيح، لا يعرف له حدّ، يفيض بالورود التي تتمايل بلون الحنين، تتنفس عطراً يشبه الذكريات القديمة.. أرض المرج لينة كالحلم، وسماؤه تميل إلى الزرقة الطفولية التي تسبق الدموع، بينما الشمس تتدلى من علياها كفانوس قديم، يُضيء ولا يحترق، يشهد ولا يتكلم. وفي منتصف ذلك الاتساع الساحر، رأت لوتس ما لا يمكن لعقلها أن يستوعبه... كانت رؤيتهما مثل طعنة من النعيم: زوجها

جيمس وابنهما الصغير بيتر، يجلسان على كرسيين خشبيين بسيطين، وكأنهما لم يرحلا قط. لم تكن ملامحهما مشوشة أو مشوبة بالحزن، بل مضيئة، كاملة، كما كانت في أجمل لحظات الحياة. يتحدثان ويضحكان، دون أن يلحظا العالم حولهما، كأنهما في فلك خاص، في زمن موازٍ لا يعرف الفقد.

تقدّمت لوتس بخطى مترددة، خطواتها كأنها تطأ الذاكرة لا الأرض، وشفتاها ترتجفان بنداء لم تتجرأ أن تطلقه بعد. كل زهرة في المرج توقفت عن التمايل، كل نسمة حبست أنفاسها، وكأن الكون نفسه ينتظر لحظة اللقاء... أو الانكسار. صرخت أخيراً بصوت تخنقه الدموع.

= جيمس. بيتر.

تقدم سولاس منها ووضع يده على كتفها بحنوّ.

= هذا هو اعتذاري لك سيدة لوتس عن خطئي الفادح. يمكنك القول إن زوجك وابنك يعيشان هذه الأجواء في الجنة الآن.

سألت برجاء ولهفة:

= وهل يمكنني التواصل معهما ...؟

= لا أنصحك. الذكاء الاصطناعي هالي قادر على برمجة شكليهما لكن يتعذر عليه ترجمة طباعهما كونه يجهلها. الموضوع برمته مجرد بيانات تدخل إليه. لذا ستشعرين بأنهما غريبان عنك وهذا شعور مؤلم بلا ريب.

أطرقت بحزن:

= أفهمك.

= لا تحزني. يمكنك رؤيتهما متى تشائين عبر نظارات الواقع الافتراضي خاصتك. إنها هديتي لك فحافظي عليها جيداً، ويمكنك إملاء أوامرك على هالي كيفما تشائين، لقد أعدت برمجته على هذا الأساس.

نظرت في عينيه بامتنان.

= أشكرك سيد سولاس. لقد أوفيت بوعدك حرفياً، فمغامراتي السابقة أنعشت روحي الميتة بلا شك وأعادت لي الإيمان بالسماء وبنفسي وبالمستقبل. وبالطبع بشعب باي الطيب المتطور.

= هذا يثير في أعماقي عاصفة من السعادة وراحة الضمير أخيراً. هل أنت مستعدة للعودة إلى منزلك؟

= بالطبع.

= وتذكري جيداً نظارات الواقع الافتراضي خاصتك مبرمجة للتدمير الذاتي متى تعرفت على قزحية مغايرة لعينيك. لذا استخدميها بمفردك فقط. ومتى ما أردت التواصل معي ارتديها واطلبي من هالي أن يشبك عالمك بعالمي، سيصلني إشعار بذلك على الفور، على أمل أن نلتقي شخصياً على أرض الواقع في مناسبة لاحقة يا صديقتي.

اقترب منها واحتضنها بلطف ثم قال.

= هالي، أعد لوتس إلى عالمها الحقيقي في منزلها.

لفّ الظلام عيني لوتس مثل وشاح حريري، وما لبث أن انقشع على وقع أصوات مألوفة... هدير السيارات في الخارج، ارتطام الريح بزجاج النافذة، أنفاس المنزل الذي غادرته دون أن تبرح مكانها.

نَزعت نظارة الواقع الافتراضي عن وجهها بحركةٍ مترددة، كأنها تخلع حلمًا خُلق من الضوء والرجاء. وإذا بها تعود إلى الأريكة الرمادية، في ذات الزاوية من الغرفة، حيث بدأ كل شيء وانتهى كل شيء... أو ربما بدأ لتوّه فصل جديد.

جلست لوهلة، يداها على حضنها، وجسدها ساكن، فيما داخلها يغلي كنبع انفجر تحت الثلج. لم يكن ما عاشته مجرد تجربة رقمية، لم يكن وهمًا ولا خيالًا هاربًا من أفلام الخيال العلمي... كان انبعاثًا.

منذ دقائق فقط، كانت فتاةً مثقلة بالفقد، منكسرة تحت ركام الذكريات، تصارع طيفًا من الوحدة والجنون. كانت روحها تمشي حافيةً على زجاج شكّ الآخرين، تنهشها ضحكاتهم الساخرة وهمساتهم المشككة. أما الآن... فقد ولدت من جديد.

كأن الحياة حقنتها بمصلٍ خفي: إشراق. قوة. دهشة. أملٌ لم يأتِ من دواء أو طبيب، بل من كائن لم يكن من هذا العالم، من سولاس... ذاك الفضائي الغريب العجيب الذي دخل حياتها من بوابة لم تدرِ أنها موجودة، بوابة كوكب "باي" الساحر، حيث يعاد تشكيل الألم ليغدو شفاءً.

نظرت لوتس حولها، كل شيء كما هو، لكن شيئًا واحدًا تغيّر للأبد... هي.

ابتسمت... ابتسامة صافية، نادرة، كأنها انتُزعت من تحت الرماد، ثم همست لنفسها بنبضٍ جديد:

(يا ترى... ما الذي ينتظرني بعد الآن؟)

لكن هذه المرة، لم يكن السؤال مثقلًا بالقلق... بل بالتشوّق.

الفصل الخامس

ميانمار / باغان.

تمّوز 2030.

مع مرور الأسابيع، بدا وكأن الزمن قد قرر أن يحنو على سبيروزار، أو على الأقل أن يمنحه فسحة من السكون الداخلي. فقد بدأ يتقن اللغة البورمية بنعومة، وراح ينحت في روحه ملامح ثقافة جديدة، لا تُشبه شيئًا مما عرفه من قبل. صار يستيقظ فجراً، يشارك الرهبان تسبيحاتهم، يتأمل معهم صمت الصباح وهو يقطر من سقوف المعبد كندى خفيٍّ من السماء.

وذات مساء ذهبي تهادت فيه أشعة الشمس عبر النوافذ الحجرية لمعبد غروب الشمس، كان سبيروزار جاثياً على ركبتيه بجوار الراهب دينبا. كلاهما غارق في تراتيل روحانية. الجو في المعبد مشبعٌ بعبق البخور، ونغمات الأناشيد تتردد بصدىٍ يخالطه دفء الغروب، حينما انشق صمت المكان على وقع خطوات متعجلة، تبعها صوت مذعور:

= سيد دينبا. سيد دينبا. إنها كارثة.

اقتحم المعبد راهب شاب، ثوبه الزعفراني يرفرف خلفه كجناح طائر مذعور، وعيناه تلمعان برعب مكتوم. كان يهرول في الممر الحجري، والجزع في نبرته هزّ القلوب كما لو أن المعبد نفسه على وشك الانهيار.

التفت إليه الراهب دينبا ببطء كمن خرج لتوه من عوالم النيرفانا، ثم وقف وهو يعتدل في وقفته الوقورة، وقال بهدوء رغم اشتعال اللحظة:

= ماذا هنالك يا ثورا؟

لكن الشاب لم يجب فوراً. وقف يلتقط أنفاسه.

= الصخرة المقدسة سيدي. **صخرة شعرة بوذا العظيم**.

= ما خطبها؟

= لقد تدحرجت من مكانها إلى الوادي وتحطمت.

تغيرت هنا ملامح دينبا جذرياً وظهرت علامات الانزعاج عليه بطريقة لم يشهدها سبيروزار في الأشهر المنصرمة.

= متأكد؟

= أجل. لقد رأيت الفيديو بنفسي في المدينة. وكل وسائل الإعلام تتحدث عنه. يقال إن الهندوس يقفون خلف هذه العملية.

= منطقي. إنه رسالة تهديد لما يمكن أن يحدث في حال تأسس الاتحاد البوذي العظيم.

التفت إليه سبيروزار الذي لم يفهم شيئاً من الحديث.

= ما قصة هذه الصخرة سيدي؟

قال دينبا بغضب لم يتمكن من كظمه.

= إنها صخرة بقطر خمسة أمتار مطلية بالذهب وموجودة على قمة **جبل كياكتيو** في مدينة **مون** هنا في ميانمار.

= وما قصة شعرة بوذا ؟!

= الصخرة متوازنة على حافة جرف صخري على نحو يقهر كل علوم الفيزياء، وبحسب عقيدتنا فهي مثبتة في مكانها بشعرة مقدسة من رأس بوذا. هي على حالها منذ قرون. وسقوطها اليوم كارثة حقيقية سترمي بظلالها السوداء على الأيام المقبلة. اعذراني فإنني أريد أن أخلو بنفسي بعض الوقت.

انسحب سبيروزار بخطوات هادئة من المعبد، خافضًا رأسه احترامًا لصمت الرهبان ووقار المكان. كان الليل قد أسدل أستاره على باغان، وغدت المعابد القديمة أشباحًا ساكنة تتنفس ضوء القمر الباهت وتتهامس بالأسرار لمن يُجيد الإصغاء.

سلك طريقه عائدًا إلى يخت ميلافا، عائماً في أفكاره كمن يمشي على حد السكين بين الحقيقة والوهْم. وحين وصل إلى رصيف المرفأ، تنفّس بعمق، ثم صعد إلى ظهر اليخت، وأغلق خلفه باب الكابينة بهدوء يشبه طقوس الوداع.

جلس في الزاوية المخصصة للاتصال. ضغط زر **اسألني**. لم تمضِ سوى ثوانٍ حتى انبعث الضوء الأزرق وظهر مجسم القبطان باروناج محاطا بضباب خفيف.

= أهلاً بك حضرة الطبيب.

= أهلاً قبطان.

= لابد أنك تريد الاستفهام عن موضوع الصخرة المقدسة الذي تضج وسائل الإعلام بقصتها؟

= بالفعل!

= المعطيات التي بين يدي تؤكد بأن هنالك تعاوناً هندياً صينياً لليّ ذراع الاتحاد المقبل كي يتراجع عن خطته.

= وماذا سيحصل تالياً؟

= مزيد من العمليات التخريبية وربما تصاعد الوضع إلى عمليات إرهابية تستهدف المدنيين إن لم تفلح الخطة الأولى.

= معقول!

= للأسف نعم. قراءة التاريخ والأحداث والتصريحات السياسية يشير إلى ذلك أيها الطبيب.

قضى سبيروزار الساعات الأخيرة من الليل في الكابينة مع القبطان باروناج، يتجاذبان أطراف الحديث وكأنهما ينقّبان في باطن الزمن عن إشارات خفيّة أو نبوءات محتملة. لكن الليل، كما يفعل دائمًا، تسلّل إلى الأرواح بهدوئه المُخدّر، وغطّى الحوارَ بضبابٍ ناعم من التعب. انسحب سبيروزار إلى فراشه كأنّه يهرب من سؤاله الأخير، وترك الهموم على حافة الوسادة قبل أن يغرق في نومٍ غير مكتمل، تتخلّله ومضات من الصور الغامضة.

*****

مع انشقاق الفجر، حينما أخذت السماء تتلو أذكارها الأولى بلون أرجواني خافت، نهض سبيروزار مدفوعًا بشيءٍ لا يعرف له اسمًا. الهواء كان طريًّا، يحفّه صمتُ النهر، والطيور البورمية ترسم بأجنحتها تمائم الهدوء.

سار نحو المعبد بخطواتٍ متأنية، لا تشي بالقلق، بل بشيءٍ أشبه بالخشوع. كانت شمس الصباح تسكب نورها على الأديرة، فتجعل من الطوب الأحمر طيفًا من الذهب القديم. وتحت ظلال تمثال بوذا الجالس في عزلته الأبدية، وجد الراهب دينبا كما تركه، لكن روحه بدت وكأنها عادت من برزخٍ آخر.

كان جالسًا في صمتٍ كأنّه نهر استراح بعد فيضان، ووجهه وادعٌ كصفحة بحيرة في حضرة القمر. لم يكن هنالك أثر للغضب في ملامحه، بل ارتسمت على فمه ابتسامة خفيفة تلامس شغاف القلب بدون استئذان.

همس سبيروزار باطمئنان.

= لقد زال غضبك معلم**!**

= آسف على انفعالي السابق فهو أمر سلبي يخالف جوهر عقيدتنا. كنت بحاجة لبعض الوقت بمفردي كي أفكر قليلاً

= وإلام توصلت بعد التفكير؟

= هنالك اجتماع لكبار القوم البوذيين في دول الاتحاد الفيدرالي بعد ثلاثة أيام وقد دعيت إليه، أعتقد بأن أعمال العنف ستتصاعد بعد ذلك الاجتماع وبيانه المتوقع، لذا سأتغيب عنه وسأعقد مؤتمراً صحفياً في نفس توقيته، كي أطلع عامة الناس على **حقيقة** ما يجري.

= لكنك قد تعرض نفسك للخطر. **!!**

= ليس مهماً بني. هذا المؤتمر الصحفي ضروري للغاية من أجل تهدئة البوذيين في ميانمار، على الأقل كون الصخرة المقدسة موجودة هنا، في محاولة للجم العنف قبل تدحرجه كالصخرة وسحق الجميع بطريقه. إنّ معنى اسمي باللغة المحلية هو **الحقيقة** وهو ما يجب أن يزرع في عقول وضمائر الناس. من ناحية أخرى أعتقد أنهم لن يجرؤوا على اغتيالي بهذه البساطة لأن ذلك سيؤلب الرأي العام ضدهم كما يفترض مما يضعف موقفهم ويهدد خطتهم.

= وماذا لو اندلعت أعمال العنف قبل انعقاد ذلك الاجتماع ومؤتمرك الصحفي ...؟

= لا لن تندلع، لقد بدأت أفهم تماماً طريقة ترتيب الأمور لدى كل الأطراف. تدمير الصخرة المقدسة مجرد رسالة والصين والهند تنتظران الرد الآن ليبنى عليه لاحقاً.

= حسناً، فلتحفظك السماء سيدي.

*****

صباح اجتماع كبار الشخصيات البوذية.

تغيب الراهب دينبا عن الاجتماع البوذي المقام في **تايلند** دون أن يعتذر وعقد مؤتمراً صحفياً أمام معبد **شويساندو** كان قد دعا إليه جهات إعلامية مختلفة.

تضمن المؤتمر الصحفي ثلاثة نقاط أساسية:

1. الديانة البوذية قائمة على السلام والتآخي، تقبل الآخر ونبذ العنف، وهدا بذات الوقت هو صميم الدستور في البلاد.

2. هنالك جهات بوذية متمثلة بأفراد ذوي سلطة وصلاحيات واسعة تجردوا من صميم عقيدتهم ينشرون بذور الفتنة بين البوذيين وبقية الأطراف لاسيما الهندوس والشيوعيين بإعلانهم قيام الاتحاد البوذي الفدرالي. فالبوذية ديانة وليست حركة سياسية. ولا يعقل أن يطالب البوذيون في بلاد هم أقلية فيها بالانفصال عنها. والترويج للاتحاد ككيان بوذي يلغي وجود الأقليات فيه من مسلمين ومسيحيين وهندوس وسيخ وغيرهم. فالفكرة خاطئة من كل الزوايا، والتعنت بالاستمرار بتنفيذها سيعرض البوذيين ومقدساتهم للخطر وليس ذلك فحسب بل سيجر المنطقة إلى حرب طاحنة قد تستحيل إلى حرب عالمية.

3. تلك الجهات هي التي تقف وراء اغتيال الرهبان البوذيين الذين يشاركونه وجهة نظره خاصة اغتيال الراهب المعروف **كهوانغ** في **فيتنام** منذ أشهر لأنهم رفضوا الانصياع لهم والترويج لمخططهم.

كان الراهب دينبا مستغرقاً في كلامه خلال المؤتمر وعندما أنهى خطابه وهمّ بالمغادرة لاحظ سبيروزار راهباً في مقتبل العمر يتجه نحوه مسرعاً وقد أخفى شيئاً ما تحت ردائه البرتقالي. فركض نحو دينبا.

= احذر معلم.

وفي حالة ديجافو تاريخية وعلى خطى اغتيال **المهاتما غاندي** من قبل أحد أتباع طائفته فقط لأنه نبذ العنف ودعا إلى التعقل وقبول الآخر، أخرج الراهب الشاب سكيناً وحاول غرسها في قلب دينبا لكن سبيروزار كان قد وقف بينهما تماماً ليتلقى الطعنة بدلاً من الراهب وكانت تحت القلب مباشرة. فبدأ شلال من الدم بالتدفق مكان الطعنة وشعر سبيروزار بالدنيا تدور حوله ثم غاب عن الوعي.

*****

في البرزخ مجدداً ...

فتح سبيروزار عينيه ببطء، كمن يعود من قاع الغيبوبة، ليجد نفسه وسط فضاء أبيض لا تحده جدران، لا سقف ولا أرض، فقط نور نقي يتخلل كيانه. لم يكن هناك ظلٌ لأي شيء، حتى جسده بدا شفافًا وكأنه محض فكرة.

اجتاحه شعور مألوف، ديجافو من نوع آخر ينبض في عظامه، إنه يعرف هذا المكان... نعم! تذكر فجأة. هو المكان ذاته الذي التقى فيه النبي ميدوسيز لأول مرة، على سطح كوكب كوليتوس، بعد أن استسلم لجحيم ألمه الجسدي وانزلق في سُبات المورفين. كان ذلك موتًا، أو ربما عبورًا؟ وماذا عن الآن؟ أهو ميت مجددًا؟ أم أن الموت نفسه قد صار طريقًا إلى ما هو أعمق من الحياة؟

أدار رأسه بسرعة، تبحث عيناه عن طيف النبي، عن ذلك الوجه الحكيم الذي لا يُنسى. كان الصمت كامنًا في الهواء، يوشك أن ينفجر. ثم سمعه...

صوت رخيم أتى من خلفه، كمن يُحدّث ذاكرته لا أذنه:

= أنا هنا سبيروزار.

التفت إلى الخلف وابتسم، كان ميدوسيز يبتسم له بدوره.

= هل أنا ميت هذه المرة؟

= أجل ويقوم الأطباء في المشفى بإنعاشك، لقد وصلت إلى هنالك ميتاً بسبب خسارة الدم الهائلة.

= وهل سأعيش؟ أم أنها المرة الأخيرة؟

= بالطبع ستعيش إنّ بيننا اتفاق وأنت ملتزم به من جهتك، لذا من واجبي أن ألتزم به من جهتي ...! أنت أكثر حظاً من **تسوتومو ياماغوشي**.

سبيروزار مندهشاً.

= ومن هذا؟

= إنه شخص ياباني كان في مدينة **هيروشيما** عندما سقطت عليها القنبلة النووية ونجا من الموت لينتقل بعدها إلى مدينة **ناكازاكي** لتسقط عليها القنبلة النووية الثانية فينجو من الموت مجدداً.

سبيروزار مبتسماً.

= محظوظ على نحو لا يصدق! وأنا بدوري سأفعلها مرتين على ما يبدو.

= بل أكثر من ذلك. أنت ستعود من الموت حرفياً مرتين.

صمت سبيروزار للحظات.

= وما الذي سيحدث للراهب دينبا ...؟

= لا تخش شيئاً سيكون بخير، فلن يجرؤ أحد على اغتياله بعد مؤتمره الصحفي ومحاولة اغتياله الفاشلة.

= والصراع بين الاتحاد البوذي ودول الجوار؟

= ستنحل الأمور.

= وكيف؟

= بأغرب طريقة ممكنة. لكن لا مجال لأن أخبرك بها الآن.

= وما الذي عليّ فعله، هل أبقى متخفياً في ميانمار؟

= لا، لقد كشف أمرك هنا بسبب المؤتمر الصحفي المباشر على الهواء الذي صور عملية طعنك، لذا ستسافر مباشرةً بعد شفائك.

= وما هي وجهتي القادمة؟

= مدينة **أويدا** في دولة **بنين** في أفريقيا.

= ومن سأقابل هنالك؟

= اسأل عن الكاهن **لاموسا**.

= كاهن مسيحي؟

= لا، هو كاهن افريقي من السكان الأصليين الذين يؤمنون بديانة الفودو.

= وما الذي سأقوله له؟

= قل له:

((**أنا غريب أتيت لأنقذ روحًا مضطهدةً**))

ابتسم سبيروزار.

= إنها عبارة غريبة، فما الذي تعنيه؟

ابتسم السيد ميدوسيز بدوره.

= ستفهم معناها بنفسك عندما تصل إلى هنالك.

= وإلى متى أبقى في بنين؟

= إلى أن ألقاك مجدداً!

= وما الذي سيحدث لي الآن ...؟

= ستعود إلى الحياة بالطبع، فلديك مهمة جديدة قادمة، هل أنت مستعد لها.

= بالطبع سيد ميدوسيز، أنا مستعد بالكامل.

= شيء أخير.

= تفضل سيدي.

= عليك هذه المرة عندما تصل إلى بنين ألا تستخدم قدرتك الجديدة هناك أبداً حتى ألقاك مجدداً مهما كانت الأسباب.

= طلب غريب للغاية سيدي، ولماذا؟

نظر إليه ميدوسيز نظرة جدية.

= أخبرتك سابقا بأن لله أسباباً خفيةً لتحقيق غاياته لا ينبغي للبشر معرفتها

= وفي حال أنني استخدمتها. ؟!

= عندها ستكون أمام خيار صعب للغاية لا تحسد عليه.

هز سبيروزار رأسه.

= حسنا سيدي.

= تذكر ثانية، الكاهن لاموسا في مدينة أويدا في دولة بنين، قل له عبارة (أنا غريب أتيت لأنقذ روحاً مضطهدةً).

= لن أنسى!

= إلى اللقاء أيها الطبيب مورفين.

= إلى اللقاء سيد ميدوسيز.

اقترب منه ميدوسيز ودفعه من صدره، ليفتح عينيه مجدداً ويجد أمامه طبيباً بردائه الأبيض يصدمه كهربائياً في حالة إنعاش.

قال الطبيب بلهفة.

= لقد استعاد وعيه في اللحظات الأخيرة، إنه حرفياً عائد من الموت. تابعوا نقل الدم له، فقد خسر كميات كبيرة منه، والحمد لله أن الطعنة لم تصب القلب، ثم انقلوه إلى غرفة العمليات لخياطة الأحشاء التي تمزقت.

بقي سبيروزار في المشفى عدة أسابيع يتماثل للشفاء، وفي الخارج كانت الأمور تتفاقم، فقد أعلن الاتحاد في اجتماعه الأخير في **تايلند** أنه ماضٍ في قراره حتى تنفيذه، فكان رد فعل الجهة المناهضة كبيراً بتفجير **تمثال بوذا الكبير** في عاصمة تايلند **بانكوك** أحد أكبر تماثيل بوذا في العالم كرد فوري لهذا القرار الذي صدر في تلك العاصمة. ورغم تفشي فيروسا زوسا الفتاك وفرض الحجر الصحي حول العالم، فقد عمّت مظاهرات للأقليات البوذية في دول الجوار منددة بهذه الأعمال التخريبية الاستفزازية، وداعيةً للانفصال، فقوبلت بالعنف والاعتقالات والقتل أحياناً وبدا العالم وكأنه يتجه لحرب عالمية مسرحها دول جنوب شرق آسيا. في حين ظهرت أصوات قليلة من الطرفين إلى ضبط النفس والحوار كحال الراهب البوذي **دينبا** وأيضاً الراهب الهندوسي **تشاندرا** في الهند لكنّ تلك الأصوات تبددت في بحر الحقد وعدم التعقّل والتعصّب الهائج.

وبينما كانت الأعين كلها موجهة إلى النيبال وتعتقد بأن شرارة الحرب ستبدأ منها، تفاجأ الجميع بين ليلةٍ وضحاها بحدث غير متوقع في منطقة أخرى، فقد كانت سيريلنكا هي نقطة الانطلاق للحرب وبالتحديد في **منطقة سيبيريا** التي تقع شمال شرقي جزيرة سيريلنكا على بعد **170** كم من **العاصمة كولومبو**. وعلى وجه أكثر دقة في قلعتها الشهيرة التي تدعى **قلعة السماء** أو **قلعة الأسد** الموجودة في قلب الأدغال والتي ترتفع على صخرة عملاقة بارتفاع **200** متر.

هناك يوجد ضمن القلعة معبد بوذي حديث العهد، وفيه تم عقد اجتماع علني لبوذيي سيريلنكا بقيادة الراهب **أيانش** أعلن على إثره التمرد المسلح على الدولة من قبل الجيش بغية الانقلاب وتحويل نظام الحكم في سيريلنكا إلى نظام ديني بوذي مع دعوة البوذيين في دول الجوار للسير على خطاهم

وكأن التاريخ يعيد نفسه مرتين. **مرة حديثة** بقتل البوذيين لمسلمي الروهينجا في ميانمار على نقيض تعاليم بوذا، ومرة **قديمة** بخصوص قصة تشييد قلعة السماء، إذ تقول الأسطورة أن ملكاً يدعى (كاشيبا) قاد انقلاباً على والده المدعو (داتوسينا) واستولى على العرش ثم بنى قلعة السماء تلك أعلى

صخرة سيجيريا خوفاً من انتقام أخيه المدعو (موجلانا) لوالده. فقد اشتهر الملك كاشيبا بحبه للسلطة وللمال، لكن نهايته لم تكن أبداً كما تمناها أن تكون، ففي قلعته تلك أعلى الصخرة أقدم على الانتحار قتلاً بالسيف بعد هزيمته أمام أخيه.

و كاشيبا هو الابن الأكبر للملك داتوسينا إلا أنه لم يكن الوريث الشرعي للعرش، وذلك لأن أمه لم تكن من أصول أرستقراطية و لا ملكية، وذلك على عكس أخيه موجلانا الذى كان يتمتع بهذه الميزة مما جعله أهلاً لأن يصبح وريثاً للعرش خلفاً لوالده، و هذا ما جعل كاشيبا يشعر بالظلم الشديد ، لذا بقي لفترة طويلة يخطط للحصول على الحكم بطرق مختلفة كاسترضاء والده لاتخاذ هذا القرار، إلا أن كل محاولاته هذه باءت بالفشل فقرر الانقلاب على والده و إطاحته من الحكم و كان عونه في ذلك (**ميجارا**) أحد رجال البلاط الملكي، والذى كان بدوره يكره الملك أيضاً..

والاتحاد البوذي الحالي بمخالفته لتعاليم بوذا الروحية يسلك نهج كاشيبا نفسه **بالانقلاب على تعاليم بوذا بهدف السلطة والحكم** وكأنه يشعر أن الأديان الروحانية والسماوية الأخرى تهدد البوذية كونها دين أرضي مهتم بالإنسان أساساً، فهل سينجح في ذلك أم أن للطرف الآخر كلام مغاير لتكون نهايته كنهاية كاشيبا بالفعل **!؟**

بالفعل شهدت دول كالنيبال وسنغافورة وكوريا وتايوان محاولات انقلاب فاشلة وهدرت دماء كثيرة، فأصبحت الحرب العالمية في منطقة جنوب شرق آسيا حقيقة واقعية لا مهرب منها على كوكب الأرض.

ولكن ....

حدث ما لم يتوقعه أحد. لقد أعلنت الأرض بنفسها اعتراضها على ما يحدث بأغرب طريقة قد يتوقعها البشر عليها، ووجهت صفعة للجميع شرقاً وغرباً كعقاب قاسي على أفعالهم ...

فما الذي حدث ؟!

الفصل السادس

فرنسا / ستراسبورغ.

مركز رصد الزلازل الأوروبي المتوسطي.

آب. عام 2030 م.

شلّت الدهشة تماماً الشاب **ليوني**، ابن السادسة والثلاثين ربيعاً، الجالس في صمت مرهق على مقعده المريح أمام شاشة عملاقة بدأت تنبض كقلب كوكب يحتضر. خريطة العالم التي يعرفها جيدًا لم تعد تشبه نفسها، فقد اشتعلت بألوان غير مألوفة: ومضات صفراء تتراقص كإنذارات أولية، مساحات زرقاء ترتجف كما لو أنها تتهيأ لانفجار داخلي، وبؤر حمراء تتّقد في عمق المحيطات مثل قلوب ملتهبة تنذر بعاصفة لا نجاة منها.

مدّ يده المرتجفة نحو الهاتف، وكأن الخط الساخن لم يعد أداة اتصال، بل شريان حياة. ضغط الأزرار بعصبية، وتردد صوته عبر الأثير، مرتجفًا كما لو أن الكلمات تهرب من بين شفتيه:

= بروفيسور **جيروم** ... نشاط زلزالي شاذ... غير اعتيادي البتّة! القشرة الأرضية تهتز، لا، بل تغلي حرفياً ... هزات أرضية بين **4** و**5** ريختر تضرب مناطق متفرقة، والزلازل في المحيطات تجاوزت السبعة ريختر... كلها في الوقت ذاته، كلها الآن!

تأخر الردّ لثوانٍ بدت دهرًا على نحو يعكس دهشة البروفيسور.

= متأكد ؟

= متأكد تمامًا، الشاشة أمامي... الأرض تنبض كمن يلفظ أنفاسه الأخيرة.

ساد صمت ثقيل، ثم انطلق صوت البروفيسور جيروم العجوز، الواثق رغم الرعب:

= هذا... هذا يفسّر، كما توقعنا، الظواهر غير المفهومة خلال الأسابيع

الماضية: **دوران قطعان الحيوانات، الانتحار الجماعي للطيور، اضطراب المجالات المغناطيسية**. شيء ما في لبّ الأرض يوشك على الانفجار. أنا آتٍ حالًا.

بعد دقائق، تهاطلت الاتصالات من مراكز الرصد نحو كل قارة. كان الكوكب يتحدث بلغة واحدة: الغليان. لم يعد الأمر مجرد اضطراب، بل تحوّل القشرة الأرضية إلى رحم يختبر المخاض، وكأن الأرض تتهيأ لولادة شيء لا يملك البشر أدوات تفسيره.

تم تفعيل الإنذار العالمي. رسائل عبر الهواتف، أبواق سيارات الشرطة، أضواء حمراء على ناطحات السحاب، تقارير عاجلة على شاشات التلفاز... الكل يصرخ دون أن يفهم. في كل شارع، سرت عدوى الذعر كفيروس جديد يلتهم ما تبقى من منطق.

في المساجد والكنائس والمعابد، علت الصلوات، واختلطت اللغات والدموع، وارتفعت الأيادي نحو السماء، لا طلبًا للنجاة فقط، بل للاعتراف. اعترافٌ متأخر أن البشر، رغم كل تقنياتهم، لا يزالون ضيوفًا في بيت لا يملكون مفاتيحه.

فمنذ عام ضرب فيروس زوسا الأرض وجعل العالم يتوارى خلف أقنعة... وها هي الأرض نفسها، اليوم، تخلع قناعها، لتكشف عن غضبها المكنون...

ولم يكن أحد يعرف بعد: هل هو غضب؟ أم نداء؟ أم بدايةٌ جديدة؟ أم نهاية لا رجعة منها؟..

*****

تشيلي / سانتياغو.

مركز أبحاث SYV .

في تلك الأثناء.

كان البروفيسور **فيسينتي ألكازار** يجلس في الطابق الأخير من مركز الأبحاث، محاطًا بجدران صماء من الزجاج والأرقام والفرضيات، رجل في أواخر الخمسينيات، متقشف الهيئة، مفرط الدقة، يُعرف في الأوساط العلمية بقدرته العجيبة على فك شيفرات الظواهر اللامعقولة. عيناه الرماديتان خلف نظاراته الدائرية لم تعرفا الراحة منذ أربعين عامًا، تبحثان دائمًا عن سؤال جديد، عن صدع في جدار اليقين.

كان يرتدي معطفه الرمادي المعتاد، وتفوح منه رائحة قهوة سوداء وكتب قديمة، وعلى مكتبه ترتّبت الأوراق البحثية بأناقة صارمة تعكس اضطراب ذهنه العميق خلف ستار النظام. كان مؤمنًا بأنّ للكون لغة لا تُفهم، بل تُحس، وأن بعض الكائنات - ومنها هيكل أتاكاما الراقد أمامه - ليست نتاج خيال أو تلفيق، بل نوافذ إلى زمنٍ لم نحلم ببلوغه بعد.

وبينما كان يراجع إحدى فرضياته المستحيلة عن " الذاكرة الكونية المطمورة في الأجساد "، شعر برجفة خفيفة تهزّ أرض الغرفة. رأى كأس القهوة على يمينه يرتج خفيفًا كما لو كان قلبه نفسه يرتعش.

رفع عينيه إلى الصندوق الزجاجي الذي يحتضن هيكل أتاكاما - ذلك الكائن مجهول المصدر الذي اكتُشف في صحراء تشيلي - فرآه يهتزّ يمينًا ويسارًا، كأنّ شيئًا ما في داخله يستفيق من سباتٍ أبدي.

ثم حدث ما لم يكن في الحسبان.

بدأت الأرض تحت قدميه ترتجف بعنف، وهزات متعاقبة أخذت تتصاعد لتتحوّل إلى زلزالٍ مروّع. جدران الطابق الأخير تنشقّ كأنها تئن، والسقف

يزمجر فوق رأسه، فاندفع فيسينتي إلى أسفل الطاولة باحثًا عن ملاذ، فيما الصندوق الزجاجي يترنّح أمامه، حتى هوى وتحطم بزئير زجاجي مدوٍّ، فانسكب السائل الحافظ على الأرض، واندفع الهيكل معه ينزلق كجسد مبلّل يخرج من رحمٍ زجاجي، واستقر أخيرًا عند حافة الطاولة.

في لحظاتٍ جنونية، انهار المبنى كله، طابقًا إثر طابق، كأنّ شيئًا ما تحت الأرض سحب أرواح الإسمنت إلى جوفه، وسقط السقف جزئيًا فوق الطاولة التي احتمى فيسنتي تحتها، فشعر بثقل الصخور يضغط على صدره كجدارٍ من الزمن، يكاد يُسمع فيه صرير العظام.

ورغم الألم والدوار، ظلّت عيناه متعلقتين بالفتحة الصغيرة التي تركها الحطام.

انحسر الزلزال تدريجيا حتى هدأ كل شيء محيلاً المركز أنقاضاً.

وهناك رآه.

هيكل أتاكاما .... بدأ يتحرك.

ذراعاه وساقاه ترتجفان، ثم رفع رأسه كما لو استعاد وعيًا كان مسروقًا. نهض بتثاقل فوق الحطام، ومشى مترنّحًا كوليدٍ خرج لتوّه من رحم الأرض، حتى التقت عيناه الواسعتان بعيني البروفيسور. كان فيهما سؤال، ونداء، ودهشة.

اقترب خطوة خطوة، حتى بلغ الفتحة الصغيرة، ومدّ يده من خلالها ببطء إلى فيسينتي، وتمتم بأصوات غريبة لا تنتمي للبشر ولا لزمنهم.

شلّ الذهول أطراف البروفيسور، ثم مدّ سبابته المرتجفة، فلامست يد الهيكل.

كانت كرعشة.

تيار خافت ككهرباء ناعمة سرى في جسده، لكنه لم يكن من هذا العالم.

أغلق الهيكل عينيه للحظات، ثم فتحهما ...

ابتسم بغموض.

ابتسامة بلا جنس، بلا وطن، بلا زمن، ثم نطق.

= بروفيسور فيسينتي.

سحب البروفيسور سبابته برعب حقيقي وصاح.

= من أنت؟

= أنت تعرفني جيداً بروفيسور. أنا أتا. أتا. صديقتك الفضائية لعقود

= كيف. كيف عرفتِ ذلك ...؟

= لا أدري. إنها ذكريات ومعلومات كثيرة تدور في رأسي مذ لمست سبابتك. أعرف كل شيء عنك. لكنني أجهل كل شيء تقريباً عن نفسي أو أصلي

= وكيف دبّت الحياة في جسدكِ بعد كل هذه السنين ؟!.

= أجهل السبب أيضاً حتى اللحظة، ربما بسبب الزلزال وارتجاج الأرض الذي حدث سيدي! لا أدري.

اقتربت آتا من الفتحة الصغيرة ووضعت يديها على حواف الركام ثم قفزت إلى الداخل. تسلّقت سترة البروفيسور واختبأت في جيبها الداخلي

= ما الذي تفعلينه؟

= سأبقى معك سيدي حتى يتم إنقاذنا، فلا مكان آخر لي لأذهب إليه. إنك صديقي الوحيد الآن ولن أتخلّى عنك في هذا المأزق وأرجو منك ألا تتخلى عني بدورك. بإمكاني الهروب بين الحطام فأنا صغيرة الحجم كما ترى لكنني أفضّل البقاء معك، فأنا خائفة للغاية وأنت تشعرني بشيء من الأمان.

هزّ البروفيسور رأسه بدهشة ليتأكدّ أنه لا يحلم بسبب فقدان الوعي بانهيار السقف عليه كما يظنّ.

= هل .. هل أنا أتخيّل؟

= أبداً. وإن كان كل ما يحدث أشبه بكابوس حقيقي، أرجوك سيدي مجدداً

تقبلني ولا تتخلّى عني. لا ملاذ آخر لي غيرك ألجأ إليه.

صمت البروفيسور للحظات ثم مد يده المرتجفة إلى أتا وطبطب بسبابته على ظهرها.

= حسناً. رغم يقيني بأنني أحلم أو أهلوس. فإنّ السنوات الطويلة التي جمعتنا معاً تحتم عليّ الاعتناء بك ولو كطيف ريثما أعي بالضبط ما الذي يصيبني يا أتا .

صمت للحظات ثم أردف بصوت مرتعش.

= على كل حال ينبغي ألا يعرف أحد غيرنا بما جرى. اختبئي جيداً في جيبي ولا تظهري لأي شخص كان سواي مهما كانت الأسباب .

ابتسمت أتا.

= سمعاً وطاعة صديقي. أشعر أنني سأكون عوناً كبيراً للك في الفترة القادمة. أؤكد لك أنني لن أسبب أي مشاكل. اطمئن .

احتجز الزمان والبُعد البروفيسور وأتا تحت أنقاض مركز الأبحاث المهدوم، ساعات مرّت وكأنها أبدية، كان يتحدث إليها بصوت خافت متقطع بين همس القلق والذكرى، يحكي لها قصة اكتشافها قبل عقود، والتحليل الجيني الغريب لجسدها الذي أثار فضوله، عن الهموم التي تثقل كاهله خوفا على مصير عائلته التي تركها في الخارج أثناء الزلزال. وأتا تهز رأسها برقة، ترد بدهشة شاحبة، كأنها تواسيه بصمت، رغم أن كل ما يقوله كان قد تسرب إلى دماغها بوضوح مذ تلامست سبابتهما معا.

ثم، بعد طول انتظار، وصلت فرق الإنقاذ كفجر يبدد ظلمة الساعات القاسية، حيث يمكث مركز الأبحاث على تخوم العاصمة سانتياغو. أنقذوا البروفيسور وزملاءه بين الركام المتناثر، وجهه شعّ بقليل من الراحة حين أخبره الطبيب أن جسده لم يُصب بأذى يُذكر، فقد كان الطاولة التي لجأ تحتها درعًا صلبًا امتصّ الصدمات، خصوصًا أنه كان في الطابق الأخير الذي هوى كما هو على ركام الطوابق في الأسفل.

لكن الصدمة الحقيقية ظهرت في عينيه، حين رأى جثث زملائه تُستخرج واحدة تلو الأخرى، بما فيهم مساعده العزيز الشاب أنطونيو، فانهمرت دموعه على وجنتيه بلا هوادة، وسط صمت ثقيل من عدم التصديق والوجع العميق.

سرعان ما تلقى الصدمة الأكبر بأن زلزال بقوة **9.7** درجات على مقياس ريختر ضرب بلاده التي تقع على خط زلزال شهير بين صفيحة نازكا و صفيحة أمريكا الجنوبية معيداً إلى الذاكرة أحداث **زلزال فالديفيا** عام **1960** أو **زلزال تشيلي الكبير** كما يعرف و الذي وقع في شهر أيّار و كان أقوى زلزال على الإطلاق سجل على سطح الأرض بقوة **9.5** على مقياس ريختر ، لكنه لا يرتقي لمأساة الزلزال الحالي الذي أدى إلى انهيار عدد هائل من المباني في البلاد و أودى بحياة الآلاف حتى اللحظة مع مئات آلاف من المفقودين أيضاً ، و أعلن تشيلي بلداً منكوباً من الدرجة الأولى.

عاد البروفيسور إلى منزله وسط العاصمة. وقف أمام جدرانه التي لم تكن سوى شاهدة صامتة على العاصفة، تكسّرت لكن لم تنهر، تاركة شقوقًا صغيرة تذكره بعبثية الكارثة. وبيده، كان يحمل أتا، ذلك السر الذي أضحى رفيقه في الحياة، الغريب الذي يشبهه في الغموض، رفيق دربه في قلب الهدوء بعد العاصفة.

لاحقاً ارتاح البروفيسور فيسينتي أكثر بعد أن طمأن قلبه على سلامة أبنائه، راؤول وكريستين، وعائلتيهما. فيما شبح رحيل زوجته ماريا منذ عام يلتف حوله كظل رفيق لا يفارقه أبداً، بعد أن حصد فيروس زوسا حياتها. وعلى الرغم من الدمار الذي لحق بمنزل ابنته كريستين، وتحطمه حتى أساساته، إلا أن القدر أبدى لطفه حين كانت هي وزوجها بصحبة طفلهما خارج المنزل لحظة وقوع الكارثة، مما حفظ الأرواح بين أنقاض الزلزال.

*****

بعد بضعة أيام.

جلست أتا بهدوء أمام البروفيسور على طاولة الطعام التي أعدّ عليها وجبته المسائية، وعيناها تفيضان بدفء وفضول كطفل يسترق النظر خلف ستار الغموض. لاحت عليها لحظة صمت، تلك اللحظة التي تسبق العاصفة العاطفية، ثم أطلقت كلماتها بصوت خافت ملؤه الاحترام والرقة...

= مواساتي الحارة لك بروفيسور في أزمة بلدك الراهنة ولخسارتك لزملائك في العمل. والحمد لله على سلامة عائلتك.

نظر البروفيسور لها وهو يمضغ الطعام غير مصدّقٍ حتى اللحظة لما يحدث، ثم أجابها باقتضاب.

= أشكرك أتا. تفضلي بمشاركتي الطعام.

= لا أشعر بأي جوع صديقي. ولكن.

= ماذا هناك؟

= لا أدري. منذ دبّت الحياة في جسدي وأنا أسمع أصواتاً عديدة في رأسي لأشخاص يتحدثون بكلام غريب !

= كلام من أي نوع؟

= لا أدري لغة غريبة عني. أنا خائفة صديقي.

هز البروفيسور رأسه بدهشة.

= هدئي من روعك أتا. سنعمل على فهم ما يحدث لاحقاً. أما الآن فذهني مشغول تماماً بكارثة بلدي الراهنة. بل لم أستوعب بعد أنك كائن حي يتحدث معي بالأساس. امهليني بعض الوقت كي أمتص هذه الصدمات المتلاحقة.

= أنت محقّ. إنها مأساة حقيقية. وأنا بنفسي قصة غريبة بلا تفسير.

نظر البروفيسور في عيني أتا، وعيناه تخفقان بذكريات غامرة عن مساعده الراحل أنطونيو ؛ ذلك الشاب الفضولي المجتهد الذي طالما تمنى أن ينبثق

من هيكل أتاكاما صدى صوت، كلمة، أو إشارة تُجيب على سؤال العالم فيرمي الشهير (أين الجميع؟). واليوم، ها هي أتا تنطق بأصوات غريبة، لكنها تحمل في طياتها المزيد من الأسئلة التي لا تنتهي، وأنطونيو ، للأسف، غير موجود ليشهد هذا الموقف العجيب. ابتلّت مقلتا البروفيسور بالدموع، وغمره مزيج من الحزن والحنين والدهشة.

= لا عليكي صديقتي. الذنب ليس ذنبك. لكن واقع بلادي الراهن مؤلم بحق، فعدد الوفيات حتى الآن نصف مليون منهم أصدقاء وأقرباء لي. مع ثلاثة ملايين مفقود ومصاب. وعدد هائل من المباني تدمر بالكامل. لقد تحولت تشيلي إلى بلد من الأنقاض على نحو يدمي العين والقلب. إنه ولا شك أقوى وأسوأ زلزال في التاريخ حتى الآن كشدة وتدمير وضحايا.

بسبب الكساد الاقتصادي العميق الذي عصف بالعالم جراء عواقب انتشار فيروس زوسا على العالم، لم تتلقَّ تشيلي في نكبتها سوى وعود جوفاء من الدول المتقدمة شرقاً وغرباً، كلمات تُقال بلا فعل يُذكر. لكن، وعلى غير المتوقع، جاءت أكبر موجات العون المادية والبشرية من دول العالم الثالث نفسها، تلك التي تعاني من أزمات اقتصادية لا تقل قسوة. فللأسف هكذا تسير عجلة الحياة منذ فجر التاريخ: الغني يختار أن يمتنع عن العطاء، لا لعدم القدرة بل لأن الفعل لن يُغير من حاله شيئًا، بينما الفقير، رغم حاجته، يُمد يد العون بسخاء لا يُقاس.

هذا المشهد يبرز مرة أخرى سموّ الشعوب الفقيرة، خصوصًا في القارة السمراء، حيث يتبنى أغلب سكانها فلسفة **أوبنتو العميقة**، تلك الفلسفة التي ترتكز على نبل الإنسان وتعلّمنا سرّ السعادة في الحياة عندما تنطق بالمبدأ الإنساني السامي:

((أنا أكون لأننا نكون))

*****

هنالك في أيرلندا الشمالية.

وقع خبر زلزال تشيلي على سولاس كالكارثة التي تخترق الزمن لتعيد إشعال رماد القلب. لم يكن خبراً عابراً، بل صاعقة استقرت في عمق كيانه الكوني المنفي، فاهتزت معها كل ذرة فيه. أول ما ارتسم في ذهنه كان وجهها، إيزابيلا... أول حب، وآخر نور اقترب منه ككائن غريب يطرق أبواب المشاعر الأرضية لأول مرة، ثم خسرها دون وداع.

دون تردّد، مدّ يده إلى سوار التنقّل المثبّت على معصمه، وأدخل إحداثيات مدينة أريكا، حيث كانت إيزابيلا تقيم منذ عقود. وما إن ضغط على الزرّ حتى بدأ جسده يتلاشى تدريجياً من إحدى زوايا مدينة بلفاست الباردة، ليُبعث من جديد في قلب صحراء أتاكاما، عند تخوم مدينة أريكا المنكوبة.

الظلام كان كثيفاً، لكن الخراب أعمق. المدينة تغرق في صمتٍ موحش، كأنها صرخة ابتلعتها الأرض ولم يبقَ منها سوى الصدى. اتخذ سولاس هيئة شرطي، يمشي بخطى ثقيلة بين الأنقاض والركام، والوجع ينزف من عينيه. كان يرى الدمار لا كحطام حجارة، بل كخسارات صغيرة لكل حكاية لم تُكمل، لكل ابتسامة لم تُحكَ.

سمع من بعض من نجا أن معظم سكّان أريكا قد لقوا حتفهم. شعر حينها بأن الزمن يعاقبه للمرة الألف على مخالفة قوانين كوكبه.

قادته أسئلته المرتجفة إلى عنوان إيزابيلا. ولما وصل، وقف مذهولاً أمام منزلٍ مسوّى بالأرض، لا يشبه البيت الذي رسمه في خياله سوى بعطر الخسارة. جثا على ركبتيه، لم يعد قادراً على حمل ثقل الحنين والخوف والذنب. دقائق من الألم الممزق، ثم نهض كمن يقاتل الحزن ويتشبث بأهداب الأمل، واتجه إلى منزل مجاور بدا سليمًا نسبيًا. طرق بابه بإلحاحٍ يكاد يصرخ: هل بقيت هي؟ هل نجا أحد؟

فتحت الباب سيدة ستينية، شاحبة الوجه، حولها وشاح قديم، وعيناها تنطقان بالتعب والتوجّس...

= مساء الخير سيدتي والحمد لله على سلامتك.

= أشكرك. كيف يمكنني مساعدتك؟

= هل تعلمين مصير جيرانك في ذلك المنزل.

وأشار إلى منزل إيزابيلا.

أجابت السيدة والدموع في عينيها:

= لقد توفي السيد **لوشيو** للأسف مع زوجته السيدة إيزابيلا بسبب الزلزال.

شعر سولاس بالأرض تميد تحت قدميه وبقلبه يعتصر مع زوال أمله الأخير.

= متأكدة؟

= للأسف نعم، وقد حضرت الدفن بنفسي في مقبرة البلدة منذ أيام. والأسوأ بحسب ما وصلني من أخبار أنّ أولادها الثلاثة لقوا حتفهم مع عوائلهم في العاصمة سانتياغو. عائلة مسكينة. أبيدت عن بكرة أبيها.

وانهمرت الدموع من عينيها في حين شعر سولاس بمئات الخناجر تطعن كل شبر من جسده.

= الحمد لله على سلامتك مجدداً سيدتي.

= أشكرك سيدي. هل تعرف عائلة السيد لوشيو؟

= صداقة قديمة.

= تعازيّ الحارّة لك. يا لبلدنا البائس. كم خسر الأحباء بعضهم فيه.

غادر سولاس المنزل كمن خرج لتوّه من خيبةٍ أبدية، يجرّ قدميه فوق أرصفة الذكرى، يترنّح تحت ثقل الصدمة التي عصفت بروحه، لا يعرف إلى أين يمضي، لكن الحنين كان يقوده إلى جهة واحدة فقط: المقبرة.

كانت الرياح تصفر بين الأشجار كأنها تهمس بأسماء من رحلوا، وكان القمر نصف نائم خلف ستارة من الغيوم، يُلقي بنوره الخافت على شواهد القبور. دلف سولاس بين الشواهد الحجرية كمن يبحث عن قلبه الضائع، يقرأ الأسماء كأنه يراجع أرشيف الخسارة.

حتى توقّف.

كانت هناك، تحت شجرة قديمة تشبه ظلّها في ذاكرته، وقد حفرت الطبيعة على قبرها قصيدة حزن لا تُقال. اقترب بخطوات واهنة، وقرأ النقش الحجري:

((**إيزابيلا ألفاريز .. 1949 – 2030**))

تجمّد الزمن.

ركع على ركبتيه، وانهمرت دموعه بسخاء، لا تشبه دموع البشر، بل تحمل وجع بلد بأسره. استحضر تلك الأيام القليلة، الومضات التي تناثرت بين أصابع الزمن كحبّات نور، حين كانت تضحك له، وحين لم يكن يعلم أنه سينكسر بهذه الطريقة.

الحبُّ لا يُنهيه الفقد، بل يُعيد تشكيله على هيئة حسرة...

وها هو الآن، يتذوق آخر أطياف المشاعر البشرية التي أراد تجربتها بنفسه: الألم. الوريث الشرعي للحب.

رفع عينيه نحو السماء المرصّعة بالنجوم، وشعر بالمسافة الساحقة بينه وبين كوكبه الأم، باي، هناك في أقاصي المجرة. لو أنه أطاع الأوامر، لو عاد مع فريقه في عام **1977** بعد انتهاء مهمته، لما ذاق طعم الأرض، ولا أُصيب بذلك السهم الذي سمّاه البشر الحب، ولما عرف هذا الخليط الفوضوي من الشغف، والخسارة، والانتماء، والحيرة، والندم...

أغمض عينيه، وجمّع أفكاره التي تكسّرت كقطع زجاج، ثم وجّه طاقته الذهنية نحو السماء. تواصل مع الكوكب الأم وصوته يختنق بالدمع والموت، ناقلًا آخر الأخبار:

زلزال تشيلي المرعب، والنشاط غير الطبيعي الذي يُهدد الأرض.

لكن ما لم يُقله هو ما تقوله نظرته:

أن الأرض، رغم قسوتها، انتزعت منه أكثر مما توقّع...

وسمّمت قلبه بشيء لا دواء له:

الحنين.

*****

الفصل السابع

مجرّة سيشبرينتال.

كوكب باي.

تقدّم نيزاو بخطاه الرشيقة نحو العرش المتلألئ بالألماس. جسده النحيل المتمايل كعود الخيزران يعكس بساطة الشكل وعُمق الوظيفة، أما من جلس على العرش فكان كيانًا لا تُقاس هيبته بالعين، بل تُشعر بها الروح قبل أن تُدركها الحواس. العقل الأعظم... رأسه الفسيح كأنما يحوي مجرّةً من الأفكار، ووجهه ساكن كمن يرى الزمن في حركة الجسيمات.

انحنى نيزاو باحترام وقال بصوت رخيم يحمل ثقل المعلومة:

= قداسة العقل الأعظم... وردتنا للتو رسالتان عاجلتان من عميلنا المنفي على كوكب الأرض... سولاس...

رفع العقل الأعظم عينيه المتوهّجتين كنبضتين من نور داكن، وقال بصوت لا يحتاج إلى أن يعلو ليأمر:

= تحدّث، نيزاو...

= النشاط الزلزالي هناك غير طبيعي، يتصاعد في كل مكان كأن الأرض نفسها تستيقظ على كوابيسها... وقد وقع زلزال هائل في دولة تُدعى تشيلي... زلزال هو الأقوى في تاريخ تلك الحضارة... دمار شامل... أرواح لا تُحصى... الجيولوجيا تصرخ...

ساد صمت مهيب.

ثم أغمض العقل الأعظم عينيه، كما لو أنه استدعى أرشيف التاريخ من أعماق ذاكرته الكونية، واستغرق لحظات قبل أن يقول شيئًا. في عقله، كان الزمن يتراجع إلى الوراء، إلى ما قبل **500** ألف عام، حين رصدت حضارتهم الأولى على **كوكب بالتال** نيزكاً بحجم جبل، يشق عباب الفضاء بسرعة لا تُضاهى متجهاً نحوهم بلا تردد.

أدواتهم العلمية قدّرت وصوله إليهم خلال عام... عام فقط كفيل بأن يتحوّل كوكبهم إلى رماد نجمي. لم يتردد حينها. أصدر العقل الأعظم أمره بالإجلاء

الشامل: مليون كائن من جنسهم جرى ترحيلهم عبر الفضاء إلى كوكب باي، الكوكب القابل للحياة الذي يقع على مسافة ملايين السنوات الضوئية. لم يكن الوقت لصالحهم، لكن العقل لا يساوم على احتمالات الفناء.

ركبوا مركباتهم، وانطلقوا عبر تقنيات مُذهلة تتمحور حول **فقاعة الاعوجاج** بسرعة تفوق سرعة الضوء.

وبعد عام، فقط عام...

التقطت أقمارهم الاصطناعية لحظة اصطدام النيزك بكوكبهم الأم، وتحطّم بالتال إلى شظايا صامتة تسبح في الفضاء.

فتح العقل الأعظم عينيه مجددًا، وقال بصوت خفيض كأنّه نُحت من صخر:

= هذه أخبار خطيرة للغاية. إذ أنّ كوكب الأرض ذو أهمية خاصة بالنسبة لنا، فرغم تواصلنا مع العشرات من الحيوات الأخرى في الكون يبقى كوكب الأرض الوحيد الذي يتمتع سكانه بأربع خواص تميزه عن البقية:

❁ **العواطف المتنوعة السلبية والإيجابية.**

❁ **التقدم بالعمر والمرض والموت.**

❁ **التكاثر.**

❁ **التنوع الجنسي والعرقي والإيديولوجي.**

وانقراض هذا الجنس الفريد خسارة لكل الحيوات في الكون، رغم تخلفهم العلمي عن البقية حتى اللحظة والأنانية المفرطة تجاه بعضهم البعض، الأمر المتناقض مع حقيقة أنهم الجنس الوحيد الذي يؤمن بوجود قوة خالقة لكل شيء عبر أنبياء كثر مروا على كوكبهم! وهذا شيء جديد تعلمناه منهم وطرح الكثير من الأسئلة الوجودية لدينا كما منحنا أجوبةً وأسراراً أكثر عن أنفسنا وعن الكون من حولنا.

= محقّ سيدي ستكون خسارة كبيرة. وهل من توصيات الآن؟

= كلفوا عميلنا سولاس بمراقبة تطور الحالة عن كثب وتبليغنا بكل جديد، وكونوا على أهبة الاستعداد للتدخل السريع عند الحاجة.

= سمعاً وطاعة قداسة العقل الأعظم.

= وما هو الخبر الثاني؟

= الخبر الثاني غريب وخطير أيضاً، إذ تم رصد إشارات غريبة من كائن يحمل جيناتنا في دولة تشيلي بالتزامن مع وقوع الزلزال.

= غريب! هل هنالك من أحد آخر غير سولاس مكلف بمهمة على كوكب الأرض حالياً؟

= أبداً.

قلّب العقل الأعظم الاحتمالات في منطقه للحظات ثم قال.

= هنالك احتمالان لا ثالث لهما إذن. إما أن سولاس استخدم سواره بشكل غير قانوني وأقام علاقة عاطفية مع أنثى بشرية فحملت منه وهذا مستبعد بسبب تزامن الإشارة مع الزلزال بالتحديد. أو أنّ البشر تمكنوا من استنساخ كائن مثلنا وهذا أمر غريب وغير مفسّر الآلية أبداً، فهو غير ممكن بحسب تطورهم العلمي المحدود الذي نعرفه.

= وتوصياتك سيدي؟

= استفهموا من سولاس إن كان قد أقام علاقة مع بشرية من قبل... فإن أقرّ بذلك سيكون لنا كلام حازم معه، وإن نفى ذلك كلفوه بمهمة الوصول إلى مصدر الإشارة والتواصل معه إن أمكن. وبالطبع زودوه بإحداثيات الإشارة الدقيقة.

= أمرك سيدي.

= انصرف الآن وأخبرني بكل جديد على الفور.

*****

تشيلي.

العاصمة سانتياغو.

تمّ التواصل مع سولاس في تشيلي عبر التخاطر، فنفى جازمًا، ودون تردد، أن يكون قد أقام أي علاقة مع أنثى بشرية، مؤكدًا أن وعيه التام بعواقب مثل هذا الانتهاك يجعله بمنأى عن الوقوع فيه. فالقانون لديهم صارم، لا رحمة فيه لمَن يتجاوز حدوده، نفي المخالف إلى الأرض بشكل أبدي، كمنفى روحي لا عودة منه، ووصمة عار تندب اسمه في سجلاتهم السرّية إلى الأبد.

لكن رغم حنكة سولاس في تقديم دفاعه، وهدوئه المصطنع، تسللت الشكوك إلى العقل الأعظم، ذاك الكيان المعرفي المتجاوز للزمان والمكان، والذي لا تخفى عليه ومضة تردّد في الذهن أو رعشة غير مرئية في النبض الشعوري. ومع ذلك، لم يُبدِ رفضًا مباشرًا أو غضبًا ظاهراً، بل آثر أن يسلك طريقًا أكثر دهاءً: أعاد تكليف سولاس بمراقبة النشاط الزلزالي المستعر في باطن الأرض، وهي المهمة التي يتولاها منذ سنين، ولكنه أضاف إليها هذه المرّة بعدًا جديدًا يفيض بالقلق: إحداثيات دقيقة لمصدر إشارة غير مألوفة، تم التقاطها مؤخرًا من قلب العاصمة سانتياغو. كانت الإشارة نابضةً بتردد لا يُبث إلا من كيانات عالية الإدراك، وغريبة التركيب. ورغم تفاهتها الظاهرية، فإن تركيبتها الموجية تحمل في طيّاتها تشويشًا يعكس وعياً، أو على الأقل محاولة بدائية للتواصل. وقد طُلب من سولاس، دون مواربة، أن يتقصّى مصدر هذه الإشارة، لا بعين الرصد وحدها، بل بالاقتراب إن أمكن، والتواصل، وربما التحليل أو التفاعل. الكلمات لم تكن عبثية، بل مشحونة بمعانٍ متعددة، تُركت مفتوحة على كل الاحتمالات.

أُغلق خط التخاطر بينهما في هدوء كوني، فيما بقي سولاس واقفًا وسط ظلال أشجار تشيلي العالية، يُحاول أن يُخفي ذلك الارتجاف الطفيف في روحه. شعور غير مفسر بأن ساعة انكشاف خيانته تقترب.

أدخل سولاس الإحداثيات إلى سواره، وما هي إلا لحظات حتى اختفى من محيط أريكا وظهر في ضواحي العاصمة سانتياغو، أمام منزل البروفيسور

فيسينتي. راقب البيت لدقائق متلفتًا بحذر، ثم توجّه إلى منزل مجاور، مدّعيًا أنه خبير حكومي مكلف بتفحّص الأضرار الإنشائية بعد الزلزال. أجابته سيدة مسنّة أن ساكن المنزل المستهدف يُدعى فيسينتي، بروفيسور مختص بأبحاث الفضاء وأسرار الحياة في الكون، مما أثار شكوكه على الفور.

فتح هاتفه وبحث سريعًا في أرشيف الإنترنت عن فيسنتي، وما قرأه كان كالصاعقة:

مقالات علمية عن هيكل أتاكاما الشبيه بالكائنات الفضائية، وتحقيقات يقودها البروفيسور نفسه، تشير إلى أن عمر الهيكل يعود لعام **1977**. عام وصوله هو نفسه إلى الأرض، العام الذي خالف فيه قوانينهم ووقع في حبّ إيزابيلا.

توقف الزمن من حوله.

الهيكل ليس مجرّد لغزٍ علمي. إنه ابنتها ... ابنتهما.

ثمرة خرق القوانين. شاهدٌ على الخيانة. معجزة ووصمة في آنٍ واحد.

انكمش صدره بدهشة الأبوة. الأمر الذي لم تختبره مخلوقات كوكب باي من قبل. هم لم يُخلقوا بالولادة، بل تطوروا من كائنات دقيقة حتى نضجوا كجنس واحد، لا يزداد عدده ولا ينقص، إلا نادرًا، في الحروب أو المهام البعيدة.

لكنه الآن... أب.

دماؤه تسري في عروق مخلوقة وُلدت تحت سماء أخرى. جزء من إيزابيلا ما يزال على قيد الحياة. يذكّره بعينيها، بصوتها، بطريقة لمسها للكون كما لو أنها تفهمه أكثر من النجوم نفسها.

اقترب من المنزل بخطوات ناعمة كصدى الضوء، اختبأ خلف الأشجار، وانتظر أن يغادر البروفيسور.

ثلاث ساعات مرت. ثم رأى الرجل يخرج ببدلته الرمادية، يفتح المرآب، يقود سيارته ويغيب. بقيت الإشارة قوية. إذن أتا لوحدها الآن.

أغلق سولاس عينيه، تنفّس ببطء، واستدعى اللغة الإسبانية من ذاكرته القديمة، تلك التي تعلمها من أنامل إيزابيلا، وبدأ ببث موجات التخاطر. كانت لغته مزيجًا من الضوء والفكر والنوستالجيا... كلمات لا تُسمع، بل تُحسّ.

= مرحباً. أنا سولاس صديق فضائي متواجد حالياً في تشيلي. من أنت؟

رنت الكلمات في دماغ أتا ففزعت بشدة.

لحظات من صمت. ومن ثم.

تذكرت نصيحة البروفيسور لها بعدم الاختلاط مع أحد أو كشف هويتها، لكن فضولها الجارف امتد كتسونامي جارفاً معه النصيحة لتجيب بصوت مرتجف.

= أهلا بك. أنا أتا. كيف تتواصل معي الآن سيد سولاس؟

= بالطريقة المتبعة بين أفراد كوكبنا باي وهي **التخاطر الذهني**.

= وما الذي تريده مني؟

= أريد الاطمئنان عليكِ أوّلاً ثم سؤالك سؤالاً هاماً.

= أنا بخير. تفضّل اسأل!

= كيف وصلتِ إلى الأرض؟

= هذا السؤال عليكم أنتم الإجابة عنه. فجلّ ما أعرفه أنني هيكل صغير بجينات غريبة عثر عليّ في صحراء أتاكاما هنا في تشيلي عام **2003** لذا لقبوني أتا. لا أعرف أكثر من ذلك.

= ونحن بدورنا لا نعرف عنك أكثر من ذلك. على كل حال إن احتجت أي شيء تواصلي معي بنفس الطريقة بالتخاطر بعد أن تلفظي اسمي أولاً، فنحن في كوكب باي ورغم تشابهنا في الشكل فإننا ذوو بصمة صوتية واسمية فريدة حيث لا يتشابه اثنان منا بنبرة الصوت أو الاسم أبداً.

= حسناً. أشكركم على الاهتمام بحالتي وعرض المساعدة عليّ. هل يمكننا اللقاء شخصياً؟

= ربما. سأحدّد لكِ موعداً لاحقاً حسب تعليمات العقل الأعظم في كوكبنا، لكن هنالك شيء أخير هام عليكِ الالتزام به .

= وما هو؟

= لا تخبري أحداً بتواصلي معك بمن فيهم البروفيسور فيسينتي فذلك يشكّل خطراً على كلينا. مبدئياً على أقل تقدير.

صمتت أتا للحظات.

= حسناً. كما تريد. لا أريد توريطكم في مشاكلي.

= اهتمي بنفسك جيداً يا أتا. إلى لقاء قريب.

= إلى اللقاء.

غادر سولاس المنطقة بحذر حتى أصبح في مكان مهجور منعزل في ضواحي العاصمة وتواصل مع نيزاو سريعاً فأخبره بقصّة هيكل أتاكاما المبهمة دون أن يحدد له جنسها أو تاريخ ميلادها بدقة، كي لا يربطوا بينه وبين تاريخ وصوله إلى الأرض فيشكوا بالموضوع أكثر. بل اكتفى بذكر تاريخ اكتشافها عام **2003**. وتساءل عن وجوب لقائها شخصياً فأجاب نيزاو بأنّ ذلك عائد للعقل الأعظم وسيبلغه بالقرار لاحقاً.

*****

هنالك على كوكب باي.

تقدّم نيزاو بخطى رشيقة نحو عرش العقل الأعظم، وانحنى باحترام عميقٍ كأنه يحيي سُلطانًا قديمًا يتربع على عرش الزمن. برفق، سرد نيزاو قصة هيكل أتاكاما الغامض، الذي يحمل في ملامحه طيفًا فضائيًا يشبههم، موضحًا أنه مصدر الإشارة القوية التي تسربت إلى عقولهم. وأشار إلى أن هذا الهيكل يقيم في منزل مع البروفيسور فيسينتي، ذلك الباحث المتعمق في أسرار الفضاء وحيوات الكائنات الأخرى، في ربوع تشيلي المنكوبة.

وأضاف نيزاو أن سولاس، من خلال اتصاله مع الهيكل بالتخاطر، لم يستطع استجلاء معلومات قيمة، لذا تساءل عن الخطوة القادمة التي يجب أن يتخذها سولاس.

صمت العقل الأعظم للحظات ثقيلة، وعقله يغوص في أعماق المعطيات، يعيد ترتيب الصور والأحداث كفنان يدقق في لوحة معقدة. ومن ثمّ، أصدر أمره بحزم: يجب أن يلتقي سولاس بالهيكل شخصيًا، وأن يبذل كل جهده لكشف أسرار جديدة عن أصله وجذوره.

بهدوء وولاء، انصرف نيزاو، محملاً بالتعليمات الجديدة، كي ينقلها إلى سولاس فورًا، ليبدأ فصلًا جديدًا من التحقيقات عن أسرار تكاد تتكشف على أبواب المجهول.

*****

تشيلي مجدداً.

عاد البروفيسور فيسينتي إلى ملاذه الهادئ مساءً، بعد أن طمأن قلبه على أحوال ابنه راؤول، حيث لجأت ابنته كريستين وعائلتها إليه مؤقتًا، بعدما سلب الزلزال مأواهم القديم، فجاء منزل راؤول أقرب وأحن. استقبلته أتا بنظرة تتوشح بحِجاب من التوتر، ذلك الشعور الغريب الذي يعتصرها حين تعتاد كتمان الأسرار، وحفيف تأنيب الضمير ينسج حولها عباءة خفية، إذ حملت على كتفيها عبء تواصلها الخفي مع سولاس، بعيدًا عن علم الرجل الذي منحها ملجأها.

بعدما استبدل ثيابه وتناول عشاءه بجفاء، مكثت أتا على ركبته في غرفة الجلوس أمام المدفأة الحجرية، وصوتها يهتز بنغمة الرهبة والقلق، سائلةً بلسان يحمل بين الكلمات ثقل الأسرار.

= لدي سؤال ملح يدور في ذهني حضرة البروفيسور.

= تفضلي بالسؤال صديقتي.

= ما معلومات البشر عن الحيوات الأخرى في الكون حتى اللحظة؟..

= للأسف لا معلومات كثيرة لدينا حتى الآن. مجرد فرضيات لا أكثر رغم زعم العديد من البشر رؤية صحون طائرة وفضائيين من قبل، لكنها مزاعم غير موثقة بصور أو فيديوهات. وحتى الآن لا دليل مادي ملموس يؤكد وجود غيرنا في الكون.

= وكيف فسر العلماء وجودي إذاً؟

= لا تفسيرات منطقية لذلك أيضاً أنت مجرّد لغز محير بالنسبة لنا. لكنني وبسبب سحنتك الغريبة وجيناتك الغريبة، وبعد عودتك للحياة بعد عقود طويلة من السبات، إضافةً إلى قدرتك على استلام المعلومات والذكريات عن طريق اللمس، أصبحت متأكداً من أن وجود الفضائيين هو حقيقة وواقع. بل الأصوات في دماغك تؤكد الشبهات فهي غالباً محاولات لفضائيين آخرين للتواصل معك .

= و في حال تأكدتم من وجودهم ، ما الذي ستقدمون على فعله ؟...

= سنحاول التواصل معهم على الأرجح، والاستفادة المتبادلة من المعلومات والخبرات بيننا، فأي جنس آخر في الكون تمكن من الوصول إلى الأرض هو جنس متطور لا محالة، وسنستفيد بشكل حتمي من تطورهم العلمي والتكنولوجي. هذا طبعاً شريطة أن يكونوا جنساً مسالماً وليس لديهم أفكار ونوايا عدوانية تجاه البشر.

ساد الصمت بعد ذلك وشردت أتا في أفكارها وهي تحدّق في النيران المتأججة في المدفأة أمامها، تفاضل بين إخفاء تواصلها مع سولاس عن البروفيسور لفترة من الزمن وبين إخباره بالحقيقة كاملةً، لكنها استكانت في النهاية لوعدها لسولاس حمايةً له ولنفسها ريثما تتوضح الأمور أكثر مستقبلاً.

*****

تشيلي.

سانتياغو.

مع أولى خيوط فجر ذلك الصباح، تسلل سولاس بخفة بين ظلال أشجار حديقة منزل البروفيسور. استقر هناك صامتًا، قلبه ينبض برقةٍ متسارعة، يترقب بعيون الروح اللحظة التي يفتح فيها البروفيسور بابه للخروج، تاركًا وراءه أروقة المنزل تنبض بصدى أتا لوحدها. وبعد ساعة من الصمت المديد، خرج البروفيسور متجهًا لاقتناء حاجياته، معلناً بداية فرصة جديدة لسولاس. عندها، وكهمس نسيم بين أوراق الشجر، انطلق سولاس في رحلة التخاطر مجدداً مع أتا، لينسج من الأفكار جسراً بين عوالم تجاهد لتلتقي.

= مرحباً صديقتي أتا. أنا سولاس مجدداً.

= أهلاً صديقي. ما الجديد؟

= يجب علينا تبعاً لتعليمات العقل الأعظم أن نلتقي في أقرب وقت ممكن.

= بالطبع في أي وقت تشاء. الآن إن أحببت فالبروفيسور غادر المنزل ولن يعود قبل ساعتين.

= جيد. أين أنت الآن؟

= في غرفة الجلوس في منزل البروفيسور.

= سأكون معك بعد دقائق.

= بانتظارك.

تسلل سولاس بحذر بين الأشجار حتى اقترب من نافذة غرفة الجلوس ذات النافذة المفتوحة. اتكأ على شرفتها بيديه ثم قفز إلى الداخل. هناك وجد أتا جالسة فوق وسادة صغيرة على الأرض قرب المدفأة. تفاجأت للغاية بمظهره الغريب كشاب أشقر وسيم غريب عن شكلها تماماً وصاحت بفزع:

= من أنت سيدي؟..

= أنا سولاس لا تخافي.

ضغط سولاس زراً أصفر في سواره وسرعان ما تغير شكله إلى هيئته الفضائية الأصلية.

= كيف فعلت ذلك؟..

اقترب سولاس منها بشوق، فابنته تقف أمامه واقعاً لا لبس فيه. ربت على كتفها بحنان بيده ذات الأصابع الثلاثة وهو يرى حبيبته الراحلة إيزابيلا في عينيها الصغيرتين.

= بفضل هذا السوار الفضّي حول معصمي.

صمت سولاس للحظات وكأنه يقلب فكرة ما في عقله، ثم نزع سوار مطابق عن معصمه الأيسر وناوله لأتا.

= هذا هو سواري الاحتياطي، إنه ملكك الآن.

= ملكي ؟!

= بالطبع، أنت فرد منا ويحق لك امتلاك سوارك الخاص لكن عليك الاهتمام به والحفاظ عليه فإن فقدته ستكون كارثة لكِ ولي.

= سأحميه بأشفار عيوني لا تقلق. لكن كيف أستخدمه؟

= لهذا السوار استخدامان هامان يا أتا. الأول هو تغيير شكلك الخارجي إلى أي هيئة تريدينها. فقط وجهي السوار إلى الكائن الحي أمامك أو صورته واضغطي هذا الزر الأحمر فسيقوم السوار بمسح الكائن فورياً وتحويلك إلى هيئته. وعندما تريدين العودة إلى هيئتك الأصلية اضغطي الزر الأصفر. جربيه عليّ الآن.

بالفعل ارتدت أتا السوار حول معصمها فالتف حوله بشكل مثالي بسبب طبيعة مادته فائقة المرونة، وجهته إلى سولاس وضغطت الزر الأحمر. سرعان ما كبر حجمها واستحالت بهيئة سولاس بالضبط. ذهلت للحظات ثم قفزت من الفرحة وهي تصيح:

= مذهل. مذهل. لقد مللت من حجمي الصغير حقاً.

صمتت للحظات.

= وما هو الاستخدام الثاني للسوار؟

= الاستخدام الثاني هو نقلك إلى أي مكان تريدينه على الأرض، فقط أدخلي الإحداثيات المناسبة شفهياً ثم اضغطي الزر الأخضر، عندها سيتم تحويل جسدك إلى طاقة ثم سيعاد تحويلها إلى مادة في المكان الهدف الذي أدخلتِ إحداثياته. وذلك بشكل آني.

= خطير!

= و الآن جاء دوركِ ، وعليكِ تزويدي بأي معلومات هامة ممكنة عن أصلك الحقيقي بحسب ما أخبرك به البروفيسور...

= للأسف لا معلومات أكثر مما أخبرتك به بالأمس. أنا عبارة عن هيكل صغير عثر عليّ في صحراء أتاكاما عام **2003** وعندما وقع الزلزال دبت في جسدي الحياة على نحو مبهم وغير مفسّر!

فكر سولاس للحظات.

= لا بأس .

اقترب منها أكثر ولامس بإصبعه إصبعها فشعرت أتا بتيار كهربائي خفيف يسري في جسدها، ثم فتح سولاس عينيه وابتسم لها.

= الآن أصبحنا نعرف كل شيء عن بعضنا، فجنسنا يمكنه نقل المعلومات عبر اللمس وهذا سيفيدنا حتماً في حمايتكِ مستقبلاً. على كل حال أصبحتِ تملكين سوارك الخاص الذي سيمكنك من الانتقال إلى أي مكان تريدينه وبأي هيئة، فاستخدميه بحذر لإخفاء هويتك الأصلية وحماية نفسك. سأتواصل معك لاحقاً حسب المستجدات، وفي حال احتجتِ لي بأي شيء تواصلي معي بالتخاطر.

= اتفقنا صديقي. شكراً لشعب باي على هذا الاهتمام البالغ.

اقترب سولاس منها بخطى بطيئة، كأن الزمن قد انكمش بينهما، ثم طوّقها بذراعيه بعطفٍ لم تعرفه من قبل. كان عناقًا دافئًا، غريبًا، أذاب في لحظةٍ

واحدة برودة الغربة عنها. وقفت أتا مشدوهة، تسكنها دهشة لم تجد لها ترجمة، أما هو، فقد انسحب من المكان كظلٍ خافت، يخشى أن تباغته الأعين أو تصطاده الشكوك، وخرج من منزل البروفيسور بحذرٍ يشبه حذر الأب من العالم حين يخبئ ابنته من القدر.

ما إن أصبح بالخارج حتى تواصل مع نيزاو على الفور، وأبلغه بأنه تواصل مجددًا مع الهيكل الذي يسمونه أتا، دون أن يحرز أي تقدّم يذكر من حيث المعلومات، غير أنه لم يذكر شيئًا عن السوار الذي سلّمه لها. كانت تلك خيانته الجديدة لأوامر العقل الأعظم، لكنها خيانة نبيلة ارتكبها بدافعٍ نقي: حماية ابنته. هي ليست مجرد كائن مختلف... إنها دمُه، ومصيره. وإنّ هذا العالم لا يرحم اختلافها. السوار، على أقل تقدير، سيمنحها فرصة النجاة: القدرة على التنكّر، على الهروب، على التلاشي وقت الخطر.

أما أتا، المغمورة بمزيجٍ غير مألوف من الفرح والفضول، فقد هرعت إلى غرفة نوم البروفيسور، حيث تصطف صور الذكريات على الجدران كأنها تمائم تحرس المكان. توقّفت أمام صورةٍ كبيرةٍ لامرأة سمراء ذات نظرة حنونة: ماريا، زوجة البروفيسور الراحلة. حدّقت أتا بالصورة لثوانٍ، ثم رفعت السوار ببطء، وجهته نحو الصورة، وضغطت الزر الأحمر.

وما هي إلا لحظات، حتى بدأ جسدها يتحوّل أمام عينيها: عظامها تطول، بشرتها تتبدّل، ملامح وجهها تتشكل لتصبح نسخة شبه مثالية من ماريا. وقفت أمام المرآة، وبدلاً من انعكاس أتا الصغيرة، كانت هناك امرأة فاتنة، تشعّ حياة ودفئًا. شهقت بهدوء، تلمّست وجهها الجديد، وابتسمت... كانت هذه أول مرة ترى فيها نفسها كاملة، تنتمي لهذا العالم ولو ظاهرًا.

جلست للحظات تُفكّر بما حدث، بما ستفعله. لا، لم يعد هناك معنى للصمت. البروفيسور كان لها العائلة، الملجأ، والصديق. هو من أنقذها من أقبية العزلة، من نظرات العلماء الباردة، من المجهول. لا يمكنها أن تبقي الحقيقة عنه طيّ الكتمان. لا بد من إخباره.

لكن كيف؟

قرّرت أن تكون البداية مفاجأة. ليست صادمة، بل إنسانية، دافئة، كما هي

ماريا في الصورة.

مضت ساعة أخرى ثم عاد البروفيسور فيسينتي، يحمل أكياس التبضّع بكليتي يديه، ويفكّر بقائمة المهام المؤجلة في رأسه. فتح باب المنزل، ودخل كعادته نحو غرفة الجلوس، دون أن يتوقع شيئًا.

لكنّه ما إن عبر العتبة حتى تجمّد في مكانه. هناك، على كرسيه الهزّاز، جلست ماريا... نعم، ماريا نفسها، بهيئتها التي حفظها عن ظهر قلب، تبتسم له ابتسامة مشوبة بالحنين.

سقطت الأكياس من يديه على الأرض، وتبعثرت التفّاحات كما تبعثرت أفكاره. جحظت عيناه، وتقدّم خطوة واحدة بصعوبة، ثم همس بصوتٍ مرتعش:

= ماريا!

ابتسمت أتا بسعادة.

= بل أتا صديقي. أنا أتا.

نظر إليها البروفيسور بذهول وارتباك.

= أتا! كيف ؟!

ضغطت أتا على الزر الأصفر وسرعان ما انكمش جسدها وعادت إلى هيئتها الطبيعية.

= بفضل هذا السوار صديقي. اجلس لأقصّ عليك ما حدث معي بالأمس واليوم. إنها أخبار هامة ومذهلة للغاية لن تصدّقها.

ارتمى البروفيسور على أقرب مقعد مستسلماً ومذهولاً، في حين أخذت أتا تروي له قصتها مع الفضائي سولاس. إهداؤه السوار لها. إمكانيات السوار الفريدة. قصة عجيبة أبعد بسنين ضوئية من أن تصدق.

ثم ختمت حديثها بالقول.

= والآن يا صديقي أصبح لديك دليل دامغ على وجود الفضائيين في الكون ودرجة تطورهم العلمي أيضاً، فما أنت فاعل بهذه المعلومات الصادمة؟

كانت المعلومات غريبة بشكل أكبر من قدرة البروفيسور على الاستيعاب. فصمت لدقائق وهو يحدّق في أتا وسوارها. إنّه عاجز عن إنكار هذه الحقائق بعد رؤيته قدرة السوار بعينيه. ثم نطق أخيراً.

= هذا كلام خطير للغاية أتا. والسوار اختراع أخطر بدوره. لا أدري حقاً ما يجب عليّ فعله الآن. لكن مبدئياً وحماية لك يا صديقتي وبسبب ظروف بلدي المنكوب سألتزم الصمت ريثما أحدّد الخطوة التالية الأنسب.

= أتفهّم ذلك. وما الذي تقترحه على بخصوص شكلي الجديد الذي سأتخذه، فذلك أكثر أماناً لي ولك كما أعتقد؟

هز البروفيسور رأسه.

= بالطبع ، سأبحث في الإنترنت عن صورة مناسبة لك لأنثى غير مشهورة لتتخذي شكلها مؤقتاً...

= هيا بنا... لنفعلها على الفور.

فتح البروفيسور حاسوبه أمامه وتنقّل بين الصور وهو يعرضها على أتا حتى وصل إلى صورة لفتاة ذات ملامح للهنود الأصليين من **الباراغواي** في العشرينات من عمرها تدعى **كايا**. وكأنّ جينات والدتها إيزابيلا تحركت في داخلها وعبرت عن نفسها، إذ صاحت أتا بحماسة.

= هذه هي... إن شكلها يوحي بالبساطة و الطيبة... يمكنني ادعاء أنني كايا خادمتك الحالية أمام جيرانك و أولادك... فلن يشك أحد بذلك...

ابتسم البروفيسور.

= مقنع ومبهر للغاية يا كايا. هيا استخدمي سوارك لنرى النتيجة.

وجهت أتا السوار إلى صورة كايا وضغطت الزر الأحمر. سرعان ما كبر حجمها واستحالت تدريجياً إلى هيئة كايا بالضبط. نظرت في زجاج المرآة المجاورة وقفزت فرحاً.

= أنا كايا. أنا كايا. خادمتك المطيعة.

التفتت إلى البروفيسور واحتضنته بحنان وهي تذرف الدموع.

= أهلاً بك في حياتي آنسة كايا... لكنك صديقتي و لستِ خادمتي... عليك تذكّر ذلك دائماً.

= بالطبع صديقي. وماذا بشأن الاستخدام الآخر للسوار. هل نجرّبه بدوره؟

فكر البروفيسور للحظات.

= بالطبع، يجب عليك أن تتعاملي مع سوارك بحرفية وسرعة، فلا نعرف متى تضطرين لاستخدامه لاحقاً.

= وإلى أي مكان أذهب برأيك؟

حدّق فيها البروفيسور مطولاً وهو يراجع جغرافية تشيلي في ذهنه ثم قال:

= مبدئياً إلى مكان هنا في تشيلي، ففي حال حدث خطأ ما يمكنني الوصول إليكِ وإنقاذكِ.

= منطقي للغاية. وإلى أين تقترح على الذهاب؟

= إلى موطنك الأصلي حيث عثرنا عليكِ أوّل مرّة. صحراء أتاكاما. وبالتحديد إلى **وادي القمر** فيها (فالي **دي لا لونا**). فهو مكان معزول ومهجور ولن تتعرضي لخطر رؤيتك تظهرين فجأة من العدم من قبل آخرين فيه.

= وادي القمر! اسم سريالي للغاية !

= تماماً. فهو موقع تاريخي في تشيلي يقع قريباً من مدينة **سان بيدرو** في صحراء أتاكاما، وهذه المنطقة تتمتع بمناظر طبيعية غريبة، تجعل الزائر يعتقد انه على سطح كوكب آخر غير الأرض فهي أشبه بتضاريس كوكب المريخ أو سطح القمر ومن هنا أتت تسميته. وهذا مناسب تماماً لأصلك الفضائي.

= وكأنّ كل شيء مقدّر ومكتوب بعناية من قبل السماء. وما هي إحداثيات وادي القمر هذا...؟

أعاد البروفيسور فيسنتي تصفح الخرائط الرقمية عبر حاسوبه، بعينين متعبتين يشوبهما الأمل، حتى استخرج بدقة إحداثيات منزله في سانتياغو وإحداثيات وادي القمر. كتب الأرقام على قصاصة ورق بعناية تشبه طقسًا شعائريًا، ثم ناولها لأتا التي أمسكتها بحرص كما لو كانت تحفظ سرًا كونيًا.

اقتربت منه، ثم احتضنته احتضان ابنةٍ لأب لم ينجبها، وإنما أنقذها من العدم. بعد لحظة صمتٍ عميقة، قرّبت فمها من السوار المثبّت على معصمها وهمست بالإحداثيات، ثم ضغطت الزر الأخضر. ما لبث أن بدأ جسدها بالاختفاء تدريجيًا أمام عيني البروفيسور المذهول، كأنها غبار نجم يتلاشى في الفضاء، حتى اختفت تمامًا.

في لمح البصر، وجدت أتا نفسها واقفةً وسط أرضٍ غريبة، صامتة، مهيبة. كانت منطقة صحراوية قاحلة، تتناثر فيها الجبال بأشكال سريالية كأنها منحوتات من كوكب آخر. السماء هناك بدت أكثر قربًا، وكأنها تستمع.

ابتسمت، وانفرج وجهها بدهشة الطفلة التي لامست المجهول للمرة الأولى. ركعت على الأرض، التقطت حجرًا صغيرًا بلون رماد القمر، ذا ملمس غريب، ووضعته في جيبها كمن يحتفظ بجزءٍ من الأسطورة كتذكار.

أخرجت القصاصة مجددًا، وقرأت إحداثيات منزل البروفيسور، وهمست بها للسوار، ثم ضغطت الزر الأخضر مرة أخرى. خلال لحظات، عادت إلى الحاضر، إلى المدينة، إلى البيت الدافىء. وقفت أمام منزل البروفيسور في سانتياغو، تقدمت وطرقت الباب بخفة.

فتح فيسنتي الباب بارتباك لم يدم طويلًا، ليفاجأ بوجه كايا يبتسم له من جديد، يشعّ بنور التجربة. أخرجت الحجر من جيبها ومدّته إليه كما لو أنها تقدّم له دليلاً على أن المعجزة قد وقعت بالفعل.

= تذكار لك يا صديقي من وادي القمر. أنا أسرع شخص يصل إلى القمر في التاريخ !!..

ضحكت بحبور ثم احتضنت البروفيسور.

= إن احتجت أي شيء من أي مكان في العالم سيكون بين يديك في لحظات. أنا مارد الفانوس وجنية الأمنيات خاصتك منذ اللحظة يا صديقي.. !

*****

الفصل الثامن

الكونغو / كيفو.

متنزه فيرونغا الوطني.

أيلول. عام 2030 م.

لم يكن زلزال تشيلي المهول سوى فصل أول من فصول الكارثة التي وسمت عام **2030**، ذاك العام الذي سيُحفر في ذاكرة البشرية كأنّه طُبع بقبضة من جحيم. ومع انبلاج صبيحة اليوم الأول من شهر أيلول، استيقظ العالم على نبأ أثقل من الرماد: **بركان نيراجونجو**، الجاثم في أحشاء **متنزه فيرونغا الوطني** شرق **الكونغو الديمقراطية**، قد استفاق من سباته مجدداً، ولكن هذه المرة... بوجهٍ لم تألفه الأرض من قبل.

لم يكن الثوران مجرّد انفعال جيولوجي معتاد، بل بدا وكأن الأرض دخلت نوبة قيء هائجة، تنبذ من أحشائها حممًا مسعورة، وتطلق رمادًا كثيفًا يحجب السماء عن قارات بأكملها. انفجر البركان كوحش قديم طال قيده، ونفث سخطًا عمره قرون، وكأن القشرة الأرضية تتلو علينا بيان غضبها الأخير.

جاء هذا الحدث ليؤكد مجددًا أن النشاط الزلزالي غير الطبيعي الذي ضرب العالم ليس سلسلة منفصلة من الصدف، بل تراتيل كارثة كونية تتصاعد منذ شهور: من سلوك الحيوانات الغريب، إلى الهزات المنتشرة في كل مكان وزلزال تشيلي المدمر، وصولًا إلى هذا الثوران الجحيمي.

كان لا بد للذاكرة البشرية أن تعود إلى عام **1977**، العام الذي سجّل أقسى ثوران عرفه بركان نيراجونجو، العام ذاته الذي ولدت فيه أتا، وذاك الذي التقطت فيه إشارة **WOW** الغامضة الشهيرة من مركبة سولاس، كما لو أن خيوط المصادفة قد حيكت بدقة مريبة في نسيج القدر

يقف بركان نيراجونجو شامخًا على ارتفاع يناهز ثلاثة آلاف متر، وعلى بعد عشرين كيلومترًا من **بحيرة كيفو** الساحرة. ولكنه ليس مجرد كتلة من الصخور المشتعلة؛ بل هو أعتى براكين القارة السمراء، يقع جغرافيًا في مركزها، وكأنه قلبها النابض بالحمم والغضب.

ورغم المساعي الحكومية المحمومة لإجلاء السكان من نطاق الخطر، فقد كانت الحمم أسرع من البشر، تبتلع كل شيء في طريقها كأفعى من جمر. سقط الآلاف على مذبح القيامة الإفريقية، ضحايا لبركان لا يكتب، بل يحفر فصول المأساة بحروفٍ من لهب في لحم الأرض والذاكرة.

سحب الرماد لم تكتفِ بتغطية الكونغو وحدها، بل راحت تزحف ببطء رهيب نحو باقي القارة، تحجب الشمس وتزرع الرهبة، حتى خيّل للعالم أن الليل الأبدي قد حلّ، وأن النهار استقال من منصبه.

أمام هذا المشهد، لم يعد عام **536** الميلادي، الذي اعتبره المؤرخون الأسوأ في تاريخ البشرية، جديرًا بالعرش. فلقد جاء عام **2030** لا لينافس، بل ليجتثّ أيّ مقارنة، من انتشار فيروس زوسا الغامض، إلى الزلازل المدمّرة، وأخيرًا لا ختامًا: ثوران نيراجونجو الرهيب، كأنه إنذار من الطبيعة بأن الساعة قد بدأت تُقرَع لا بجرس... بل بصرخة من نار.

*****

بعد فترة قصيرة من الزمن...

توقف تدفق الحمم من بركان نيراجونجو أخيرًا، وكأن الوحش قد شبع من فريسته. لكن ما تركه خلفه لم يكن مجرد صخور منصهرة وبركًا من الرماد، بل أرضًا مذبوحة وأرواحًا تُعدّ بالآلاف، معلنًا الكونغو بلدًا منكوبًا رسميًا، تمامًا كما كانت تشيلي منذ شهر واحد فقط بعد الزلزال الذي شطرها نصفين.

غير أن الكارثة لم تتوقف عند حدود الجغرافيا. فقد استمرّ الرماد البركاني بالتسرب إلى عنان السماء، يتمدد كوحش دخاني لا يرى ولا يُقاوَم، حتى بدأ يخنق ضوء الشمس، ويغلف الأرض بعباءة رمادية خانقة. ومع انحسار أشعة الشمس، بدأت درجات الحرارة بالهبوط رويدًا، أولًا في الأطراف، ثم إلى قلب اليابسة. ذبلت المحاصيل الزراعية كما تذبل الأحلام في القلوب المكسورة، وبدأ العالم يحدّق في فجر كارثة غذائية محتملة، تهدد البشر والحيوانات على حدّ سواء.

وفي أقصى شمال الكوكب وجنوبه، قرب القطبين، تسارعت الوفيات البشرية تحت وطأة البرد القارس. لم يعد للدفء عنوان، ولا للمواساة طريق. جمد الهواء حتى بدا كأنه سكين حاد يمرّ على وجوه الأطفال في المخيمات، ويطرق على نوافذ المشافي المزدحمة.

أمام هذا المشهد الجليدي الرهيب، دعت الأمم المتحدة إلى اجتماع طارئ عالمي، جلس فيه ممثلو الدول كما يجلس أبناء بيت محطم في جنازة أمهم. ناقشوا، تظاهروا بالقلق، ورفعوا مقترحات عاجلة... لكن الحقيقة جاءت صارخة: **ما من وسيلة فعالة لإزاحة سحب الرماد من السماء لاسيما بدخول براكين جديدة على خط النار في حالة الثوران.** قالها أحدهم، ثم صمت الجميع، كما لو أن الأرض أعلنت إفلاسها أمام غضبها.

ومع ذلك، لم يكن الصمت هو الأفظع. بل كان الموقف الجماعي للدول المتقدمة، التي أعلنت عجزها عن المساعدة، متذرعةً بالكساد الاقتصادي الناتج عن تفشي فيروس زوسا. لم تعلن خطط دعم، ولم تفتح مخازنها، بل انكفأت على ذاتها، وأغلقت حدودها. لترفع شعارًا واحدًا لا يُكتب في المحاضر، لكنه يُقرأ في العيون: **اللهم أسألك نفسي.**

وهكذا، بدأ الاحتياطي الغذائي يُخزَّن خلف الأبواب المحكمة في الدول الغنية، فيما كانت دول العالم الثالث تُترَك لتصارع الرماد، والبرد، والجوع، والجريمة التي تفشّت كطاعون في الشوارع. وسرعان ما تحولت مشاهد العنف إلى طقوس يومية، وامتلأت الشاشات بأخبار النهب والسطو والقتل من أجل رغيف خبز. وكانت تشيلي، التي لم تفق بعد من مصيبتها، الدولة الأكثر انهيارًا وتفككًا.

وفي ظلال هذه الأنانية البشرية، كان صوت الأرض وحده هو الأعلى، لا البرلمان، ولا المنظمات، ولا البيانات العاجلة. كان صوت القشرة الأرضية، وهي تخبر ساكنيها أنها قد ملتّهم. والسماء، كانت لا تزال رمادية.

*****

تشيلي.

سانتياغو.

جلس البروفيسور فيسينتي وبجواره أتا على هيئة كايا متسمرين أمام شاشة التلفاز يشاهدان الكوارث الإنسانية الحادثة حول العالم بسبب ثوران البركان

= هذا مرعب! ما الذي يجري على كوكب الأرض حضرة البروفيسور؟

= إنها بداية النهاية كما أخشى. إنّ البشر في طريقهم إلى الانقراض. مذ أعلنت دول العالم المتطور عجزها عن أي إجراء مضاد لما يحدث.

= ألا يمكنني المساعدة بشيء ...؟

= بأي طريقة؟ أخشى أن الأمور خرجت عن سيطرة البشر وباتت بحاجة لقوة أكبر منهم لحل هذه المعضلة.

التفتت إليه أتا بأمل.

= أنت محق. بحاجة لقوّة أكبر من البشر. ربما كان بإمكان أفراد كوكب باي المساعدة يا صديقي!

نظر إليها البروفيسور بذهول.

= ربما. ربما. قد تكون الحياة التي دبت في جسدك مقدرة من السماء كطريقة لنتواصل معهم كي يخرجونا من هذه الورطة الرهيبة.

صمت البروفيسور للحظات.

= لكن كيف ستتواصلين معهم؟

= كما تواصلت مع سولاس من قبل. بالتخاطر الذهني. أنا أعرف أنّ قائدهم يدعى العقل الأعظم. ربما تمكنت من التواصل معه ونقل الواقع إليه مع رجاء التدخل والمساعدة.

= أظنّ أننا لن نخسر شيئاً فهذه آخر رصاصة في مسدس البشرية وعلينا

استخدامها بحكمة وحذر. حاولي. فهذه الظواهر غير الطبيعية بحاجة لأشخاص غير طبيعيين لإنهائها فلا يفل الحديد إلا الحديد.

أطفأ البروفيسور التلفاز على الفور، في حين ركزت أتا أفكارها وحاولت في ذهنها أن تخاطب العقل الأعظم.

= قداسة العقل الأعظم. أنا أتا من كوكب الأرض أو هيكل أتاكاما كما تعرفني ربما. هل تفهمني؟

بعد لحظات وصلها الرد بإسبانية متقنة.

= أهلاً بك أتا. أفهمك جيداً. كيف يمكنني مساعدتك؟

= ربما سمعت قداستك من خلال سولاس بالكارثة الطبيعية التي تعصف بكوكب الأرض؟

= بالطبع.

= هل يمكنكم المساعدة بطريقة ما .؟!

= ولماذا لا يساعد البشر بعضهم البعض؟..

= لأن دول العالم المتطورة والقادرة على المساعدة رفضت نجدة الدول الأقل حظاً والتفتت لنفسها فحسب. لذا فالجوع والموت ينهشان في تلك الدول بلا رحمة. ناهيك عن إعلان الدول المتطورة عجزها عن تلافي عواقب الكوارث الطبيعية التي عصفت بالأرض.

= هذا مشين للغاية. يمكننا المساعدة بالطبع. لكنّ أنانية تلك الدول تفرض علينا إجراءات معينة حازمة قبل ذلك. فنحن نرفض مساعدة ذلك الصنف من الكائنات أينما كان فهو مخالف لعقيدتنا وقوانيننا .بل هو تهديد وجودي لنا أنفسنا في المستقبل مع تطور كوكب الأرض.

= إذن؟

صمت العقل الأعظم للحظات.

= سأرسل فريقاً مكوناً من **10** أفراد إلى كوكب الأرض ليلتقي بك وبعميلنا سولاس فلدينا كلام خاص معكما، وأيضاً علينا دراسة سلوك الدول بدقة

لاتخاذ قرارنا النهائي، فسولا لوحده عاجز عن جمع المعلومات الكافية. كما أنه منفي من قبلنا هناك لذا فتقاريره مثار شكوك على الدوام. والموضوع مصيري يقتضي الدقة والعدل في اتخاذ القرار. لذا سأرسل أكثر أفراد كوكبنا أمانةً وكفاءة لدراسة الوضع.

= سولاس منفي !! لماذا؟

= لقد أرسلناه عام **1977** م بمهمة إلى كوكب الأرض لكنه تخلّف بإرادته عن العودة مع بقية طاقم المهمة فعوقب بالنفي لقرن من الزمن على كوكب الأرض.

رنّ رقم واحد... تسعة... سبعة... سبعة. في دماغها كجرس كنيسة عتيق، كأنه تعويذةٌ قديمة خرجت من ظلام الوعي، أو همسةٌ سرّية نسجتها الريح في أذن الزمن.

توقفت أتا، تسمرت عيناها على الرقم الذي لمع في خيالها كنبض قلبٍ استيقظ للتو.

1977... عام ولادتها... وعام إشارة سولاس.

ومثل خيوط الضوء حين تخترق شقوق جدارٍ مظلم، تسرّبت إليها فكرة، لم تكن تحتمل أن تُفكر بها سابقًا...

بل لم تكن تجرؤ.

ماذا لو؟

ماذا لو لم يكن مجرد حليف؟

ولا مجرّد مراقب؟

ماذا لو كان سولاس ... هو والدها؟

اختنق نفسها، كأن الروح تثقل فجأة من فرط الرجاء.

أعاد عقلها ترتيب كل ذكرى: نظرته الأولى، رعشته حين اقتربت، صوته حين ناداها باسمها، ذلك الحنو المتلعثم الذي لا يُشبه حذر العلماء ولا برود

الغرباء.

كان يُخفي شيئًا...
شيئًا أكبر من الأسرار العلمية، أعمق من المهام السرية.
كان يُخفي حُبّ أبٍ، خائف من أن يُكشَف.

غمرها شعور هائل، كأن الأرض مالت قليلًا نحو صدرها، كأن العالم كلّه أحنَى هامته ليُبارك هذا الاحتمال.

أغمضت عينيها...
وامتلأت بها فكرة لمعت كأغنية قديمة:
لستُ وحدي. ثمة أحدٌ من دمي. من كوكبي. من قلبي.

وإن صحّ هذا الحدس، فلن تبقى حياتها كما كانت أبدًا...
لن يبقى شيء كما كان.
= وأين سألتقي بطاقمك قداستك؟
= أين أنت الآن؟..
= في مدينة سانتياغو عاصمة دولة تشيلي .
= انتظري قليلاً.

تأخر الرد لدقائق ثم قال العقل الأعظم.

= في منتصف ليل الغد. سيصل أفراد طاقمي إلى جزيرة القيامة في تشيلي. عليكِ لقاؤهم هنالك وسنخبر سولاس بالتواجد أيضاً. فتلك الجزيرة معزولة ومهجورة ليلاً مما يؤمن سرية تواجدنا ومهمتنا. هل يمكنك الوصول إليها في الوقت المناسب؟

= سأتدبر أمري. لا تقلق. أشكركم على تفهكم ومساعدتكم.

= كوكب الأرض مهم للغاية بالنسبة لنا والجنس البشري ثروة لا تعوض، فرغم المشاكل الجمّة المنتشرة لديه، هو ذو مزايا هائلة بنفس الوقت. نلقاكِ في منتصف ليل الغد.

= إلى اللقاء مع طاقم قداستك.

نظرت أتا إلى البروفيسور بابتسامة انتصار.

= لقد وافق العقل الأعظم على مساعدتنا لكن بعد دراسة سلوك دول العالم خاصة المتطورة منها لاتخاذ القرار المناسب، فهم بحسب قوله يرفضون مساعدة الصنف الانتهازي من الكائنات.

= تفكير حكيم إلى أبعد الحدود. هذا ما ينبغي فعله حقاً. فدول العالم المتطورة لا تستحق المساعدة. لقد تركت بلدي المنكوب تشيلي يقاتل بمفرده بعد الزلزال. كما أدارت ظهرها للعالم في أزمة البراكين الحالية ناهيك عن قرون من استغلالها لدول العالم الأخرى. إنّها الكارما يا أتا، أي فعل تقوم به سيرتدّ عليك من طبيعته خيراً أم شرّاً. فكما تدين تدان.

*****

تشيلي / جزيرة القيامة.

منتصف ليل الغد.

أدخلت أتا إحداثيات جزيرة القيامة التي استخرجها البروفيسور إلى سوارها، ويداها ترتجفان كأنما تحضنان مصير العالم. وقف فيسينتي إلى جانبها، عيناه تحملان مزيجًا مريبًا من القلق والفخر، كما لو أنه كان يسلّم ابنته لعاصفة مجهولة العواقب.

عانقته بصمتٍ عميق، ثم همست له بكلمة وداع ضاعت مع الريح، وضغطت الزرّ الأخضر، فانشطرت اللحظة إلى ما قبلها وما بعدها. وفي ومضة

خاطفة، تلاشى كل شيء.

حين فتحت عينيها، كانت تقف وحيدة على حافة الأرض...

جزيرة القيامة. جزيرة الفصح. أو بالأحرى، تلك الصفحة الممزقة من كتاب البشرية، البعيدة عن اليابسة في المحيط الهادئ كما لو كانت منفىً للآلهة أو مرآة نُسيت بين الغيوم.

الظلام كثيف. الرماد البركاني يحجب حتى أنين النجوم.

لكن التماثيل، تلك الوجوه الحجرية العملاقة - المواي - ظلت تحدّق بثبات نحو السماء، كما لو كانت تنتظر نبوءة تأخّرت، أو مركبة تأخرت ألف عام.

اقتربت أتا من أحد الوجوه، لمست جسده البارد، وحدّقت حيث تحدّق العينان...

إلى اللاشيء، إلى العلوّ، إلى حيث سأل فيرمي يومًا: أين **الجميع؟**

وفي منتصف الليل تمامًا، حدث ما لا يمكن تفسيره.

شقّ ضوء كاسح سحب الرماد، كأن يدًا إلهية ثلمت السماء.

مركبة فضائية هبطت بسكون مهيب على أرض الجزيرة. لم تُحدث صوتًا، بل أحدثت صمتًا.

انفتح بابها، وامتد منه سلّم معدني نزل عليه عشرة كائنات...

طوال القامة، مهيبون، أنقياء الوجوه، كأنهم من زمن لم يأتِ بعد.

توقفوا أمام أتا، يحدّقون فيها بدهشة طفولية ممزوجة بريبة صارمة.

أحدهم رفع جهازًا أزرق أطلق شعاعًا مسحها في لحظة، وظهرت نتائج سريعة على الشاشة.

ما قرأه الجهاز أربكهم. التفتوا إلى بعضهم، واندلع حوار غاضب بلغتهم الغريبة، لغة تشبه الحريق إذا نطق، والماء إذا تمتم.

قبل أن تنطق أتا بكلمة، تحرّكت ظلال خلف التماثيل...

وخرج سولاس.

كأن تماثيل المواي قد أنجبته للتو.

مشى إليهم بهدوء طفل مذنب، فانبرى له أحدهم بالكلام، بصوت عالٍ كأنما يجلده.

ظل سولاس صامتًا، عيناه إلى الأرض، كتفاه متراخيتان كأنهما يحملان وزر جريمة لا تغتفر.

ثم اقترب قائدهم من أتا، ونظر في عينيها نظرة لا تنتمي لهذا الكوكب.

تحدّث بالإسبانية، بصوت رخيم كأنما قادم من تحت البحر:

= أهلاً بك أتا. أنت تقريباً فرد منا. ونرحب بانضمامك إلينا.

= تقريباً!

نظر الفضائيون إلى سولاس بغضب.

= أجل فأنت تملكين جينات بشرية أيضاً إضافةً إلى جيناتك الفضائية.

فهمت أتا على الفور ما يرمي إليه الفضائي. إنّ سولاس هو والدها بالفعل كما توقّعت. لكن من هي والدتها البشرية يا ترى؟

تجنبت أتا الحديث في الموضوع أكثر من ذلك كي تجنب والدها مزيداً من الحرج والحزن وادعت عدم الاكتراث والفهم.

= يشرفني الانضمام إليكم.

= تبعاً لما أخبرنا به العقل الأعظم فعالمكم منقسم بين دول مقتدرة لكن أنانية واستغلالية ودول فقيرة محتاجة. والأولى ترفض مساعدة الثانية !

= تماماً. ولقد تخلّت الدول الأنانية التي تدعو نفسها بالمتطورة عن دول العالم الثالث في نكباتها عبر الزمن وليس الآن فحسب، كما أنها استغلت أراضيهم وثرواتهم لمصالحها الشخصية على نحو مخزٍ، وهي تحاول في هذه الأزمة الخروج سالمة لوحدها متجاهلة آهات الدول الأقل حظاً.

هزّ الفضائي رأسه.

= لقد وصلتنا تقارير كثيرة من عميلنا سولاس خلال عقود عن هذه الخصلة البشرية العجيبة. أنتم غريبون للغاية. كيف تعيشون في كوكب واحد ولا تتعاونون معاً على النجاة سوياً من الكوارث والأزمات ؟!. ألا تدركون أن مصيركم واحد ؟!. على كل حال سنحقق في الموضوع بأنفسنا. وإن صح كلامك فلنا حديث آخر مع هذه الدول. فقوانيننا حازمة وحاسمة بهذا الشأن ولا تهاون فيها إطلاقاً، إنّ فجراً جديداً ينتظر دول العالم الثالث وستنقلب الموازين قريباً ليرث الصالحون هذه الأرض العظيمة.

= يسعدني سماع ذلك أيها السادة. هذا قرار حكيم منكم.

= هذا قرار العقل الأعظم منبع الحكمة لدينا.

صمت للحظات ثم أردف.

= للأسف بسبب جيناتك البشرية فأنت ورغم كونك أول نتيجة لتزاوج حضارتنا بحضارة البشر، غير مؤهلة للعيش في كوكب باي بحسب قوانين. أما سولاس فلدينا كلام آخر معه.

رفعت أتا يدها لترد عليه فلفت نظر الفضائي السوار حول معصمها. وقال بدهشة.

= من أين حصلت على هذا السوار؟

أطرقت أتا رأسها بحرج دون أن تنطق فتدخل سولاس في الحديث.

= أنا منحتها إياه لحمايتها.

نظر إليهما الفضائيون نظرة غريبة ثم قال أحدهم.

= وهل تمكنت من استخدامه؟

ردت أتا بصوت مرتعش وهي على يقين بأنّ سولاس مقبل على مشكلة حقيقية مع العقل الأعظم.

= أجل. وبفضله تمكنت من الوصول إلى جزيرة القيامة في الموعد المناسب للقائكم.

نظر الفضائيون إلى بعضهم البعض ثم قال من يبدو أنه زعيمهم.

= سنرحل الآن إلى مهمتنا التي أتينا لأجلها. نتمنى أن تكون قيامة كوكب الأرض من الآلام من هنا من جزيرة القيامة. وسيقرر العقل الأعظم كيفية مساعدة كوكب الأرض بعدها. كما أنه سيقرر عقوبتك يا سولاس أيضاً. لقد اقترفت معصيةً لن تغتفر على ما أعتقد.

أدار الفضائيون العشرة ظهورهم وعادوا أدراجهم إلى المركبة بهدوء ثم صعدوا السلم الذي سُحب مرة أخرى وأغلقت البوابة وصعد الصحن الطائر مجدداً إلى السماء وغاب في سحب الرماد.

نظر سولاس إلى أتا بانكسار، فاقتربت منه واحتضنت ساقه وقبلتها.

= أشكرك أبي الحبيب على إنجابي إلى هذه الحياة أولاً ثم مساعدتك لي وحمايتي معرضاً مصيرك في كوكبك للخطر كتضحية عظيمة منك .

نظر إليها سولاس بدهشة من ذكائها. لقد ربطت الأمور ببعضها جيداً واستنتجت أنه والدها. اغرورقت عيناه بالدموع ومد يده ذات الأصابع الثلاثة وطبطب على ظهرها.

= ابنتي الحبيبة. هذا أقل ما يمكنني تقديمه لك.

رفعت أتا رأسها ونظرت في عينيه بفضول.

= ومن هي والدتي يا أبي ...؟

غرق سولاس في صمت مطول حزين ثم قال.

= سنتحدث لاحقاً بهذا الشأن صغيرتي. المهم الآن إنقاذ كوكب الأرض من الهلاك ومساعدة الدول الأقل حظاً للنجاة.

= أنت محق يا أبي. أحبك.

وشعر سولاس بنفسه يحلق من السعادة خارج حدود الزمن والكون سوياً.

*****

مجرة سيشبرينتال.

كوكب باي.

بعد أسبوعٍ مرهقٍ من التجوال بين عواصم الأرض، من حُطام تشيلي إلى ظلال تماثيل المواي، ومن برودة القطب الشمالي إلى طين الكونغو الجريح... عادت بعثة كوكب باي إلى موطنها محمّلة بما يكفي من الحقائق لإنهاء كل جدل.

هبطت السفينة فوق هضبة البلّور الأزرق وسط احتشاد الأثير، وخرج أفراد البعثة يحملون بين أذرعهم اسطوانات ذكية توثّق ما جمعوه من بيانات وأدلّة وذكريات البشر.

لم يُسمح لهم بالراحة. في الليلة ذاتها، استُدعي العقل الأعظم لعقد جلسة استثنائية مع المجلس الأعلى، ذلك المحفل الذي لا يُعقد إلا ثلاث مرات في كل دورة شمسية.

في قاعة تأخذ شكل سداسيّ بلوريّ، تتدلّى فيها شموس مصغّرة وتسبح الكلمات في الهواء لا على الألسنة، جلس الخمسة والعشرون حول منصة الفكر. وكلٌّ منهم كان قد عاش عشرات آلاف الأعوام من العلم والتأمل في مجرّات لم يسمع بها بشر.

وقف العقل الأعظم، بطوله المهيب وعينيه التي تشبهان ثقبين في الزمن، وقال بصوت لا يُسمع بل يُشعر:

= قبل الحديث عن التقرير لا بد من التنويه إلى خرق هائل قام به عميلنا سولاس في كوكب الأرض بمعاشرته أنثى بشرية وإنجاب كائن هجين بشري

فضائي منها يدعى هيكل أتاكاما أو أتا كما يلقبه البشر كسابقة هي الأولى من نوعها في الكون، إذ لم يسجل من قبل تزاوج نوعين مختلفين من الحيوات في الكون مع بعضهما. بل أكثر من ذلك فقد منحها سولاس سوارنا الخاص (المساعد الأعظم) الذي أقسم كل فرد منّا ألا يفرط به مهما كانت الأسباب. وبناءً على ذلك فالعقوبة التي صدرت بحق سولاس بسبب أفعاله الشنيعة وغير المدروسة هو:

((**النفي الأبدي إلى كوكب الأرض**))

هناك سيبقى إلى الأبد. أما ابنته أتا فسننظر في أمرها لاحقاً بعد انتهاء أزمة كوكب الأرض. هل من اعتراض لديكم على هذا الحكم.

أبدى الجميع موافقتهم على ذلك الحكم النهائي.

= بالعودة إلى الأزمة الأرضية فكما لاحظتم من التقرير أمامكم والذي أعده خيرة أفرادنا الموثوقين عن كوكب الأرض فالعالم هناك منقسم بين دول متطورة ومتمكنة مادياً واقتصادياً ودول متخلفة نسبياً وضعيفة اقتصادياً، والأولى تحجم عن مساعدة الثانية في أزماتها رغم أن قسماً هائلاً من ثرواتها يعود في الأصل لتلك الدول الفقيرة على نحو غريب وغير مفسر وبانتهازية تفجّر العقل. وبسبب الكارثة الزلزالية والبركانية المستجدة توسعت الهوّة أكثر بين هذه الدول وأصبح الجنس البشري مهدداً بالانقراض .

رغم السلبيات الكثيرة التي تشوب كوكب الأرض فإن الجنس البشري يتمتع بمزايا أخرى هامة عديدة تجعله فريداً من نوعه بين الحيوات الأخرى في هذا الكون كما نعلم جميعاً، لذا فعلينا مساعدته وتجنيبه الانقراض بإمكانياتنا المتطوّرة، لكن وبناءً على ما ورد في التقرير فإننا سنختص بمساعدتنا الدول الفقيرة فقط التي عانت في تاريخها الكثير من الويلات وحان الوقت أن تنقلب الموازين وتتربع عرش صدارة كوكب الأرض، فهي أولى بقيادته بإنسانيتها العظيمة. وستشمل مساعدتنا لهم:

- **إزالة سحب الرماد من سماء الأرض .**
- **تزويدها بالغذاء الفوري الكافي.**
- **تحسين اقتصادها بشكل هائل.**

۞ تزويدها بلقاح شافٍ من فيروس زوسا .

وسيتم ذلك بإرسال عدد هائل من الصحون الطائرة لكل دول العالم الثالث لتزوّد كل مدينة منها بما سبق.

هل هنالك من رأي آخر لطرحه ؟!

هز الجمع رؤوسهم نفياً.

= إذن انتهى الاجتماع ولنبدأ العمل على الفور.

*****

كوكب الأرض .

نهاية عام 2030 م.

رصدت أجهزة الكشف البشرية آلاف الصحون الطائرة تخترق سُحب الرماد التي خنقت السماء، وشرعت بابتلاعها كليًّا خلال دقائق. شُفطت الغيوم كما تُشفط الهموم من صدرٍ حزين، فانبثقت الشمس على نصف الكرة الأرضية، بينما بزغ القمر مكتملاً على النصف الآخر.

توزعت الصحون الطائرة فوق دول العالم الثالث: في قلب إفريقيا، وعلى سفوح جبال الأنديز، وفي أرخبيلات آسيا الجنوبية الشرقية. هناك، هبطت صناديق فولاذية بمظلات حريرية على كل مدينة، وكل قرية، وكل مركز منسيّ في أقصى الأرض.

ثم انبعثت من الصناديق رسالة صوتية، مترجمة إلى لغة كل بلد ولهجته:
◄ نحن شركاؤكم في الكون. لا يهم ان تعرفوا من أين أتينا أو كيف، ولا من نحن بالضبط ؟، لكننا جنس حي متطور للغاية يقطن في كوكب بعيد في الطرف الآخر من الكون .... نحن لا نشيخ ولا نكبر أبداً ولا نتكاثر أيضاً.

◄ لقد زرنا كوكبكم في مناسبات كثيرة من قبل لآلاف السنين و درسناه بالكامل و هو أمر يسير علينا نظراً لتطورنا العلمي... و قد قام برصدنا

بالفعل العديد من أفراد الجنس البشري... لكن أحداً لم يصدقهم... و نحن من جهتنا لم نكشف عن أنفسنا بشكل واضح جليّ لأسباب تتعلق بأمننا و سلامتنا... فما لاحظناه عن قسم كبير من البشر أنهم متوحشون للسلطة و السيطرة و المال و الخلود.. مما يجعلهم في الدرك الأسفل من سلم ارتقاء الجنس الحي في الكون. فهم أنانيون بشكل متطرف يفكرون بمصالحهم الشخصية فقط حتى على حساب جنسهم البشري نفسه. كما أنهم يقتلون إخوانهم البشر على نحو غريب غير مفسر. فكيف سنثق بهم ...؟

وهذا غريب ومخالف لأجدادكم القدماء من الفراعنة والبابليين وحضارة المايا وغيرهم الذين عاشوا في سلام وبلغوا درجات متقدمة من العلم مكنتهم من فهم الكون والسماء جيداً وبناء الأهرامات المعجزة بدقة في مناطقهم بمساعدتنا نحن. ولقد أضعتم الآن إرثهم الحضاري هذا وفرطتم به حتى وصلتم بأفعالكم الدنيئة إلى درجة أقرب إلى كائنات حية أدنى منكم، منها إلى ما ينبغي أن تكونوا عليه من مخلوقات روحانية راقية .

◄لقد وصلتنا رسالة استغاثة من مصدر سريّ في كوكبكم و تبعا لدستورنا الذي نتبعه فواجبنا إنقاذ أي جنس حي في الكون من الانقراض لأن هذه غاية نبيلة من جهة و للأرض بشكل خاص أهمية فريدة بالنسبة لنا من جهة أخرى ...

◄ سنساعدكم في أزمتكم الراهنة لتنجوا و ترتقوا أكثر على سلم النضوج الفكري... بأن نساعد الدول الفقيرة منكم فقط و التي تدعى دول العالم الثالث على النهوض على قدميها مجددا من آثار الكارثة و ليصبح بذلك السيد عبداً و العبد سيداً كي يفهم الطرفان معا الدرس...

◄ أرسلنا لكم نوعين من الصناديق الأول مليء بالذهب و الألماس الذي سيحلق بميزانية الدول الفقيرة عالياً و يجعلها تتصدّر اقتصاد الكوكب ، الذهب الذي غزا المستعمرون أمريكا الجنوبية ذات يوم و فتكوا بسكانها الأصليين من أجله و الألماس الذي أشعل الانتهازيون الحروب الأهلية في إفريقيا للحصول عليه من قبل... علماً أن هذه المعادن ثمينة فقط بالنسبة للجنس البشري فهنالك في الكون كواكب بأكملها ذهبية و أخرى ماسية عدا عن أمطار الذهب و الألماس في كواكب أخرى و هذه إشارة من الله إلى وهمية السلطة و الثروة التي تتصارعون عليها و أن في هذا الكون من موارد ما يكفي للجميع في حال حسنت الأخلاق و ساعد الجميع بعضهم

البعض ..

والنوع الآخر من الصناديق يحوي بذوراً نباتية معدلة وراثياً خاصة من جميع الأجناس النباتية على كوكب الأرض يكتمل نموها تماما بعد ساعات فقط من زراعتها ويمكن عندها حصادها وبالتالي حل مشكلة المجاعات الطارئة. إضافةً إلى لقاح شافٍ من فيروس زوسا. ويبقى لدول العالم الثالث الخيار بمساعدة بقية دول العالم أو لا. وخيارها سيكون فاتح عهد جديد للبشرية للارتقاء نحو الأعلى

◄ سنتصل بكم مباشرة و نتعاون معكم أكثر و نساعدكم كما نتعاون حالياً مع أجناس حية أخرى في الكون... و ذلك فقط بعد أن ترتقوا و تساعدوا بعضكم البعض لنأمن جانبكم و نحافظ على سلامتنا و أسرارنا...

◄ لقد جمعنا الله بكم بمشيئته اليوم لننقذكم و قد يجمعنا معكم أكثر و بشكل أعمق في مناسبات قادمة إذا شاء... السلام عليكم يا دول العالم الثالث و نخص بالذكر قارة إفريقيا العظيمة التي عانت الويلات عبر الزمن و كان ثوران بركان نيراجونجو في قلبها تعبيراً عن غضبها و ثورتها على الواقع المرّ الأليم التي تعيشه، لتقلب الموازين و تتحرر من عبوديتها للدول الاستغلالية الانتهازية التي استعبدتها لقرون و نهبت ثرواتها، فكما يقول المثل الإفريقي العريق:

((مهما كان الليل طويلاً ، سينبثق الفجر ذات يوم))

ومن بين سحب الرماد البركاني التي أظلمت الأرض، انبثق اليوم فجر دول العالم الثالث ليبدأ العهد الجديد للبشرية. قلوبنا كانت وستبقى معكم أيها الصالحون. فلا تدعوا المال والقوّة تغير معدنكم الأخلاقي النفيس كما فعلت بغيركم.

خلال الأشهر اللاحقة.

كان الحديث الشاغل لكوكب الأرض، من أقصاه إلى أقصاه، ليس حربًا ولا وباءً، بل أمرًا أعظم وألطف في آنٍ معًا: الإثبات القاطع لوجود حيوات أخرى في الكون. لم تعد نظريات الفيزياء وحدها تبحث عن حياة خارجية، بل ها هي بعض الدول قد تلقّت بالفعل مساعدات فعلية من تلك الكائنات، ورسائل رمزية محيّرة، حملت توقيع كيان اسمه كوكب باي.

الرسالة لم تكن بلغة مفهومة، بل بشعور. كأنما الكون أراد أن يقول أخيرًا: **أنا معكم إن كنتم مع بعضكم.**

وبينما انشغل العالم بتفكيك أبعاد هذه الرسالة، كان التحوّل الأعظم قد بدأ في دول العالم الثالث: المشكلة الغذائية العالمية، تلك المعضلة الأزلية، حُلّت بالكامل، بفضل البذور المعدّلة وراثياً، والتي زوّدتهم بها تلك الحضارات الغامضة. وما إن بدأت الأرض تنبت خبزاً بدل الحنظل، حتى انقلب ميزان القوة برمّته.

فدول كانت تُعرف بالفقر، صارت تختزن في بنوكها مخزونًا هائلًا من الذهب والألماس، هبط من السماء إلى صحراء أفريقيا، أدغال آسيا، وجبال الأنديز. لم يكن مجرد ثراء، بل زلزال اقتصادي حطم تصنيف القوى القديم، وأعاد ترتيب الكواكب السياسية. صار **العالم الثالث** هو الأول. والعبد أمسى سيداً.

لكن المفاجأة لم تكن في هذا الانقلاب، بل بالنبل الذي أبدته الأمم المنتصرة. فبرغم امتلاكها فرصة الانتقام، لم تختر ذلك الطريق. ترفّعت عن أحقادها، وسمت إلى علوّ نادر. أرسلت السفن محمّلة بالحبوب إلى أوروبا، والشحنات الغذائية الأخرى إلى أمريكا الشمالية، كي لا يهلك شعبٌ جائع، مهما كان تاريخه.

قالت أفريقيا بلغة أوبنتو:

(نحن بشر وأنتم بشر ... وإن نسيتكم عقولنا، فلن تنساكم أرواحنا)

فأصبحت الفأس تتذكر بندم هائل أفعالها تجاه الشجرة التي كانت يوماً مقبضها، أما الشجرة التي قُطعت، فنسيت المجازر بحقها، ونمت من جديد.

وفي الأفق، أشرقت شموسٌ جديدة.

في **الولايات المتحدة الأمريكية**، جلس **البروفيسور شينغاس** في مقعده الجلدي البني، يحتسي قهوته الصباحية كما لو كانت نخبًا خفيًا لتوازن العالم. كان أكثر الناس سعادة، وهو يرى كفتي الميزان تتساويان بعدلٍ لطالما آمن بإمكانيته، وإن سخر منه الجميع.

أما في **إيرلندا الشمالية**، جلست **السيدة لوتس** أمام شاشة التلفاز، تتابع الأخبار بفضول طاغ. كانت تعلم، دون أن تحتاج لدليل، أن سولاس وراء هذا كله، وإن جهلت بعدُ الدور الذي لعبه هيكل أتاكاما، ذلك الكائن الذي لقّب أتا، والمشابه لجنين بشري بحجم كف.

في **تشيلي**، وسط حقول النبيذ المتعافية من الزلزال الأخير، كان **البروفيسور فيسينتي** يحتسي كأسًا أحمر من النبيذ، وإلى جانبه كايا أو أتا، الكائن الذي لم يعد سرًا. رفع كلاهما نخبًا صامتًا نحو الغروب، نخبًا للعدالة الإلهية، للشفاء، ولنهضة وطن من تحت الركام.

في شوارع **نيروبي**، غسلت دموع الفقراء أرصفة اعتادوا النوم فوقها جائعين.

وفي **كينشاسا**، عزفت فرق موسيقية مرتجلة على براميل مهملة احتفالًا بيومٍ لم يتخيله أحد.

وفي **هارفارد**، توقّف أستاذ التاريخ عن الشرح حين رأى خبزًا مرسَلًا من **لاباز** إلى **شيكاغو**، عليه طابع مكتوب بلغة إنسية قديمة:

(هل تذكّرتمونا الآن ؟)

وهنالك في **ميانمار**، جلس **الراهب دينبا**، بثيابه الزعفرانية المائلة للغروب، يتأمل القمر الطالع فوق القارة. بدا القمر كخاتم فضي فوق يدٍ صفراء عملاقة، تعلن زواج الأرض من العدالة السماوية أخيرًا.

لم تكن تلك نهاية الحكاية.

بل بدايتها.

فالثراء أيضًا امتحان. وأصعب من الفقر في بعض الأحيان.

وقد تعافت الأرض من المرض، لكن هل ستتعافى من خطيئتها الأصلية؟

وقف العالم على مفترق طريق.

إما أن يكون هذا الفجر حقيقيًا.

أو أن يعود الليل بأقنعةٍ جديدة، وسكاكين أكثر نعومة.

*****

الفصل التاسع

تشيلي.

قمة جبل لولايلاكو.

كانون الثاني. 2031 م...

جلس سولاس على قمة جبل لولايلاكو، إحدى أعلى قمم تشيلي، حيث الهواء نقيٌّ كأنه لم يُدنّس منذ الأزل، والسهول تمتد كأحلام لم تُكتب بعد، والغروب يرسم على الأفق لوحةً تشبه الصلاة.

كان وحده، يراقب اتساع الأرض تحت قدميه، وقد بدا له هذا الكوكب بأسره كطفلٍ يتعافى من حمى طويلة.

لكنّه لم يكن سعيدًا تمامًا...

ففي قلبه ظلٌّ لا يزول.

= كوكب باي...

قالها هامسًا، كمن يلفظ اسم حبيب قديم.

حنينه لم يكن مجرد عاطفة، بل نزف داخلي.

كان يتذكّر صخره الكهرمانيّ، سماءه المقعّرة، أصوات أصدقائه حين كانوا يرقصون في مهرجان الضوء الكبير، رائحة الأشجار العائمة، وصوت نيزاو حين بلّغه القرار الأبدي:

(لقد خرقت القوانين العليا... أنت منفيّ إلى الأبد)

قرار العقل الأعظم لم يُستأنف، ولم يُناقش.

كان قاطعًا كحدّ السيف، وعادلًا بطريقة قاسية.

لكن... في أعماقه، كان يعلم أنه هذا النفي لم يكن بلا نتيجة.

فهو من غيّر مجرى تاريخ الأرض، وأدخل يده في نهر الزمان البشري، وأنقذ من يستحقون، وعاقب من ظلموا.

ومع ذلك، كان جزءٌ منه هادئًا... مطمئنًا.

فهو لم يأتِ إلى الأرض عبثًا.

لقد جاء ليولد من جديد، في هيئة أب.

ابنته أتا، تلك الكائنة المذهلة، كانت في عينيه أغلى من كوكب بأكمله.

كانت كأنها المرآة التي تعكس الجزء الأنقى منه، كأنها تعويض الكون عن كل ما فُقد.

لقد آمن طوال حياته أن متعة استخدام العقل لا تضاهيها متعة.

أما الآن، فقد تغيّر شيء ما في أعماقه...

متعة العائلة... متعة أن تُحِبّ وتُحَبّ... تفوق العقل ذاته.

العقل وسيلة... لكن الحب غاية.

وإن كان عقلي وسيلتي لرفع الظلم عن العالم، فليكن...

لكن من أجلها أولًا.

*****

هنالك في العاصمة سانتياغو .

بينما كان البروفيسور فيسينتي وأتا جالسين في قريته على شرفة حجرية تطل على **وادي مايبو**.

قالت له الحقيقة كاملة.

عن أصولها... عن والدها الحقيقي... عن الاسم الذي لا يزال همسًا: **سولاس**.

تفاجأ، لكنه لم يُصدم.

كان يعلم أن لأتا سرًّا كبيرًا... فقط لم يتوقع أن يكون بهذا الحجم.

أمسك يدها وقال برقة العالم الذي تكسّرت فيه الحواجز:

= حان الوقت أخيراً أن يلتقي بكِ كأبٍ لا كوصيّ .

أومأت أتا، وقد تلألأ في عينيها ضوء غريب، يشبه الانفعال الأول عند سماع كلمة " أبي " من شفاه طفل صغير.

وقفت في منتصف غرفة الجلوس.

أغمضت عينيها.

وركزت كامل طاقتها...كل ذبذبة، كل ومضة ضوء داخلها، كل ذاكرة مختزنة من كوكب باي. كل خيط من الحمض النووي الغريب الذي يربطها به...

= أبي سولاس... إن كنت تسمعني... فقد حان وقت أن نتحدث... كعائلة.

وفي لحظة متجاوزة للزمن.

ارتعش جسد سولاس وهو فوق جبل لولايلاكو.

رفع رأسه نحو السماء، لكنها لم تكن السماء التي يعرفها.

لقد كان الصوت داخل قلبه.

ابتسم.

كان صوتها... ابنته.

نداءٌ من نسلِ روحه، يشبه العودة من المنفى.

ويشبه البداية.

فربما... لم يكن النفي لعنة كما ظن.

وربما... كانت الأرض منذ البداية وطنًا له.

لكنّه فقط لم يكن قد اكتشف قلبه بعد.

= أبي الحبيب سولاس. هل تسمعني ...؟

= أجل حبيبتي.

= البروفيسور فيسينتي يودّ لقاءك والتعرف عليك وشكرك. فهل هنالك ما يمنع ذلك؟

= أبداً. فلم تعد هنالك من أسرار بعد الآن.

= تفضّل إذاً إلى منزله. نحن بانتظارك.

= سأوافيكم خلال دقائق.

أدخل سولاس إحداثيات منزل البروفيسور إلى السوار وضغط الزر الأخضر فاختفى جسده من قمة جبل لولايلاكو وظهر فجأة أمام منزل البروفيسور في سانتياغو، تقدم بهدوء من الباب وطرقه. خلال لحظات فتحت كايا الباب فنظر إليها سولاس بدهشة.

= هذه أنا أتا، لا تقلق يا أبي. شخصيتي الآن هي كايا الخادمة المطيعة للبروفيسور فيسينتي .

تفاجأ سولاس من الشبه الغريب بين كايا ومحبوبته الراحلة إيزابيلا والدة أتا. إن الجينات تحرّك دوافع أتا بقوة على ما يبدو. اقترب منها واحتضنها .

= أنت تبدين شبيهةً بأمك إيزابيلا على نحو غريب للغاية .

= إيزابيلا.. !

= أجل. سيدة لطيفة من مدينة أريكا، هنا في تشيلي. تعرفت عليها عام **1977** وأغرمت بها منذ النظرة الأولى.

= وأين هي أمي الآن؟ أرغب بشدة أن ألتقيها.

التفت إليها سولاس والدموع في عينيه.

= للأسف توفيت أمك إيزابيلا مع عائلتها بسبب زلزال تشيلي ودفنت في مقبرة بلدة أريكا.

وقفت أتا مصدومة من الجملة الأخيرة وسالت الدموع على خديها كساقية، فاحتضنها سولاس وهو يربت على ظهرها.

= أعرف أن ذلك قاسٍ عليكِ، لكنها دورة الحياة المكتوبة للبشر على الأرض التي لا مهرب منها. وعليكِ تقبلها بطريقة ما. فلا يمكننا تغيير القدر الإلهي.

دخلا إلى غرفة الجلوس حيث كان البروفيسور فيسينتي يقف بفضول منتظراً سولاس. فتقدم منه وحياه.

= أهلاً بصديقي الشهم النبيل.

= أهلا حضرة البروفيسور. يسعدني لقاؤك أخيراً. وشكراً لك على اهتمامك بابنتي في الظروف الصعبة التي مرت عليها.

نظر فيسينتي إلى أتا ولاحظ دموعها السخية على وجنتيها.

= ماذا هناك يا أتا؟ لماذا تبكين؟..

= لقد أخبرني والدي للتو بأن أمي إيزابيلا توفيت بسبب زلزال تشيلي. وبذلك لن تسنح الفرصة لي للتعرف عليها وتقبيل رأسها.

احتضنها فيسينتي بحنان.

= مواساتي الحارة لك صديقتي. هذه هي الحياة قاسية في كثير من الأحيان. خطفت مني زوجتي الغالية ماريا منذ عام بسبب فيروس زوسا مخلفةً جرحاً عميقاً في قلبي، ثم حذفت من الصورة حولي مساعدي وصديقي القريب إلى قلبي أنطونيو بسبب الزلزال بجرحٍ آخر مؤلم. لكن اطمئني فالزمن كفيل بشفاء هذه الجروح وتجاوز الحزن العميق الذي يخلفه فراق الأحبة. صدقيني.

التفت إلى سولاس.

= بمناسبة هذا الحديث. أتمنى أن حكم العقل الأعظم عليك كان مخففاً بسبب خرقك للقوانين على كوكبك وإقامتك لعلاقة مع كائن بشري؟

= للأسف لا. لقد كان حكماً صارماً للغاية بنفيي إلى كوكب الأرض للأبد

التفتت إليه أتا بدهشة وحزن. فأردف سولاس مبتسماً.

= لكنني أفضل البقاء مع ابنتي الحبيبة هنا على أن أعود إلى كوكبي الأم. فلا يمكنني فراقها بعد الآن أبداً، بل إني غير مصدق حتى اللحظة أنها حقيقة في حياتي**!. إن السجن مع من تحب حرية سيد فيسينتي.**

احتضنته أتا بحب الكون برمته.

= أنت أب مذهل. أعتذر عن كل المشاكل التي سببتها لك.

= لا بأس. أنا أنجبتك إلى الحياة وأنا من عليه تحمل العواقب بصبر وحزم .

صمت للحظات ثم أردف.

= هل تودين زيارة قبر والدتك و وضع بعض الورود عليه...؟

= بلا أدنى شك. ذلك عرض رائع أبي.

نظرت أتا إلى البروفيسور مستفهمةً منه عن رأيه.

= بالطبع يجب عليك فعل ذلك. بالمناسبة ليس عليكِ استئذاني بعد اليوم عن أي قرار. فها هو والدك بجوارك. شخص حكيم لأبعد الحدود ويحبك بشكل يفوق الخيال والوصف. أنتم عائلة واحدة بعد اليوم وعليكم الاهتمام ببعضكما. منزلي بالطبع هو منزلكما. وأنا جاهز لأي خدمة أو مشورة. لكنكما أحرار بالذهاب إلى أي مكان في أي وقت وفعل ما تجدانه صائباً في حياتكما .

= أشكرك على تفهمك بروفيسور. لقد أصبحت الأرض وطني ووطن أتا إلى الأبد. وهنالك مغامرات كثيرة تنتظرنا.

التفتت أتا إلى البروفيسور واحتضنته.

= صديقي العزيز. وأول شخص علّمني كيف أتحدث وعرّفني من أكون. أنت أبي في الذكريات مذ تلامست أناملنا تحت أنقاض مركز الأبحاث وأصبحت أعرف كل ما تعرفه. أشكرك على كل شيء. وأستأذن منك مرة أخيرة للانضمام إلى حياة والدي الجديدة في التجوال حول العالم.

= بالطبع. ما يسعدكِ يسعدني يا صديقتي. وستسرين للغاية بتلك الرحلات حول العالم، ولكن.

= لكن ماذا؟

= عديني ألا تنسيني أبداً وأن تزوريني بين الحين والآخر. فهذا أمر يسير عليكِ بالطبع بفضل السوار، أنتما أصدقاء فوق العادة. لقد أنقذتما بلدي وكوكبي من الهلاك الحتمي. وأريد أن نبقى أصدقاء وعلى تواصل.

= أقسم لك أن أفعل ذلك. ولن أنساك طالما حييت.

اقتربا من البروفيسور فيسينتي واحتضناه كما يُحتضن الزمن عند الوداع الأخير. لم يقل شيئًا، لكن ابتسامته المرتجفة والدموع التي لمعت في عينيه قالت كل شيء. أدخل سولاس وأتا إحداثيات بلدة أريكا في سواريهما، ثم ضغطا الزر الأخضر. ومضةٌ من الضوء... وتلاشى الجسدان في الهواء.

ظهرا مجددًا وسط صحراء أتاكاما، تلك الأرض التي تعرف قلب أتا كما تعرف الرياح وجه الرمال. اتخذ كلاهما هيئة ماكسيمليان وكايا، فالسوار لا ينسى من مرّوا عبره، ولا يغفل ملامح الحنين.

توجها نحو المقبرة بهدوء من يحمل سرًا ثقيلًا. في الطريق، ابتاعا باقة من الورود الحمراء من محلٍّ صغير تقف أمامه فتاة عمياء تُرتّل شيئًا أشبه بالصلاة..

حين وصلا، قادتهما أقدامهما كما يُقاد الحنين، مباشرةً إلى قبر إيزابيلا. وقفت أتا أمام الضريح، ساكنة كأنما الزمن توقف ليسمع، ثم أجهشت بالبكاء... دموعها انسكبت كما لو كانت تغسل الذاكرة.

انحنت، وضعت الورود على القبر، وهمست:

= ألقاكِ في العالم الآخر والدتي العزيزة. سأنتظر تلك اللحظة بشوق طيلة حياتي ولن أنساكِ أبداً.

وضع سولاس يده على كتفها ونظر إليها بابتسامة أمل تعلن القيامة من الحزن والألم وبداية السير على طريق شفاء الجروح.

= إن روح والدتك النقية وطيبتها ومساعدتها للآخرين هي من غيرتني من داخلي للأبد فجعلتني أشعر بآلام الآخرين وأرغب بمساعدتهم بمتعة لا تضاهيها أي متعة وسعادة لا توصف بأي كلام أو لغة. ولها الفضل بشكل أو بآخر بما حدث في العالم من تغيرات حادة. فقد تعلمت الفريسة الكتابة أخيراً وشرعت بكتابة العهد الجديد لكوكب الأرض كما هي الأمور على أرض الواقع لا كما يروج لها الصياد، في حين ابتلع الثقب الأسود للأنانية الصياد الانتهازي. والآن وقد تحققت غايتي الأهم بإرخاء العدل على كوكب الأرض بأكمله التي حلمت بها لعقود، هل أنت مستعدة يا ابنتي لمغامراتنا القادمة حول العالم لحل الألغاز المستعصية وكشف كل ما هو مستور من حقائق؟

= بالطبع أبي. لنقطع دروب العالم ونلتقي بإخوتنا في الخلق ونحل القضايا المستعصية.

= إذاً اربطي الأحزمة وهيا بنا نسافر إلى إيرلندا الشمالية لأعرفك على سيدة أخرى جمعنا القدر في حادثة مأساوية ليولد منها صداقة حقيقية كان لها تأثير كبير عليّ في سنواتي القليلة على سطح الأرض.

*****

الفصل العاشر

إيرلندا الشمالية / بلفاست.

منزل لوتس.

شباط. عام 2031 م.

بينما كان النهار يلفظ أنفاسه الأخيرة، وينسحب الضوء عن الأرض كما ينسحب الحلم عن جفنٍ متعب، تناهى إلى مسامع لوتس صوت رنين جرس الباب، رنينٌ خافت، لكنه بدا كأنه نُقر على وترٍ دفينٍ في أعماق قلبها.

خطت بخطى وئيدة نحو الباب، كأنها تُحاور صمت البيت العتيق أو تتحسس تنبؤاته. يدها امتدت إلى المقبض بترددٍ خفيف، ليس خوفًا، بل شعورٌ غامض بأن شيئا مختلفا عن الروتين يكمن خلف الابواب المغلقة.

وحين فتحت الباب، انسكب نور الغروب على العتبة، كأنه يبارك اللقاء أو يُشهده. أمامها وقف شاب وفتاة، يبتسمان بهدوء عميق، كابتسامة من يعرف أكثر مما يقول، أو من يعود من سفرٍ بعيد دون أن يتحدث عن الطرق التي سلكها.

كانا أنيقين، غريبين في ملامحهما، مألوفين في حضورهما، وبدت عيناهما كما لو كانتا تحملان دهورًا من الأسرار. تسمرت لوتس في مكانها، لم تعرف لماذا ارتجف قلبها، ولماذا شعرت، دون وعي انها تعرفهما من قبل.

= أهلاً بكما. كيف يمكنني مساعدتكما ؟!

أشرقت ملامح سولاس بابتسامة حانية، هادئة كموجة صيفية.

= كيف حال صديقتي التي حققت بعض أحلامها بالسير على كوكب المريخ ورؤية الديناصورات؟

انفرجت شفتا لوتس عن ابتسامة واسعة وقد عرفته على الفور.

= أهلاً بصديقي الفضائي اللطيف. اعذرني لم أعرفك، فقد اعتدت خلال العام المنصرم على التواصل معك ضمن الواقع الافتراضي، وهذه أول مرّة نلتقي فيها شخصياً. يبدو أنك لست وحيداً كما كنت أظن؟

= أعرفك بابنتي أتا.

= ابنتك! لكن شعب باي لا يتكاثر كما أخبرتني!

= إنها قصة طويلة سأرويها لك في الداخل، هل سنكمل حديثنا على الباب ؟!

= اعذراني فقد شلتني المفاجأة والدهشة. تفضلا بالطبع. إنه منزلكما.

دخل ثلاثتهم إلى غرفة المعيشة بهدوء. كانت الشمس قد اختبأت خلف الأفق، وتركت في الأجواء بقايا دفئها، والستائر تتمايل مع نسمات المساء كأنها تُرحّب بهم على طريقتها. جلست لوتس أولًا على كنبة من المخمل الأزرق، بعينين تتقلبان بين الفضول والتوجس، بينما اختار سولاس وأتا مقعديهما قبالتها، كأنما اختير المكان بعناية ليحتضن هذا اللقاء المميز.

تبادلوا النظرات الصامتة للحظات، ثم بدأ سولاس الحديث، صوته هادئ لكنه عميق، كأن كل كلمة منه تخرج من قاع ذاكرة بعيدة، محملةً برماد التجارب ونور المعرفة. راح يحكي... يحكي عن أتا الصغيرة التي نشأت بين صمت الرمال وأنين النيازك، عن الأسرار التي خبأتها النجوم في عينيها، وعن الرحلة التي ابتدأت من الألم ولم تنتهِ بالانتصار، بل تحوّلت إلى اكتشاف الذات في أكثر تجلياتها غموضًا.

كانت لوتس تنصت بشغف الطفلة، لا تقاطع، لكن عينيها كانتا تتكلمان؛ تتسعان حينًا بدهشة، وتغرقان في الدمع حينًا آخر من فرط التماهي. وبين الفينة والأخرى، كانت أتا تُقاطع سولاس بابتسامة خفيفة أو تصحيح بسيط، تروي تفاصيل صغيرة لم يذكرها، لحظات إنسانية ناعمة... كأنها تُطرّز الحكاية بخيط عاطفةٍ لا يراها سواها.

امتدّ الحديث ساعة أو أكثر، لكنها بدت للوتس كأنها حلمٌ استمرّ عمرًا. وحين أنهى سولاس حديثه، صمت الجميع للحظة. لحظة صافية، بدت فيها الغرفة كأنها معلقة خارج الزمن، لا يُسمع فيها سوى دقات قلب لوتس، التي خفّت ثم تسارعت.

رفعت رأسها، وعيناها دامعتان لكنهما تلمعان ببريق غريب... ثم ابتسمت .. ابتسمت بسعادة عميقة، سعادة من أدركت أخيرًا أن العالم أدفأ وأكبر مما

كانت تظن.

= هنيئاً لكما إذاً. أنتما عائلة يلفها الحب والحنان وهذا هو الكنز الأعظم في الحياة. أما بخصوص نفيك فلا تكترث أو تحزن، لديك نحن عائلتك الجديدة، ولديك أيضاً نظارات الواقع الافتراضي المتطورة خاصتك والتي تمكنك من زيارة كوكبك متى شئت كما رأيت بنفسي بأم العين.

دوت صرخة من فم أتا يملؤها الحماس:

= كلام سليم لا غبار عليه يا أبي. أنت سيدة لطيفة وحكيمة للغاية.

أومأ سولاس برضا مؤكداً موافقته:

= وهو ما ستكون عليه الأمور، وباعتباري نفيت إلى الأبد من كوكبي الأم باي، فأنا الآن حرّ ولا توجد أي التزامات تربطني بشعب باي بعد قرارهم الجائر بحقي، كما أراه، لذا يمكنني الآن أن أبوح لكم في قادم الأيام بالأسرار المذهلة التي توصل شعب باي إليها عن كوكب الأرض، لاسيما أنّ الفضائيين باتوا حقيقة مطلقة أخيراً.

= ولماذا ننتظر إلى الغد. أنا أتحرق شوقاً لمعرفة هذه الأسرار سيد سولاس منذ التقيت بك أول مرة، وها نحن ذا ثلاثتنا هنا لا يشغلنا شيء ولا يزعجنا أحد، وأزمات الأرض انتهت بأفضل سيناريو ممكن، لذا كلنا آذان صاغية لأسرارك الغامضة. ألا تشاطرينني الرأي يا أتا؟

= وهل هنالك عاقل في الكون لا يرغب بمعرفة ذلك، تبدو أسراراً مذهلة. ؟!

= إنها كذلك بالفعل. لنقضي إذاً سهرة ممتعة متخمة بالأسرار، لكن قبل البدء طمئنيني عن حالك سيدة لوتس. هل تمكنت من تجاوز أزماتك كلها ...؟

= كانت أيام النشاط البركاني متعبة بحق، فقد انخفضت درجات الحرارة في بلادي بقوة بحكم قربها من القطب الشمالي. لكن الأزمة انتهت على خير، وأنا بغاية السعادة الآن لإرساء العدل بين دول العالم كافة وبدء تعاون جديد بين البشر وشعب باي. كما يقال، وراء كل غيمة شعاع نور خلفها. أما بشأن حادث السير الأليم فقد تصالحت مع قدري ورضيت بإرادة السماء. كما أنني أزور زوجي وابني باستمرار بتقنيات الواقع الافتراضي، هديتك التي لا تقدر بثمن سيد سولاس. لذا الأمور بشكل عامة جيدة ومستقرة.

= هذا يسعدني للغاية. فلنبدأ إذاً بأسرار كوكب الأرض التي يجهلها البشر والتي ستذهلكما بلا أدنى شك. وسنبدأ بالطبع من أقدس رمز في الكون (الدائرة) فهي الشكل الأكثر غموضاً على كوكب باي وعلى كوكب الأرض بدوره.

= ولماذا هي كذلك؟

= سأوضح لكما ذلك مستعيناً **بسواري المساعد الأعظم** كي يسقط على الحائط أمامكما بعض الصور التوضيحية كي تصلكما الأفكار بأفضل صورة ممكنة. **هالي** هلّا عرضت لنا صورة **لدوائر المحاصيل** على الحائط ثم صورة لكل موضوع نتحدث عنه تباعاً.

أصدر السوار ضوءاً أزرق ثم ظهرت على الحائط صورة كبيرة لرسم دائري هندسي في حقل زراعي على ما يبدو.

= هل تعرفان ما الذي يظهر على الحائط أمامكما ...؟

هزت لوتس وآتا رأسيهما بالنفي وقالت أتا.

= لا أعتقد. لكنها صورة لدوائر على ما يبدو !

= بالضبط وهي تدعى دوائر المحاصيل.

= اسم يوحي بالغموض والأسرار !

= بالفعل سيدة لوتس... دوائر المحاصيل هي عبارة عن رسوم هندسية دائرية ضخمة، متقنة وغامضة تظهر بين ليلةٍ و ضحاها في الحقول الزراعية في مختلف قارات العالم.

= ومن يرسمها؟

= هذا هو السؤال المحير بالنسبة للبشر، وما من جواب وافٍ عليه في جعبتهم. لكن تم ربطها بنظريات مختلفة وبالطبع كان للفضائيين حصة الأسد فيها كعادة كل شيء غامض. وهذا هو الواقع في الحقيقة، فنحن من يقوم برسم هذه الدوائر بين الفينة والأخرى لمعرفة ردود فعل البشر على وجودنا، هل هي إيجابية مرحبة أم سلبية معادية

= ولماذا تأخذ أشكالاً هندسية دائرية بالتحديد. لماذا لا تتنوع بأشكالها؟

= بسبب قداسة الدائرة وغموضها. فالحقيقة تقول أنّ الدائرة تتجسد في كل شيء من حولنا في هذا الكون كما سنرى بأنفسنا بعد قليل.

= لكن لماذا الدائرة شكل هندسي غامض ومقدس دوناً عن بقية الأشكال الهندسية يا أبي؟

صفق سولاس بيديه بهدوء.

= بالضبط أتا. هذا هو السؤال. والجواب عليه ببساطة لأنّ للدائرة على خلاف الأشكال الهندسية الأخرى كالمربع والمثلث والمستطيل وشبه المنحرف والمعيّن وغيرها. بلا بداية وبلا نهاية. فلا رؤوس لها نبدأ رحلتنا منها ولا رؤوس ننتهي إليها. بمعنى أن الدائرة هي تجسيد لفكرة الإله الأزلي الأبدي (بلا بداية وبلا نهاية) ولفكرة دورة الحياة الأبدية أيضاً كما جسدتها مختلف الديانات والحضارات القديمة.

= الدائرة رمز يجسد الله. فكرة غريبة ومناسبة للغاية. !

= تماماً سيدة لوتس. لذا نجد في تاريخكم أن **هرمس الهرامسة** الذي يشاع أنه **النبي إدريس** يصف الإله بشكل فلسفي عميق بالقول:

(الله هو دائرة مركزها في كل مكان ومحيطها ليس في أي مكان)

= مقولة فلسفية عميقة للغاية.

= بلى هي كذلك. ليس ذلك فحسب بل نجد الدائرة ذات قداسة هامة عند مختلف الأديان الأخرى.

= من قبيل ماذا ؟!

= مثلاً في اللغة السنسكريتية القديمة **للهندوسية والبوذية** يرمز للدائرة **بالماندالا**، وهي تعتبر بالنسبة لهم تصميماً هندسياً يجسد الكون والآلهة في عوالم سماوية مختلفة. كما نجد هذا الشكل الهندسي الساحر في دائرة الين واليانغ في **الديانة التاوية** لدى حضارات شرق آسيا التي تعني الاتحاد

بين السماء والأرض أو الخير والشر أو النور والظلام أو الليل والنهار....



= وماذا عن الأديان السماوية ؟!

= لا فرق. للدائرة ذات القداسة والأهمية. فنجد مثلاً علاقة بين الدائرة وقوس **قزح** الذي يمثل دائرة غير مكتملة تصل بين الأرض والسماء، ويمثل عرش الرب في مشاهد القيامة في كل من العهدين القديم والجديد. كذلك تلعب الدائرة دوراً مهماً عند المسلمين من خلال الطواف حول الكعبة أثناء الحج. ولا ننسَ بأنّ نبي الإسلام محمد أتاه الوحي في **غار حراء** ذي الشكل الكروي، كما هو حال **مغارة الناصري** يسوع في بيت لحم حيث أبصر النور إلى الحياة، وحال المغارة التي قام فيها من الموت لاحقاً أيضاً. كلها تشبه الرحم الذي يحتضن التغيير.

= معلومات مذهلة !

= هذه هي البداية فحسب سيدة لوتس فالقادم أكثر غرابة بكثير... ننتقل إلى الصورة التالية...

هالي هلا عرضت علينا صورة للرمز باي الرياضي.

= رقم باي π مجدداً !

= تماماً الرقم **ط** أو **باي** المقدس بالنسبة لشعبنا والذي أطلقنا اسمه على كوكبنا. هل تعرفين قيمته يا أتا؟

= أظن أنها كانت **3.14** تبعاً لذاكرة البروفيسور فيسينتي.

= أحسنت. لكن في الحقيقة هذا جواب تقريبي، فالعدد ط أو باي π الذي اكتشفه في كوكبكم عالم الفيزياء **لاري شو**، وهو المصطلح المستخدم لوصف النسبة بين محيط الدائرة وقطرها، يساوي تقريباً **3.14** لكنه في الحقيقة رقم سحري بامتياز فهو بلا نهاية بدوره كحال الدائرة، وقد تمكن العالم الياباني **هيتاشي** باستخدام حاسوب متطور من تحديد حوالي **1.24** تريليون رقم من العدد π، محطماً جميع الأرقام القياسية السابقة ولا تزال هنالك بقية لسلسلته التي لا تنتهي على ما يبدو. ومنذ عام **1988** يحتفل كوكب الأرض بيوم باي في **14** آذار وهو للصدفة يوم ميلاد العالم **ألبرت أينشتاين**، وقد اعتمد هذا التاريخ ببساطة لأنه يشير إلى أول أرقام العدد باي أي **3** ثم **1** ثم **4**، ومن المعتاد في هذا اليوم أن يقوم الناس بطبخ فطيرة دائرية الشكل، وغالبا ما تكون مزينة بالرمز الرياضي π من باب تشابه لفظ باي مع لفظ كلمة الفطيرة باللغة الإنجليزية.

= رقم غامض متخم بالأسرار على ما يبدو !!

= صدقت سيدة لوتس ، و تأكيداً لكلامك أصغيا جيداً إلى هذه الحقائق الغريبة للغاية عن هذا الرقم...

= تفضل أبي كلنا آذان صاغية.

= رمز باي شبيه إلى حد بعيد بالمائدة π كما تلاحظان وهذا يقودنا إلى مائدة العشاء الأخير ليسوع المسيح التي تشير ضمنياً إلى الاحتفال مع تلاميذه بقهره للموت وذلك بتنبؤه بقيامته بعد صلبه أي الاحتفال بالخلود كونه يحمل جوهر الله الذي لا يموت في جسده الأرضي أي اللانهاية كما هو حال الدائرة ورقم باي تماماً !

تمتمت لوتس بإعجاب:

= ربط خلاق خراج الصندوق !

= ليس ذلك فحسب بل إن يسوع المسيح الذي يجسد الأحد **1** عند المسيحيين

ولد تماماً بعد **4** أيام إلهية من نزول آدم إلى الأرض وقبل **3** أيام إلهية من قيام الساعة، وهذا يعود بنا إلى رقم باي مجدداً **3.14** ! لذا لا عجب أن يلقب يسوع في الديانة المسيحية بالحمامة. فهو بجناحين (**3** & **4**) .

اتسعت عينا لوتس وذهل عقلها، كمن يرى الستار يُرفع عن سرٍ كونيّ.

= أنت لا تنفك تدهشني صديقي سولاس! صحيح أنني يهودية الدين لكنها معلومات تفجر العقل حرفياً.

= على رسلك فالحقائق المذهلة لا تزال تنتظركما بعد قليل... تمعنا في الصورة التالية...

هالي، هلا عرضت علينا صورة آثار ستونهنج.

= هذه **آثار ستونهنج** في إنجلترا وهي معلم تذكاري من عصور ما قبل التاريخ وبالتحديد حوالي **3000-2000** قبل الميلاد في **سهل سالزبوري**، ويمثل حلقة دائرية من صخور عملاقة ويتصدر المشهد نصب حجري يشبه رقم باي π تماماً. فهل هذه مصادفة باجتماع الدائرة مع شكل الرقم باي ؟!

عقبت أتا بدهشة.

= القدماء كانوا على دراية برقم باي قبل قرون من اكتشافه ؟!

= بالطبع. وفي الحقيقة نحن من ساعدناهم على إقامة هذا النصب كتعاون بين حضارة الأرض وحضارة كوكب باي. وبسببنا اهتم الإغريق والفراعنة والبابليون وغيرهم من حضارات العالم القديم للغاية بالدائرة وبالعدد باي بسبب الكم الهائل من الأسرار المحيطة بهما. فهما يتواجدان في كل شيء من حولنا بدءاً من الذرة وانتهاءً بالكون برمته.

= وكيف ذلك سيد سولاس ؟!

= لإيضاح ذلك علينا أن ننتقل إلى الصورة التالية في حديثنا ؟؟

هالي هلا عرضت علينا صورة للكرة الكونية.

= هذه هي الكرة الكونية... و بحسب الرسم رباعي الأبعاد للكون الذي أنجزته حضارتنا فإن الكون يتوسع ضمن حيز كروي الشكل ، بل إن القرآن كتاب الله عند المسلمين ذكر ضمنياً أنّ الكون كروي الشكل في الآية التالية:

(يا معشر الجنّ و الإنس إن استطعتم أن تنفذوا من

أقطار السموات و الأرض فانفذوا)

وكما نعلم ثلاثتنا فالقطر مصطلح مقترن بالشكل الدائري والكروي، فكما أن الأرض كروية الشكل، فالكون هو كذلك بدوره.

= آية خطيرة مع تفسير خارج الصندوق مجدداً**!**

رفع سولاس يده.

= بل هنالك ما هو أغرب من ذلك سيدة لوتس. **هالي** اعرض لنا لوحة سلفاتور مندي.

ظهرت على الجدار لوحة لشخص يحمل بيده كرة زجاجية شفافة.

= لقد أشار الفنان الغامض ليوناردو **دافنشي** المعروف بأسراره في لوحاته بدوره إلى قدسية الشكل الدائري للكون وأجرامه في لوحته الشهيرة (سلفاتور **مندي**) أو مخلّص العالم والتي تمثل شخص يسوع المسيح وهو يحمل بيده الكرة الكونية كما تشاهدان في الصورة أمامكما. بل إنّ الكون ككل مع محتوياته من أجرام سماوية من نجوم وكواكب وأقمار وكويكبات وثقوب سوداء وبيضاء وممرات دودية كلها محكومة بالشكل الدائري المقدس أيضاً. بما فيها بالطبع الكرة الأرضية. بل إنها جميعاً تدور في مدارات دائرية. فهل صممها الله كذلك عن عبث **؟!**

= بالطبع لا. هذه إشارة لا غبار عليها إلى قداسة وسحر هذا الشكل الهندسي الغامض.

= كذلك الأمر فإنّ أهم عضوين في الجسد البشري هما كرويا الشكل، بدءاً من العين التي نتواصل من خلالها مع المحيط وانتهاءً بالكرة المخية التي نحلل بها هذا التواصل والتي تقبع على عرشها ضمن صندوق عظمي كروي

الشكل بدوره وهو الجمجمة.

= وهنالك كريات الدم الحمراء والبيضاء والصفيحات الدموية أيضاً.

= بالضبط ، ليس ذلك فحسب بل إنّ الدائرة تحكم كامل الجسد كمقطع عرضي من أحشاء و عظام و عضلات و أعصاب و غيرها...

هالي صورة لبيت عبادة من فضلك.

= كما تريان في الصورة، القبب الكروية تظلل بيوت العبادة (الدير) في مختلف الأديان السماوية والأرضية. بل إن البيت بنفسه يدعى (دار) لأنه صمم بادئ ذي بدء بشكل دائري قبل أن تتغير التصاميم لاحقاً، ولا تزال بعض شعوب الأرض تعتمد التصميم الدائري حتى يومنا هذا كالإسكيمو مثلاً وخيم الهنود الحمر.

= بيت العبادة دير، والبيت دار. لفتة ظريفة !

= ولدينا أيضاً خواتم الزواج. الشيء الذي سيربط روحين وجسدين ببعضهما إلى الأبد هي قطع دائرية الشكل تشير إلى الأبدية كما سبق وأشرنا من قبل. كذلك الحال فأغلب الفواكه والخضروات والحبوب والبقوليات والكرات المستخدمة في مختلف أنواع الرياضة مرتبطة بشكل وثيق بالشكل الدائري الساحر. وهذه إشارة من الإله إلى قداستها وإشارة من الإنسان إلى استشعاره بهذه القداسة. أليس ذلك صحيحاً؟

= بلا أدنى شكّ ، رغم أنها فكرة واضحة إلا أنها لا تلفت انتباهنا في حياتنا اليومية!

= بالضبط أتا، وأي عملية متتالية بشكل حلقة مفرغة تدعى دائرة أو تدوير، كحلقة التوزان البيئي بين الكائنات الحية، وحلقة تدوير المخلفات البيئية وحلقة حياة النجوم من سديم إلى سديم أو الإنسان من تراب إلى تراب وهكذا. بل إنكم البشر إن أردتم وصف الحرب تقولون دارت رحاها، أو تحيّن الفرصة تقولون جاء دوري، وفي المثل الشعبي تصفون الحياة بالقول : (الدنيا دوّارة) أي الزمن يدور بين الناس وتقولون أيضاً تدوير المركبة وبالعامية تستخدمون كلمة دوّر بمعنى بحث وغيرها. وبالمحصلة الدائرة كما ناقشنا بالصور والأدلة شكل هندسي مقدس يتغلغل في كافة تفاصيل حياتنا اليومية.

= معلومات مترابطة تخطف الأنفاس !

= بالفعل ! ..

= و كي نختم حديثنا عن هذا الشكل الساحر و الغامض لا بد من الإشارة إلى أنّ أكثر الظواهر الطبيعية غموضاً على هذا الكوكب مرتبطة بالشكل الكروي أو الدائري على نحوٍ غريب للغاية كحال دوائر الجنيات في **ناميبيا** و أجران سهول **لاوس** في آسيا و حفرة الجحيم في **تركمانستان** و دوائر المحاصيل التي تحدثنا عنها في بداية كلامنا و الدائرة الغامضة في غابات هويا باكيو في **رومانيا** و الدوائر الحجرية في **السنغال** و **غامبيا** و أضواء مارفا الشبحية في **تكساس** و صخور موراكي في **نيوزيلاندا** و عين الصحراء في **موريتانيا** و ظاهرة دوران الحيوانات حول العالم التي شاعت العام الفائت قبيل النشاطات الزلزالية و غيرها كثير .. والمشترك بينها جميعاً هو الشكل الدائري وعجز العلماء عن تفسير تلك الظواهر. وفي الحقيقة نقف كفضائيين خلف كثير من هذه الظواهر الدائرية الغامضة.

تمتمت أتا بإعجاب:

= غريب و غامض!

هزت لوتس رأسها موافقة.

= تماماً. لا عجب أن تكون الدائرة مقدسة بالنسبة لشعبكم.

= وكخلاصة الدائرة بالفعل شكل سحري غامض ومقدس صُمم الكون برمته على أساسه بما فيه الأجرام السيارة فيه. وحتى دماغ الإنسان الذي يتفاعل مع هذا الكون هو كروي بحد ذاته. فالدائرة شكل بلا بداية وبلا نهاية، تماماً كالإله الذي صمم هذا الكون. ولا غرابة أن تقترن أغلب الظواهر الطبيعية الغامضة بهذا الشكل الهندسي الساحر ! لذلك لا عجب أن يشار إلى الأنبياء والقديسين في اللوحات الفنية، مع هالة دائرية مضيئة حول رؤوسهم كإشارة إلى القداسة. وبعد كل ما سبق وشرحناه، نجد ذلك أمراً مفسراً ومبرراً بالفعل. فالدائرة بحد ذاتها شكل هندسي مقدس يحمل في طياته أسرار الإله وخفايا الكون الأكبر والكون الأصغر. بل إننا في حياتنا اليومية كما تعرفان، إذا أردنا الإشارة إلى شيء ما على أنه هام نقوم برسم دائرة حوله لأننا باللاوعي نستشعر سحر الدائرة في الكون من حولنا !

= هل انتهينا ؟!!

= بل بدأنا للتو، كانت الدائرة هي المقبلات وننتقل الآن إلى الطبق الرئيسي من الأسرار والذي يبدأ من **النسبة فاي** أو نسبة الإله المقدسة الذهبية وهي نسبة رياضية ...

لم يُتمّ سولاس جملته الأخيرة، إذ شقّ سكون غرفة الجلوس مشهد لا يُصدّق، أقرب إلى كابوس يتسلل من رحم الخيال.

فجأة، وبدون أدنى إنذار، ظهر كائنان غريبان من العدم، كأن الفضاء نفسه قد تفجّر ولفظهما إلى هذا الركن الهادئ من الأرض. كانا جامدين للغاية، بملامح باردة كجليد لا يعرف الرحمة، يحمل أحدهما جهازًا لا يشبه شيئًا رآه البشر من قبل.

في ومضة برق، وجّه أحدهما ذلك الجهاز نحو كايا، ثم أطلق شعاعًا خافتًا استهدف جبهتها مباشرة.

شهقت لوتس، وصرخ سولاس، ولكن الوقت لم يسعف أحدًا.

تلوّت كايا للحظة، ثم انكمشت ملامحها بسرعة خاطفة، كأن هويتها قد أُفرغت فجأة من جسدها، لتعود إلى هيئة أتا الطفولية.

لحظة واحدة فقط ... ثم سقطت جثّة هامدة على الأرض، ساكنة كسكون الفضاء نفسه.

سكن الزمان.

اهتزّت الأرض تحت أقدامهم دون أن تتحرك.

صرخت لوتس بحرقة، وتجمد الدم في عروقها.

أما سولاس، فقد انهار على ركبتيه، يحتضن ابنته الصغيرة بذراعين مرتجفتين، والدموع تنساب من عينيه لأول مرة في حياته.

كان شعب كوكب باي قد تعلّم أن يكبت كل ما يمتّ للعاطفة بصلة، أن يُقصي الحب والحزن والخوف من معادلاته اليومية.

لكن الآن...

في هذه اللحظة التي انكسر فيها القلب أمام البرود الميكانيكي للعدالة الكونية، وُلد إنسان جديد من بين رماد الفضائي القديم سولاس.

بكاؤه لم يكن على جسد أتا فقط، بل على ذاته السابقة، على سنوات قضاها في عبادة المنطق ونكران الشعور.

لقد فهم الآن.

العقل الأعظم لم يعاقبه بالسجن أو النفي، بل بأشدّ ما يمكن أن يفعله نظام بارد شعورياً: أن ينزع منه حبّه، أن يسلبه ثمرة تمرّده، أن يُذكّره بأن الكائن الهجين بين الإنسان والفضائي، ذاك الاحتمال الممنوع، قد كُسِر قبل أن ينبت له جناح.

اختفى الكائنان الغريبان كما ظهرا من العدم، في طرفة عين، تاركين خلفهما جسدًا راقدًا، وأبًا مكلومًا، ومنزلاً صامتاً لم يعد دافئاً كما كان.

الجزء الخامس

(لعنة الفودو)



الفصل الأول

ميانمار / باغان.

شباط 2031.

كان انفجار بركان الكونغو أشبه بصرخة كونية مزّقت حجاب الصمت، صرخة من كوكبٍ ضاق بكائناته، فأطلق آهةً مدوّية، اهتزّ لها جلد الأرض وارتجف فيها الهواء. لم يكن انفجارًا جيولوجيًا فحسب، بل نبوءةً اشتعلت بالحمم، عتابًا ناريًا وجّهه الكوكب لأبنائه الذين خانوه.

وفي اللحظة التي تجمّدت فيها القلوب أمام مشهد الغضب الخام، جاء تدخّل فضائيي كوكب باي، لا كمنقذين، بل كمرآة للوعي الأعلى... لم يحملوا أسلحة ولا شعارات، بل حملوا شعورًا لم تألفه الأرض: الرحمة الخالصة.

وما إن بُثّت رسالتهم عبر الموجات الأرضية حتى انكسرت أنظمة، وتداعى مشروع **الاتحاد الفدرالي البوذي** كقصيدة بُنيت على خوف، فانهارت حروفها عند أول نسمة وعي، وعاد الجميع إلى رشدهم، وخفت الحقد والضغينة في النفوس.

لقد تغير كل شيء بطريقة غريبة لا يمكن التنبؤ بها ... كما وعد ميدوسيز سبيروزار بالضبط.

وكأنّ عينًا غير مرئية فتحت على جبين البشرية، فرأت أخيرًا... لا ما يُفرّقهم، بل ما يجمعهم.

لم تعد الجنسيات حدودًا، ولا العقائد سجونًا. بل غدا البشر أشبه بكواكب صغيرة تدور معًا حول مركزٍ واحد: الروح.

وعلى الأرض، في المعابد، بين الركام، في المنازل الضيقة والملاجئ، علت الصلوات كأنّها موجاتٌ من نورٍ تصعد نحو السقف الإلهي، بلا ترجمة، بلا شروط، بلا وسطاء... فقط قلوب تنبض برجاء واحد: أن يُغفر للأرض، وتُمنح فرصةً أخرى.

أما سبيروزار، ذلك الجندي الذي نجا من طعنة غدر أرادت أن تصمت الراهب دينبا للأبد، فقد عاد من حافة الموت لا كقائد، بل كإنسان... كطائر جريح سقط على كتف الرحمة.

مرّت عليه ستة أشهر بين جدران إحدى معابد باغان، يرمّم الزمن جسده وصحته ببطء، حيث تولّى المعلم دينبا ورفاقه الرهبان رعايته، لا بدافع الواجب، بل بدافع المحبة.

كانوا له إخوة، وكان لهم شاهداً على ما تعنيه الرعاية النقية: أن يُلمس الجرح لا ليُغلق، بل ليتنفس.

وعندما تعافى جسده تمامًا، كما تعافت الأزمة البوذية الكبرى من جنونها، نهض سبيروزار من صمته الطويل، واقترب من دينبا، حافي القلب، بعينين يسكنهما ظلال الوداع، وقال بصوت يتهدج:

= معلم، إنني أستأذن منك العودة إلى وطني لملاقاة عائلتي فإني أفتقدها بشدة. وها هي الأمور هنا في ميانمار والمنطقة والعالم قد هدأت تماماً، فحل السلام بين الجميع بعد انكفاء الرؤوس الكبيرة وتراجعها عن مخططها العدواني، جرّاء غضب الأرض بالبراكين والزلازل وغضب السماء بالفضائيين.

= أتفهم ذلك حضرة الطبيب، لقد أتيتنا ضيفاً لطيفاً وغادرتنا راهباً مثالياً، أنا مدين لك بشكل مضاعف، ببصري عندما التقيتك أول مرة وبحياتي في آخر القصة، ولا أعرف كيف أرد لك هذين المعروفين. إنهما فوق قدرتي على الردّ مهما فعلت.

= لقد رددت جميلي بشكل مضاعف بدورك، بتعليمي مبادئ ديانتكم العظيمة أولاً، ثم بتهدئة النفوس في بلدك بمنتهى الشجاعة معرضاً حياتك للخطر في آخر الحكاية.

اغرورقت عينا الراهب دينبا بالدموع.

= بلغ تحياتي للجميع حضرة الطبيب.

ضمّ المعلم دينبا يديه أمام صدره، وانحنى بهدوء على الطريقة البوذية، تلك التحية التي لا تنحني للأجساد، بل للأرواح. كانت انحناءة سلام ووداع، لكنها حملت في طياتها أكثر من مجرد طقسٍ تقليدي... كانت اعترافًا ضمنيًا بالرحلة التي خاضها سبيروزار، وبالتحوّل الذي نضج في أعماقه.

ردّ سبيروزار التحية بذات الهيبة، وقد جمع كفيه المرتجفتين وانحنى بانكسارٍ

يشبه انحناءة من اكتشف للمرة الأولى أنه كان ضائعًا... وها هو الآن يودّع من قادوه نحو ذاته.

ثم التفت ببطء، ومضى بين صفوف الرهبان الذين وقفوا صامتين، كأشجار بشرية لا تهتزّ، لكنه شعر بالمحبة تتدفق من عيونهم كما تتدفق أشعة الشمس بين أوراق غابات باغان. صافحهم بعينيه، واحدًا تلو الآخر، كأنّه يحفر وجوههم في ذاكرته، يحفظها كتمائم ضدّ النسيان.

وفي عينيه... دموع عصية، ليست حزنًا على فراق فحسب، بل امتنانًا لما مضى. امتنانًا لتلك الليالي التي قضاها في صمت المعبد، حيث الكلمات لم تكن ضرورية، وحيث كل حجرٍ وكل نسمة هواء كانت تهمس له بشيءٍ عن نفسه.

لقد مرّت الأشهر الستة كما لو كانت عمرًا مستقلاً، زمنًا داخليًا تشكّل في رحم الألم والشفاء والتأمل. كم من مرة جلس تحت الأشجار الوارفة، يصغي إلى أنفاس الأرض، يحاول أن يترجم صمت الرهبان، أن يفهم كيف يُمكن للسكينة أن تكون أقوى من الصراخ، وللرحمة أن تهزم طعنة الخيانة.

لم تكن تجربة شفاء فقط ... بل كانت تجربة رهبة.

رهبة مما اكتشفه في داخله.

رهبة من هشاشته، ومن قوته التي لم يكن يعلم أنه يملكها.

رهبة من الصدق عندما يكون بلا أقنعة، ومن النقاء عندما لا يُستخدم كواجهة.

وحين تخطى عتبة المعبد الأخير، واستنشق الهواء الخارجي لأول مرة بعد أشهر من العزلة الروحية، شعر كأنّه يولد من جديد.

رفع نظره إلى السماء، حيث الغيوم تتحرك بهدوء يشبه صمت الرهبان، وتمتم في سره:

(لن أنسى... لن أنسى هذه الأرض التي سمعت أنيني دون أن أنطق، ولن أنسى هؤلاء الذين لمسوا جراحي دون أن يسألوا عن سببها.)

ثم تابع سيره نحو المجهول... لكنّه كان هذه المرة، يسير وفي داخله ضوءٌ لا يُرى، ونقطة سلامٍ لا تُقاس.

*****

حين صعد سبيروزار إلى سطح يخت ميلافا، شعر بشيء من الطمأنينة التي لا تمنحها اليابسة. كان الهواء مالحًا، لكنه حرّ، والسماء تبدو كما لم يرها منذ شهورٍ طويلة... أوسع، وأهدأ، وكأنها ترحب بعودته.

بخطوات مفعمة بالحنين، دخل إلى مقصورته الخاصة، التي لم يتغير فيها شيء، كأن الزمن داخل اليخت قد تجمّد بانتظاره. مرر أنامله على الجدران المعدنية الناعمة، على المقاعد الجلدية الداكنة، على النوافذ المستديرة التي كانت شاهدة على كثير من الأسفار والتأملات والقرارات المصيرية.

لكنه لم يتوقف طويلًا، بل اتجه مباشرةً إلى زرّه المفضل في لوحة الأوامر، الزر الذي لطالما اعتبره بوابته إلى الحوارات العميقة، وإلى الطمأنينة الذكية: **اسألني.**

ضغطه بحزم، وما هي إلا لحظات حتى ظهر مجسم القبطان باروناج ثلاثي الأبعاد، بقبعته الرمادية وغليونه الطريف، بوجهه المضيء بملامح نصف بشرية، نصف آلية، ونبرة صوته الرصينة التي لا تشوبها عاطفة مبالغ بها، لكنها تُشعرك بالاهتمام الصادق.

= أهلاً بك، حضرة الطبيب مورفين... لقد غبت طويلاً جداً... عسى أن يكون الغياب لهدف أسمى و أكبر؟

= كيف حالك يا قبطان ؟ يبدو أنني اشتقت لهذا الصوت، أكثر مما توقعت.

ابتسم وجه باروناج الرقمي بطريقة برمجية لكنها دافئة، وقال:

= أنا بخير ما دام نظامي يعمل بكفاءة، ولكنّك أنت من يهمني أمره...كنت خارج نطاق الاتصال **173** يومًا، **4** ساعات، و **28** دقيقة. لقد قلقت عليك للغاية.

جلس سبيروزار في مقعده، تنهد طويلًا، ثم بدأ يروي...

روى له عن الطعنة التي تلقاها، وكيف دخل المستشفى جسدًا ميتًا، بلا نبض ولا أمل. ثم عن المعجزة... عن تلك اللحظة التي التقى فيها مجددًا بالسيد ميدوسيز، تحدث عن حواره الأخير معه، عن الكلمات التي أوصاه بها، عن المعاني التي لم يكن قادرًا على فهمها إلا بعد أن عبر في نفق الموت وخرج منه بنور جديد.

سكت القبطان قليلًا، ثم أومأ برأسه وكأنه كان يعلم.

= البيانات لدي كانت تشير إلى احتمالية عالية أنك أصبت خلال محاولة اغتيال الراهب دينبا ... لكني لم أتوقع تدخّل السيد ميدوسيز ثانيةً.

= ولا أنا... لكن يبدو أن لحظة النهاية ليست دائمًا ختامًا... بل قد تكون بوابة.

ثم صمت قليلاً، قبل أن يتابع، وقد صار صوته أكثر جدية :

= أما عن كوارث الأرض... والانفجار الكبير لبركان الكونغو... ثم تدخّل شعب كوكب باي... فأنت على دراية به ، أليس كذلك ؟

بارورناج بهدوء عميق:

= بالطبع... تغير حاد و غير متوقع البتة في مسار الأحداث...

= وكأن أحدًا فوق الجميع قرر أن يقول لنا: كفى. بالمناسبة ما الأخبار حول العالم وما هي أصداء إثبات وجود المخلوقات الفضائية أخيراً ...؟

صمت القبطان لثوان وكأنه يعالج المعلومات التي لديه.

= الدهشة والذهول في كل مكان، لكن يمكن القول بأن جواً إيجابياً عارماً يسيطر على العقول والقلوب بعد تجربة الأرض المريرة وتدخل الفضائيين النبيل. لكن ما يهمك حقاً من بين كوكبة هذه الأخبار هو خبر بالتحديد منها غاية في الغرابة.

شعر سبيروزار بلسعة الفضول التي يعشقها.

= وما هو هذه الخبر الغريب؟

= لقد شاع خبر بين الناس بأن فضائياً من كوكب باي الذي ساعد الأرض أقام علاقة مع بشرية منذ حوالي خمسة عقود وأنجب منها كائناً هجيناً وجده البشر في صحراء أتاكاما في تشيلي عام **2003** كجنين ميت. ويقال إنه عاد للحياة عقب زلزال تشيلي المدمر والتقى بأبيه الفضائي الذي نفي من كوكب باي بسبب خرق قوانينهم.

= غريب بالفعل !

= أجل. لكن للأسف تم قتل ابنته الهجينة التي تدعى هيكل أتاكاما في إيرلندا الشمالية من قبل شعب باي كعقوبة لأبيها وإنهاء للجنس الهجين بين الكوكبين رغم أنها من تواسط للبشر عندهم كي يساعدوا كوكبكم.

= يا له من خبر مؤسف. ما ذنب ابنته كي تعاقب على شيء فعله أبوها قبل ولادتها ؟!

= تماماً. وارتأيت أنّ من المناسب إخبارك، إن كنت تحبذ فكرة مساعدتها على العودة إلى الحياة باستخدام قدرات الطبيب مورفين الجديدة كرد دين لمساعدتها للبشر. فالحادثة جرت بالأمس وجسدها لا يزال سليماً.

استغرق سبيروزار بالتفكير للحظات ثم قال:

= أرغب بكل تأكيد. يا لها من فكرة عظيمة. هكذا أرد شيئاً من الجميل كما قلت... لكن أين دفنت؟

= بجوار قبر أمها في صحراء أتاكاما في تشيلي.

= وكيف يمكنني التواصل مع أبيها الفضائي؟

= بالبحث والتقصي وجدت حلقة وصل بينهما وهي سيدة من إيرلندا الشمالية تدعى لوتس. تسبّب الفضائي بحادث سير لها ولعائلتها منذ عام أدى إلى وفاة زوجها وابنها. ثم تطورت الأحداث لاحقاً فكشف لها الفضائي ويدعى سولاس هويته طلباً للصفح والمغفرة، فأصبحا صديقين. طبعاً هذا الكلام كله كتبته لوتس على مدونتها الشخصية كي تدافع به عن نفسها بعد أن سخر منها الجميع بسبب ادعائها لرؤية فضائي والتواصل معه.

= وكيف يمكننا الاستفادة من ذلك؟

= الأنسب الآن أن أرسل لها رسالة مفصّلة توضح حقيقتك وقدراتك في إحياء الموتى ثم أخبرها أن تتواصل مع سولاس كي نرتب الأمور سوياً ونعيد هيكل أتاكاما إلى الحياة مجدداً.

= وهل ستصدقني؟

ضحك القبطان ضحكته العميقة التي اشتاق لها سبيروزار.

= بعد أن تأكدت بنفسها أن الفضائيين حقيقة لا لبس فيها. ستصدق أي شيء غريب آخر أيها الطبيب.

بادله سبيروزار الابتسام.

= محق كعادتك قبطان. أرسل لها الرسالة إذن على الفور.

تمّت العملية بنجاح، بل بيسرٍ يشبه الهمسات.

ذلك أن لوتس كانت قد سمعت من قبل، كما سمع العالم بأسره، عن قصة الطبيب مورفين؛ ذلك الرجل الذي عاد من الموت بنفسه ويعيد الآخرين منه أيضاً كتجسيد لمعجزات الله. كانت قصته قد هزّت أركان الكوكب، وتجاوزت حدود القارات، كأهداب أمل تتمسك بها الأرواح التي لا تزال تؤمن بالعجائب.

وبأمل حذر، تواصلت لوتس مع سولاس عبر نظارات الواقع الافتراضي عقب الرسالة التي وصلتها من القبطان باروناج. همست له بما جرى: لقد تدخل الطبيب مورفين... وهنالك فرصة. وما إن التقط سولاس خيط الأمل حتى اشتعل في عينيه ضوءٌ لم يُرَ منذ رحيل أتا. سرت رعشة خفيفة في أطرافه، ثم صمت طويل خاشع، وكأن روحه تتهيأ لاستقبال المعجزة.

ولم يطل الانتظار.

أخرج أتا من مرقدها الصغير، ذاك القبر الرمزي الذي لم يحتوِ سوى أشواق معلّقة ونبضٍ توقّف قبل أوانه. احتضنها كما يُحتَضن الضوء بعد ظلمة طويلة، وضمّها إلى صدره كأنما أراد أن يدفئ بها قلبه لا جسده. ثم، بضغطة واحدة على سواريهما، فعّل الانتقال اللحظي، واختار الإحداثيات التي أرسلها

له القبطان باروناج: **ميناء باغان،** حيث كان سبيروزار واقفًا في صمتٍ عميق، أشبه بتأملِ قديسٍ ينتظر اكتمال النبوءة.

وما هي إلا دقائق حتى وصلت أتا، مستلقية بين الحياة والموت داخل قمرة القيادة. وضع سبيروزار يده على جبينها وركز أفكاره في حدقتيها حتى انكمشت حدقتاه. لحظات وارتج جسدها الصغير مجددا كما فعل أول مرة عقب زلزال تشيلي وهي على بعد أمتار من الطاولة التي احتجز تحتها البروفيسور فيسنتي. توهج الجسد بهالة فوسفورية. ثم عاد النفس إلى صدرها، وارتجفت جفونها، ورفّت ابتسامة على شفتيها دون أن تفهم شيئًا بعد .

لقد عادت. وكأنها ولدت مرتين .لا تدري ما الذي حدث، لكنها شعرت، كما يشعر المولود الجديد، أن العالم غريب، وأن قلبها قد نبض لأول مرة.

أما سولاس، فقد خرّ ساجدًا بخشوع. لم يجد للدهشة لغة، ولا للامتنان وسيلة. لم يسجد لشعب باي، ولا للعلم، ولا للآلة... بل لله، كما لم يسجد من قبل. فقد رأى المعجزة بأمّ عينيه، وها هو الموت يُهزم أمامه، لا مرة، بل مرتين.

ثم قام، دامعًا، واقترب من سبيروزار، واحتضنه كما تُحتضن الحياة، وشكره بعينين لا تكفيهما الكلمات، قبل أن يغادر مع أتا عائداً إلى حيث ابتدأت الحكاية: تشيلي.

هناك، كان البروفيسور فيسنتي لا يزال ينتظر، دون أن يعلم.

لقد أخفى سولاس ما حدث عنه عمداً. لم يُرد أن يفطر قلبه الهادئ بموت أتا، ولا أن يحمّله كسرًا جديدًا في زمنٍ تتكاثر فيه الكسور.

لكنه الآن عائد... لا ليحزن البروفيسور، بل ليمنحه معجزة وفرحة لا يتسع لها الكون برمته.

أما سبيروزار فقد ضغط زر اسألني بلهفة وحماسة ليظهر القبطان باروناج مجدداً.

= طمئني، كيف سارت الأمور أيها الطبيب، هل نجح مسعاك؟

= أجل، وبأفضل شكل ممكن.

شرع سبيروزار يروي له ما جرى معه بالتفصيل. قصة نظارات الواقع الافتراضي والسوار الفضائي العجيبين. حتى مغادرة سولاس رفقة ابنته أتا ليتابعا حياتهما بسلام في مغامرات لا تنتهي بين دول العالم وقاراته.

= يا له من تطور مدهش لشعب باي. لقد تفوقوا على شعب كوليتوس بمسافات. مبارك لك انتصارك الجديد أيها الطبيب مورفين. إذن وجهتنا القادمة دولة **بنين؟**

= أجل، وبالتحديد مدينة **أويدا** بحسب تعليمات السيد ميدوسيز. سنلتقي هنالك كاهناً يدعى **لاموسا**.

= وكعادتك تريد الآن معلومات عن هذا البلد وعن ذلك الكاهن.

= بلا أدنى شك، زودني بالمعلومات الهامة عنهما في الحال.

= **جمهورية بنين** جغرافياً هي دولة تقع في غرب أفريقيا، تحدها من الغرب **توغو** ومن الشرق **نيجيريا** ومن الشمال **بوركينا فاسو والنيجر**، أما من الجنوب فتطل على **خليج بنين**، حيث يقيم غالبية السكان، عاصمتها هي **بورتو نوفو**، ووجهتنا مدينة **أويدا** هي مدينة قريبة من الساحل جنوباً، واللغة الرسمية في البلاد هي **الفرنسية**.

= هذا خبر جيد قبطان، فأنا أتقن الفرنسية.

= تماماً، أما تاريخياً فترتبط هذه البلاد بشكل وثيق بتجارة العبيد حتى زمن حديث نسبياً، ولا يزال الإتجار بالبشر يتم تحت مسميات مختلفة في بعض المناطق منها وإن كانت الثروات الجديدة التي منحهم إياها شعب باي ستغير ذلك بلا شكّ.

= والديانة الشائعة في البلاد ...؟

= هنالك ديانات متنوعة لكن أغربها **ديانة الفودو** وتعتبر هذه البلاد ومدينة أويدا بشكل خاص مهد لديانة الفودو هذه والتي انتشرت منها إلى باقي إفريقيا ثم عبر تجارة العبيد إلى أمريكا الشمالية والوسطى والجنوبية. وبنين هي الدولة الإفريقية الوحيدة التي تعتبر هذه الديانة رسمية فيها.

= أليست ديانة الفودو تلك التي يتم فيها غرز دبابيس في دمى من القش وإحراقها في النار بقصد إيذاء الأعداء قبطان؟

= كلا حضرة الطبيب، هذا من الأخطاء الشائعة حول ديانة الفودو.

قوس سبيروزار حاجبيه بدهشة.

= هلّا زودتني بمعلومات أكثر عن هذه الديانة.

= بالطبع، كلمة فودو مشتقة من كلمة **فودون** والتي تعني ببعض اللغات الإفريقية المحلية (الروح). وهي ديانة وثنية تعتبر من أقدم الديانات في العالم. بحسب عقيدة الفودو فالإله يتمثل بأرواح الأجداد الذين ماتوا، فهذه الأرواح بحسب اعتقادهم تملك القدرة على مساعدتهم إن فعلوا الصواب أو عقابهم في حال أخطأوا التصرف، أي كخلاصة يتمثل دين الفودو بدائرة مقدسة تربط الأحياء بأرواح الأموات. فأتباع الفودو يؤمنون بوجود آلاف الأرواح التي تجوب الأرض من حولهم ويطلق على هذه الأرواح اسم (لوا)، ويتم تقديم القرابين لهذه الأرواح في طقوس خاصة قد تختلف جزئياً من منطقة لأخرى لكن الثابت والمشترك بينها هو **الغناء والرقص وقرع الطبول**.

= بالفعل، لقد شاهدت بنفسي هذه الطقوس على التلفاز من قبل.

= تماماً، وكهنة الفودو قادرون على التواصل مع هذه الأرواح عبر استحضارها بطقوس معينة، والتحدث معها بشكل مباشر وفقاً لعقيدتهم. والحديث مع الأرواح من وجهة نظر أتباع الفودو ممارسة محفوفة بالمخاطر، فقد تكون بعض الأرواح شريرة، وبناءً على ذلك لا يسمح سوى لكهنة الفودو بالتواصل مع عالم الأرواح، حيث يتم اتخاذ إجراءات احتياطية ويحيطون أنفسهم بتمائم للحماية من أذى تلك الأرواح الشريرة.

= وهل هنالك رجال دين لديهم؟

= بالطبع، كما في معظم الديانات الأخرى يتبوأ رجال الدين من كهنة الفودو مكانة مرموقة حيث يطلق عليهم ألقاب خاصة مثل (الأب) و (الأم)، وهم يعتبرون في خدمة الإله الكبير في ديانة الفودو (بون **ديو**) حيث يعاقبون ويكافئون باسمه. ويتم تمثيل الآلهة المختلفة لهذه الديانة بأصنام متعددة الأشكال، وتوجد في قلب مدينة أويدا التي نقصدها حديقة تدعى: (**الغابة المقدسة**) والتي تحوي عشرات التماثيل لآلهة الفودو المتنوعة.

= ولماذا أخبرتني أن موضوع دمى القش غير صحيح؟

= في الواقع الأسباب الأكثر شيوعاً للتواصل مع الأرواح في ديانة الفودو هي بغية النجاح في الامتحانات والعمل أو للحصول على الحب أو الزواج، وأما التواصل مع تلك الأرواح لأغراض شريرة أو لإلحاق الضرر بالآخرين فهو أمر غير شائع الحدوث. فالفودو أحد الأديان التي أسيء فهمها وتم تشويهها جدا كما أخبرتك حضرة الطبيب وكما كونت بدورك صورة سابقة عنها، ورغم ربط ديانة الفودو بالسحر الأسود في الثقافة الشعبية والقصص الخيالية من شعوذة وأكل لحوم البشر والعديد من الفظائع الأخرى، فإن كل هذه إشاعات لا يمارسها أتباع الفودو في واقع الأمر.

= فهمت... عقيدة روحية غريبة بالفعل !

= بلى إنها كذلك.

= ومتى سنصل إلى وجهتنا؟

= أمامنا حوالي **14000** كم أي أننا سنصل بعد حوالي خمسة أيام تقريباً

= هل لديك أي معلومات عن الكاهن لاموسا ...؟

= إنه الكاهن الأكبر لعقيدة الفودو في مدينة أويدا ويقيم في منزل قريب من الغابة المقدسة في المدينة. ويمكنك الاستدلال عليه بسهولة فالجميع يعرفه بحكم مكانته.

= إذن لا شيء آخر ليقال، بل هنالك مغامرات قادمة لتعاش. نحو بنين، والقيادة لك قبطان.

*****

الفصل الثاني

بنّين

ميناء كوتونو.

في مساء اليوم الخامس، ومع تراجع وهج الشمس خلف أفق خليج غينيا، رسا يخت ميلافا أخيرًا في ميناء كوتونو، الميناء اليتيم في بنين، بوابتها البحرية الوحيدة نحو الخارج، ونقطة التقاء المحيط بأحلام الداخل.

كان الميناء ممتدًا على طول الساحل ككائن حي يلهث بهدوء، تنهض منه أصوات معدنية مكتومة، وقع سلاسل تُسحب، وصدى خطوات عمّال يتنقلون بين سفن تجارية وزوارق صيد محلية. في الهواء، امتزجت رائحة الملح الصدئ بزخم الحياة، بالزيت المنسكب، بصوت طيور البحر التي تدور في سماء المساء.

بدت حركة الميناء هادئة في ذلك الوقت من اليوم، كأنّ المدينة تستعد لخلع ثوبها العملي وترتدي حكايات الليل. الأضواء الخافتة تتراقص على سطح الماء، ترسم دوائر ذهبية تتشظى مع كل موجة صغيرة تُقبل من أعماق الأطلسي.

ميلافا، برشاقته اللافتة، بدا كأنه لا ينتمي لهذا المكان، وكأن حضوره قطعة من المستقبل تحطّ في زمن ما يزال نصفه مغموسًا في الطين والنار. ومع ذلك، لم يكن هناك نشاز. بل على العكس، كان رسوّه هادئًا، كما لو أن البحر نفسه فرش له ممشىً خاصًا، واستقبله بنداء خفي.

على الأرصفة، وقف بعض المارة يرمقون اليخت بفضول، منهم من ظنّه سفينةً دبلوماسية، ومنهم من اعتقاده حلماً عائمًا. أطفالٌ حفاة يركضون بين الحاويات، ينادون بعضهم بلغات ولهجات محلية، أعينهم تشع بالبريق حين يلمحون المراكب الغريبة.

أما سبيروزار، فكان واقفًا على سطح اليخت، ينظر إلى الميناء بعين رجل عاد من رحلة لا يفهمها أحد سواه. لم يكن يرى في كوتونو مجرّد نقطة عبور، بل مسرحًا جديدًا، فصلاً لم يُكتب بعد في رواية لم يعد يملك أن يتنبأ بخاتمتها.

دخل لوداع القبطان باروناج قبيل الرحيل.

= الحمد لله على سلامتك أيها الطبيب مورفين.

= شكراً لك قبطان. سأتوجه مباشرة للقاء الكاهن لاموسا فكم تبعد مدينة أويدا عنا. ؟

= حوالي **40** كم.

= مسافة قريبة. سأصل مبكراً كما آمل. ألقاك قريباً.

= كن حذراً.

ترجّل سبيروزار من اليخت بخطى واثقة ولكن مثقلة، كما لو أن البحر ترك شيئًا من ثقله في قلبه. لم يمضِ وقتٌ طويل حتى استقل أول سيارة أجرة اعترضت طريقه، وبلغة واضحة اتفق مع السائق على وجهته التالية: مدينة أويدا.

هزّ السائق رأسه موافقًا، وانطلقت السيارة تُمزق صمت الطرق الجبلية، بينما الشمس تُلقي آخر نظراتها على الأرض، كأنها تودّع يومًا مُتعَبًا لم يكن كالأيام.

وصلت السيارة بعد نحو نصف ساعة إلى وجهتها. غرق الأفق في ألوان الغسق، وتمدد الليل على أطراف المدينة كوشاحٍ ثقيل. وفور دخولهم إلى حدود أويدا، التفت السائق وسأله بفضول مهنيٍّ بسيط:

= إلى أين نتابع الآن، سيدي ؟

أجابه سبيروزار بعد لحظة صمت وتأمل:

= أقرب فندق من فضلك...

لقد أعاد حساباته بصمت، فالمكان الذي جاء من أجله يستوجب ضوء النهار لا عتمة الليل، والنفوس التي يُفترض أن يلتقيها تحتاج صفاءَ اللقاء لا إرباك اللحظة.

سرعان ما توقفت السيارة أمام فندق صغير متواضع، من ثلاثة طوابق، يحمل على واجهته اسمًا فرنسيًا لافتًا: **لو بالي ـــ القصر**.

ابتسم داخليًا لتناقض الاسم مع بساطة البناء، كما لو أن الزمن قرر أن يسكن القصور في المساحات الصغيرة لا الشاهقة.

دفع للسائق أجرته كما اتفقا، ثم خرج من السيارة بخطى أقل توترًا.

وقف لحظة يتأمل واجهة الفندق الخشبية الهادئة، كأنما يحاول أن يقرأ التاريخ المختبئ خلف الجدران. ثم، بهدوء مسالم، دفع بوابة الفندق ودخل.

القاعة صغيرة، عابقة برائحة الخشب المعتق والزهور الافريقية المجففة، يضيئها ضوء خافت أصفر يغمر المكان بطمأنينة دافئة.

في الزاوية، خلف مكتب الاستقبال، جلس رجل مسنّ ذو ملامح رصينة، يراقبه بابتسامة صامتة. اقترب منه سبيروزار بخطى ثابتة، ثم قال بالفرنسية، وبصوت يحمل بين نبراته أثر الرحلة الطويلة:

= مساء الخير، هل هنالك غرفة شاغرة لديكم ...؟

= مساء النور، أهلاً بك. سأرى في الحال.

أدار الموظف ظهره للحظات يبحث في لوحة المفاتيح ثم التفت إلى سبيروزار.

= أنت محظوظ سيدي فهنالك غرفة شاغرة وحيدة هي الغرفة **302**.

نزع الموظف مفتاح الغرفة **302** من مكانه ولفت نظر سبيروزار أن الغرفة **303** المجاورة شاغرة أيضاً، لذا بادر الموظف بالسؤال وهو يستلم المفتاح.

= اعذرني، لكن يبدو أنك غفلت عن الغرفة **303** فهي تبدو شاغرة أيضاً، ألفت انتباهك كي لا تخبر الزبائن بعدي أن جميع الغرف محجوزة.

نظر إليه الموظف نظرةً غريبةً.

= لا لم أغفل، إن الغرفة **303** شاغرة بالفعل، لكننا لا نستخدمها منذ عدة أشهر.

= لا بد أنها بحاجة للصيانة إذن. ؟!

قال الموظف ببرود وجدية.

= كلا إنها ممتازة، لكنها مسكونة بالأرواح.

جمد سبيروزار في مكانه وهو يصغي إلى كلام الموظف العجيب.

= مسكونة بالأرواح !؟

= أجل سيدي.

= وكيف عرفتم ذلك؟

= لقد قامت الأرواح منذ عدة أشهر بقتل رجل أعمال يدعى **كونجاكو** في الغرفة **303**.

شعر سبيروزار بمزيج من الخوف والدهشة والفضول يتلاعب بوجدانه.

= اعذرني على فضولي سيد.

= **كوهو**.

= سيد كوهو، أدعى جان ويليامز، أنا سائح هنا، ولقد أثارت القصة فضولي للغاية، فهل يمكنني معرفة تفاصيل أكثر عنها.

= أهلا بك في بلادنا سيد جان، بالطبع يمكنك. منذ حوالي عام نزل في الغرفة **303** رجل أعمال يدعى كونجاكو لمدة ثلاثة أيام وفي صباح اليوم الثاني له هنا اتصلت ابنته **الطبيبة كالوما** مع الفندق لتطمئن عليه كونه لا يجيب على اتصالاتها الهاتفية، فصعدنا إلى غرفته للكشف عنه وإخباره بقلق ابنته عليه، وكانت الغرفة مغلقة، ففتحنا الباب بالمفتاح الاحتياطي لنرى السيد كونجاكو ممدداً على فراشه وقد فارق الحياة.

= وبعد ذلك؟

= اتصلنا بالإسعاف والشرطة، وتبين بعد الفحص الطبي أن السيد كونجاكو توفي ليل الأمس السابق ولم تكن هنالك بالفحص الأولي للجثمان أي آثار اعتداء أو عنف وكانت النافذة مغلقة كالباب تماماً.

= أي أنها وفاة طبيعية؟

= بلى هذا ما قاله التقرير المبدئي للطبيب الشرعي وكأنها سكتة قلبية. لكن بعد نقل الجثمان إلى المشفى وتشريح الجثة تبين أن أحشاء السيد كونجاكو كانت متمزقة بشكل كبير مع دماء غزيرة في البطن والصدر تتماشى مع تعرضه لاعتداء عنيف.

قوس سبيروزار حاجبيه بدهشة.

= غريب! وكيف فسر الطبيب الشرعي والمحقق ذلك؟

= بعد بحث وتحري طويلين لم يعثروا على أي تفسير منطقي لما حدث، فالغرفة كانت مغلقة من جميع الأرجاء، كما أنها كانت مرتبة جيداً دون وجود آثار شجار، ولم توجد آثار ضرب على جسد القتيل أيضاً. كما لم يعثر على أي أثر للسموم في دمه، لذا أغلقت القضية بعد ستة أشهر من التحقيق المكثف ضد مجهول.

= وما علاقة الأرواح بالقصة سيد كوهو؟

= نحن في المدينة وبحسب عقيدة الفودو التي نتبعها مؤمنون تماماً بأن السيد كونجاكو تعرض للضرب من قبل الأرواح الهائمة في تلك الغرفة **303**.

وقف سبيروزار مذهولاً للحظات.

= ولماذا سيتعرض السيد كونجاكو لذلك؟

= لأنه كان يحمل روحاً شريرةً على ما يبدو. لذا أغلقنا تلك الغرفة حتى إشعار آخر حتى تغادر روحه الشريرة الفندق.

= وكيف ستغادر روحه الغرفة؟

= قريباً سنحتفل بعيد الفودو السنوي في المدينة وسيقوم الكاهن لاموسا بإجراء طقوس تطهير للغرفة وطرد للروح الشريرة منها. وبعدها سنعيد

الغرفة للإيجار مجدداً.

صُعق سبيروزار من ذلك الكلام الغريب، ومن الرواية الأغرب التي خرجت من فم موظف الاستقبال بنبرةٍ بسيطة لا تعكس غرابة وتعقيد القضية. كيف يمكن أن يتعرّض رجل لضرب مبرح داخل غرفة مغلقة، دون أن يُعثر على أدنى أثر للعنف فوق جسده ؟! سؤال راح يتمدّد في ذهنه كأفعى من الجليد، تلدغ أعصابه برعشة خفية وهو يسترجع الموقع الذي يقف فيه: هذه ليست أي مدينة، بل أويدا، مهد ديانة الفودو، تلك التي تعني بالضبط الروح، والتي لا تقوم إلا على فكرة واحدة جوهرية: التواصل مع العوالم غير المرئية. فهل يعقل أن تكون الغرفة **303** مسكونة بالفعل؟ أن تكون تلك الأرواح القديمة، التي يتحدّث عنها أهل البلاد بصوتٍ منخفض وأعين مترقبة، لا تزال تتجوّل بين جدران ذاك الطابق؟

شكر سبيروزار موظف الاستقبال بصوت خافت، ثم صعد ببطء نحو الغرفة **302**، التي لا تبعد سوى خطوة عن الغرفة المشؤومة.

كان الصمت في الممر كثيفًا كالدخان، والهواء يحمل شيئًا غير مألوف، رائحة الخشب المبلل بالخرافة، وربما الخوف.

فتح باب غرفته ودخل، تاركًا خلفه صريرًا قصيرًا لهيكل بدا وكأنه لم يُفتح منذ زمن طويل. تمدّد فوق السرير، لكنه لم ينم. لم يستطع.

كانت أفكاره تنهال عليه كما ينهار جبل جليدي ضخم على سطح بحر ساكن.

من جهة، كان يشعر بقلقٍ خفي من كونه يبيت في غرفة ملاصقة لغرفة يُقال إنها مسكونة. هو، الذي لطالما اعتبر نفسه عقلانيًا، علميًّا في توجهه، لا يؤمن بالخرافات ولا يخضع لسطوة الأساطير... لكن التجارب التي مرّ بها سابقًا، لا سيما على كوكب كوليتوس، وما عاشه هناك برفقة السيد ميدوسيز، وتأكيد وجود كائنات عاقلة خارج كوكب الأرض... كل ذلك جعل يقينه بالواقع يتشظى. صار يعرف أن خلف حجاب العلم، ثمة أسرار أعمق من أن تُقاس بأجهزة أو تُرصد بأقمار صناعية.

ومن جهة أخرى، طاف في ذاكرته صوت ميدوسيز من لقائهما الأخير في

ميانمار، حين أوصاه بعبارة غامضة:

(أنا غريب أتيت لأنقذ روحا مضطهدة)

هل هذه الجملة بمثابة مفتاح لحل قضية القتل الغامضة؟ هل ترتبط بروح السيد كونجاكو، الذي قضى نحبه في الغرفة **303**، تاركًا خلفه لغزًا يُروى وهمسًا يتصاعد كل مساء؟

الاحتمال أصبح راجحًا، بل راجحًا جدًا، خاصة أن الكاهن لاموسا نفسه – الذي سيقابله غدًا – قد أُرسل خصيصًا لأداء طقوس تطهير الأرواح الشريرة من تلك الغرفة بالذات.

إن الأمر لم يعد مجرد صدفة...

الغرفة المجاورة تختزن سرًا، والجملة التي يحملها سبيروزار قد لا تكون مجرد كلمات. بل لعله، دون أن يدري، يُكلّف بفتح بابٍ بين عالمين... واحد يُرى، وآخر ينتظر أن يُنادى عليه.

*****

في صباح اليوم التالي.

إلى منزل الكاهن لاموسا.

استدل سبيروزار إلى منزل الكاهن لاموسا بسهولة، فقد كان العنوان دقيقًا، والطريق إليه يشبه خيطًا مستقيمًا وسط نسيج المدينة الهادئة. لم يكن المكان بعيدًا عن الفندق، لذلك قرّر أن يقطع المسافة على قدميه، مستمتعًا بتلك الخطوات التي تخترق شوارع أويدا في صباحٍ مشبعٍ بندى الخرافات وصمتٍ ثقيلٍ يليق بمدينة تطل الأرواح من نوافذها القديمة.

مرّ بين بيوتٍ متواضعة تعانقها النباتات وتتناثر على جدرانها زخارف أفريقية داكنة. كانت الأزقة شبه خالية، وكأن المدينة ما تزال نائمة رغم ضوء الشمس المتصاعد ببطء من خلف أشجار المانغو.

وبعد حوالي ربع ساعة من السير، بدا له المنزل أخيرًا. كان بناءً من طابقٍ واحدٍ فقط، يعلوه سقف قرميدي مائل، بلونٍ داكن يشي بقدمه. تحيط به حديقة صغيرة ذات سياج خشبي مطلي بعناية، تفيض منها رائحة التربة الرطبة وعبق أوراق الكافور المجففة. شجيرات غريبة الشكل تملأ الزوايا، بعضها يشبه الشموع اليابسة، وبعضها الآخر ينبض بلونٍ أرجوانيٍّ حي، كأنها تراقب الداخلين والخارجين بصمتٍ حكيم.

المنزل نفسه بدا أقرب إلى ضريحٍ صغير منه إلى بيت سكنيّ. باب خشبي عريض تتدلّى منه تمائم مطرّزة بخيوط خضراء وخرزاتٍ داكنة، ونوافذ ذات مصاريع مغلقة تُخفي ما يجري في الداخل بإصرار، كأن في ذلك البيت أسرارًا لا تليق بالعيون العابرة.

عند البوابة الخارجية، كان هناك حارس يرتدي زيًا تقليديًا بسيطًا، يقف منتصبًا كتمثال من البرونز. عيناه غائرتان في المجهول، ووجهه لا يعكس شيئًا، لا ترحيبًا ولا رفضًا، بل حيادًا مقدّسًا، كأن وجوده ذاته جزء من طقسٍ روحي لا يُمس.

اتجه سبيروزار مباشرةً نحوه، واضعًا في كل خطوة مزيجًا من الاحترام والرهبة. فمهما بلغت ثقته بعقله، هو على وشك أن يدخل بيت رجل يُقال إنه يعرف لغة الأرواح، ويُجالس الظلال، ويفكّ شيفرات العوالم التي لا نراها.

توقف أمام الحارس، التقت نظراتهما، فتنهد سبيروزار قليلًا، ثم قال بصوتٍ خفيض لكن ثابت:

= صباح الخير.

= صباح الخير سيدي، كيف يمكنني مساعدتك ...؟

= أرغب بزيارة الكاهن لاموسا.

= ولأي غاية تريد مقابلته لأخبره ...؟

فكر سبيروزار للحظات. لم يكن هنالك بد من إخباره الحقيقة.

= قل له أني غريب أتيت لأنقذ روحاً مضطهدة.

بدا الاستغراب جلياً على الحارس من هكذا جواب غامض، لكنه انسحب بهدوء. غاب لدقائق ثم عاد وقال.

= أهلا بك سيدي، الكاهن لاموسا ينتظرك منذ فترة.

دهش سبيروزار من كلام الحارس، الكاهن ينتظره! ما معنى ذلك؟

مشى خلف الحارس حتى بلغا باب المنزل المفتوح. دخلا عبر ممرٍ ضيق تظلله عريشة من نباتات استوائية متشابكة، وعبق البخور يتسلل خافتًا من شقوق الجدران القديمة، حتى وصلا إلى بابٍ خشبي نصف مفتوح، قادهما إلى غرفة الضيوف.

كانت الغرفة بسيطة ولكنها مهيبة، تملأها قطع فنية تقليدية، وأقنعة خشبية معلّقة على الجدران، تحمل ملامح غريبة بين الغضب والهدوء. في أحد الزوايا، وُضعت طاولة منخفضة تتناثر فوقها أعشاب مجففة وخرزات ملونة، وفي الجهة المقابلة مقعد من جلدٍ داكن جلس عليه رجل بدا في السبعين من عمره، كأنّ الزمن مرّ عليه بخفة، تاركًا بعض التجاعيد كعلامات نصر لا هزيمة.

كان يرتدي ثيابًا محلية فريدة الطراز، مرقّطة بألوان الطين والذهب، كأنها سُحبت من لوحة طقسية قديمة. الرداء طويل، محاك بخيوط خشنة، يتدلى من أطرافه حبال صغيرة وخرزات داكنة تشبه عيون الغربان. وعلى رأسه عمامة واسعة يتوسطها رمز غير مألوف محفور بعناية، يلمع عندما يلتقط ضوء الصباح المتسلل من نوافذ الغرفة العتيقة.

كانت ملامحه ساكنة، وعيناه نصف مغمضتين، كما لو أنه مستغرق في حديث داخلي لا علاقة له بالعالم الخارجي. لكن رغم هدوئه، فإن حضوره ملأ الغرفة فورًا، بشيء لا يُوصف: خليط من الهيبة والسكينة.

تقدّم الحارس خطوة نحو الرجل، وانحنى قليلًا باحترام، ثم قال بصوتٍ خفيض:

= هذا هو الزائر حضرة الكاهن.

نطق الكاهن بصوت خدر يستيقظ من سبات.

= أهلا بك سيد.

= جان.

= سيد جان أنا انتظر زيارتك منذ فترة.

= تنتظرني، هذا غريب للغاية!

ابتسم الكاهن.

= في ديانة الفودو هذا ليس أمراً غريباً.

= وهل يمكنني معرفة الطريقة التي عرفت عبرها بقدومي، إن لم يكن ذلك تطفلاً بالطبع؟

= لا ليس كذلك، لقد تواصلت مع روح خلال جلسة من طقوس الفودو وأخبرتني بأن شاباً غريباً سيزورني لينقذ روحاً مضطهدة، كما أخبرت أنت الحارس بالضبط.

دهش سبيروزار من الكلام وأحس برعشة باردة تسري في جسده، تواصل مع أرواح ...!

= وهل لديك أي معلومات عن هذه الروح المضطهدة حضرة الكاهن ...؟

= نعم إن الروح المقصودة هي روح السيد كونجاكو الذي توفي في فندق **(لو بالي)** منذ تقريب العام سيد جان.

تنبه سبيروزار تماما لهذه الجملة فقد صدقت توقعاته.

= وكيف عرفت ذلك حضرة الكاهن؟

= لقد أخبرتني الروح بذلك.

= لكن الشائع في المدينة كما فهمت بأن السيد كونجاكو يحمل روحاً شريرةً لذا اعتدت عليه أرواح تلك الغرفة.

= إن قصة موت السيد كونجاكو تشير بقوة إلى ذلك، ولا يمكن إقناع الناس

بكلام آخر. لكن الروح لا تكذب، وقد أخبرتني خلال طقس الفودو أن كونجاكو مظلوم.

= ولماذا لم تخبر الآخرين بهذا الكلام؟

= وكيف سأفسر لهم ما حدث للسيد كونجاكو، كيف سأشرح لهم آثار الاعتداء عليه في غرفة مغلقة بالكامل ودون وجود آثار ضرب على جسده. إن الناس سيد جان تؤمن بما تراه أكثر مما تسمعه وما سأقوله لهم شيء سمعته من الروح، لكن ما يؤمنون به هو شيء رأوه بأم العين. **وفي معركة العين والأذن تنتصر العين دائماً**. حتى لو كان كلام الكاهن الأكبر بذاته عكس ذلك. بالمناسبة، كيف عرفت أنت بقصة الروح المضطهدة؟ وما هو عملك الأصلي؟

كان سبيروزار قد أعد سلفاً الرد المناسب على هذا السؤال المرتقب.

= أنا محقق خاص بالأساس، ولقد راودني حلم غريب طلب فيه رجل وقور مني أن أزورك وأخبرك بأني سأنقذ روحاً مضطهدة. هذا ما حدث باختصار.

= أفهمك، فالأحلام هي إحدى الطرق المميزة التي تتواصل عبرها الأرواح معنا.

فكر سبيروزار قليلاً، إنه بحاجة إلى معلومات أكثر عن السيد كونجاكو.

= وكيف سأحصل على معلومات دقيقة عن الراحل كونجاكو؟

= الطريقة الافضل والأسهل هي عبر ابنته الطبيبة كالوما. لقد زارتني منذ فترة واشتكت لي من الاضطهاد الذي تتعرض له بسبب الإشاعات التي طالت والدها الراحل، حتى أنها تعرضت بنفسها للتهديد بالقتل بغاية التطهير واضطرت إلى مغادرة **مقاطعة أتلانتيك** هنا إلى العاصمة بورتو نوفو في **مقاطعة أوميه** المجاورة، وهي حالياً تعمل في المشفى هنالك.

= وهل لديك عنوانها حضرة الكاهن؟

= لا، لكن لدي رقم هاتفها.

= وهل يمكنني الحصول عليه ...؟

= بلا ريب. لقد أرسلتك الأرواح لتنفذ روحاً مضطهدةً وأنا بخدمتك تماماً لتحقيق هذه الغاية.

اتجه الكاهن نحو مكتبة صغيرة في زاوية الغرفة وأخرج منها دفتراً صغيراً ثم قلب صفحاته حتى توقف عند صفحة معينة. استخرج الرقم منها وأعطاه لسبيروزار.

= أشكرك على وقتك وتفهمك وتعاونك حضرة الكاهن.

= أنا الذي يشكرك على سعيك النبيل لإنقاذ الروح المظلومة سيد جان.

*****

التواصل مع كالوما.

غادر سبيروزار منزل الكاهن لاموسا وهدير من الأسئلة والإشارات يضج في رأسه كإعصارٍ داخلي لا يهدأ. كان الهواء في الخارج دافئًا كثيفًا، تفوح منه رائحة الأرض الرطبة والبخور العالق في ملابسه، لكن تفكيره لم يكن في الطقس ولا في الطريق... بل في ذلك اللغز المتشابك الذي اتّضح له أخيرًا.

الآن فقط أدرك تمامًا الغاية التي أرسله من أجلها السيد ميدوسيز إلى بنين: ليس كشف سرٍّ علميّ، ولا مطاردة أثرٍ تاريخي، بل إنقاذ روح، لا جسد.

إنها مهمّة تخرج عن مألوف العقل، وتلج إلى عوالم لا تُرسم بالمعادلات.

لكن كيف ينقذ روحًا لا يعرف عنها شيئًا؟

من هو السيد كونجاكو تحديدًا؟ كيف مات؟ متى؟ ولماذا؟

لو كانت الوفاة حديثة العهد، لربما استطاع أن يستخدم قدرته النادرة في إعادة الحياة المؤقتة كي يستجوب الموتى أنفسهم.

لكن الوفاة حدثت من بعيد العام. وحتى لو تمكن من ذلك، فالسيد ميدوسيز حذره بصرامة من استخدام تلك القدرة هنا، في أرض الفودو...

فهل كان ذلك لأن الأرواح في بنين لا تعود كما هي؟

أم لأن العودة هنا قد تفتح أبوابًا لا تُغلق؟

هكذا لم يتبقّ أمامه سوى خيط وحيد، ذكره الكاهن لاموسا، وتمسك به عقله كما يتشبث الغريق بخشبة:

ابنة الضحية كالوما... الطبيبة.

توجه إلى أحد محلات الاتصالات المنتشرة على حافة السوق الشعبي، حيث تصطف الهوائيات الصغيرة كأذرع معدنية تشير إلى الغيب، واشترى بطاقة هاتف محلية.

جلس على حافة الرصيف قرب مظلة خشبية مهترئة، وبدأ في تركيب الشريحة بخفة يد المعتاد على التنقل.

أخرج الرقم الذي أعطاه له الكاهن من جيب سترته، وتردد لحظة، كأن بين الأرقام سرًا لن ينكشف إلا إذا نطق بها بنفسه.

ضغط على زر الاتصال.

رنّ الهاتف لحظات شعر بها كدهر... ثانية، ثانيتان، ثلاث...

وفجأة... جاءه صوت أنثوي دافئ، منخفض النبرة، يشبه نسمة فجرٍ تهبّ على بحيرة خامدة:

= الطبيبة كالوما، من يتكلم؟

= أهلا حضرة الطبيبة، أدعى جان، وأنا أرغب بلقائك لأمر ضروري.

= أهلا سيد جان، وما هو هذا الأمر الضروري؟

= إنه بخصوص والدك الراحل كونجاكو.

ساد الصمت للحظات.

= أنا آسفة، فلا كلام لدي بهذا الخصوص، وداعاً.

= انتظري قليلاً آنسة كالوما. أنا اتصل للمساعدة وليس للأذى.

= مساعدة!

= أجل ويمكنك الاتصال بالكاهن لاموسا والتأكد منه إن أردت، نحن نريد مساعدتك. لقد أرسلتني الأرواح لأنقذ روح والدك من الظلم والاضطهاد.

= وكيف ستساعدنا على فعل ذلك؟

= يجب أن أحصل على معلومات كافية عن والدك قبل كل شيء.

فكرت كالوما للحظات.

= حسنا لقد أخبرني الكاهن لاموسا مسبقاً بشيء من هذا القبيل، سأتأكد من الموضوع، فإن كنت صادقا سأرسل لك اسم حسابي على موقع التواصل الاجتماعي لنتابع الحديث على الساعة السابعة مساء، فالحديث يطول، وأنا في مدينة بعيدة نسبياً عنك.

= حسناً، اتفقنا.

عاد سبيروزار إلى الفندق بخطى مثقلة بوزر الأسئلة التي تثقل قلبه. دخل غرفته رقم **302**، وألقى بجسده المرهق على الفراش وكأنما يحمل فوق كتفيه وزر العالم بأسره. في أذنه ما زال يرن صدى صوت كالوما، ذلك الصوت الناعم الهادئ الذي يحمل في طياته دفء غير معتاد، لم يشعر به من قبل، كنسمة صيفية رقيقة تسللت بهدوء إلى زوايا روحه المظلمة الباردة، فتدفقت فيها عواطف جديدة وغريبة، أشبه بشعاع نور خافت يخترق ظلام ليلة محاقية.

جلس متأملاً، يغوص في بحر أفكاره المتلاطمة، يستعيد حديثها وكلماتها التي رسمت أمامه لوحة حية من الأمل وسط غموض القصة. الصمت من حوله شديد، وكأنه قد حبل بأسرار لم يُفصح عنها بعد، بينما عيناه تغوص في فراغ الغرفة الصغيرة التي تشعره بالوحدة والحنين في آن معاً.

مرت نصف ساعة وكأنها دقائق، حين جرى رنين الهاتف ليقطع هدأة المكان، فنبض قلب سبيروزار بشوق وترقب. كانت رسالة جديدة من كالوما تتضمن حسابها الشخصي على موقع التواصل الاجتماعي. بيدين مرتجفتين

وسرعة تعكس حماسه، فتح هاتفه وأنشأ حساباً جديداً باسم جان ويليامز، ثم أرسل طلب صداقة إلى كالوما التي لم تتأخر في قبوله سوى دقائق معدودة.

فتح ملفها الشخصي، فتجسدت أمام عينيه صورة فتاة فاتنة الجمال، في ريعان شبابها، بشرتها السمراء تُشع بالدفء والحنان، وملامحها تنطق بالبراءة والصدق. ترتدي معطفها الأبيض، كرمز لطبيبة متفانية، عازفة على أوتار الرحمة والحكمة. أظهرت معلوماتها الشخصية أنها تبلغ من العمر ثمانية وعشرين عاماً، متخصصة في طب العيون في مستشفى العاصمة المركزي، عزباء لم تحمل بعد أثقال الحياة الزوجية، لكنها تحمل في نفسها قصصاً وأحلاماً كبيرة.

في تمام الساعة السابعة، جاء رنين الهاتف مجدداً، حاملاً الرسالة التي طال انتظارها، رسالة كالوما التي أشعلت شعلة الأمل في قلب سبيروزار، ففتحها بيدين مرتجفتين ونفس محبوس، كأنما يقف على حافة بداية فصل جديد في رحلته الغامضة.

(مساء الخير سيد جان)

(مساء الخير حضرة الطبيبة كالوما)

(لقد أخبرني الكاهن لاموسا بصدق نواياك ورغبتك الفعلية بمساعدتي ومساعدة والدي، فما المعلومات التي ترغب بمعرفتها عنا؟)

(أي شيء مميز قد يفيدني في التحري والبحث)

(حسنا سأروي لك قصتنا بإيجاز، ثم اسأل أنت ما تشاء)

(يبدو ذلك مناسباً)

(والدي الراحل عن عمر 63 سنة كان رجل أعمال في مقاطعة أتلانتيك الجنوبية، رجل شريف ليس له أعداء أبداً، ويعيش بمفرده بعد وفاة والدتي منذ خمس سنوات، أنا ابنتهما الوحيدة فقد تزوجا بعمر متأخر نسبياً. وأقيم في مدينة أويدا مسقط رأس والدتي.

خلال العام المنصرم بدأت أمور الشركة تتدهور بشكل دراماتيكي و أوشك والدي على الإفلاس، لذا قصد ذلك العام مدينة أويدا ليزور الكاهن لاموسا و يقدم قرباناً في الحديقة المقدسة في المدينة في مطلع السنة قبيل الاحتفال السنوي بعيد الفودو و يطلب من الكاهن مساعدته الروحية على تحسين شؤونه المهنية ، فنزل في فندق لو بالي لمدة ثلاثة أيام لأنني كنت مسافرة في مهمة عمل ضروري خارج المدينة على أن يزور الكاهن في اليوم الثاني ، اتصلت به مساء اليوم الذي وصل فيه لأطمئن عليه على الساعة الثامنة و النصف مساءً ثم ودعته على أن يتصل بي صباحا قبل زيارة الكاهن.

في صباح اليوم التالي مضى الوقت ولم يتصل بي فقلقت عليه واتصلت به أنا لكنه لم يرد، فزاد قلقي، لذا اتصلت بموظف الاستقبال بالفندق وطلبت منه أن يطمئن على والدي ويخبره أن يتصل بي للضرورة، وبعدها بحوالي نصف ساعة اتصل بي الموظف ليخبرني بأن والدي فارق الحياة وبأن على الحضور بحسب طلب الشرطة للإجابة عن بعض الأسئلة واستلام الجثمان.

كان الخبر صادماً لي للغاية، فبترت مهمة العمل للضرورة وتوجهت مباشرةً إلى أويدا، أخبرني رجال الشرطة هناك أن الوفاة غالباً طبيعية بحسب التقرير الأولي للطبيب الشرعي وأن التقرير النهائي سيكون في اليوم التالي، فنزلت في الفندق نفسه وليس في منزلي، وبالتحديد في غرفة والدي نفسها كي أفحصها، ولم يكن هنالك أي شيء مريب في الغرفة.

في اليوم التالي توجهت إلى المشفى وقابلت الطبيب الشرعي ليخبرني بشكل صادم بأن وفاة والدي غير طبيعية وأنه تعرض لاعتداء عنيف أدى لوفاته، وذلك كان غريباً للغاية، فالغرفة كانت مغلقةً تماماً ومنظمةً للغاية، بل إنّ جسد والدي كان سليماً من الخارج كلياً. أخبرني الطبيب الشرعي بأن أتابع الموضوع مع الشرطة لاستكمال التحقيق، وبالفعل تابعت الشرطة التحقيق لمدة ستة أشهر كاملة دون الوصول إلى أي طرف خيط ممكن

متابعته فأغلق الملف ضد مجهول.

كانت أخبار الحادثة قد انتشرت في المدينة بسبب غرابتها وبدأ الناس بتفسيرها على أن روح والدي الشريرة تعرضت للعقاب من قبل أرواح الأجداد، ولم يكن بإمكاني مواجهتهم أبداً إذ لا تفسير علمي لما حدث، فلجأت إلى الكاهن لاموسا ليساعدني فقام بطقوسه الخاصة وأخبرني بأنه شخصياً لا يستطيع مساعدتي، لكن هنالك من سيقوم بذلك خلال الأيام القادمة، وكنت قد بدأت أتعرض للمضايقات والتهديد بالقتل بحجة تطهير المدينة فنصحني الكاهن بالانتقال إلى مكان آخر حتى تتكشف حقيقة وفاة والدي فنقلت عملي إلى مشفى العاصمة. هذا ما حدث باختصار)

(إذن لم يكن لوالدك أي مشاكل أو أعداء؟)

(إطلاقاً)

(هذا غريب بالفعل، على كل حال لابد من زيارة الغرفة 303 التي نزل فيها والدك والبحث مجدداً عن أي شيء قد يكون طرف خيط في التحري)

(أظن ذلك، لكن من الصعب إقناع موظف الفندق بذلك، فكما فهمت تم إغلاق الغرفة حتى يتم تطهيرها لاحقاً)

(سأرى ما يمكنني فعله، بكل الأحوال تعازي الحارة لك آنسة كالوما وأتمنى أن أتمكن من مساعدتك)

(شكراً جزيلاً لك سيد جان، أنت إنسان نبيل، فلست مضطراً أبداً لبذل أي جهد لمساعدتي، خاصةً أنه قد يسبب لك المشاكل مع الآخرين)

(هذا واجبي حضرة الطبيبة)

(لا إنه ليس كذلك)

(وهو بكل الأحوال طلب من أرواح السماء ويجب على الانصياع له احتراماً لها ورفعاً للظلم عن والدك الراحل واسترداداً لسمعته الجيدة، نلتقي لاحقاً إن شاء الله)

(إلى اللقاء سيد جان، وشكراً لك مرة أخرى)

راح سبيروزار يذرع أرضية الغرفة **302** جيئة وذهاباً، بخطوات متوترة، كمن يسير فوق حد السكين. كانت جبهته معقودة، وملامحه غارقة في بحر من التفكير المضطرب. يداه تتشابكان خلف ظهره أحياناً، وتنهمكان بتمرير أصابع مرتجفة فوق شفتيه أحياناً أخرى، كأنما يبحث عن جملة ضائعة بين أسنانه.

الساعة تقترب من منتصف الليل، والسكون يخيم على الفندق كسحابة كثيفة من الأسرار. ضوء خافت يتسلل من المصباح الجانبي، يرسم ظلالاً مترجرجة على الجدران، كأنها أطياف أرواح تراقبه بصمت.

في داخله، كانت فكرة واحدة تتردد بإلحاح: (يجب أن أدخل الغرفة **303**)

لم تعد مجرّد غرفة مهجورة في فندق محلي... لقد أصبحت بوابة إلى لغزٍ متجذر في الماضي، وقد يكون فيها المفتاح لكل شيء: لفهم موت السيد كونجاكو، وربما لإنقاذ روحه العالقة كما قال الكاهن.

فكّر في كل الاحتمالات، في الطرق الملتوية التي قد تمكنه من التسلل إلى هناك، في الكذب أو التحايل على موظفي الفندق، لكن لا شيء من ذلك بدا واقعياً أو آمناً، خاصة وهو يحمل على كاهله مهمة حساسة أوصاه بها السيد ميدوسيز.

عندها فقط، وسط عتمة التفكير وتناسل الخطط العقيمة، لمع في ذهنه وجه الكاهن لاموسا... ذلك الرجل السبعيني الذي بدا وكأنه يفهم أكثر مما يقول، كأنه يعرف خريطة الأرواح الهائمة في هذه الأرض أكثر من أيّ أحد.

نعم... هو وحده القادر على مساعدته، ليس فقط لأنه رجل دين يملك مفاتيح الطقوس والأذونات، بل لأن حضوره يمنح شرعية لما هو غير مرئي، لما هو مخبوء خلف حجاب الواقع.

وقف سبيروزار فجأة، كأن قرارًا أخيرًا قد تشكل داخل أعماقه. نظر إلى ساعته، ثم إلى النافذة، ثم أغلق عينيه ببطء وهمس لنفسه:

(سأذهب إليه مع أول خيط للفجر... هو أملي الوحيد لفتح تلك البوابة الغامضة)...

ثم جلس على طرف السرير، يستعد لليلة ستملأها الأسئلة، لكن للمرة الأولى، كانت لديه وجهة... كانت لديه خطة.

*****

الفصل الثالث

في صباح اليوم التالي.

غادر سبيروزار الفندق مع أنفاس الفجر الأولى، والضوء الشاحب يتسلّل عبر الشوارع الضيقة كهمسة من عالمٍ آخر. المدينة تستيقظ ببطء، بينما في داخله نار لا تهدأ، تلتهب بأسئلة لا تنطفئ. ساقته قدماه بثبات نحو منزل الكاهن لاموسا، كأنما صوت غامض في أعماقه كان يهتف: هناك يكمن مفتاح الحل.

فتح له الحارس البوابة دون سؤال، وقد بات يعرف زائره، الزائر الذي يحمل في عينيه قلقًا يشبه الحنين، وغموضًا يشبه الأساطير. في الداخل، كان الكاهن جالسًا في صمت مهيب، كأنه ينتظر نبأً من السماء. لم يُطل سبيروزار المقدمات، سرد الوضع المعقّد بكل ما فيه من تفاصيل مربكة، عارضًا عليه خطته للدخول إلى الغرفة **303**، تلك الغرفة التي تحمل بين جدرانها لغز موتٍ غير مفهوم، وروحًا تائهة تطلب الخلاص.

استمع لاموسا بتركيز عميق، وهز رأسه موافقًا قبل أن يتكلم، كما لو كان ينتظر هذا الطلب منذ زمن. ثم قال بصوت منخفض يشبه خشخشة الأوراق القديمة على طاولته:

= كلام منطقي لا غبار عليه. سأقول لهم إن طقوس التطهير فرضتها أرواح الأجداد... هكذا سيفتحون لنا الطريق.

نهض الكاهن بهيبته الفريدة، وتناول عباءته المطرّزة برموز الطقوس، ثم اتجها معًا نحو الفندق. كانت خطواتهما تتناغم مع وقع الحقيقة المقبلة، والريح تهب كأنها تهمس بالأسرار من جديد.

وما إن وصلا إلى بهو الفندق، حتى لمح موظف الاستقبال الكاهن من بعيد، فتغيّرت ملامحه على الفور، وغادر مكانه بخفة راكعًا برأسه أمامه، كما لو أنه أمام كاهنٍ من نسل الملوك. لم ينبس بكلمة، كانت الهيبة وحدها تتكلم.

رفع الكاهن يده في إيماءة خفيفة، وقال بصوت مفعم بالسلطة الروحية:

= أتيت لزيارة الغرفة **303** بطلب من الأرواح يا كوهو من أجل البدء بعملية التطهير.

أجابه الموظف بتبجيل.

= بالطبع سيدي تفضلا.

تناول كوهو مفتاح الغرفة **303** من على اللوح الزجاجي القديم بحركة بطيئة، كأنما ينتشل ذاكرة مدفونة من قاع الماضي. لم ينطق بشيء للحظة، بل حدّق في المعدن الصامت بضع ثوانٍ، ثم رفع عينيه نحو زاوية الممر، حيث كان موظفه **ماغا** يقف بظهر مستقيم وانتباه صامت، كما لو كان يتوقع النداء منذ الفجر.

= ماغا...

تردد صدى الاسم في بهو الفندق، فجاء الشاب بخطى سريعة مطأطئ الرأس. كان في منتصف العشرينيات، بجسد نحيل يحمل ملامح من حياة قاسية، وعينين تشبهان نافذتين على الريبة، تلمع فيهما دهشة دائمة، تلك التي ترافق من رأى ما لا يَفهم.

سلّمه كوهو المفتاح وقال بنبرة لا تخلو من تحذير مضمَر:

= رافق السيّد والكاهن إلى الغرفة **303** ... افتحها لهما. وافعل ما يمليه عليك الكاهن بدون جدال.

أومأ ماغا بطاعة وانحنى قليلاً، ثم أدار جسده بخفة ودعاهم بإشارة صامتة للصعود. تحرّك الثلاثة في صمت، وخطواتهم تزأر فوق الدرج الخشبي، كأن كل عتبة تئنّ من عبء ما ستكشفه.

وما إن بلغوا منتصف السلّم، حتى بادره سبيروزار بصوت خافت، ينزّ فضولاً وحذرًا:

= هل كنت موجوداً في اليوم الذي توفي فيه السيد كونجاكو يا ماغا؟

= أجل سيدي.

= ومتى آخر مرة شاهدت فيها السيد كونجاكو ليلتها؟

= حوالي الساعة العاشرة ليلاً وأنا أتذكر ذلك تماماً فقد كانت ليلة رأس السنة

والكهرباء قطعت عن الطابق الثالث للفندق بسبب تماس كهربائي فنادى علي السيد كونجاكو وطلب مني رفع القواطع مجدداً.

= هل زار أحد ما السيد كونجاكو ...؟

= أبداً.

= وهل كانت الغرفة **302** المجاورة لغرفته شاغرة في تلك الليلة. ؟

= كلا، كان هنالك أربعة شباب يحتفلون بليلة رأس السنة، وأنا أتذكر ذلك جيداً لأنني طرقت الباب عليهم وطلبت منهم إخفاض صوت الموسيقى لأنها كانت تصدح في الطابق وتزعج بقية النزلاء.

= وهل لاحظت شيئاً غريباً عنهم؟

= لاحظت أنهم كانوا سكارى قليلاً، فهي ليلة رأس السنة والكثيرون يشربون ويسكرون فيها كما تعرف.

= بلى، وهل شاهدت السيد كونجاكو في منتصف الليل ...؟

= كلا كنا انا والسيد كوهو أمام الفندق نتأمل الألعاب النارية التي تزين السماء مع طلقات الرصاص المتفرقة هنا وهناك ابتهاجاً بقدوم عام جديد لاسيما بعد مساعدة الفضائيين الغريبين لبلادنا وتحولنا إلى مشروع دولة متطورة.

وصل الثلاثة أخيرًا إلى الطابق الثالث. كانت الخطوات الأخيرة نحو الغرفة **303** أبطأ من سابقتها، كأنها تتثاقل تحت وطأة الترقّب. الممر هناك بدا مختلفًا، أضيق مما ينبغي، والجدران القديمة بدت أقرب إلى التنفّس منها إلى الجماد، تراقب المارين بصمت ثقيل.

وقف ماغا أمام الباب كما لو كان أمام قبر قديم نُزعت عنه الطلاسم، مدّ يده إلى جيب معطفه، وأخرج المفتاح بحركة مترددة. تردد لثوانٍ وهو يحدق في القفل كمن ينتظر منه أن يرفض الفتح، ثم أدرجه في ثقب الباب وأداره ببطء، كمن يوقظ كائنًا نائمًا لا يعرف إن كان مسالمًا أم لا.

نقـــرة خفيفة. ومن ثم .

انفتح الباب بصوت خافت، فانسحب ببطء إلى الداخل كأنّه يُفسح الطريق لشيء أثقل من الهواء. كانت الغرفة غارقة في ظلام رمادي، والستائر الثقيلة المنسدلة حجبت عنها كل أثرٍ للضوء الخارجي.

تقدّم الكاهن لاموسا بخطى واثقة، وخلفه سبيروزار وقد أضاء ضوء فلاش هاتفه، موجّهًا الشعاع نحو الجدار القريب باحثًا عن مفتاح الكهرباء. ما لبث أن عثر عليه، فضغطه بحذر فانفجرت الإضاءة دفعة واحدة، لتغمر المكان بضوء باهت مصفرّ، وتكشف عن غرفة مرتبة بدقة مريبة. السرير مشدود الغطاء بعناية، الطاولة نظيفة لا غبار عليها، الكراسي موضوعة بزاوية مثالية، وكأنّ أحدهم خرج منذ لحظات ... أو لم يخرج قط.

كان في الغرفة سكون غريب، أشبه بما بعد العاصفة أو ما قبل الزلزال. لا شيء يتحرك، لكن ثمة شعور يثقل الأجواء كأن الهواء نفسه يتكلم بصمت.

تلفّت سبيروزار حوله ثم نادى:

= ماغا... تعال إلى هنا...

جاء صوتُه خافتًا، لكنه قاطع. وقف ماغا في المدخل متردّدًا، عتبة الباب بدت كحاجز نفسي يحول بينه وبين الداخل. نظر إليه سبيروزار بدهشة.

= ادخل. مما أنت خائف ؟! لا توجد أشباح بالغرفة.

= الأرواح سيدي.

= لا أرواح هنا. اقترب وأخبرني أين كانت جثة السيد كونجاكو؟

خطا ماغا خطوتين ثم أشار بإصبعه إلى السرير الوحيد في الغرفة.

= ممددةً هنا سيدي على السرير وكأنه يشاهد التلفاز.

= وهل كان التلفاز يعمل عندما اكتشفتم الجثة؟

= نعم سيدي.

انحنى سبيروزار على الأرض وقد عقد حاجبيه بتركيز حاد، يفتّش بعينيه المدرّبتين عن أي تفصيل خارج عن المألوف. كانت الأرضية نظيفة، ملساء

بشكل مريب، لا غبار، لا شعرة، لا خدشٌ يدلّ على صراع أو سقوط. تحرّك ببطء على أطراف أصابعه، يلامس الزوايا، يتفحص مفاصل الخشب ومواضع الأثاث.

أما الكاهن لاموسا، فظل واقفًا يراقب بصمت، وشيء من الإعجاب يلوح في عينيه، كأنّه يرى أمامه محققًا لا يبحث عن دليل فقط، بل يستدعي الأرواح من بين شقوق الجدران لتدله عليه.

مرّت دقائق كثيفة، ولم يظهر ما يثير الشك... إلى أن توقفت يد سبيروزار فجأة على الجدار المقابل للسرير، تحديدًا إلى الأسفل قليلاً من التلفاز. اقترب منه أكثر، ثم مال بجذعه ناحيته، وحدّق مليًّا في نقطة محددة.

كان هناك ثقبٌ صغيرٌ جداً، لا يتعدى حجم فوهة قلم. ثقب دقيق في الجدار الفاصل بين الغرفتين **302** و **303**، لا ينتمي لبنية الغرفة المتقنة. بدا وكأنّه خُرِق عمداً، لا عشوائيًا. الجدار المصنوع من خشب داكن بدا سليمًا، لكن هذا الثقب اخترقه في موضع خفي عن الأعين العادية.

اقترب أكثر، جثا على ركبتيه، وسلّط عينه عليه. كان مظلمًا من الداخل، لا ضوء يتسرّب، ما يعني أن الثقب نُقِب من جهة الغرفة **303** فقط، ولم يكتمل اختراقه إلى الجانب الآخر.

تنفّس ببطء، وشعر بوخز في روحه. لم يكن الأمر مجرد ثقب، بل أشبه بعيْن جامدة، تنتظر أن يُنظر عبرها لا العكس.

= لأي غاية حفر هذا الثقب يا ماغا؟

نظر ماغا إليه وقال بلا مبالاة.

= لا أعرف سيدي، لكن غالباً من أجل تمديد أشرطة التلفاز وجهاز الاستقبال.

= يبدو كذلك ...!

صمت للحظات وألقى نظرة أخيرة من الخيبة على الغرفة.

= لقد انتهيت حضرة الكاهن.

وجه الكاهن لاموسا نظرته إلى المرافق الشاب.

= يمكنك المغادرة الآن يا ماغا كي أقوم بطقوسي الخاصة.

= حسنا سيدي.

تراجع ماغا إلى خارج الغرفة وأغلق الباب خلفه.

= ما رأيك سيد جان؟ هل عثرت على شيء مهم ...؟

هز رأسه بأسف.

= إطلاقاً.

= وما الذي يمكنني مساعدتك به الآن؟

= لا شيء حضرة الكاهن، شكراً جزيلاً لتعاونك، يمكنك العودة إلى منزلك إن أردت.

= حسنا، سأفعل، اتصل بي إن احتجتني بأي شيء.

أعطاه الكاهن رقم هاتفه ثم انتظر لدقائق كي يوهم الموظفين أنه يمارس طقوسه الخاصة وغادر بعدها.

بمجرد مغادرة الكاهن، تقدم ماغا بخطى حذرة نحو باب الغرفة **303**، وأغلقه بإحكام كمن يغلق ضريحًا مهجورًا.

أما سبيروزار، فعاد أدراجه إلى غرفته **302**. لم يكن يحمل شيئًا في يده، لكن رأسه كان يعجّ بأسئلة لا نهاية لها.

ارتمى على السرير كمن فقد الاتجاه، وحدّق في السقف برهة. ما هذه القضية الغريبة؟ كلما ظن أنه اقترب من فهمها، ازدادت غموضًا. كأن شخصًا ما يحرّك قطع الأحجية كلّما اقترب من حلّها.

أدار رأسه ناحية الحائط الفاصل بين غرفته والغرفة **303**، ذلك الحائط الذي بات يشعر بأنه يخفي سرًا أثقل من الخشب والمعدن.

تذكّر الثقب الصغير الذي رآه في الغرفة المجاورة، وشيء ما في داخله قال له إن عليه أن ينظر إلى هذا الجانب من الجدار. نهض بهدوء، مشى نحو الجدار، وبدأ بتفحصه بأصابعه كأعمى يقرأ بلغة برايل.

بعد لحظات من التركيز، لاحظ منطقة صغيرة بحجم رأس القلم، لونها مختلف قليلًا عن بقية الطلاء، أفتح بدرجة بالكاد تُلحظ. إنها توافق مكانيا موقع الثقب في الغرفة **303!**

أخرج قلمًا رفيعًا من الدرج المجاور للسرير، وبتردد خفيف أدخله في تلك البقعة الغريبة... فانزلق القلم إلى الداخل بسهولة، وكأنه يمر عبر ثقب مخفي، حتى شعر بفراغٍ من الجهة المقابلة. لا بد أنه خرج من ثقب الغرفة المجاورة.

سحبه ببطء، وإذ به مغطى بمادة هشة بيضاء تميل إلى الزرقة، مختلطة ببقع حمراء باهتة. رفعه إلى أنفه، وشمّه...

رائحة معجون أسنان. !

ارتجف خيط من الدهشة في داخله. من الذي يسدّ ثقبًا بين غرفتين بمعجون أسنان؟ ولماذا؟ ومن الذي حفره أصلًا؟

تساؤلات تراقصت في ذهنه، دون أن تترك وراءها سوى غبار الحيرة.

ابتعد عن الجدار، وعاد إلى السرير ببطء. جلس على الحافة، طوى الورقة التي دون فيها ملاحظاته، وتمتم:

(لو كان القبطان باروناج هنا... لربط الخيوط بخيطٍ واحد، وحلّ اللغز قبل أن ينتهي الشاي من الغليان).

لكن القبطان لم يكن هنا.

وميناء كوتونو، حيث يرسو يخته ميلافا، بعيد في الزمان والمكان.

فكّر في السفر إليه، في ترك كل شيء خلفه والذهاب فورًا. لكنّه تراجع. عليه أن يجمع الأدلة أولًا، أن يقاتل بالمنطق قبل أن يطلب الدعم.

نهض فجأة، وكأنّ فكرة خاطفة انبثقت من رحم خياله. خرج من غرفته واتجه إلى مكتب الاستقبال، حيث كان كوهو يجلس، يعبث بقلمٍ ويبدو شارد الذهن.

اقترب منه وقال بنبرة هادئة ولكن صارمة:

= سيد كوهو ، هل يمكنني أن أعرف من هم نزلاء الغرفة **302**، في الليلة التي مات فيها السيد كونجاكو ؟

نظر كوهو إليه وكأنه بدأ يسأم من تلك القضية، ثم دون أن يعلّق، أدار كرسيه نحو خزانة الدفاتر القديمة. أخرج دفتر النزلاء، فتحه على قسم العام الفائت، وتحديدًا على آخر ليلة في السنة.

مرّ بأصابعه على السطور، ثم نسخ أربعة أسماء على ورقة صغيرة، وناولها لسبيروزار دون أن ينطق بكلمة.

= هل لاحظت أي شيء مهم على هؤلاء الشباب يا كوهو؟

= أبداً، هم ثلاثة طلاب جامعيين، وواحد فقط يعمل **مساعداً في الشرطة يدعى توسو** وقد جاء الطلاب من العاصمة لزيارة زميلهم الذي يقيم هنا في أويدا والاحتفال سوياً بالعام الجديد ونزلوا في هذا الفندق.

= وهل تعرف عنوان ذلك الشاب توسو؟

= كلا سيدي، لكن يمكنك معرفته من قسم الشرطة حيث يعمل.

إذن فالخطوة التالية باتت واضحة. عليه زيارة قسم الشرطة للاطلاع على ملف القضية، ومحاولة جمع معلومات عن المدعو توسو.

*****

التوجه إلى قسم الشرطة.

في اليوم التالي، غادر سبيروزار الفندق بخطى ثابتة، لكن شيئًا من القلق كان يرافقه في الظلال، كأن الهواء نفسه بات أكثر ثِقلاً كلما اقترب من الحقيقة.

كان الصباح في أوله، والمدينة تستيقظ على ضوضاء العربات وباعة الأرصفة وأبواق الدراجات النارية.

تجاوز الزحام دون أن يلتفت، وسلك شارعًا جانبيًا حتى وصل إلى مبنى قسم الشرطة المركزي.

بُني القسم على الطراز الاستعماري القديم، حجارة داكنة، نوافذ حديدية، وشرفة مرتفعة يقف عندها شرطي جامد الملامح.

صعد سبيروزار الدرجات الحجرية القديمة بخفة وحذر، يطالع بعينيه كل تفصيلة في واجهة المبنى، كأنه يدخل مسرحًا عليه أن يؤدي فيه دورًا دقيقًا لا يقبل السهو.

كان مبنى قسم الشرطة مهيبًا، تتدلى من سقفه مروحة حديدية تصدر أزيزًا باهتًا، والمكان تغمره رائحة ورقٍ قديمٍ، وبنٌ محمص، وماءٍ راكد في مكان ما لا يُرى.

اقترب من حارس البوابة، قدّم نفسه بهدوء على أنه محقق خاص موكَّل من قِبل ابنة الضحية، الطبيبة كالوما كونجاكو، للتحقيق في ملابسات وفاة والدها الغامضة.

تبادل الموظف النظرات معه، تردد للحظة، ثم طلب منه الانتظار على أحد الكراسي الجلدية المهترئة في الردهة.

جلس سبيروزار، متصنعًا الهدوء، بينما عينه ترصد كل حركة وكل شخص يعبر أمامه.

مرّت الدقائق بطيئة، قبل أن يُفتح أخيرًا باب داخلي مطلٍ بطلاء أخضر باهت، وخرج منه شرطي أشار إليه للدخول.

دخل سبيروزار بخطوات موزونة، ليفاجأ بوجود رجل يجلس في عمق

الغرفة، كأنما وُضع هناك منذ سنين دون أن يبرح مكانه.

رجل طويل القامة، نحيل البنية، كتفاه ناحلتان لكن رأسه مرفوع بثبات، وجهه ساكن لا يشي بشيء، ملامحه دقيقة كأنها نُحتت بإزميل، وعيناه معتمتان تراقبان الداخل وكأنهما تبحثان عن كذبة بين شفتيه.

كان يجلس خلف مكتب أنيق تتناثر عليه أوراق ملفوفة ومطوية بعناية، يضع أمامه قلمًا ذهبي الرأس لا يبدو أنه يُستعمل كثيرًا.

البزّة التي يرتديها كانت مرتبة إلى حد يوحي بالهوس، الأزرار مصقولة، والحزام مشدود، والشارة النحاسية على جيبه الأيسر تعلن بصمت اسمه ورتبته: **المقدّم موتيغو**.

تقدّم سبيروزار نحوه دون أن يتيح لموجة التردد أن تمسّه، مدّ يده بتحية حازمة مدروسة، وقال بنبرة واضحة، مُتقنة، لا يشوبها ارتباك:

= سبيروزار، محقّق خاص مُرخص من الولايات المتحدة، وقد تم توكيلي رسميًا من قِبل الطبيبة كالوما كونجاكو للتحقيق في ملابسات وفاة والدها، التي – كما يبدو – لم تُقنع الأسرة حتى الآن .

لم يتحرك موتيغو.

ظلّ ساكنًا، كأنه اعتاد ألا يردّ على البشر بل على إحساس داخلي يقيّم كل كلمة تُقال له.

ثم – بعد صمت ثقيل – رفع رأسه قليلاً، وألقى على سبيروزار نظرة طويلة لا تخلو من الحذر، ثم قال بصوت منخفض ولكن صارم:

= أهلا بك حضرة المحقق، كيف يمكنني مساعدتك؟ وإن كنت أشك كثيراً في إمكانية وصولك إلى أي شيء.

= ولماذا هذا الشك؟

= لأنها قضية غامضة للغاية، والتفسير الوحيد المنطقي لها هو كما يقول الناس في المدينة، أن لأرواح الأجداد علاقة بالموضوع.

= لا أنكر أن القضية غامضة بحسب ما سمعت عنها، لكن بكل الأحوال لقد وكلتني ابنة السيد كونجاكو وعلى القيام بعملي، فهل يمكنني الاطلاع على

ملف القضية؟

= بالطبع يمكنك.

ضغط زراً على مكتبه فدخل على الفور مساعد له إلى الغرفة.

= أحضر لي ملف قضية موت السيد كونجاكو.

لاحت دهشة واضحة وقلقة على وجه المساعد، لكنه أجاب بحزم.

= في الحال سيدي.

غاب المساعد لدقائق، قبل أن يعود بخطى ثابتة حاملاً ملفًا أحمر اللون، سميكًا، كأنما يحوي أسرار سنوات لا أوراقًا فقط.

ناوله إلى سبيروزار بصمت، ثم أشار له أن بإمكانه التصفح على مهل، بينما المقدّم موتيغو واصل جلوسه الصامت، يتأمل وجوه الحقيقة من خلف قناع الهدوء المهني الذي ارتداه سبيروزار، الذي فتح الملف بتركيز عالٍ. الأوراق كانت مرتبة بعناية، مليئة بالتقارير الروتينية، وشهادات سريعة مأخوذة من بعض النزلاء والموظفين. لم يكن فيها ما يثير الانتباه، كأنما كُتبت لتغلق الباب لا لتفتحه.

لكن سبيروزار لم يكن يبحث عن الإجابات الواضحة. كان يفتّش في الهوامش، في الفراغات بين السطور، حيث يختبئ الشك.

وصل أخيرًا إلى التقرير الطبي الشرعي.

قرأه بعقلية الطبيب الخبير الغافي في أعماقه:

(تمزّق في الأحشاء، نزف باطني غزير في منطقتي البطن والصدر، دون وجود أي آثار ضربٍ أو رضٍّ خارجي مرئي)

عبس قليلًا. نزيف داخلي بلا رضوض خارجية؟ هذا بحد ذاته لغز تشريحي !!

لكن أكثر ما أثار انتباهه كان سطرًا صغيرًا، كُتب على الهامش، كأن كاتبه لم يرد أن يُرى:

(ملاحظة: تم رصد جرح صغير بين الفخذ الأيسر وكيس الصفن، لا تفسير واضح له)

توقف سبيروزار لحظة.

قرأ الجملة مرة أخرى.

الجرح الصغير، في موضع مخفي عن العين المجردة، دون تفسير، دون تعليل، دون تكملة... وكأن أحدهم أراد أن يقول شيئًا... ثم تراجع في اللحظة الأخيرة.

أغلق الملف بهدوء، التفت إلى المقدّم موتيغو، وقال:

= شكرًا لتعاونكم، سيادة الضابط. أعترف أنها قضية غامضة وعجيبة، لكن هنالك نوع من القضايا لا تموت... بل تنام وتنتظر قبلة محقق جديد كي تستيقظ.

= لنرى ما يمكنك فعله حضرة المحقق. من وجهة نظري، أنت بحاجة لمعجزة كي تغير مسار القضية.

اكتفى سبيروزار بالابتسام وقد قبل التحدي، شكره على تعاونه ثم غادر القسم ...

في الخارج، تنشّق هواء المدينة الذي بدأ يثقل بالرطوبة مع اقتراب الغروب. كان قلبه يخفق، وعقله يشتعل بأسئلة لا إجابات لها بعد.

لم يعد يحتمل المزيد من التشتت. كان بحاجة إلى من يرى الزوايا المظلمة، من يُحسن قراءة الصمت أكثر من الضجيج.

كان بحاجة إلى باروناج.

*****

العودة إلى اليخت.

استقل سبيروزار أول سيارة أجرة في طريقه، واتجه جنوبًا نحو ميناء كوتونو، حيث يرسو يخته الخاص – ميلافا – والذي، كما كلّ شيء في حياة سبيروزار، ليس كما يبدو.

وبعد قرابة الساعة، وصل أخيرًا. أوقف السيارة قرب الرصيف رقم **7**، وسارع الخطى كمن يهرب من شيء لا يُرى.

صعد على متن اليخت بخفة، والذكريات تُطارده. جولات سابقة، قضايا منسية، وحوارات ذهنية لا تنتهي.

وقف أمام اللوحة المعدنية الصغيرة في القمرة الرئيسية، حيث يوجد زره المفضل: **اسألني**.

ابتسم رغم إرهاقه.

مدّ إصبعه وضغط الزر.

أجزاء من الثانية ثم انبثق مجسم القبطان مع الصوت العميق، المألوف:

= أهلاً حضرة الطبيب مورفين. يبدو أنك تحمل أخباراً هامةً للغاية.

ابتسم سبيروزار وقد بدأ يعتاد على ذكاء القبطان العاطفي العجيب.

= أهلاً قبطان. بالفعل أخبار غاية في الغرابة تكاد لا تصدق.

شرع يروي للقبطان تفاصيل مغامرته السابقة بالتفصيل منذ غادر اليخت حتى عودته الآن إليه. ثم ختم بسؤال.

= والآن، ما رأيك بما سمعته قبطان؟

= بتحليل جميع المعلومات التي قلتها، نحن أمام جريمة قتل أيها الطبيب مورفين.

= جريمة قتل ؟!

= أجل، فهنالك عدة نقاط مهمة في القصة يمكن ربطها ببعض لنتوصل إلى هذه النتيجة.

= وما هي هذه النقاط؟

= **أولاً** التوقيت وهو رأس السنة حيث يحتفل السكان ويتم إطلاق الألعاب النارية والرصاص.

ثانياً طبيعة نزلاء الغرفة المجاورة **302** فأحدهم كما أخبرتني مساعد في الشرطة.

ثالثاً الثقب الذي وجدته في الجدار الفاصل بين الغرفتين والذي حشي بمعجون الأسنان، وكان بمحاذاة السرير.

رابعاً وجود جثة السيد كونجاكو الممددة على السرير.

خامساً وأخيراً الملاحظة الصغيرة المدونة في تقرير الطبيب الشرعي عن الجرح الصغير قرب فخذ الضحية.

فبمحصلة هذه النقاط يصبح لدينا سيناريو ممكن ومنطقي لما حدث في تلك الليلة حضرة الطبيب مورفين.

اجتاح وجدان سبيروزار خليط من الحماسة والفضول.

= وما هو هذا السيناريو قبطان؟

= لقد كان توسو مساعد الشرطة يحمل مسدسه الخاص في تلك الليلة التي قتل فيها السيد كونجاكو وعند منتصف الليل ومع احتفال الناس بالألعاب النارية وإطلاق الرصاص، أخرج مسدسه كغيره وهو في حالة سكر وأطلق منه عدة رصاصات مبتهجاً بدوره، فاخترقت إحداها الجدار الفاصل بين الغرفتين **302** و **303** ثم جسد السيد كونجاكو الممدد على السرير بين الفخذ وكيس الصفن ممزقةً أحشاء البطن والصدر ومسببةً نزيفاً باطناً غزيراً فيهما. وفي اليوم التالي عندما عرفوا بحدوث وفاة في الغرفة المجاورة شعر توسو بالرعب فاستخدم معجون الأسنان لإخفاء الثقب في الجدار تماماً ...

ذهل سبيروزار من هذا التحليل والتفسير المنطقي للغاية، إن القبطان باروناج رهيب.

= لكن ألم يكن من الواجب أن يعثر الطبيب الشرعي على الرصاصة في جسد السيد كونجاكو؟

= باعتبار أنه لم يكن هنالك أثر للرصاصة في الغرفة فقد بقيت في جسد الضحية بالفعل، لكنها على الأرجح قد استقرت في أحد أضلاع السيد كونجاكو ولم ينتبه لها الطبيب الشرعي، لأنه أساساً لم يكن يفكر بفرضية إطلاق النار فغفل عن البحث عنها. ولا تنس أن الطب الشرعي هنا غير متطور كفاية مما يكبل إمكانيات الطبيب الشرعي.

= وما هو الدليل الدامغ على هذه الفرضية قبطان الذي يمكن تقديمه للشرطة؟

= عليك القيام بثلاث خطوات حضرة الطبيب مورفين بالتعاون مع ضابط الشرطة موتيغو.

الأولى، طلب الإذن والمساعدة من الطبيبة كالوما ابنة الضحية لفتح قبره والبحث عن الرصاصة فهي لابد أنها أصبحت واضحةً الآن بعد تحلل الجسد.

هز سبيروزار رأسه موافقاً بدهشة.

= والثانية؟

= **الثانية**، مراقبة المساعد توسو ومعرفة نوع مسدسه ومقارنة الرصاصة به.

= بالضبط، وفي حال تأكدنا من المطابقة بين الرصاصة والمسدس؟

= تأتي الخطوة **الثالثة** والأخيرة، وهي جمع المعلومات عن الطلاب الشباب الذين سهروا برفقة توسو في ليلة الجريمة واختيار الشخص الأضعف ثقة بنفسه منهم، ثم مواجهته من قبل الضابط موتيغو بأنهم اكتشفوا ما حدث وأنه إن لم يعترف بما فعله توسو فإنه سيسجن معه بتهمة التعاون على القتل وإخفاء أدلة عن الجريمة، وعندها سينهار لا محالة ويعترف فهو شاب صغير العمر بالأساس، يتم بعدها إلقاء القبض على توسو و مواجهته بالأدلة وباعتراف زميله.

كان سبيروزار يصغي بذهول حقيقي، عيناه تتسعان شيئًا فشيئًا، كأن عقله يُعاد تشكيله مع كل كلمة يتفوه بها القبطان باروناج. ذلك الذكاء الاصطناعي المتجسد بمجسم هولوغرام، يبدو أشبه برجل خرج للتو من رواية تاريخية، ولم يكتف بتحليل الحقائق المبعثرة التي جمعها سبيروزار خلال أيام فحسب، بل نسج منها في دقائق شبكة متقنة تكاد تلتقط الشيطان نفسه إن كان المجرم. لحظة نبوغ تقتحم غموض الموت وتعيد ترتيب الأحجار الساقطة من جدار الحقيقة.

وحين انتهى باروناج من تحليله، هزّ سبيروزار رأسه وقال، بصوت لم يخلُ من انفعال صادق:

= أنت مذهل... كالعادة، قبطان.

ثم وقف، وقد امتلأ صدره بنشوة من يستعيد السيطرة بعد تيه، وأضاف بحماسة رجل وجد البوصلة وسط العاصفة:

= سأتصل مباشرةً بالطبيبة كالوما. يجب أن تعرف كل شيء، حالًا. ستكون في غاية السعادة لسماع هذا التفسير... الذي لا يبرئ والدها فحسب، بل يُعيد إليه كرامته، ويمحو تلك الصورة المشوّهة التي علقت به بعد موته... صورة الرجل الذي اتُّهم بالشيطنة، وبأنه كان مسكونًا بروح شريرة استحقت العقاب بوحشية.

*****

الفصل الرابع

بنين.

العاصمة بورتو نوفو...

أخرج سبيروزار هاتفه النقال واتصل بالطبيبة كالوما، وبصوتٍ حنون فيه نبض قوي من الأمل والطمأنينة، أبلغها بأنه توصّل إلى معلومات هامة للغاية بخصوص وفاة والدها، معلومات قد تغيّر كل ما كانت تعتقده عن تلك الليلة الغامضة، وعن القضية التي ظلّت بالنسبة لها لغزًا مؤلمًا لا يُفك.

لم تتردد كالوما لحظة. بدا صوتها على الطرف الآخر مشوبًا بلهفة مكبوتة، وعرضت عليه على الفور اللقاء الشخصي لأول مرة بينهما.

= هل نلتقي في مقهى سافانا وسط العاصمة كي نتحدث أكثر ؟

أجاب دون تردد:

= مناسب للغاية... نلتقي على الساعة السادسة هناك... ؟

= اتفقنا...

كان المقهى معروفًا بهدوئه، محاطًا بأشجار خضراء كثيفة وعبق البن المحمص، ويبعد بضعة كيلومترات عن ميناء كوتونو، حيث ترسو السفن وتتقاطع الحكايات.

وعند الساعة الخامسة وخمسٍ وأربعين دقيقة، كان سبيروزار قد وصل إلى المقهى وجلس إلى إحدى الطاولات الخارجية المطلة على الشارع الحجري. الجو ساكن، والهواء دافئ بلطف استوائي، وعبير أزهار الجهنمية يتسلل من الأسوار المجاورة. طلب قهوة سوداء، وجلس يتأمل المارة بنظرات شاردة. كان يحاول ترتيب أفكاره، الكلمات التي سيقولها، التفاصيل التي ستقلب عالم كالوما رأسًا على عقب.

تمام الساعة السادسة، وصلت كالوما.

كانت ترتدي معطفًا بلون الرماد، وشعرها مربوط إلى الخلف بدقة، وجهها شاحب بعض الشيء لكن عينيها كانتا متقدتين بالبحث والتوقع. وقفت للحظة

على مدخل المقهى، تنقل نظرها بين الجالسين، حتى لمحته.

نهض سبيروزار فورًا ولوّح لها بابتسامة هادئة. اقتربت بخطوات حذرة، لكنها حين صافحته، شعرت أن شيئًا في هذا الرجل يوحي بالثقة.

جلسا سويًا، ولحظة أن استقرت على الكرسي، نظرت إليه بعينين متسعتين ونطقت بكلمات مغمورة بالامتنان:

= أشكرك مجدداً سيد جان على مساعدتك لي ولسمعة والدي، لا سيما أنك لست مضطراً على فعل ذلك على الإطلاق.

= لا وقت للشكر الآن، فلدي معلومات هامة للغاية تشير بشكل شبه مؤكد إلى أن والدك قتل من قبل شخص.

أشرق وجه كالوما بالأمل.

= قتل! حقاً!... ما هي هذه المعلومات سيد جان ...؟

ارتشف سبيروزار رشفة من قهوته، ثم تنفّس ببطء، كمن يستعد لسردٍ لا يحتمل الخطأ. بدأ يروي لها كل ما حدث... تفاصيل بحثه المضني في الفندق، الساعات التي قضاها متجولًا بين الممرات والغرف، بحثًا عن أي خيط يربط أجزاء اللغز. ثم تحدّث عن زيارته لقسم الشرطة، كيف راجع التقارير القديمة، وقرر استجواب الشهود من جديد، وأعاد ترتيب الوقائع بمنهجية لا تكلّ ولا تملّ.

كان صوته متزنًا، تحليليًا حينًا، ومتعاطفًا حينًا آخر. سرد الحقائق كما هي، دون مبالغة أو تزويق، لكنّ نبرته كانت تحمل بين السطور رغبة عميقة في إعادة شيء من العدالة إلى وجه الحياة، لا سيما لامرأة تجلس أمامه وقد علّقت قلبها على تفسيرٍ واحد منحه الأمل وسط الركام.

كالوما كانت تنصت بشغفٍ لا يخلو من الوجل، حاجباها المقطبان دلالة تركيزٍ عميق، ونبض أناملها فوق فنجان القهوة يفضح توترًا مكتومًا. ومع كل كشف جديد، وكل تفصيل أعاد صياغة الحكاية، كان الأمل يرتسم شيئًا فشيئًا في عينيها.

وحين انتهى سبيروزار من حديثه، خيم صمت ثقيل للحظة، كأنّ الكلمات ما زالت تتردد في الهواء. ثم فجأة، وكأن شيئًا انكسر بداخلها، اغرورقت عيناها بالدموع، وأجهشت بالبكاء.

لم يكن بكاءَ ضعف، بل بكاءُ من تحرّر من سجنٍ طويل من الشك والوهم والتشويه. شهور من الألم، ومن اتهامات الناس بأن والدها لُعن من أرواح الأجداد، وكأنه ورث خطايا الشياطين بدلاً من أن يحمل لقب أبٍ حنون... كلها انهارت دفعة واحدة.

ومن دون وعي منه، مدّ سبيروزار يده إلى يدها، وأمسك بها بلطف. ضغط بأصابعه على أناملها في إيماءة صامتة، تحمل ما لا تستطيع الكلمات قوله. لم تتراجع، ولم تُبعد يدها، بل بادلت القبضة نفسها.

نظرت إليه، ورفع هو عينيه نحوها... في تلك النظرة التي جمعت بينهما، لم يكن هناك مجال للتأويل أو الشك. لا أحد يحدق في شخص هكذا، إلا إذا كان قلبه قد انحاز بالفعل.

في تلك اللحظة، فهم كلاهما ما لم يُقال بعد:

لقد أغرما ببعضهما منذ اللحظة الأولى.

لكنّ الحب هنا لم يكن نبتًا ناعمًا وطارئًا، بل ثمرة نضجت على مهل، وسط رماد الحقيقة، وفي حضرة العدالة المنتظرة.

همس بصوت خافت:

= هدئي من روعك آنسة كالوما، أنا أعرف أن خسارتك فادحة والوضع الذي فرضته عليك الجريمة بغموضها شائك وسيء، لكن الأخبار الحالية جيدة وتقربنا أكثر من الإمساك بالقاتل.

هدأت قليلاً عقب كلامه المطمئن والأمل الجديد الذي يلوح بالأفق.

= إنها أخبار مهمة وإيجابية بالفعل سيد جان، أشكرك مجدداً على جهدك المميز وبحثك المثير للإعجاب عن الحقيقة.

= إذا فأنت توافقين على الكشف عن جثمان والدك من جديد ؟!

= بالطبع، إنه أمر غير مستحب بلا شك، لكنه ضروري ولا مفرّ من القيام به.

= وأين يوجد القبر؟

= في مدينة أويدا مسقط رأس والدتي. فقد دفن بجوار قبرها.

= ومتى سنقوم بذلك؟

= الآن، لا حاجة لأي لحظة تأخير. هيا بنا إلى قسم شرطة أويدا لنشرح للضابط موتيغو ما توصلنا إليه، ليكون بنفسه شاهداً على مجريات الأحداث اللاحقة.

دفع سبيروزار الحساب وهمّا بالمغادرة. كان الليل قد بدأ يمدّ عباءته الزرقاء على المدينة، والأضواء الصفراء في الشوارع بدأت تومض بكسلٍ خفيف كأنها تتثاءب. استقلا سيارة كالوما التي كان محركها يئن بنغمة ترقب بدوره، وانطلقا معًا نحو مدينة أويدا من جديد، عائدين إلى حيث ابتدأت كل الحكاية.

الطريق كان هادئًا على غير عادته، لا أصوات دراجات، لا موسيقى مرتفعة من النوافذ، فقط أنفاس الريح وهي تعبث بأشجار الطريق. كان سبيروزار شاردًا يرمق انعكاس المصابيح على زجاج السيارة، وكالوما تقود في صمت، بين حينٍ وآخر تتبادل معه نظرة خاطفة، نظرة ليست للحديث بل لتأكيد أن كليهما مدرك لما يفعله، ومنغمس الآن في مهمة قد تغيّر كل شيء.

مع وصولهما إلى قسم شرطة أويدا، كانت الساعة تقترب من التاسعة. الردهة الخارجية خافتة الإضاءة، والبوابة نصف مفتوحة، مما أوحى لهما بأن الضابط موتيغو ما يزال في الداخل.

دخلا دون تردد، وكان موتيغو بالفعل جالسا خلف مكتبه المتين، منكّس الرأس على أوراق مبعثرة، وكأنّه يبحث عن إبرة الحقيقة في كومة تقارير.

رفع رأسه ببطء حين لاحظ اقترابهما، وتجمّدت ملامحه للحظات، لكن سبيروزار لم يمنحه الوقت للسؤال، بل تقدّم بخطى واثقة وقال بصوته الجهوري الرصين:

= سيادة المقدّم موتيغو، أتيتكم الآن بعد أن اكتملت لديّ الصورة... اسمعني جيدًا، فالقضية التي شغلتكم طيلة الأشهر المنصرمة وصلت إلى نقطة الانكشاف...

رفع موتيغو حاجبيه ببطء وترك قلمه على الطاولة، ثم أشار لهما بالجلوس دون أن ينبس بكلمة.

بدأ سبيروزار بسرد التفاصيل، بأسلوبه المحترف الذي يجمع بين المنطق والدهشة. حكى عن زيارته للفندق، عن التناقضات، عن الملف الأحمر الذي راجعه هنا في قسم الشرطة، وعن التقرير الغامض للطبيب الشرعي، ثم ربط الخيوط كلها ببعضها وسط دهشة واعجاب الضابط موتيغو الذي قال بنهاية الحديث.

= هذه معطيات هامة للغاية ورواية منطقية جداً. ما المطلوب مني الآن سيد سبيروزار؟

التفتت كالوما إلى سبيروزار بدهشة بعد أن ناداه المحقق باسم آخر غير جان، لكن نظرة واحدة من سبيروزار أسكتتها.

= المطلوب منك مساعدتنا في الخطوات الثلاثة للإيقاع بتوسو حضرة الضابط.

= حسناً ومتى ترغبان بالبدء بأولى الخطوات ...؟

ردت كالوما بحزم.

= الآن مباشرةً نتجه إلى القبر ونتفحص جثمان والدي من جديد.

= لكن الليل حل ...!

= لا مشكلة نستخدم المصابيح، إن كل لحظة نتأخر فيها تبعدنا أكثر عن الحقيقة.

هز الضابط رأسه بدهشة.

= حسناً، لنذهب.

نادى الضابط على مساعده وأمره بتجهيز عدة حفر مع مجموعة مصابيح يدوية كشافة على الفور.

في أقل من ربع ساعة، كانت سيارة الشرطة تشق الطريق المظلم نحو أطراف أويدا، حيث ترقد مقبرة العائلة القديمة تحت ظلال أشجار الكافور الملتفة، وحيث قبر السيد كونجاكو بدا ككتلة صامتة من الحجارة وسط عالمٍ لا يعبأ بالأسرار التي يُخفيها تحت ترابه.

هبطوا من السيارة، وبدأوا العمل على الفور. أشرف موتيغو على عملية الحفر وتوزيع أماكن المصابيح. لحسن الحظ كانت الأرض لا تزال رطبة قليلًا من أمطار الليل الفائت، مما سهل عليهم الحفر. وقف سبيروزار إلى جانب القبر، ساكنًا كتمثالٍ من صخر، عيونه تراقب كل ضربة فأس وكأنها تفك قيدًا روحيًا ظلَّ يُكبّل الحقيقة لشهور.

كالوما وقفت خلفه بصمت، تُحدق في التربة التي كانت تفقد طبقاتها الواحدة تلو الأخرى. لم تكن تبكي، لكنها بدت كمن يحبس دموع قرنٍ كامل.

استغرقت عملية الحفر قرابة ثلث ساعة، ساد فيها الصمت الكامل، لا صوت سوى احتكاك المعدن بالتربة، والتنفس المجهد لعناصر الشرطة. وأخيرًا... ارتطمت الفأس بشيء صلب.

توقّف الجميع.

ثم بدأت ملامح الهيكل العظمي تظهر ببطء من بين الغبار والتراب، ومعها ارتفع التوتر كأنّ الهواء قد امتلأ فجأة بتيار كهربائي غير مرئي.

قفز سبيروزار الى داخل القبر، جثا على ركبتيه قرب الهيكل العظمي، وأخذ يسلّط مصباحه بدقة على القفص الصدري. مرّر أنامله بحذر على

العظام، يبحث عن شيء محدد. لحظة مرت. ثم أخرى.

وفجأة، انفرجت شفتيه عن تنهيدة ظافرة. صرخ بصوتٍ مخنوقٍ بالانتصار:

= ها هي...

كانت رصاصة صغيرة مغروسة في إحدى الأضلاع الخلفية، تُشبه شظية حية تومض بلون نحاسي باهت، لكن أضواء المصابيح جعلتها تلمع كجوهرةٍ الحقيقة تحت الأرض.

عند تلك اللحظة، أطلقت كالوما صرخة قصيرة، كأنها انتزعت من عمق قلبها. ثم غرقت بالبكاء، بكاء مكتوم في البداية، ثم انفجر دفعة واحدة، صارخًا، مزلزل، كما لو أن شهوراً من الحزن والتساؤل والوصمة التي لاحقتها منذ وفاة والدها وجدت مخرجها في تلك البقعة المظلمة من المقبرة.

حتى موتيغو، الضابط الصلب، بدا مذهولًا. عيناه اتسعتا وهو ينظر إلى الرصاصة، ثم إلى سبيروزار الذي ما زال منحنياً.

رفع سبيروزار نظره إلى كالوما، ثم نهض واقفًا ومدّ يده ليشدّ على كتفها برفق. كانت عيناها تفيضان دمعًا، لكن وسط ذلك الحزن كانت تتوهج شعلة صغيرة: شعلة العدالة التي بدأت أخيرًا بالسطوع بعد نفق مظلم طويل ظنته لن ينتهي.

= هدئي من روعك حضرة الطبيبة، المهم أن الحقيقة قد تكشفت بشكل قاطع وبدليل دامغ، لكن ما يزال أمامنا خطوات أخرى للإيقاع بالقاتل.

استخرج الضابط الرصاصة من الضلع بصعوبة نسبياً ثم وضعها في جيبه وهو يقول بنبرة مشبعة بالغيرة والضيق من سبيروزار الذي نجح خلال أيام بتحقيق ما عجز عنه على مدار عام كامل.

= عمل جيد سيد سبيروزار. أنت محقق فذ. !!

ابتسم سبيروزار وهو يقول في نفسه، إن القبطان باروناج هو الفذ والمذهل فقد حل القضية في ثوان.

= لقد حالفني الحظ حضرة الضابط، والآن عليك مساعدتنا في معرفة إن

كانت الرصاصة من مسدس توسو بالفعل.

= هذا أمر يسير، فهو مساعد في قسم الشرطة ويمكن الحصول على معلومات عن سلاحه بسهولة.

أعاد الضابط موتيغو وسبيروزار دفن جثمان السيد كونجاكو بأيدٍ متعبة وقلوب مثقلة. كانت التربة رطبة، تنبعث منها رائحة الأرض الأولى، وكأنها تهمس لهم بسرّ دفنته طويلًا بين ضلوع رجلٍ كان يومًا يُخشى منه ويُهاب ثم انقلب الجميع عليه وتم تشويه صورته وسمعته. وقف الجميع لحظة صمت، احتراما لروحه، ولحقيقة جاءت متأخرة لكنّها أنصفت اسمه.

لم ينبس أحد بكلمة أثناء العودة إلى قسم الشرطة، إذ كان لكل منهم ما يكفيه من صدمة واكتشاف. وكانت كالوما تجلس صامتة في المقعد الخلفي، تلتف حول نفسها كأنها تحاول أن تتماسك بعد زلزال داخلي، بينما سبيروزار يجلس إلى جانبها، متيقنًا من أن لحظة المواجهة القادمة ستكون أكثر حسماً.

وما إن وصلوا إلى القسم، حتى جلس الضابط خلف مكتبه وطلب من مساعده جلب تقرير المقارنة الجنائية بين الرصاصة المستخرجة من القبر، ونوع السلاح الذي يملكه توسو. لم تمضِ سوى دقائق قليلة، حتى عاد المساعد حاملاً أوراقًا مطوية، ووجهه شاحب كأنّه أدرك قبل أن ينطق بما تحمله الصفحات.

فتح موتيغو التقرير بعناية، قرأ سطرًا... ثم آخر... قبل أن يرفع عينيه نحو سبيروزار ويعلن بصوت بطيء لكن حاسم:

= نتيجة المقارنة إيجابية. تطابق تام بين نوعي الرصاص. والآن ما هي الخطوة التالية برأيك حضرة المحقق سبيروزار؟

= الخطوة التالية هي جمع المعلومات عن الطلاب الشباب الذين سهروا بصحبة توسو ليلة رأس السنة فهم ولابد شهود على الجريمة التي وقعت وتستروا على صديقهم توسو.

رد الضابط موتيغو:

= هذا يسير أيضاً، وإن كان يتطلب بعض الوقت.

بعد أن دوّن الضابط موتيغو الأسماء الثلاثة التي نطق بها سبيروزار بدقة، وعد بأن تكون كل المعلومات المطلوبة عن هؤلاء الشباب جاهزة مساء الغد، دون تأخير أو تهاون. كان التعب بادياً على الجميع، لكنّ هناك شيئًا في عيني كالوما بدا كوميضٍ مفاجئ. ربما هو قرار أو مواجهة كانت تؤجلها لسنوات.

وفي طريق عودتهما إلى فندق لو بالي، كان الليل قد ألقى بثقله على المدينة، وأضواؤها الخافتة تنعكس على الزجاج الأمامي كنجومٍ خجلى تهتدي بها الأرواح العائدة من متاهاتها. دخلت كالوما ردهة الفندق تتقدم بخطى واثقة، لكنها كانت تخفي وراء تلك الثقة تحديًا داخليًا مؤلمًا. تقدّمت من موظف الاستقبال، كوهو، وقالت بصوت لم يخلُ من رجفة:

= أريد النزول في الغرفة **303** الليلة.

رفع كوهو رأسه ببطء وكأنّه لم يسمعها جيدًا، رمش بعينيه مرتين، ثم قال بتردد:

= آنسة كالوما... أنتِ تعلمين أن الغرفة مغلقة منذ الحادثة... هنالك غرف شاغرة أخرى ، و لديك أيضا منزلك في المدينة، أليس كذلك ؟

قبل أن ينطق بكلمة إضافية، كان سبيروزار قد تقدّم بخطوة ووضع يده بلطف فوق المكتب وقال بحزم لطيف:

= الكاهن لاموسا زار الغرفة هذا الصباح... قام بطقوس التطهير كاملة، وطرد الأرواح العالقة كما يعتقد أهل المنطقة... قال إن المكان طاهر الآن، ولا مانع من استخدامه مجددًا... إذا رغبت، يمكنني أن أتصل به ليُخبرك بنفسه.

وقف كوهو صامتًا لوهلة، يتفحص نظرات سبيروزار التي لم تهتز، ثم نظر إلى كالوما، التي بدت وكأنها تقف على حافة رماد الماضي. تنهد وقال باستسلام:

= لا داعي للاتصال... إذا كان الكاهن قد قال ذلك، فلا بأس.

ثم مدّ يده إلى اللوح خلفه، ونزع منه مفتاحًا قديما يحمل الرقم **303**، ناوله لكالوكما بحذر كما لو أنه يُسلِّمها مفتاح الجحيم.

صعدت كالوما وسَبيروزار معًا إلى الطابق الثالث. لم يكن هناك صوت سوى صرير الأرضية الخشبية تحت أقدامهما، وصدى أنفاسهما المتوترة، وما إن استقرا أمام الباب، حتى أدخلت كالوما المفتاح ببطء، وفتحت الباب كمن يفتح جرحًا أُغلق لسنوات بضمادة واهية.

دخلت أولًا، تبعها سبيروزار، وأضاء المصباح الوحيد. في لحظة، تلاشى وهج التحدي من عيني كالوما، وتحول المكان إلى سرداب من الذكريات الدامية. نظرت حولها بصمت، ثم أغمضت عينيها وكأنها تسمع صوت والدها في زوايا المكان، أو تشم عطره على الوسادة القديمة، لم تحتمل أكثر، فانهارت على ركبتيها، وأطلقت دموعًا خافتة في البداية، ثم عالية كما لو كانت تبكي للمرة الأولى منذ تلك الليلة المشؤومة.

اقترب سبيروزار منها بلا تردد، وجثا بجانبها، وضمّها برفق إلى صدره، كان شهيقها الحار يهزّ جسدها كله، وهمس لها:

= أنتِ لستِ وحدك... لن تكوني بعد الآن.

بقي بجوارها حتى هدأت تماماً. ثم ودعها ليعود إلى غرفته **302** لكنه سمع صوتها من خلفه.

= شكرا لك سيد جان. أو سبيروزار لا أدري! أنا ممتنة لك لدرجة لا ينفع معها الكلام.

= يمكنك مناداتي سبيروزار فهو اسمي الحقيقي، لقد أخطأت بذكره أمام الضابط موتيغو ولم أتمكن من الانسحاب بعدها. فأنا متخفٍّ لظروف خاصة تحت اسم جان. وربما أروي لك الحكاية كلها ذات يوم. تصبحين على خير آنسة كالوما.

= تصبح على خير سيد سبيروزار

*****

في مساء اليوم التالي ...

رنّ هاتف سبيروزار قرابة السابعة مساءً، وكان على الخط الضابط موتيغو بصوته الحازم المعتاد، لكن فيه نبرة انتصار مكتوم:

= سيد سبيروزار ... الملفات الثلاثة على مكتبي الآن، يمكنك الحضور متى شئت.

أغلق سبيروزار الخط، التفت إلى كالوما التي كانت تقف عند النافذة تحدق في سماء رمادية لم تفرغ بعد حمولتها، وقال بابتسامة خفيفة:

= الخطوة التالية بدأت...

انطلقا معًا إلى قسم الشرطة في أويدا. كان النهار يلفظ أنفاسه الأخيرة، والمطر المتقطّع يبلل الأرصفة كأنه يطهرها من شيء غامض، يوازي ما يجري في القلوب.

في القسم، جلس سبيروزار والضابط موتيغو يتصفحان الملفات الثلاثة بعناية. صور وجوه شابة، تقارير دراسية، سجلات شخصية، وملاحظات سلوكية. ثم فجأة. قال سبيروزار مشيرًا إلى أحد الملفات.

= ها هو ...أغوسا، تسعة عشر عامًا، يبدو الأكثر ضعفًا بينهم ... هش نفسيًا، ومن النوع الذي ينهار تحت الضغط...

أومأ موتيغو برأسه، ثم التقط الهاتف و حاول الاتصال به. ولحسن الحظ، كما لو أن الأقدار قررت تيسير الخطة، كان أغوسا في زيارة إلى منزل جده داخل أويدا نفسها.

= مرحبًا، أغوسا ا؟ هنا الضابط موتيغو من قسم الشرطة. نحتاجك للحضور في أمر بسيط روتيني، لا تقلق، ليس هناك ما يدعو للخوف.

صوت الشاب على الطرف الآخر كان مترددًا و مرتجفا كمن يخفي أسرارا تثقل قلبه ، لكنه وافق مضطرا بالنهاية، فأمام الشرطة لا مجال للمناورة.

بعد قرابة الساعة، دخل أغوسا إلى مبنى الشرطة بخطوات مترددة ، يتلفت حوله كمن يسير في حقل ألغام.

كان الضابط قد جهّز غرفة الاستجواب مسبقًا .. لم تكن قاسية أو موحشة، لكنها أيضًا لم تمنح الشعور بالراحة. طاولة معدنية صغيرة، كرسيان متقابلان، وضوء ثابت يتدلى من السقف. جلس أغوسا يطرق بأصابعه على ركبته، حين دخل الضابط وخلفه سبيروزار بملامحه الجادة.

في الخارج، كانت كالوما تنتظر، قلبها يدق بقوة، وكأن اعتراف أغوسا لن يكون فقط بابًا للحقيقة، بل وسيلة للثأر الهادئ لكرامة والدها.

بدأ موتيغو الحديث بنبرة دافئة، كصديق قديم:

= نريد منك يا أغوسا أن تخبرنا ما حصل معكم ليلة رأس السنة في فندق لو بالي و ستتم كتابة شهادتك و ستوقع عليها و تبصم كذلك، فهل أنت مستعد للشهادة.

أجاب أغوسا بارتباك واضح و العرق ينضح من مسام كامل جلده.

= أجل سيدي.

أخذ أغوسا يروي القصة بطريقته الخاصة، أنهم سهروا و احتفلوا في تلك الليلة، وعندما استيقظوا في اليوم التالي سمعوا بحدوث وفاة في الغرفة المجاورة لهم، وأنه لا يعرف أكثر من ذلك، ثم وقع وبصم على شهادته.

هنا توجه إليه الضابط موتيغو بلهجة مختلفة. جدية ومنذرة وهو يمسك بشهادته بين أصابعه.

= اسمعني جيداً يا أغوسا. أنا أعرف الحقيقة بالضبط وكيف أطلق توسو النار من مسدسه على الجدار. لقد قتلت تلك الرصاصة السيد كونجاكو في الغرفة المجاورة ولدينا أدلة كافية على ذلك، وأنت الآن بشهادتك هذه متورط بالاشتراك بالجريمة وإخفاء الأدلة. أمامك خياران لا ثالث لهما. إما أن تحافظ على شهادتك وتدخل السجن لسنوات عديدة، أو أن تعترف بما حدث بالفعل ونكتب شهادة جديدة ونمزق هذه الشهادة لتخرج بريئاً تماماً من القصة كشاهد لا أكثر. فماذا تختار ...؟

اصفر وجه أغوسا وهو يصغي إلى كلام الضابط المهدد والمرعب ثم انهار مباشرةً.

= أجل سأعترف سيدي أنا لا علاقة لي بما حدث.

= حسناً، اشرح لنا ما حدث بالضبط.

= كما قلت سيادتك بالفعل، توسو هو الذي أطلق الرصاص من مسدسه لكن ذلك لم يكن بقصد القتل بل احتفالاً بقدوم العام الجديد وأصابت إحدى الطلقات الجدار بالخطأ فقد كنا في حالة سكر تام. وقد أنصتنا بعدها لنسمع أي صراخ من الغرفة المجاورة لكن الهدوء كان تاماً فيها باستثناء صوت الألعاب النارية في الخارج، وعندما علمنا في صباح اليوم التالي بأن رجلاً توفي في الغرفة المجاورة أصبنا بالرعب وقام توسو بإغلاق الثقب بمعجون الأسنان لإخفائه.

= ولماذا تسترتم عليه؟

= لقد سمعنا من كوهو موظف الاستقبال بأن الطبيب الشرعي قال بأن الجثة سليمة من الخارج وأن الوفاة طبيعية، فأخفينا قصة الرصاصة كي لا نضطر للاستجواب أكثر والتورط بالموضوع.

بعد جلسة طويلة من الأسئلة والإلحاح المتقن، جلس أغوسا أخيرًا على طاولة القسم يوقع على شهادته الثانية، وكأن القلم بين أصابعه يزن أكثر مما يحتمل. كانت كلماته هذه المرة حاسمة، صادقة، خرجت كمن يفرغ حملًا ظل يؤرق ضميره في كل ليلة. وحين أنهى التوقيع، طبع إبهامه في أسفل الورقة، ثم نهض بهدوء وغادر بخطوات مترددة، كأن الجدران من خلفه تبتلع جزءًا من ماضيه.

في الداخل، لم ينتظر الضابط موتيغو أكثر من لحظات. رفع سماعة الهاتف بيده اليمنى بينما الأخرى تضغط بقوة على سطح المكتب، وقال بنبرة لا تقبل التردد:

= أصدروا أمرًا فوريًا بإلقاء القبض على عنصرنا توسو.

خلال أقل من ساعة، كان توسو داخل القسم، يتصبب عرقًا رغم برودة الطقس. بدا مذهولًا حين وُضع أمامه اعتراف أغوسا، وصور الجثة،

وتقارير الأدلة الجنائية، لكن أكثر ما هدّ كيانه هو رؤية صورة الرصاصة وقد انتُزعت من ضلع السيد كونجاكو، تلمع كجرحٍ أبدي تحت الضوء البارد.

حاول الإنكار أولًا. تلعثم، وتراجع، ثم بدا وكأنه يصارع طوفانًا داخليًا يجرفه بعيدًا عن جسده. وما هي إلا دقائق حتى انهار تمامًا، وانهالت الكلمات من فمه المتصدّع:

= لم أقصد صدقوني... كنّا ثملين. أطلقت الرصاص ابتهاجاً، لكن يدي خانها الاتزان فخلفت رصاصة تائهة في الجدار.

ساد صمت ثقيل بعد اعترافه. لم يقاطعه أحد. لا موتيغو، ولا سبيروزار. فقط صوت أنفاسه المتهالكة كان يملأ الغرفة، كصدى ندم تأخر كثيرًا.

*****

بعد أيام قليلة.

قُدِّم توسو إلى المحاكمة وسط إجراءات مشددة. وتابع أهل أويدا القضية بتوتر متزايد، فالمدينة الصغيرة كانت قد اختنقت بالإشاعات والهمسات منذ وفاة السيد كونجاكو، وكان كثيرون يعتقدون أنه مات مسًّا من الأرواح أو لعنة الأجداد.

لكن الحقيقة حين ظهرت، بدت أكثر قوة من الخرافة. انتشرت القصة كالنار في الهشيم، تناقلتها المجالس والمقاهي، وبدأ الناس يتحدثون عن عودة الحقيقة وبراءة الميت.

أُدين توسو بجريمة القتل غير العمد، ونال عقوبة تتناسب مع فعله، لكنها لم تكن فقط عدالة قانونية، بل طهارة رمزية لاسم الرجل الذي رُجمت سمعته حيًّا وميتًا.

أما كالوما، فبدت كمن استعاد جزءًا من نفسه كانت قد دفنته منذ زمن طويل. لم يكن الأمر مجرد انتصار، بل شفاء. زال ذلك الظل الثقيل الذي كان يخنقها كلما مشت في شوارع أويدا، أو سمعت اسم والدها يُهمَس به.

وفي مساءٍ ساكن، عادت مع سبيروزار إلى القبر الذي نُبش ثم أُعيد ترميمه، ووضعت عليه زهورًا بيضاء جديدة كقلب والدها وطهارة روحه، كما لو كانت تعتذر لوالدها عن تأخر الحقيقة، وتشكره لأنه انتظرها.

*****

الفصل الخامس

بنّين / أويدا

بعد ستة أشهر من المحاكمة.

كان اليوم، حسبما كتبت كالوما في حسابها على تطبيق التواصل الاجتماعي، يوم ميلادها. لكنها لم تكتب شيئًا آخر. لا ابتسامة، لا تمنيات، لا حتى رموزًا احتفالية. فقط: يوم ميلادي. كأنها كانت تدرك أن هذا اليوم لا يحتمل إلا الصمت. صمت يشبه انحناءة الغيم قبل المطر.

كانت قد عادت قبل أشهر قليلة إلى منزل والدها في أويدا، ذلك المنزل الذي كان يومًا ممتلئًا برائحة العود والتعاويذ، والموسيقى الحزينة التي تعزفها الأرواح في الليل لمن يفهم لغتها. عادت إلى عملها في مشفى المدينة، إلى الوجوه التي تعرفها جيدًا لكنها صارت تشعر وكأنها تراها لأول مرة، وكأنها عادت من عالمٍ آخر لا يشبه هذا العالم، وإن كان يسكنه نفس البشر.

أما سبيروزار، فكان لا يزال يقيم في الغرفة **303** من الفندق العتيق، تلك الغرفة التي صارت مع الوقت أكثر من مكان: صارت نُقطة عبور بين عالمين، أو مرآة مقلوبة يرى فيها من يجرؤ وجهه الحقيقي. كان يعمل مع البعثة الطبية المتطوعة في المدينة، لا يطلب أجرًا مرتفعًا، ويؤدي عمله بإتقان غريب، يشبه الإيمان أكثر مما يشبه المهنة.

ثم، كما تُفتح صفحة قديمة في كتاب منسي، كشف سبيروزار لكالوما عن اسمه الحقيقي. وعن قصته. وعن رحلته. لم يكن يحاول إقناعها، بل كان يتحدث وكأنه يروي حلمًا يعرف أنه حقيقي، حتى لو لم يُصدَّق. حكى لها عن كوكب كوليتوس، وعن لقائه بالسيد ميدوسيز، عن الرسائل التي تصله عبر الضوء، وعن المهمة التي أوكلت إليه: تحرير روح والدها العالقة بين العوالم، تلك الروح التي لم تهدأ منذ ليلة مقتله.

كان يمكن لكالوما أن تسخر. أن تتهمه بالجنون. أن تضحك أو تنسحب. لكنها لم تفعل. لأنها تؤمن. منذ طفولتها، تؤمن. بالفودو، بالأرواح، بالعالم الذي يتنفس من خلف الحُجب. وحين رأت بأمّ عينيها ما فعله... صدّقته.

بل شعرت أنها كانت تعرفه قبل أن تلتقيه.

وما قصة الفضائيين من كوكب باي، التي شهدتها البشرية برمتها، أكثر غرابة من طقوس كانت كالوما تحفظها منذ الطفولة وترددها دون أن تعرف سرّها. كان كل شيء، فجأة، منطقياً في عالمٍ بلا منطق.

وفي ذلك اليوم، يوم ميلادها، دعاها سبيروزار إلى الغابة المقدسة في قلب المدينة، حيث ترتفع مجسمات آلهة الفودو من الطين والخشب والحجر، يكسوها الطحلب والرماد، وتحرسها أشجارٌ عمرها مئات السنين.

كانت ترتدي ثوبًا أزرق بلون السماء بعد المطر، وشعرها مغطى بوشاح أرجواني، عيناها تلمعان كما لو أن الروح استيقظت داخلهما.

وهناك، تحت الشجرة المقدسة التي يُقال إن أرواح الأجداد تتحدث عبر أغصانها، ركع سبيروزار على ركبته. لم يحمل صندوقًا مخمليًا، ولا خاتمًا ذهبيًا عاديًا، بل كان خاتمًا من معدن لا يشبه معادن الأرض، يُلمع بنبضٍ حيّ من الحب والطمأنينة.

وقال لها:

= كالوما... جئت من عالمٍ بعيد لا أفهمه تمامًا، لكني أفهمك. وهذه الرحلة، بكل ما فيها، كانت لتقودني إليك ولا شيء آخر. فهل تتزوجينني؟

كانت كالوما تنظر إليه بوجهٍ لم تملكه من قبل، فيه الطفلة التي فقدت والدها، والمرأة التي رأت العذاب، والطبيبة التي تؤمن بالعلم وبالغيبيات على حدٍّ سواء.

أجابته بثقة: نعم.

فابتسمت الغابة.

قبّلها، ووضع الخاتم في بنصرها، ووقفا معًا بين الأشجار التي تهز رؤوسها كما لو كانت تُبارك العهد.

ومن هناك، ذهبا سويًا إلى بيت الكاهن لاموسا، الذي استقبلهما بتلك النظرة التي يعرف بها من حملت روحه علامة النور. أشعل سبع شمعات، وقرأ تعويذة العبور، وبارك زواجهما، لتصبح الروابط بينهما شرعية ليس فقط أمام الناس، بل أمام الأرواح.

وهكذا، طُويت صفحة من الألم، وبدأت صفحة من السكينة. انتهت قصة مقتل السيد كونجاكو، تلك القصة التي كادت تلتهم اسم العائلة وتبتلع مستقبل كالوما كله. نجا الشرف. وعاد الحق.

بفضل سبيروزار...

وبفضل القبطان باروناج.

وبفضل حكمةٍ خفية، أزلية، لا يراها إلا من سار طويلًا في العتمة وخرج منها محمولًا بالنور.

كان يوم ميلادها.

اليوم ولدت من جديد.

لكنها لم تولد وحدها.

لقد وُلد معها عالمٌ من الأمل.

*****

بنّين

ميناء كوتونو.

بعد عدة أشهر من زواج سبيروزار وكالوما.

كانت الشمس قد بدأت تذوب في الأفق، تترك وراءها خيوطًا من ذهبٍ هادئ على سطح المحيط اللامتناهي. نسيمٌ مالح يداعب وجهي سبيروزار وكالوما وهما ينعمان بلحظة من السلام على متن يخت ميلافا، الذي صار بعد زواجهما مركباً لأحلامهما الصغيرة، ومخبأً عائمًا بعيدًا عن ضجيج العالم وأسئلته الثقيلة.

كالوما، التي بدا بطنها مستديرًا بوضوح، تضع يدها بحنو فوقه، كما لو أنها تهمس للمولود المنتظر بأسرار العالم. كان في عينيها بريق لم يره سبيروزار من قبل؛ مزيج من الأمل والدهشة، وعاطفة الأمومة التي بدأت تزهر في أعماقها.

كانا قد أبحرا من خليج صغير تحيط به أشجار النخيل، في رحلة بحرية معتادة، أصبحت طقسًا أسبوعيًا منذ أن عرّف سبيروزار زوجته إلى القبطان باروناج، الرجل الغامض الذي صار أقرب إلى أسطورة حية. يومها، لم تخفِ كالوما انبهارها بتقنيات يخت ميلافا الغريبة التي تفوق عصرها، ولا امتنانها العميق للقبطان الذي كان له اليد الطولي في تبرئة روح والدها من سحب الاتهام والعذاب.

قالت له ذلك اليوم:

= لقد منحتني أكثر من الحقيقة يا قبطان... لقد منحتني السلام...

فاكتفى العجوز بصمت حكيم، كأنما يعرف أن السلام لا يدوم طويلاً في هذا العالم.

ولم يكن يعلم أيٌّ منهم كم كان محقًا.

ففي خضم تلك الرحلة الهادئة، بينما كانت كالوما تسند رأسها على كتف

زوجها، انبثق من البعيد يختٌ آخر. بدا في البداية كنقطة بيضاء تسبح في الأفق، ثم راح يكبر شيئًا فشيئًا، كأنه قادم من وراء الستار ليُفسد المسرح الأخير.

انكمشت عينا سبيروزار.

شيء ما في طريقة اقتراب ذلك اليخت لا يشبه الصدفة، ولا يشبه البحر.

وحين اقترب بما يكفي، رأى فوق سطحه عدة رجال، بعضهم يحمل أسلحة خفيفة، وآخرون يراقبون عبر مناظير لامعة، وشرر العدائية يتطاير من عيونهم كماس كهربائي في جوٍّ رطب.

ثم جاء الصوت...

صوت بارد، آليّ، بلا نبرة إنسانية، عبر مكبّر صوت قوي:

يُطلب منكم التوقف فورًا. هذا تحذير أخير.

اتسعت عينا كالوما، وارتجف صوتها وهي تقول:

= من هم هؤلاء الرجال سبيروزار؟

كان سبيروزار شبه متأكد بأن هؤلاء هم من الاستخبارات الأمريكية وإن كان مندهشاً كيف وصلوا إليه هنا.

= إنهم غالباً من استخبارات بلادي ويريدون الإمساك بي وإعادتي إلى السجن مجدداً. أو أكثر من ذلك على ما أعتقد

= وهل ستستجيب لأوامرهم؟

= بالطبع لا، إن أمسكوا بنا فستكون نهايتنا.

بصوتٍ حازم ومشحون بالتوتر، أعطى سبيروزار أوامره للقبطان باروناج:

= استدر فورًا، عد بنا إلى الشاطئ بسرعة ... لقد عثرت المخابرات علينا و تطاردني بيخت آخر...

لم يتردد باروناج، بل نفّذ ببراعة تلك المناورة الحادّة، وأدار دفّة يخت ميلافا بكل مرونته الميكانيكية الاستثنائية، لينعطف مبتعدًا عن الخطر. اليخت الآخر حاول اللحاق به، لكن عبثًا... فميلافا كان تحفة تكنولوجية من عالم آخر، ينساب فوق الماء كضوءٍ لا يُمسك، يتسلل من بين أمواج البحر كأنه وهم.

دقائق مرت بدت كدهر. كلما ابتعدوا، زاد الصمت داخل كالوما، ولم تعد نظراتها إلى سبيروزار تحمل تلك الطمأنينة نفسها... بل كانت متوترة، مشبوهة، كأنها ترى أطيافًا تركض خلفهم من دون أن تُرى.

وصلوا إلى الميناء، وهبطا مسرعين من اليخت.

كالوما صعدت إلى مقعد الراكب في سيارتها وهي تلهث، بينما تولّى سبيروزار القيادة، محاولًا الانطلاق بأقصى سرعة باتجاه مدينة أويدا، بعيدًا عن الميناء الذي بات يبدو كفخٍ ينتظر أن يُغلق عليهم في أية لحظة.

لكن عيون الخطر لم تكن قد انطفأت.

من زاوية الميناء، حيث تتكدس الحاويات، كانت هناك سيارة رمادية قاتمة تدور كذئب ينتظر فريسته. فيها رجال صامتون، يرتدون نظارات داكنة، يحاكون هيئة القانون دون أن يبوحوا بانتمائهم لأي قانون.

وما إن لمحوهم حتى انطلقت السيارة خلفهم كالسهم، تمزق السكون، وتهدر خلفهم كوحشٍ لا يرحم.

نظر سبيروزار عبر المرآة، وتمتم بصوت لا يسمعه سواه:

= لقد وجدونا... أسرع مما توقعت.

لكن لم يكن بوسعه اللحاق بهم هذه المرة. فسيارة المطاردة كانت أسرع، وأحدث، وكأنها خُلقت لهذا اليوم بالذات. لحقتهم، وبدأت تقترب تدريجيًا، حتى تلامست السيارتان. طقطقة المعدن المتصادم، وصرير الإطارات، وداخل سيارة كالوما بدأ قلبها يخفق كطبول حرب.

ثم رأته. رجلًا يخرج نصف جسده من نافذة السيارة، يمسك مسدسًا أسود لامعًا، يلوّح به في الهواء.

صرخ الرجل:

= توقف فورًا! هذا هو التحذير الأخير!

لكن سبيروزار واصل القيادة، مصممًا ألا يسلّمهم زوجته، ولا طفله الذي لم يولد بعد.

وبدأت الطلقات...

طلقة أولى اخترقت الهواء، فصرخت كالوما.

طلقة ثانية حطمت مرآة الرؤية الجانبية.

ثم...

طلقة ثالثة، صامتة وموجعة، وجدت طريقها إلى ظهرها. لم تصرخ، بل أصدرت تنهيدة واحدة فقط، ثم بدأت عيناها تفقدان تماسكهما، وانهارت بجانب سبيروزار بينما بقعة دافئة حمراء أخذت تتسع بسرعة على ظهرها.

صرخ سبيروزار، وهو يوقف السيارة بشكل مفاجئ:

= توقفوا! سلمتُ نفسي! إنها مصابة! أرجوكم، كفى!

توقفت السيارة المطاردة ببطء، وترجّل منها الرجال بسرعة، بينما كان سبيروزار قد نزل بالفعل، يحمل جسد كالوما بين ذراعيه المرتجفتين، يجسّ نبضها، يصرخ باسمها، يهمس لها، يرجوها أن تفتح عينيها، لكن دون

جدوى.

جثا على الأرض، وأطلق صرخة:

= كالوما !

أحد الرجال أمسك به، وانتزع كالوما من بين ذراعيه.

لكن فجأة. حدث ما لم يكن بالحسبان.

وقف سبيروزار، وعلى وجهه ملامح لا تنتمي إلى هذا العالم.

نظر في عيني كالوما المغمضتين، وصوّب أفكاره نحوها.

الزمن تجمّد للحظة.

حدقتاه انكمشتا تمامًا كأنهما نقطتان سوداوان في فراغ أبيض.

وفجأة، ارتجف جسد كالوما، وأصدر إشعاعًا خافتًا.

نبضَ قلبها من جديد!

فتحت عينيها بدهشة، تنفست كأنها كانت في قاع بحرٍ سحيق، وتلمّست بطنها كأنها تبحث عن طفلها.

لكن في اللحظة نفسها، انطفأ ضوء سبيروزار.

سقط على الأرض. جثة هامدة. ساكنة.

ارتبك الرجال، ركض أحدهم لفحصه، حاول آخر إنعاشه، لكن بلا فائدة.

أما كالوما، فكانت تصرخ كالمجنونة، تبكي وتركض نحو جسده، تهز كتفيه بيديها المرتجفتين:

= من أنتم ؟! ماذا فعلتم بزوجي أيها المجرمون؟! لماذا ؟!

لكن لم يجبها أحد.

كان الليل قد بدأ يسدل ستاره،

وفي السماء... مرّت سحابة، على شكل قلب منكسر.

*****

في البرزخ مجدداً ...

فتح سبيروزار عينيه ببطء، كمن يستيقظ من عمق حلم ثقيل. كان الضوء في كل مكان. لا شمس تُرى، ولا مصدر واضح لذلك السطوع الغامر، لكنه كان محاطًا به، كمن وُضع في لبّ شعاع سماوي لا ينطفئ. لم يكن ثمة ظلال، ولا جدران، ولا أرض ملموسة تحت قدميه، فقط بياضٌ ممتدّ بلا نهاية، أشبه بصفحة لم يُكتب عليها شيء بعد.

عرف هذا المكان على الفور. لقد كان هنا من قبل مرتين، في لحظات بين النوم واليقظة، بين العقل والحس، بين الموت والحياة. وها هو يعود إليه من جديد... المكان الذي لا تحكمه قوانين الواقع، بل يطفو على حواف الإدراك.

وفجأة، ومن دون صوت مسبق، تشكّل أمامه كيان مألوف ... السيد ميدوسيز. لكن هذه المرة، لم يأتِ كابتسامة ودودة تسير فوق جسد شفاف، بل ظهر جامد القسمات، وجهه ساكن كقناع رخامي، لا أثر فيه لابتسامته المعتادة، ولا لوميض عينيه الذي كان يمنح المكان شيئًا من الطمأنينة الغريبة.

= سيد ميدوسيز، ما الذي حدث؟ هل أنا ميت؟

= أجل سبيروزار، لقد خالفت كلامي واستعملت قوتك الجديدة في بنين قبل أن ألقاك.

= لكنها كالوما سيد ميدوسيز؟

= لا ليست كالوما فقط، بل وطفلك أيضاً.

= وما الذي يعنيه ذلك؟

= إن قوتك الجديدة مصممة لإحياء أو إماتة روح واحدة في كل مرة، لكنك استخدمتها لإحياء روحين معاً، هما كالوما وطفلك.

= وما المشكلة في ذلك؟

= ذلك يعني أن الروح الثانية التي أحييتها وهي روح طفلك قايضتها بروحك أنت شخصياً.

= وهل سأعود للحياة مجدداً؟

= في حالة واحدة فقط وهي استثناء للعقد الذي بيننا.

= وهي؟

= أن تبتعد عن كالوما وأن يموت طفلك بالمقابل.

دهش سبيروزار من هذا الكلام.

= ولم ذلك؟

= إن قوتك الخارقة التي منحك إياها الله كانت مقابل أن تعمل بمفردك كبيدق لخدمته وتسخر وقتك بالكامل له، لكنك بزواجك من كالوما ثم حملها بطفلك خالفت ذلك وأصبحت إنسانا عادياً فانياً من جديد يعيش من أجل غاياته الشخصية، لذا انتهى الاتفاق بيننا وعدت إلى نقطة البداية عندما التقيتك أول مرة على كوكب كوليتوس، أي عدت ميتاً من جديد فأنت في النهاية أحييت أرواحاً لأجل غاياتك الشخصية وخالفت اتفاقنا الأول بالأساس.

فكر سبيروزار قليلاً ثم قال بحزم.

= إن كان هذا هو ثمن عودتي إلى الحياة إذاً فلا، لا أريد العودة مجدداً، فلا يمكنني الابتعاد عن كالوما ولا التضحية بطفلي سيدي، سأجعل حياتي قرباناً كي يحيا ابني.

= هذا قرارك سبيروزار.

ساد الصمت للحظات.

= ومن هم الرجال الذين لحقوا بنا؟

= إنهم مجموعة من المخابرات الأمريكية السرية والمخابرات في بنين

= وكيف وصلوا إليّ؟

= لقد أخطأت بذكر اسمك الحقيقي أمام الضابط موتيغو الذي كان يشعر بالغيرة الشديدة منك لحل قضية مقتل والد كالوما الغامضة في يومين في حين عجز هو عن حلها خلال أشهر طويلة حتى أغلق الملف ضد مجهول. ومنذ أيام قرأ على الشبكة العنكبوتية خبراً مفاده أن الولايات المتحدة الأمريكية وضعت جائزة مالية قيمة لمن يدلها على مكانك ولأن اسمك (سبيروزار) مميز تذكرك على الفور وقام بإخبارهم عنك على خلفية غيرته منك وطمعه بالجائزة. كانت تلك هي الهفوة التي تنتظرها المخابرات للإمساك بك أو بشكل أدق بالطبيب مورفين، حيث طالبت الولايات المتحدة الأمريكية من سلطات بنين تسليمك بصفتك سجين هارب من بلاده ووافقت الحكومة هناك بالطبع.

= توقعت ذلك، بالفعل كانت هفوة قاتلة، وهل ستصاب كالوما بأذى؟

= لا، فهم لا يريدون شيئاً منها. ستلد طفلك بعد أشهر وستسميه سبيروزار على اسمك. وستعود إلى الحياة الطبيعية تدريجياً.

= ويخت ميلافا والقبطان باروناج؟

= سيبقى اليخت ملكاً لكالوما ولابنك من بعد ذلك. وسيكون القبطان باروناج عوناً كبيراً لهما في المستقبل، لا تخش شيئاً ً إنها مسألة ساعات لا أكثر.

= مسألة ساعات؟

= بالطبع فالزمن هنا أبطأ من الزمن على الأرض وبنهاية اليوم الذي نعيشه الآن ستكون كالوما وابنك سبيروزار برفقتنا هنا حيث تكون السنوات قد مضت على الأرض.

= هذا مذهل.

ابتسم السيد ميدوسيز لأول مرة.

= بلى إنه كذلك، سبحان الله. بالمحصلة لقد كانت تجربتك مع القدرة الجديدة خلال السنوات الثلاثة الماضية مثيرةً بلا شك، من **الولايات المتحدة الأمريكية** وإحياء يانا ابنة الشرطي ديف، إلى **الرأس الأخضر** وإحياء القس فونسيكا، ثم **باكستان** وردع الإرهاب، وبعدها ميانمار وإنقاذ الراهب دينبا وأبضاً أتا ابنة الفضائي سولاس من كوكب باي. وأخيرا بنين وإنقاذ روح السيد كونجاكو المضطهدة ثم إحياء ابنته كالوما التي أصبحت زوجتك وإحياء طفلك معها من جديد.

ابتسم سبيروزار.

= بالفعل كانت تجربةً ممتعةً ومغامراتٍ مذهلةً. سأفتقدها وأفتقد يخت ميلافا والقبطان باروناج بلا شك !

ابتسم السيد ميدوسيز.

= والمورفين أيضاً أيها الطبيب مورفين.

= وما الذي سيحدث لجسدي في الأرض ...؟

= ستقوم المخابرات الأمريكية بتشريح جسدك لكشف السبب الكامن خلف قدراتك الخارقة بعد أن تسلمه لها سلطات بنين.

= وهل سيصلون إلى شيء؟

= إطلاقاً فهذه معجزة وستبقى معجزة للأبد. والآن تعال معي لنغادر هذا البرزخ ونتجه نحو العالم الآخر فوالداك سانشيز وإيستاس بانتظارك هنالك على أحر من الجمر.

*****

بنين / أويدا ...

بعد خمس سنوات 2036 م.

كان النهار في ذروته، والحديقة الخلفية لمنزل الطبيبة كالوما تزدهر بألوان الصيف: أشجار إفريقية باسقة تتعانق فروعها وتتهامس أوراقها، عشب ندِيّ

يلمع تحت الضوء برائحة لا مثيل لها، وتغريد طيور يعزف لحنًا بريئًا على أوتار النهار. لا خطر في الأفق، ولا ظلّ يشي بقدوم العتمة. الطفل سبيروزار، ذو السنوات الأربع، كان غارقًا في عالمه الخاص، يصنع طرقًا ترابية بين الزهور لسياراته الصغيرة، ويتحدث إليها كما لو كانت أصدقاءه الحقيقيين. عيناه المتّقدتان بالفضول، وملامحه البريئة، كانتا مرآة لعالم لم يفسده الخوف بعد.

لكن شيئًا في العشب تغيّر فجأة.

صوت خافت، كأن الهواء نفسه تغيّر لحنه. استدار الصغير، ليرى شيئًا يزحف بخفة، بانسياب غامض. كانت أفعى كوبرا، مهيبة، تتلوى خارجةً من بين الأعشاب الطويلة، كأنها تمزق الحديقة بخطٍ من الرعب الصامت. وقفت أمامه، شامخة، ملتفة حول نفسها، وغطاؤها يرتفع كراية حرب.

لم يتحرك سبيروزار. لم يصرخ. لم يهرب.

كأن الزمن تجمّد في تلك اللحظة.

حدّق الطفل في عيني الكوبرا الداكنتين، وشيء ما في داخله استيقظ. شيء لم يُسمّ من قبل، لم يُدرّس له في المدرسة، ولم تخبره به القصص. عيناه، الواسعتان كالبحر، انفتحتا بكاملهما، وتوسعت حدقتاه حتى غمر السواد ملامحه الطفولية.

وبينما استمرّ التحديق بين الكائنين، انتفض جسد الأفعى فجأة، كما لو ضربتها صاعقة غير مرئية. انقلبت على جانبها، اهتزّ جسدها الطويل مرة، ثم تجمّد. خمد بريق عينيها، وتوقفت أنفاسها إلى الأبد.

ظل سبيروزار واقفًا، لا يفهم ما حدث، لكنه يشعر بشيء في قلبه تغيّر. كأن قفلًا قد فُتح. وكأن شيئًا مظلمًا وعتيقًا، شيئًا لا يخص طفلاً في مثل عمره، قد استيقظ فيه.

منذ تلك اللحظة، لم يعد كما كان.

ومنذ تلك اللحظة، بدأت حكاية أخرى ومغامرات أخرى.

د. مورفين ...

المحتويات:

1. الجزء الأول: الصندوق الأسود للعين
2. الجزء الثاني: سارقات الرمال يحيين الآمال
3. الجزء الثالث: سافانت
4. الجزء الرابع: هيكل أتاكاما
5. الجزء الخامس: لعنة الفودو

